جامعة النجاح الوطنية
كلية الدراسات العليا

الموروث الأسطوري في تفسير ابن كثير

إعداد
مؤيد أحمد سعيد خلف

إشراف
أ. د. إحسان الديك

قدمت هذه الأطروحة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها بكلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية في نابلس، فلسطين.

2015م

الموروث الأسطوري في تفسير ابن كثير

إعداد

مؤيد أحمد سعيد خلف

نوقشت هذه الأطروحة بتاريخ **2015/10/13**م، وأجيزت.

أعضاء لجنة المناقشة	التوقيع
1. أ. د. إحسان الديك / مشرفاً ورئيساً	....
2. أ. د. خالد سنداوي / ممتحناً خارجياً	....
3. د. عودة عبد الله / ممتحناً داخلياً	....

الإهداء

إلى أبي وأمي

إلى زوجتي الحبيبة شروق

إلى أولادي الأعزاء: أوس وإياس وقصي، وقيس

إلى أساتذتي الكرام

إلى أستاذي الدكتور إحسان الديك، الذي أيقظ في نفسي خوض هذا المضمار

إلى زملائي الطلبة

إلى من يقدم القرآن العظيم على ما سواه

إلى العاملين في الذب عن حياض الإسلام، وإزالة شوائب العوالق

إلى كل باحث عن الحق والحقيقة

أهدي هذا العمل الأدبي

الشكر والتّقدير

الحمد لله على ما منّ به عليّ من طاقة في البحث، ورغبة عميقة في التفتيش والتمحيص في هذا المجال، وما وفّره لي من ظروف التمكين والتوفيق، وأسباب الصبر والمصابرة، فله من خلوص قلبي العرفان الجميل، والثناء الحسن.

كما أتوجه بالشكر الجزيل لزوجتي العزيزة، التي عملت على توفير المناخ المواتي للدراسة، في معترك البيت، الذي يموج بصخب أطفالي الصغار، وإلحاحهم بضرورة مشاركتي لحياتهم الغضة، بعيدا عن صرير الأقلام، وتقليب الصحف، وهم يرونني منهمكا، بعيدا عن مداعباتهم وملاعباتهم.

وأخص بالشكر الجزيل، الأستاذ الفاضل الدكتور إحسان الديك، الذي قدح فكرة هذا البحث في ذهني، على ما وجدت لديه من اهتمام بالغ بالموضوع، وعلى تشجيعه لي؛ للمضي قدما فيه، وعلى ما كان يبديه من ملاحظات قيمة، وآراء مقوِّمة.

وأشكر أعضاء لجنة المناقشة، الذين سيبذلون وسعهم في المقاربة والتصويب، خدمة للبحث، وتوجيها للباحث في التسديد والتجويد.

ولكم جميعا فائق الشكر وبالغ الامتنان

الإقرار

أنا الموقع أدناه، مقدم الرسالة التي تحمل العنوان:

الموروث الأسطوري في تفسير ابن كثير

أقر بأن ما اشتملت عليه هذه الرسالة إنما هو نتاج جهدي الخاص، باستثناء ما تمت الإشارة إليه حيثما ورد، وأن هذه الرسالة كاملة، أو أي جزء منها لم يقدم من قبل لنيل أي درجة أو لقب علمي أو بحثي لدى أي مؤسسة تعليمية أو بحثية أخرى.

Declaration

The work provided in this thesis، unless otherwise referenced، is the researcher's own work، and has not been submitted elsewhere for any other degree or qualification.

Student's name: اسم الطالب: مؤيد أحمد سعيد خلف

Signature: التوقيع:

Date: التاريخ: ١٣/١٠/٢٠١٥م

فهرس المحتويات

الموروث الأسطوري في تفسير ابن كثير

إعداد

مؤيد أحمد سعيد خلف

إشراف

أ. د. إحسان الديك

الملخص

يتناول هذا البحث الموروث الأسطوري في تفسير ابن كثير، وتكمن أهمية دراسة هذا الموضوع في أنه يكشف عن جوانب أسطورية، تُعدّ جزءا من تفسير القرآن العظيم، ويُبيّن مدى تشابه بعض مرويات التفسير، مع كثير من الأساطير والخرافات، لدى شعوب العالم القديم.

واقتضت طبيعة البحث أن يكون في مقدمة، وخمسة فصول، وخاتمة.

تعرض البحث في الفصل الأول، إلى تفسير ابن كثير، من حيث مصادره، والإسرائيليات التي تسللت إليه، فأرْدفَتِ الأساطير والخرافات إلى التفسير، وقدمتُ نبذة عن حياة ابن كثير، وظروف عصره، وعرّفتُ بمكانة تفسيره لدى العلماء، ومنهجه في تفسيره، وموقفه من الإسرائيليات، ورصدت مركب "أساطير الأولين" في القرآن الكريم، مستعرضا مفهومه في التفسير، الذي عنى مكتوبات الأوائل دون أن يعني الذم والردّ.

وعرض البحث في الفصل الثاني، لأساطير الخلق والتكوين، مبينا أساطير الكون، الذي بدأ من الظلمة، والعماء، والمياه الأولى، ثم خلق السماوات والأرض وانفصالهما عن بعضهما، وعظمة العرش والكرسي، واختصاصهما بالآلهة، ووجود البحر السماوي المحيط بالسماء والأرض، وجبل قاف الذي يحيط بالأرض، ويرفع قبة السماء عنها، والحوت نون الذي يحمل الأرض على تيار البحر المحيط، واللوح المحفوظ الذي يشمل كل الأقدار والمصائر إلى يوم القيامة، وتناولت أساطير خلق الإنسان، من خلال خلق آدم وحواء، وهابيل الراعي، وقابيل المزارع، واختلافهما حول زواج الفتاة الجميلة، والخضر الذي شرب من عين الحياة، فظل دائم الخضرة والخصب، وخلق إبليس أو الشيطان، الذي يصد الإنسان عن الخير، ويضاد آلهة النور.

وخصصت الفصل الثالث، لأساطير خرق العوائد الطبيعية، وعرضت لأسطورة الطوفان العظيم، الذي كان بقرار من الآلهة من أجل إفناء الجنس البشري عن الأرض، بسبب معصيتهم، ونجاة نوح عليه السلام لصلاحه، وقد أوحى الله له بصناعة الفلك، وتطرقت لطيور الأبابيل التي كانت طيورا غير عادية، وبمهمة ربانية، للدفاع عن بيت الله، حيث رمت الأعداء بحجارة من سجيل، وتناولت ناقة صالح التي نتجت من الصخر، وكانت بمواصفات أسطورية، جاءت من الله، تأييدا لرسوله الكريم، وصارت سببا في هلاك قوم ثمود، بعدما عقروها، وانتقلتُ إلى حية موسى، غير العادية، ذات الخوارق العجيبة، وقد لعبتْ دورا في تحقيق الحق وإبطال الباطل، وعرضتُ لما اكتنف الحية من دلالات متصارعة، وأتيت في البحث على مملكة سليمان الغرائبية، مُركِّزا على نملته المتكلمة بأحسن البيان، وعرضت لنطق الطير والحيوان في التفسير والأساطير.

وفي الفصل الرابع، تحدثت عن أساطير المسخ والتحويل، وشمل ذلك مسخ امرأة إلى كوكب الزهرة، وعنيت بالمرأة عشتار إلهة الحب والجنس والخصب، والزهَرة كوكبها المرموز، وبيّنتُ همّتها في غواية العشاق، وغدرها بهم، وعرضتُ لمسخ اليهود قردة وخنازير، مبينا أن سبب المسخ هو مخالفة الآلهة، واجتراح الذنوب، وأوردتُ نظائر لهذا المسخ في الأساطير، وأشرت لدلالات القردة والخنازير، ثم عرضت لمسخ إساف ونائلة صنمين، نتيجة معصية الزنا في الكعبة المشرفة، في موسم الحج الجاهلي، وتطرق البحث لبعض مراسم الحج، وأبعادها الأسطورية.

وأما في الفصل الخامس، فتناول البحث أساطير الرموز، خاصاً بالبحث القرْن، والثور والنسر والأسد، والعدد سبعة، وما يحمله كل رمز من دلالة مشبعة بالأسرار، وما يكتنفه من ارتدادات أسطورية قديمة، فوقفت على تجليات كل منها في التفسير، وفي الأساطير، كاشفا معانيها وتمثلاتها.

وتناولت في الخاتمة، أهم النتائج والتوصيات، التي أفضت إليها الدراسة.

المقدمة

في دراستي هذه: الموروث الأسطوري في تفسير ابن كثير، تناولت التصورات الأسطورية التي تسللت الى التفسير القرآني، من خلال تفسير ابن كثير، وأبرزتها، مقارنا إياها بالنصوص الميثولوجية للحضارات القديمة، كالسومرية، والبابلية، والمصرية، وأساطير العهد القديم، وكذلك أساطير المعتقدات الدينية قبل الإسلام، كالمندائية الصابئة، والزرادشتية، والغنوصية، وغيرها، ورصدت هذه الدراسة القواسم المشتركة بينها، مؤكدة وحدتها، ومدى التشابه بين نتاج الفكر الأسطوري الإنساني، في مراحله الزمنية والمكانية المتفاوتة، وكذلك برهنت على قدرة الدين على الاحتفاظ بالأساطير، وصيانتها من عوادي العقل المتطور، والمنطق العلمي.

إن رصد الأبعاد التفسيرية ذات المنشأ الأسطوري بالعرض والتحليل، والكشف عن تغلغلها في النسيج التفسيري، عبر الشرح والتأويل، وتفشّيها في المكون الثقافي لدى المفسرين، سيعود بالخير على محاولات التجديد الفكري، وإعادة النظر في التراث، خاصة وإن هذه المحاولات التجديدية تصنع معارفها متصلة بالتراث مرة أخرى، ومنغرسة في تربة الماضي بلا انفكاك، الأمر الذي سيجعل من هذه الدراسة مساهمة متواضعة، تتيح للمجددين الوقوف على المكونات الأسطورية والخرافية؛ مما يُمكّنُ من تحديدها، وعزل دخيلها عن جزء من التراث، يعدّ من أكثر المهمات في بناء فكر الأمة ووجدانها، ألا وهو التفسير القرآني.

هذا ولا أدعي أني أمسكت بجميع خيوط الأساطير والخرافات في تفسير ابن كثير، فحصرها يتطلب دراسة ضخمة، تخرج عن نطاق الوسْع المخصص لهذا البحث، وإنما تناولت بالدراسة ما عمّ منها، وظهر بشكل لافت، وأمكن إرجاعه إلى أصوله الأسطورية، أو نظائره المعرفية القديمة، دون ما تناثر أو تفكك في تضاعيف الأفهام الشروحية، والتأويلات التفسيرية.

لقد اخترت كتاب تفسير القرآن العظيم لابن كثير، موضوعا لدراستي في المجال الأسطوري، كوْنه من أفضل كتب التفسير، حسب أقوال العلماء قديما وحديثا، وعلى الرغم من

هذه الميزة لهذا التفسير، الذي تحرى فيه مؤلفه الاختصار، ونبذ المرويات المتهافتة، كونه عالم حديث وتاريخ، وتلميذا لشيخ الإسلام ابن تيمية، الذي عُرف عنه تصدّيه للبدع والأهواء، فإنه لم يبرأ من امتصاص الأساطير، ولم يسلم من الخرافات، فما بالنا مع كتب التفاسير الأخرى ؟!

وتضافرت لدي عوامل متعددة، حتى جعلت من هذا الاختيار رغبة غالبة، وإرادة متقدمة، فقد أدركت مدى ارتباط الأسطورة بالدين، وقد يُشرَب العجل في القلوب، والوحي مبين، فانصرفت إلى البحث في تفسير القرآن العظيم؛ حيث تتسلل الأسطورة من الوهم القديم، وتطوّف في المرويات حول النص المقدس، وتُقيم، وقد استأمَنتْ، فأمست في حصن مكين، فلعلني بدراستي أهزها، فتتساقط الأردية، وتتعرى للناظرين، كما أن ندرة الدراسات في هذا المسار، دفعتني لطرق هذا المجال، حتى يغدو للبحث قيمة واعتبار، وحفزني بذل الجهد في علوم الدين، الذي يضاعف الأجر والثواب، خاصة مع نية الإصلاح، وخدمة المسلمين، وهذا العمل المتواضع يندرج في الذبّ عن روح الإيمان الأصيل، من خلال تبيان الخرافات والأساطير، فرغبت في الجزاء المضاعف، عند رب العالمين.

ويمكن تحديد مشكلة البحث فيما يأتي:

- هل من الممكن أن تتواجد الخرافات والأساطير في تفسير ابن كثير؟
- هل تتستر تحت التفسير أبعاد ميثولوجية؟ ما موقف ابن كثير من الإسرائيليات؟
- ما دلالة (أساطير الأولين) في القرآن الكريم؟
- هل كان للعرب الجاهليين أساطير وخرافات؟
- لماذا تلتقي الأسطورة بالدين؟
- كيف للعقل أن ينتج الأساطير ويؤمن بها؟
- أيجوز للأساطير أن تكون حقا أم هي باطل مطلقا أم يمكن أن تخلط صالحا وآخر سيّئا؟

- ما هي أساطير الخلق والتكوين في تفسير ابن كثير؟ أيمكن خرق الظواهر والعوائد بغير الأساطير؟

- هل وردت أساطير المسخ والتحويل في التفسير؟

- كيف وظّفتْ الرموز الأسطورية في سياقات التفسير؟

وتتمثل أهمية هذه الدراسة، في أنها تُلقي الضوء على الموروث الأسطوري في تفسير القرآن العظيم، وتكشف بعضا من التصورات الأسطورية، التي مازجت التفسير، متسللة من الأمم السابقة، كما تحدد موضوعاتها ومصادرها، وتسبر غورها، وتبين عن تجلّياتها.

إن هذه الدراسة ترصد الموروث الأسطوري في جميع تفسير ابن كثير، الذي بلغ عدد صفحاته قريبا من ثلاثة آلاف وخمسمائة، وهي بذلك سابقة في هذا الغمار، حيث أتبعت في هذه الدراسة المناهج البحثية الآتية:

- المنهج الاستقرائي: وأهدف به، إلى استخراج الظواهر الأسطورية والخرافية، من نصوص تفسير ابن كثير.

- المنهج التحليلي: اعتمدته لتحديد المعاني الميثولوجية، وتحليلها.

- المنهج الوصفي: حينما أصف الموروث الأسطوري، وأجمع المعلومات ذات العلاقة.

- المنهج التاريخي: أهتم من خلاله برصد الأساطير المشابهة، باستحضارها من ماضيها السابق في معتقدات الامم القديمة، قبل ظهور الإسلام.

ومع كل ذلك أتْبعُ طريقة البحث المقارن؛ لغرض تحديد أوجه التشابه والاتفاق.

لقد طالعت العشرات من الكتب، وتصفّحت مواقع الانترنت، ونقّبت في محركات البحث الإلكترونية؛ لعلي أعثر على كتاب، أو بحث يتخصص في الموروث الأسطوري في تفسير القرآن عامة، علاوة عن الاقتصار على تفسير ابن كثير خاصة، إلا إنني لم أجد إلى ذلك سبيلا،

وما وجدته، مجرد شذرات متناثرة في تضاعيف بعض الكتب، أو مجرد بحث ينهض لغير ما قصدته في بحثي هذا، ككتاب العجيب والغريب في كتب تفسير القرآن، لوحيد السعفي؛ بما لا يجعلها بحثا متخصصا في مجال هذه الدراسة.

وقسمت الدراسة إلى خمسة فصول، وخاتمة، أما الفصل الأول **(تفسير ابن كثير)**، فجعلته تمهيدا للبحث، وتناولت فيه مصادر التفسير وروافده، وتحدثت عن الإسرائيليات في التفسير، وقدّمت ترجمة مقتضبة لابن كثير، وظروف عصره، وعرفت بتفسير ابن كثير، وأبنت عن منهجه الذي اتبعه في التفسير، وموقفه من الإسرائيليات، ثم استقصيت مفهوم تركيب: "أساطير الأولين" في القرآن الكريم.

وفي الفصل الثاني، تناولت **(أساطير الخلق والتكوين)**، متحدثا عن أساطير الكون، من خلال السماوات والأرض، والعرش والكرسي، والبحر السماوي، وجبل قاف، والحوت نون، واللوح المحفوظ، وعرضت أساطير خلق الإنسان، متمثلا في آدم وحواء، وهابيل وقابيل، والخضر، ثم وقفت مليا عند أسطورة إبليس أو الشيطان.

وأما الفصل الثالث، الموسوم بـ**(أساطير خرق العوائد الطبيعية)**، فعرضت فيه أساطير كل من؛ الطوفان، وطيور الأبابيل، وناقة صالح، وحية موسى، ونملة سليمان، راصدا التصورات التي يقدمها التفسير، مقارنا إياها بنظائرها في المعارف الأسطورية القديمة.

ثم عرضت في الفصل الرابع **(أساطير المسخ والتحويل)**، فتحدثت عن مسخ امرأة إلى كوكب الزهَرة، ومسخ اليهود قردة وخنازير، ومسخ إساف ونائلة صنمين، معللا أسباب المسخ ودلالاته.

وتطرقت في الفصل الخامس إلى **(أساطير الرموز)**، متناولا القرْن، والثور والنسر والأسد، والعدد سبعة، عارضا في كل منها تجلياتها الأسطورية، ورموزها المعرفية، وأسرارها القديمة.

يلي ذلك **الخاتمة**، وقد اشتملت على النتائج والتوصيات، التي خلصت إليها الدراسة، ولا أخفي ضخامة الصعوبات التي واجهتني في أثناء البحث، نظرا لكونه بكرا في مجاله، مما تطلب مني سعة الاطلاع، وبالغ التفحيص، وسبر الأغوار، للتنقيب عن الأخبار، ورواسب الأفكار الأسطورية، ورصد ما تناثر في تضاعيف المراجع والمصادر، مع ضيق الوقت، وجسامة المهمة، فألزمني ذلك الجهد الدؤوب، والعمل المضني.

ولا أزعم كمال بحثي هذا، وحسبي أنني بذلت الوسع، واستنهضت الطاقة، لعله يكون عتبة الوالجين هذا المضمار، فيوفوا ما نقص، ويقيموا ما اختلّ، علما أن هذا المجال خصبٌ للبحث، ممتع للعقل، مؤنس للوجدان، وواجبي بعد حمد الله سبحانه، تقديم الشكر لأستاذي الفاضل، **الدكتور إحسان الديك**، الذي أيقظ لديّ الهمة لخوض هذه المهمة، والذي ما فتئ يقارب ويصوب... بحرص الأب الرؤوم، فجزاه الله خير الجزاء.

الفصل الأول

تفسير ابن كثير

مصادر التفسير

الإسرائيليات في التفسير

ترجمة ابن كثير

تفسير ابن كثير

منـهج ابن كثير في التفسير

موقف ابن كثير من الإسرائيليات

مفهوم "أساطير الأولين" في تفسير ابن كثير

الفصل الأول

تفسير ابن كثير

مصادر التفسير

أتى القرآن الكريم على ذكر أخبار أمم سابقة، وعلى قصص من الأولين، كما تناول أحداثا غابرة، وشخصيات ماضية، وهو بذلك يصدّق الكتب المقدسة لدى الأمم الأخرى، أو يرد على معتقدات سائرة، الأمر الذي يتطلب ملاءمة للذاكرة، وتفتيشا في معارف الآخرين، وهو في كل ذلك قول فصل، موجز البيان، كأنما يخاطب ألبابا تعي الأخبار السابقة، وتسمع عن قصص الفائتين؛ فتـُنزله منزل الحكم العدل، وتحكمه أحكام الواثقين، وترفعه فيصلا بين معارف المتناقضين؛ لذلك مسّت الحاجة لتفسير الموجز، وعرض التفصيل، وذكر بيئة المحكم، وشرح ظروف الإيراد، وتأويل الاختصار، والتعريف بالأحداث والشخصيات في نطاقها البعيد، ومجرياتها السابقة، ومعارفها المطوية، وبذلك تسللت معتقدات الأولين في التفسير، وقاربت النص القرآني إلى أفهام المتلقين.

ومع تباين الداخلين إلى الإسلام، تنوعت المقاربات، وتباينت التأويلات، وتفاوتت الأفهام، وهي في كل ذلك تنتح من ثقافاتها السابقة، وتنثني لمواجيدها الأولى؛ بشعور أو لا شعور، وتتناغم مع النص المقدس؛ بفكرٍ أشرِب معارف قبلئذٍ، وعدّها حقائق وقتذاك، ووجد في القرآن إشاراتها، أو مجامع لبها، فطفق في ضوئها ينشئ المطولات، ويقدم التصورات، متكئا على النص القرآني، وسابحا في بحار المعارف المتوارثة، يعقد المناسبات بينهما، بين الجديد والقديم، ويقيم القِران بعَقد شرعيّ، فآيات الله "في الآفاق، وفي الأنفس، وسننه في الكون والمجتمع، وأحداثه في التاريخ، ومصائر الأمم كلها، موضع للذكرى والتذكر، مثل آياته المنزلة في كتبه على رسله"[1].

([1]) القرضاوي، يوسف: **العقل والعلم في القرآن الكريم**، ط1، مكتبة وهبة، القاهرة، 1996م، ص55

لقد دعا الله تعالى للتدبّر في كتابه؛ حيث قال: "أفلا يتدبرون القــرآن أم علــى قلــوب أقفالها"[1]، وبقي التدبر مشرع الأبواب... فلا يحدّه حدّ، ولا يمنعه مانع، ولا يوقفه زمن، ولــم يرِدْ عن النبي الكريم أن قدّم تفسيرا جامعا مانعا لآيات الذكر الحكيم، ولا عن صحابته الكــرام، فلم "يُنقل إلينا عنهم تفسير القرآن، وتأويله بجملته"[2].

وينقل بدر الدين الزركشي عن القاضي شمس الدين الخُوَيِيّ قوله: "أما القرآن فتفســيره على وجه القطع لا يُعلم إلا بأن يسمع من الرسول عليه السلام، وذلك متعذر إلا في آيات قلائل"[3]، كذلك يقول محمد الذهبي: "إن ما نقل عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وعن الصحابة من التفسير، لم يتناول جميع آيات القرآن، وإنما فسروا ما غمض فهمه على معاصريهم، ثم تزايــد هذا الغموض -على تدرج- كلما بعد الناس عن عصر النبي صلى الله عليه وسلم"[4].

ومن شأن ذلك أن يُترك الباب مشرعا، أو مواربا على أقل احتمال؛ ليُلقي القُصاص إلى الناس "الكثير من الإسرائيليات والخرافات والأباطيل، وقد تلقفها الناس منهم؛ لأن مــن طبيعــة العوام الميل إلى العجائب والغرائب"[5]، الأمر الذي جعل الدكتور محمد عجينة ينتهي إلى قوله: "وخلاصة القول، إن الأساطير قد مازجت فهم النص القرآني من بعض الأوجه"[6].

وإن كان لا يعنيني في بحثي هذا، إن كان لهذه المدخولات قيمة دينيــة أم لا، أو أنهــا صحيحة السند إلى الرسول الأمين، أو إلى صحابته الكرام، أم مختلقة عليهم، ولكنها ذات قيمــة علمية للبحث... تكشف عن ثقافة ما، وتؤكد تلاقحا فكريا، وتحقق تأثيرا متبــادلا، وفــي هــذا السياق يقول أحمد أمين عن المروي منها: "له دلالته العلمية من حيث مقدار اتصال المســلمين

---

(1) سورة محمد، الآية:24

(2) الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله: **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبــراهيم، دار التــراث، القاهرة، ج1، ص15

(3) السابق، ص16

(4) الذهبي، محمد حسين: **التفسير والمفسرون**،ط1، دار الكتب الحديثة، القاهرة، 1961م، ص100

(5) أبو شهبة، محمد بن محمد: **الإسرائيليّات والموضوعات في كتب التفسير**،ط4، مكتبة الســنة، القــاهرة، 1408هـــ، ص89

(6) عجينة، محمد: **موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالتها**، ط1، دار الفارابي، بيروت، 1994م، ص88

بأهل الكتاب، ومن حيث دلالته على ما كان يفعله من أسلم من يهود ونصارى، من إدخال ما كان يشغل رءوسهم قبل اسلامهم – من الحديث والتفسير – فلم يكن الموضوع مجرد خيال، أو وهم، خلق خلقا، بل له أساس ما، يهم العالم والباحث درسه، وله قيمته الذاتية، وإن لم تكن له قيمته الإسنادية"[1].

ومع أن هذه المرويات، تُشكل إحراجا للباحث الإسلامي المعاصر، في عصر التقدم العلمي والمعرفي، إلا إنها لم تكن كذلك فيما سلف؛ ولذا تجدها في أكثر كتب التفسير اعتمادا، كتفسير ابن كثير، وغيره، من مثل: "ما روي في عمر الدنيا من الإسرائيليّات، وأن عمرها سبعة آلاف سنة، ومثل: ما روي في بدء الخليقة، وأسرار الوجود، وتعليل بعض الظواهر الكونية، مثل: الرعد، والبرق، والخسوف والكسوف، وبرودة مياه الآبار في الصيف، وحرارتها في الشتاء، ومثل: ما روي في تفسير (ق~)، وأنه الجبل المحيط بالأرض، وتفسير قوله تعالى: (ن~)، وأنه الحوت الذي على ظهره الأرض، وما روي من قصص الأنبياء والمرسلين من إسرائيليات باطلة لا تليق بمقام الأنبياء، وعصمتهم، إلى نحو ذلك، وما أكثره في كتب التفاسير"[2].

"وقد اعتمد المفسرون في فهمهم لكتاب الله تعالى على ما جاء في كتاب الله نفسه، وعلى ما رووه عن الصحابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى ما رووه عن الصحابة في تفسيرهم أنفسهم، وعلى ما يفتح الله به عليهم من طرق الاجتهاد، والنظر في كتاب الله تعالى، وقد روت لنا كتب التفسير كثيرا من أقوال هؤلاء التابعين في التفسير، قالوها بطريق الرأي والاجتهاد، ولم يصل إلى علمهم شيء فيها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو عن أحد من الصحابة"[3].

ولا يعني النقل والإسناد صحة النسب، بالقدر الذي يكشف عما يجول في الفكر؛ ليتموضع صداه في المنقول، "ومعلوم أن المنقول في التفسير أكثره كالمنقول في المغازي

([1]) أمين، أحمد: **ضحى الإسلام**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 2003م، ج2، ص143

([2]) ابو شهبة، محمد بن محمد: **الإسرائيليّات والموضوعات في كتب التفسير**، ص5

([3]) الذهبي، محمد حسين: **التفسير والمفسرون**، ص99

والملاحم، ولهذا قال الإمام أحمد: ثلاثة ليس لها إسناد: التفسير والملاحم والمغازي"[1]، فجاءت منقولاتهم "تشتمل على الغث والسمين، والمقبول والمردود"[2]، وصار "التفسير فضاء مناسبا للوضع، وكثرت فيه الرواية حتى اقترن بالقصّ، وارتبط بالملاحم والمغازي، وبات مثلها منبتّا لا أصل له"[3].

وهو بذلك عرضة للدخيل، يأخذ بالزيادة كلما اتسعت موارد الثقافة للشعوب، او تنوعت الأقوام الداخلة إلى الإسلام، وقد كان الجامعون لتفسير القرآن العظيم على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، " نفراً معدودين، وشرذمة قليلين، فألقى الصحابيّ ذلك البعض الى تابعه؛ ولعل ذلك التابعيّ، لم يجتمع بصحابيّ آخر، يكمل له التفسير، أو اجتمع بمن لا زيادة عنده على ما عنده عن الصحابيّ الذي أخذ عنه، فاقتصر عليه، وشرع يكمل تفسير القرآن باجتهاده، استنباطا من اللغة تارة، ومن السنة تارة ثانية، ومن نظير الآية المطلوب تفسيرها من القرآن تارة ثالثة، ومن مدارك أخَر، رآها صالحة لأخذ التفسير منها: كالتاريخ، وأيام الأمم الخالية، والقضايا الإسرائيليات، ونحوها؛ فاتسع الخرق، وكثر الدخل في التفسير، حتى آل الأمر الى الأقوال الكثيرة، فتفعل كل طبقة من المفسرين كفعل التي قبلها، من زيادة الوجوه والأقوال والاختيارات"[4].

الإسرائيليّات في التفسير

لقد ساق الله سبحانه في كتابه العظيم أخبار الأمم السابقة، فقال عز وجل: "لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه"[5]، وما كان لأكثر العرب أن يستطيعوا معرفة تلك الأخبار؛ "مما أدى إلى أن يلجؤوا – مضطرين – إلى أهل

([1]) ابن تيمية، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم: **مقدمة في أصول التفسير**، تحقيق: عدنان زرزور،ط3، دار القرآن الكريم، بيروت، 1979م، ص58-59

([2]) ابن خلدون، عبد الرحمن: **مقدمة ابن خلدون**، دار الفكر، د. ت.، ص439

([3]) السعفي، وحيد: **العجيب والغريب في كتب تفسير القرآن**، ط1، الأوائل، دمشق، 2006م، ص31

([4]) الطوفي، سليمان بن عبد القوي: **الإكسير في علم التفسير**، تحقيق: عبد القادر حسين، مكتبة الآدب، القاهرة،1977م، ص36

([5]) سورة يوسف، الاية:111

الكتاب ليستفسروا منهم عن تفصيلات حكايات الأمم الماضية، وخاصة الذين أسلموا منهم"[1]، وصارت "الإشارة القرآنية الخاطفة... عالما كاملا لمخيال لا حدود له، يستمد عناصره من الموروث الثقافي العربي والأعجمي، الإسلامي والمسيحي واليهودي، المحلي والكوني"[2].

"والسبب في ذلك أن العرب لم يكونوا أهل كتاب، ولا علم، وإنما غلبت عليهم البداوة والأمية، وإذا تشوقوا إلى معرفة شيء مما تتشوق إليه النفوس البشرية في أسباب المكونات، وبدء الخليقة، وأسرار الوجود؛ فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم، ويستفيدونه منهم، وهم أهل التوراة من اليهود والنصارى... وهؤلاء مثل كعب الأحبار، ووهب بن منبه، وعبد الله بن سلام، وأمثالهم، فامتلأت التفاسير من المنقولات عندهم"[3].

كما كانوا "إذا سمعوا إشارة إلى بدء الخليقة طلبوا بقية القصة، وإذا تليت عليهم آية فيها إشارة إلى حادثة لبني(إسرائيل) لم يقتنعوا إلا باستقصائها. وكان الذي يسد هذا الطمع، هو التوراة، وما علق عليها من حواش وشروح، بل وما أدخل عليها من أساطير، وقد دخل بعض هؤلاء اليهود في الإسلام فتسرب منهم إلى المسلمين كثير من هذه الأخبار، ودخلت في تفسير القرآن، يستكملون بها الشرح، ولم يتحرج حتى كبار الصحابة، مثل ابن عباس من أخذ قولهم"[4].

ولماذا يتحرجون من فعلهم هذا؟! وقد أسندوا شرعيّة بقول رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام، كما جاء في البخاري: "حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج"[5]، ويعقب ابن حجر في شرحه على الحديث قائلا: "أي لا ضيق عليكم في الحديث عنهم؛ لأنه كان تقدم منه صلى الله عليه وسلم الزجر عن الأخذ عنهم، والنظر في كتبهم، ثم حصل التوسع في ذلك، وكأن النهي

([1]) الحاجي، محمد عمر: **موسوعة التفسير قبل عهد التدوين**، ط1، دار المكتبي، دمشق، 2007م، ص171

([2]) السعفي، وحيد: **العجيب والغريب في كتب تفسير القرآن**، ص45

([3]) ابن خلدون، عبد الرحمن: **مقدمة ابن خلدون**، ص439

([4]) أمين، أحمد: **فجر الإسلام**، ط10، دار الكتاب العربي، بيروت، 1969م، ص201

([5]) العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر: **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1989م، ج6،ص614

وقع قبل استقرار الأحكام الإسلامية، والقواعد الدينية؛ خشية الفتنة، ثم لما زال المحذور وقع الإذن في سماع الأخبار التي كانت في زمانهم من الاعتبار"[1].

وقد نقل أكثر المفسرين مرويات في التفسير والحديث، عمّن عُرِف برواية الإسرائيليات، ومن أشهر هؤلاء الرواة:

- تميم الداري: كان نصرانيا، وكان يلمّ بمعارف الأمم السابقة، وهو أول من قصّ عن الأولين بإذن من عمر بن الخطاب رضي الله عنه[2].
- عبد الله بن سلام: وقد كان من أحبار اليهود، وأسلم عند قدوم النبي الكريم إلى المدينة[3].
- عبد الله بن عمرو بن العاص: قيل: إنه تلميذ لكعب الأحبار، وكان له زاملتان من كتب أهل الكتاب أصابهما يوم اليرموك[4].
- عبد الملك المعروف بابن جريج: أصله رومي نصراني، يروي عنه المفسرون، ويُكثر الطبري الرواية عنه في تفسيره، ولم يُجمع على توثيقه، وإن كان أكثر العلماء وثقه[5].
- محمّد بن السائب الكلبي: كان يهودي النزعة، وكان من أتباع عبد الله بن سبأ اليهودي، وقد أكثر من الروايات في التفسير والحديث[6].
- محمّد بن مروان السُّدي: يكفيه تعريفا بأنه تلميذ الكلبي اليهودي السبئي الكذاب[7].
- مقاتل بن سليمان: متهم ومجروح لدرجة أنه وصف بالدجال، والكذاب، والوضاع، ولكن قيل: إن الشافعي يقول: الناس عيال بالتفسير على مقاتل، وابن المبارك يستحسن مائدته التفسيرية، بينما بعضهم استحل دمه[8].

([1]) العسقلاني، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، ص617

([2]) ينظر: الذهبي، محمد السيد حسين: **الإسرائيليات في التفسير والحديث**، الأزهر، القاهرة، 2008، ج2، ص71-72

([3]) ينظر: أبو شهبة، محمد بن محمد: **الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير**، ص97

([4]) ينظر: الذهبي: **الإسرائيليات في التفسير والحديث**،ج2، ص59-60

([5]) ينظر: السابق، ص100-102

([6]) ينظر: السابق، ص97-98

([7]) ينظر: السابق، ص109

([8]) ينظر: السابق، ص104-109

- كعب الأحبار: يهودي، كان إسلامه في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وحسب رواية البخاري؛ فإنه أصدق هؤلاء المحدِّثين عن أهل الكتاب، وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب، ولكن الشارح للحديث ابن حجر فهم الرواية على أنه صادق ثقة[1].

- وهب بن مُنبّه: "كان من أبناء فارس، كثير الاطلاع على الكتب القديمة"[2]، وثّقه الجمهور، وخالفهم الفلاس فضعّفه، ولكن البخاري وثقه، وروى عنه، وقد نُقل عنه إلى كتب التفسير كثير من الاسرائيليات[3].

وما إن تطالع تفسيرا من تفاسير القرآن، إلا وتجد أسماء هؤلاء بارزة حاضرة بكل قوة، فهذا ابن كثير مع شدة تحفظه على كعب الأحبار، ووهب بن منبه، وقوله: "سامحهما الله تعالى فيما نقلاه إلى هذه الأمة من أخبار بني إسرائيل، من الأوابد والغرائب والعجائب؛ مما كان، ومما لم يكن، ومما حُرِّف وبُدّل ونسخ"[4]؛ مع قوله هذا فتفسيره يطفح بالمنقولات عنهم.

وفي أحسن الأحوال، يمكن تحديد موقف العلماء من مرويات الإسرائيليات؛ فيما يتجلى في موقف ابن تيمية، الذي قال: "المنقول عن كعب ووهب ومحمد بن اسحاق، وغيرهم، ممن يأخذ عن أهل الكتاب؛ فهذا لا يجوز تصديقه، ولا تكذيبه إلا بحجة"[5].

ويزيد موقفه تفصيلا بقوله: "هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد، لا للاعتقاد، فإنها على ثلاثة أقسام، أحدها: ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق، فذاك صحيح، والثاني: ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه، والثالث: ما هو مسكوت عنه، لا من هذا القبيل، ولا من هذا القبيل، فلا نؤمن به، ولا نكذبه، وتجوز حكايته"[6].

([1]) ينظر: ابن حجر: **فتح الباري**، ج13، ص413

([2]) الحاجي، محمد عمر: **موسوعة التفسير قبل عهد التدوين**، ص277

([3]) ينظر: أبو شهبة: **الإسرائيليات والموضوعات**، ص105

([4]) ابن كثير، ابو الفداء إسماعيل: **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق: حامد أحمد الطاهر، ط2، دار الفجر للتراث، القاهرة،2010م، المجلد3،ص590

([5]) ابن تيمية: **مقدمة في أصول التفسير**، ص56-57

([6]) السابق، ص100

والمحصلة... تجوز حكايته، وللحكاية ما لها في النفوس والعقول، سواء راقبنا اعتقادنا أم لم نراقبه، كما ليس للجواز حدود، وبه هجمت المرويات على التفسير، واستفحلت، وتعشقتها المعرفة، وتضخمت، وبات بعض الفهم مكرورا لثقافات توراتية، وترجيعا لمسطورات أوليـــة، واستنساخا لتصورات سابقة، اتخمت بها كتب التفسير، وأُشربتها أجيال بعد أجيـــال، واحتفـــت بأصدق الحديث كتاب الله؛ فاستأمنت، وباتت من التراث المقدس، يمتصها علماء الخلـــف عـــن السلف، ويتشبعها اللاحق من السابق، ونكرانها نكران الجواز، وتحطيمها تحطيم الإسناد، وردها ردّ الثقات، والاقتراب منها ابتعاد عن العقل والعلم والمنطق، والابتعاد عنها ابتعاد عن الســـلف والقداسة والاستقامة، وما الاقتراب منها على المتبع إلا بعزيز، وما الابتعاد عنها بمستطاع.

وأما تسمية المرويات بالإسرائيليات جملة، وفيها ما فيها من غير الإسرائيليات، من مثل: قصص ثمود، وعاد، وشعيب، وأهل الرس، ولقمان، وغير ذلك[1]؛ فإنما هو على وجه التغليب؛ حيث يقول فان فولتن: "يطلق علماء المسلمين كلمة إســـرائيليات علـــى جميـــع العقائـــد غيـــر الإسلامية، ولا سيما تلك العقائد والأساطير التي دسها اليهود، أو النصارى، في الدين الإسلامي، منذ القرن الأول الهجري"[2]، وهو ما أكده نعناعة، وغيره، بقوله: "اسم الإسرائيليات ليس على جهة الحقيقة، وإنما هو من قبيل التغليب"[3]، وحتى الإسرائيليات، تبين بفضل الدراسات المقارنة للأديان، أنها "ضاربة في قِدم ثقافات أخرى، احتك بها اليهود اضطرارا في هجـــرتهم الدائمـــة، بعضها فارسي، وبعضها بابلي، وبعضها مصري قديم، ثم تبين أن ذلك البعض الفارسي، مأتـــاه هندي من الفيدا وآدابها، وذلك البابلي سومري عريق، وذلك المصري إفريقي أو يوناني"[4].

([1]) ينظر: اللاحم، سليمان بن إبراهيم: **منهج ابن كثير في التفسير**، ط1، دار المسلم للنشر والتوزيع، الريـــاض، 1999م، ص 334

([2]) فلوتن، فان: **السيادة العربية والشيعية والإسرائيليات في عهد بني أمية**، ترجمة: حسن إبراهيم حســـن،ط1، مطبعـــة السعادة، مصر،1934م، ص109

([3]) نعناعة، رمزي: **الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير**، ط1، دار القلم، دمشق، 1970م، ص74

([4]) السعفي، وحيد: **العجيب والغريب في كتب تفسير القرآن**، ص145

ترجمة ابن كثير

هو "الحافظ الكبير عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضَوء بن كثير بن زرع البُصْرَويّ ثم الدمشقي الفقيه الشافعي"[1].

وصفه الذهبي، فقال: "الإمام الفقيه المحدِّث الأوحد البارع... سمع مني، وله حفظ ومعرفة"[2]، "ولد سنة سبعمائة أو بعدها بيسير"[3]، و "مات في شعبان سنة 774(هـ)"[4]، ودفن "بمقبرة الصوفية عند شيخه ابن تيمية"[5].

وقد نشأ في " دمشق وسمع من ابن الشحنة، وابن الزراد، واسحاق الآمدي، وابن عساكر، والمزي، وابن الرضي، وطائفة (أخرى)، ولازم المزي، وقرأ عليه تهذيب الكمال، وصاهره على ابنته، وأخذ عن ابن تيمية؛ ففتن بحبه، و امتحن لسببه، وكان كثير الاستحضار، حسن المفاكهة، سارت تصانيفه في البلاد، في حياته، وانتفع بها الناس بعد وفاته"[6].

"وصنّفَ في صغره كتاب "الأحكام على أبواب التنبيه"، والتاريخ المسمى "بالبداية والنهاية"، و"التفسير"، و"كتابا في جمع المسانيد العشرة"، واختصر "تهذيب الكمال"، وأضاف إليه ما تأخر في "الميزان"، سمّاه "التكميل"، و"طبقات الشافعية"، و"مناقب الإمام الشافعي"، وخرّج الأحاديث الواقعة في "مختصر ابن الحاجب"، و"سيرة" صغيرة، وشرع في أحكام كثيرة حافلة، كتبَ منها مجلدات إلى الحج، وشرح قطعة من "البخاري"، وقطعة كبيرة من "التنبيه""[7].

([1]) ابن العماد، شهاب الدين أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري: **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، تحقيق: محمود الأرناؤوط، ط1، دار ابن كثير، بيروت، 1992م، مجلد8، ص397

([2]) الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد: **المعجم المختص بالمحدّثين**، تحقيق: محمد الحبيب الهيلة، ط1، مكتبة الصدّيق، المملكة العربية السعودية، 1988م، ص74-75

([3]) العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر: **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، دار الجيل، بيروت، 1993، ج1، ص374

([4]) السابق، ص374

([5]) ابن العماد: **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، م8، ص399

([6]) العسقلاني، ابن حجر: **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، ج1، ص374

([7]) الداوودي، محمد بن علي: **طبقات المفسرين**، دار الكتب العلمية، بيروت، ج1، ص112

لقد شهدَت الفترة التي عاش فيها ابن كثير، أحوالا مضطربة، سياسيا واجتماعيا، وكانت تالية لمخاطر الحملات الصليبية والمغولية، لبلاد الإسلام، وسقوط الخلافة العباسية، وعدم استقرار الحكم بين المماليك أنفسهم[1]، بين تآمر وقتل وانحلال خلقي، في أواخر ما يعرف بعهد المماليك البحرية[2].

إلا إن هذا العصر شهد ازدهارا معرفيا، وتشجيعا للعلم والعلماء، "وقد تمثّل هذا النشاط بكثرة دور التعليم، التي شملت كثيرا من المساجد والمدارس والخوانق، في مصر والشام، وبكثرة المؤلفات في سائر العلوم، وتعدد المجتهدين والحفاظ، الذين برزوا في كثير من العلوم، كشيخ الإسلام ابن تيمية، والحافظين؛ المزي والذهبي، والعلامة ابن قيم، والحافظ ابن كثير، وغيرهم، وقد امتازت هذه الفترة بحرية الفكر، والبحث العلمي، وبالقيمة الرفيعة، والمنزلة العالية، التي يحتلها العلماء بين العامة والخاصة"[3].

تفسير ابن كثير

هو التفسير الذي قصدته بالبحث، واستجلاء ما فيه من مرويات الأساطير، وهو التفسير الذي يعتبر أفضل التفاسير، بحسب قول العلماء قديما وحديثا، قال السيوطي: "لم يؤلف على نمطه مثله"[4]، ولا تبتعد أقوال المعاصرين عما سبقها، في تفسير ابن كثير وأهميته، فيقول الزرقاني: "وتفسيره هذا من أصح التفاسير بالمأثور، إن لم يكن أصحها جميعا"[5]، وقال أحمد شاكر: "إن تفسير الحافظ ابن كثير، أحسن التفاسير التي رأينا، وأجودها، وأدقها، بعد تفسير إمام المفسرين ابي جعفر الطبري"[6]، كذلك يقول محمد أبو شَهبة: "تفسيره من أجل التفاسير، إن لم

([1]) ينظر: طقوش، محمد سهيل: **تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام**، ط1، دار النفائس، بيروت، 1997م، ص265

([2]) ينظر: ابن قاضي شهبة، تقي الدين ابو بكر بن أحمد: **تاريخ ابن قاضي شهبة**، تحقيق: عدنان درويش، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، 1994م، ص204،ص207،ص208

([3]) اللاحم، سليمان بن إبراهيم: **منهج ابن كثير في التفسير**، ص15

([4]) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن: **طبقات الحفاظ**، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983م، ص534

([5]) الزرقاني، محمد عبد العظيم: **مناهل العرفان في علوم القرآن**، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت، 1995م، ج2، ص26

([6]) شاكر، أحمد: **عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير**،ص9

يكن أجلها وأعظمها"[1]، وهو أيضا قول سليمان بن إبراهيم اللاحم: " هذا التفسير غنـي عـن التعريف؛ فهو يحتل المكانة الثانية، إن لم تكن الأولى بين كتب التفسير"[2].

وقد أفاد ابن كثير في تفسيره مما سبقه من كتب التفسير؛ فكثير مـا لزمـه فـي نقـل المرويات ذكرها، والرجوع إليها، ومن أشهر هذه التفاسير:

- تفسير ابن جرير الطبري: (جامع البيان في تفسير القرآن): وبدا لي أنه عمدته في التفسير؛ إذ كثيرا ما عوّل عليه[3]، يقول الدكتور سليمان: "الحق يقال في هذا أن ابن كثير لم ينقـل عن أحد من مفسّرين كنقله عن ابن جرير، لا كما ولا كيفا"[4].
- تفسير ابن أبي حاتم[5]: (تفسير القرآن العظيم).
- تفسير البغوي[6]: (معالم التنزيل).
- تفسير الزمخشري[7]: (الكشاف عن حقائق التنزيل، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل).
- تفسير الرازي[8]: (مفاتيح الغيب).
- تفسير القرطبي[9]: (الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان).

كذلك استفاد من كتب المعارف الأخرى، كالحديث والتاريخ واللغة والعقائد والفقه والسير والمغازي، وكان يشير إليها[10]، كما نقل عن شيوخه، كابن تيمية والمزي والـذهبي، رحمهـم الله[11].

([1]) أبو شهبة: **الاسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير**،ص129
([2]) اللاحم، سليمان بن إبراهيم: **منهج ابن كثير في التفسير**، ص64
([3]) انظر مثلا: **التفسير**، ج2،ص15،ص368، وكذا، ج3،ص196
([4]) اللاحم، سليمان بن إبراهيم: **منهج ابن كثير في التفسير**، ص100
([5]) انظر مثلا: **التفسير**،ج1،ص116،وكذا،ج4،ص58،ص401
([6]) انظر مثلا: **التفسير**،ج4،ص157،ص691،ص702
([7]) انظر مثلا: **التفسير**، ج1، ص110، ص132، ص281
([8]) انظر مثلا: **التفسير**،ج1، ص110، ص125، ص292
([9]) انظر مثلا: **التفسير**، ج1، ص110، ص161، ص209
([10]) ينظر: اللاحم، سليمان بن إبراهيم: **منهج ابن كثير في التفسير**، ص138
([11]) ينظر: السابق، ص166

وابن كثير في تفسيره يوظّف معرفته بالتاريخ، والملل الأخرى، ولا غرو إذ إنه صاحب كتاب البداية والنهاية، يقول رمزي نعناعة: " وكان – رحمه الله – من أوسع العلماء اطلاعا على أقوال أهل الملل والنحل، وخاصة المسيحيين، كما يدل عليه كلامه في مواضع كثيرة، في التفسير والتاريخ اللذين يعتبران أهم مؤلفاته، بل يكفي للدلالة على سعة اطلاعه في ذلك، أن يكون تلميذ شيخ الإسلام ابن تيمية، الذي ألف موسوعته النفيسة، في ذلك:الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح"[1].

وبذلك لم ينفصل التفسير عن صدى معتقدات الأوائل، ولم يسلم من اجتهادات الحواضر، فدخلته موروثات الأساطير، واحتفت به خرافات الأقاويل، وكلما مرّ الزمان، وتعاقبت الأجيال، واتسعت المطالعات، ازدادت المدخولات، وتماهت في تضاعيف النص المقدس.

منهج ابن كثير في التفسير

يأتي عند ابن كثير تفسير القرآن بالقرآن في المكانة الأولى، ثم يليه تفسير القرآن بالسنة، ثم يتلوه التفسير بالمرويات عن الصحابة، ثم التابعين؛ ولذلك يحرِّم التفسير بالرأي، إلا ما كان اجتهادا، في ضوء لغة القرآن، أو لغة السنة، أو عموم لغة العرب أو أقوالهم، وهذا منهجه الذي نص عليه في أكثر من موضع في كتابه، يقول تحت عنوان أحسن طرق التفسير: "فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟ فالجواب: إن أصح الطرق في ذلك أن يُفسَّر القرآن بالقرآن، فما أجمل في مكان فإنه قد بسط في موضع آخر، فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة؛ فإنها شارحة للقرآن وموضحة له"[2].

ثم تحت عنوان الرجوع إلى أقوال التابعين، يقول: "إذا لم تجد التفسير في القرآن، ولا في السنة، ولا وجدته عن الصحابة، فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين"[3].

([1]) نعناعة، رمزي: **الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير**، ص322

([2]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**،ج1، ص16

([3]) السابق، ص18

وإذا رجعنا لأقوال التابعين، وعرض لنا الاختلاف والتباين بينها، ردّنا ابن كثير، وقال: "فتـُذكرُ أقوالهم في الآية، فيقع في عباراتهم تباين في الألفاظ، يحسبها مـن لا علـم عنـدهم اختلافا، فيحكيها أقوالا، وليس كذلك؛ فإن منهم من يعبّر عن الشيء بلازمه، أو بنظيره، ومنهم من ينص على الشيء بعينه، والكل بمعنى واحد في أكثر الأماكن، فليتفطن اللبيب لذلك"[1].

قد نتفق او نختلف فيما قرره ابن كثير، من تقارب أو تطابق بين أقوال التـابعين فـي التفسير، وبين أنها ليست كذلك، وأن منها المتناقضات والمتعارضات، وليس مجال البحث فـي هذا الاتجاه، وإنما في نظرته تلك منهجية استقصائية ربما جعلته يحرص على إيراد تلك الأقوال المختلفة، ويحشدها في الموطن الواحد ظنّاً منه التشابه والتوافق، سواء علمه الناظر أم غابـت عنه وحْدته.

وإن تعذّرت الرواية في التفسير، أو جاءت متناقضة، فلا بأس لديه من الرجـوع إلـى اللغة؛ حيث يقول: " ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن، أو السنة، أو عموم لغة العرب، أو أقـوال الصحابة في ذلك"[2]، و "من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعا فلا حرج عليه"[3].

وأما رأيه في حكم التفسير بالرأي؛ فهو جلي واضح، يقول: "فأما تفسير القرآن بمجـرد الرأي فحرام"[4]، وبهذا الحكم، يوهمك أن التفسير "لا يتحرك إلا في فضاء النص القرآني، وبأن قصصه قصص القرآن، وعمله تبسيط ما غمض، وفك ما أجمل، وتقريب ذلـك للنـاس لـيس غير"[5].

ولعل هذا الحرص من ابن كثير على التفسير بالمأثور، جعله محط الاهتمـام، وكثيـر الانتشار، حيث "يعتبر مرجعا أوليا في تفسير القرآن الكريم، في الجامعات الإسـلامية، ولـدى

([1]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**،ج1، ص19

([2]) السابق، ص19

([3]) السابق، ص21

([4]) السابق، ص19

([5]) السعفي، وحيد: **العجيب والغريب في كتب تفسير القرآن**، ص24

طلاب العلم عموما في شتى الأقطار الإسلامية"[1]، يقول محمد الذهبي: "تفسير ابن كثير أشـــهر ما دون في التفسير المأثور، ويعتبر من هذه الناحية الكتاب الثاني بعد كتاب ابن جرير، اعتنـــى فيه مؤلفه بالرواية عن مفسري السلف، ففسر فيه كلام الله تعالى بالأحاديث والآثار، مسندة إلى أصحابها، مع الكلام عما يحتاج إليه جرحا وتعديلا"[2].

ولا يعني هذا الحرص من ابن كثير على الرواية، وتحري صحة الإسناد أن جعل مـــن تفسيره تفسيرا يخلو من الروايات الأسطورية، أو حتى من الفهم الأسطوري، وإن كان هذا الفهم ليس محل عنايتي في البحث، ولكن لا بدّ لي من التأكيد على أن الأسطورة حاضرة في تفســـيره من خلال الروايات، ما صح منها وما ضعف، وهو ما سأعرض له في الفصول الآتية من هـــذا البحث.

موقف ابن كثير من الإسرائيليّات

يحدد ابن كثير موقفه من الإسرائيليات في أكثر من موضع في تفسيره، بشكل يتفق مع موقف شيخه ابن تيمية؛ لفظا ومعنى؛ [3] حيث يقول: "الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد، لا للاعتضاد؛ فإنها على ثلاثة أقسام:

أحدها: ما علمنا صحته مما بأيدينا، مما يشهد له بالصدق، فذاك صحيح.

والثاني: ما علمنا كذبه مما عندنا مما يخالفه.

والثالث: ما هو مسكوت عنه، لا من هذا القبيل، ولا من هذا القبيل، فلا نؤمن به، ولا نكذبـــه، وتجوز حكايته"[4].

([1]) اللاحم، سليمان بن إبراهيم: **منهج ابن كثير في التفسير**، ص475

([2]) الذهبي، محمد حسين: **التفسير والمفسرون**، ط1، دار الكتب الحديثة، القاهرة، 1961م، ص244

([3]) ينظر: ابن تيمية: **مقدمة في أصول التفسير**، ص100

([4]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج1، ص18

وعلى الرغم من أن هذا المنقول مما لا يُصدّق ولا يُكذّب، إلا أنه إن صح سنده يستسلم له، مهما خالف صريح العقول، فبعدما يسوق بعض الروايات الغريبة – كما يصفها– يقول معقبا: "وغالب من يذكر هذه، إنما يأخذها من كتب أهل الكتاب، وهي مما لا يصدق ولا يكذب، ولا يعتمد عليها بمجردها، وأما إذا صح حديث في ذلك فعلى الرأس والعين"[1].

ومع كل ما أورده ابن كثير في تفسيره من الإسرائيليات، إلا إنه أعرض عما لا فائدة فيه، على حدّ قوله: "والذي نسلكه في هذا التفسير، الإعراض عن كثير من الأحاديث الإسرائيلية؛ لما فيها من تضييع الزمان؛ ولما اشتمل عليه الكثير منها من الكذب المروج عليهم"[2].

وفي موضع آخر، يتراجع قليلا مع شدة ما في الرواية من مصادمة للمعقول، رغم صحتها؛ فيقول: "ثم ليعلم أن أكثر ما يتحدثون به غالبه كذب وبهتان؛ لأنه قد دخله تحريف وتبديل وتغيير وتأويل، وما أقل الصدق فيه، ثم ما أقل فائدة كثير منه لو كان صحيحا"[3].

ثم يصل به التراجع عن التزام الرواية لمجرد صحة الإسناد إلى أن يضع قيدا حول المتن، ولا أحسب علماء الحديث يجرؤون على مثل قيده، وإن قالوا برد المتن دراية باعتبار آخر، إذ يقول: "وإنما أباح الشارع الرواية عنهم في قوله: " وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج"، فيما قد يجوزه العقل، فأما فيما تحيله العقول، ويحكم فيه بالبطلان، ويغلب على الظنون كذبه، فليس من هذا القبيل"[4].

مفهوم "أساطير الأولين" في تفسير ابن كثير

ورد مركب " أساطير الأولين" مرارا في القرآن الكريم؛ حيث تكرر في تسعة مواضع متفرقة، وفي كل هذه المواضع جاء على لسان كفار قريش، في معرض إنكارهم اليوم الآخر، والبعث والجزاء، كما سيتضح عند رصد هذه المواضع التسع.

([1]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج1، ص260

([2]) السابق، ج3، ص317

([3]) السابق، ص663

([4]) السابق، ج4، ص321

إن وصفهم لما يقدّمه القرآن الكريم من تعاليم بأساطير الأولين، يؤكد أن كفار قريش كانوا يحتفظون بتراث فكري في ذاكرتهم، سواء عرفوه عن آبائهم أم عرفوه عن ثقافات مجاورة، وأديان حولهم؛ تعتقد طرحا مشابها حول البعث والحساب، هذا المخزون الذهني جعلهم يصفون ما يقدمه النبي الكريم من تصورات بأنها من مسطورات الأوائل، وأنه اكتتبها أو أمليت عليه، والأمر اللافت في سياق الآيات أن الله سبحانه لم ينفِ كونها أساطير الأولين، ولكنه أكد أنها من وحي الله، وأنها ليست أخذا مما سطره الأوّلون، وإنْ جاء القرآن مصدقا لها، فانظر في قوله تعالى: "وقال الذين كفروا إنْ هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلما وزورا* وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا* قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض، إنه كان غفورا رحيما"[1].

وقد نفى القرآن الكريم، عن النبي الأمين، "أنْ يكون مفتريا، أو ناقلا لمعلومات اكتتبها من القدماء، أو أنه قول شيطان رجيم، أو أي شيء آخر، لكنّه لم ينف وجود ذلك المضمون، ولا مرة واحدة في أساطير الأولين... وإنما اتخذ المشركون الأساطير وسيلة لتفسير ما يسمعونه، وما يواجهونه من فشل أمام منطق العقل والصواب، فلجأوا إلى القول بأن القرآن من عند محمد لا من عند الله"[2].

ولا يخفى ما يورده القرآن مرارا بأنه ليس بدعا من القول، وإنما هو مصدق لما بين يديه، وإنه لفي زبر الأولين، وفي الصحف الأولى؛ حيث يقول عز وجل: "قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه"[3]، "أي من كتب المتقدمين"[4]، ويقول سبحانه: "إنّ هذا لفي الصحف الأولى"[5]، ويقول تعالى: "وإنه لفي زبر الأولين"[6].

([1]) سورة الفرقان، الآيات: 4،5،6

([2]) جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، قسم الدراسات والبحوث: **الأسطورة توثيق حضاري**، ط1، دار كيوان، دمشق، 2009م، ص120

([3]) سورة البقرة، الآية: 97

([4]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج1، ص202

([5]) سورة الأعلى، الاية:18

([6]) سورة الشعراء، الآية: 196

والملاحظ أن مركب "أساطير الأولين"، ورد فقط على ألسنة الكفار، ولم يذكره الله سبحانه في وصف وحيه، وإنْ لم ينفه، واستعاض عنه بذكر الصحف الأولى، وزبر الأولين، وأن القرآن جاء مصدقا لما سبقه، فيما يقدمه من معتقدات القدماء، وذلك كون أساطير الأولين تشتمل –بالإضافة إلى حقائق مؤكدة وحيا مثل البعث والحساب– على إضافات من فهم الأولين، ومدخلات من اجتهاداتهم، وأفكار من بنات أذهانهم، في حين "أن الصحف الأولى علم خالص منسوب لله من غير أن يختلط باجتهادات أو خيالات الأوائل"[1].

ثم الملفت للانتباه أن كلمة الأساطير، لم تأتِ مفردة في القرآن، وإنما جاءت مضافة إلى كلمة الأولين؛ لتقدم دلالة مهمة؛ حيث إن هذه الأساطير لم تكن في آبائهم، وإنما هم على دين آبائهم مهتدون، فهي إذاً قديمة، ومن الأولين، قال تعالى: "قالوا إنا وجدنا آبائنا على أمة، وإنا على آثارهم مهتدون"[2]، وقد تمتد في تصورهم، ولكن لا تتجاوز آباءهم الأقربين، وكأن هذه الأساطير في تقديرهم ليست من جهة آبائهم، أبا عن أب، وإنما تعبّر عن مرحلة سابقة انفصل عنها آباؤهم، وهم على آثار آبائهم الأقربين مقتدون، بينما يردّ الله تعالى بأن المعتقدات التي استنكروها كانت في الأولين من آبائهم، قال تعالى: "أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين"[3].

والذي يظهر أن المقصود بالأولين هم الذين خالفهم الآباء الاقربون، وهم إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، والبقية الباقية من العرب الذين يتلمسون دين ابراهيم عليه السلام مخالفين آباءهم وقومهم، والذين عرفوا بالحنفاء، ففي رواية "أن أمية بن الصلت قدم المدينة، فقال للنبي: ما هذا الذي جئت به؟ فقال الرسول: الحنفية دين إبراهيم، قال: فأنا عليها. فقال عليه الصلاة والسلام: لست عليها، ولكنك أدخلت فيها ما ليس منها"[4].

([1]) جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، قسم الدراسات والبحوث: **الأسطورة توثيق حضاري**، ص122

([2]) سورة الزخرف، الآية: 22

([3]) سورة المؤمنون، الآية: 68

([4]) علي، جواد: المفصل **في تاريخ العرب**، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، 1993م، ج6، ص486

و"الحنفاء عند الإخباريين؛ مجموعة من الزهاد الذين نبذوا عبادة الأصنام، وكل ما يتعلق بها من طقوس، وتمسكوا بالديانة الإبراهيمية الحقة، تاركين عبادة قومهم إلى عبادة الله وحـــده، وذلك عبر ممارسة طقوس عبادية، أشير إليها بشكل خاطف من قبـــل الـــرواة، مثـــل: الحـــج، والصوم، والتحنّث، والختان، وتحريم الخمر"[1].

وهو ما يحدده القرآن الكريم، فيما أتى به النبي الأمين، في قوله تعالى: "ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين"[2].

وهذه هي الآيات التي جاء فيها ذكر مركب " أساطير الأولين"، مرتبة حســـب ترتيـــب السور في المصحف الشريف، يتلو كل آية منها قول ابن كثير، في تفسير هذا المركب:

1- قال تعالى: "ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا، وإن يروا كل آية لا يؤمن بها حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أســـاطير الأولين"[3]، يقول ابن كثير: " أي ما هذا الذي جئت به إلا مأخوذ من كتب الأوائل، ومنقول عنهم"[4].

2- قال تعالى: "وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أســـاطير الأولين"[5]، يقول ابن كثير: معنى "أساطير الأولين"، وهو جمع أسطورة، أي كتبهم اقتبسها، فهو يتعلم منها، ويتلوها على الناس"[6].

3- قال تعالى: "وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين"[7]، يقول ابن كثير: "أي لـــم ينزل شيئا، إنما هذا الذي يتلى علينا أساطير الأولين، أي مأخوذ من كتب المتقدمين"[8].

([1]) صباغ، عماد: **الأحناف**، ط1، دار الحصاد، دمشق، 1998م، ص32

([2]) سورة النحل، الآية: 123

([3]) سورة الأنعام، الآية:25

([4]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج2، ص191

([5]) سورة الأنفال، الآية:31

([6]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج2، ص450

([7]) سورة النحل، الآية:24

([8]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج3، ص11

4- قال تعالى: " بل قالوا مثل ما قال الأولون* قالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون* لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين"[1]، يقول ابن كثير: "يعنون الإعادة محال، إنما يخبر بها من تلقاها عن كتب الأولين واختلاقهم"[2].

5- قال تعالى: "وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلما وزورا* وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا* قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض إنه كان غفورا رحيما"[3]، يقول ابن كثير: "يعنون كتب الأوائل أي استنسخها"[4].

6- قال تعالى: " وقال الذين كفروا أئذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون* لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين"[5]، يقول ابن كثير: "يعنون ما هذا الوعد بإعادة الأبدان إلا أساطير الأولين، أي أخذه قوم عمن قبلهم من كتب يتلقاه بعض عن بعض، وليس له حقيقة"[6].

7- قال تعالى: "والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي، وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين"[7]، يكرّس ابن كثير عنايته في تفسير هذه الآية تجاه الشخص المقصود بها، ويصرف نظره عن تفسير مركب "أساطير الأولين"، وقد بان رأيه مرارا فيه؛ مما يعني أنه لن يخرج عما قرره سابقا.

8- قال تعالى: "أنْ كان ذا مال وبنين* إذا تتلى عليه آيتنا قال أساطير الأولين"[8]، يقول ابن كثير: "هذه مقابلة ما أنعم الله عليه من المال والبنين كفر بآيات الله عز وجل، وأعرض عنه، وزعم أنها كذب مأخوذ من أساطير الأولين"[9].

([1]) سورة المؤمنون، الآيات: 81-83

([2]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج3،ص422

([3]) سورة الفرقان،الآيات:4-6

([4]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج3، ص506

([5]) سورة النمل، الآيتان: 67،68

([6]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج3، ص600

([7]) سورة الأحقاف، الآية:17

([8]) سورة القلم، الآيتان: 14،15

([9]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج4، ص590

9- قال تعالى: "الذين يكذبون بيوم الدين* وما يكذب به إلا كلّ معتدٍ أثيم* إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين"[1]، يقول ابن كثير: "أي إذا سمع كلام الله تعالى من الرسول يكذب به، به، ويظن به ظن السوء، فيعتقد أنه مفتعل مجموع من كتب الأوائل... (و) ليس الأمر كما زعموا، ولا كما قالوا: إن هذا القرآن أساطير الأولين، بل هو كلام الله ووحيه، وتنزيله على رسوله"[2].

يتبين بوضوح أن ابن كثير يرى مركب "أساطير الأولين" بمعنى: كتب الأوائل ومنقولاتهم، يرِد في سياق اعتراض الكافرين على ما أنزل الله سبحانه على النبي الكريم، متهمينه باقتباسه وأخذه من كتب القدماء، وأن الله سبحانه أنكر عليهم زعمهم، مؤكدا أنه وحي يوحى.

ومع تدقيق النظر في الآيات السابقة، يتّضح أن الذي يثير هذا الردّ لدى الكفار أمران:

إحداهما: الآيات المنزلة، أي الوحي أو القرآن جملة.

والآخر: الوعد بالبعث والجزاء والحساب.

وإذا كان القول بالبعث في مفهوم الكفار، هو من أساطير الأولين، فإنه لدى المسلمين ركن من أركان الإيمان، وإن كانت آيات القرآن بما تقدمه من توحيد يخالف الشرك الذي عليه الكفار، وما تتلوه من أخبار الأولين وقصصهم، تتشابه مع مسطورات الأوائل في نظر المعترضين؛ فما هي إلا وحي الله لنبيّه الأميّ الأمين، في نظر المؤمنين، وما كان قد خَطّ بيمينه من قبل كتابا، ولا كان من التالين، قال تعالى: "وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون"[3].

"لقد وجد الذين كفروا تشابها بين آيات الله وبين أساطير الأولين، تمثّلَ هذا التشابه في احتواء كل من الآيات والأساطير على آيات الرب، والدعوة لتوحيد الله، وبيان حقيقة الوجود،

([1]) سورة المطففين،الآيات:11-13

([2]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج4، ص708

([3]) سورة العنكبوت، الآية: 48

وعلة الخلق، ودور الملائكة، والرسل في الأرض، والإيمان بالبعث والحساب، والاستعداد للقاء الله، كما أن ذكر... أحوال الأمم السابقة وحالات الإهلاك للمكذبين، مذكور أيضا في الأساطير، فقصة نوح، وإهلاك قومه بالطوفان خبر ذكره القرآن، وتداولته الأساطير"[1].

ربما هذا التشابه يفسر لماذا لم ينفِ القرآن العظيم زعم الكافرين، وإنما أنكر أن تكـــون مأخوذة أو منقولة عن كتبهم، فهي منزلة بوحي من الله، على نبيه محمد المصطفى وحسْـــب، وما كان النبي الكريم من المشتغلين بمطالعة مسطورات الأوائل، وما كان من المستطيعين، وإنما هو ما أوحي له، وهو الحق المصدق لما سبقه، والمهيمن على جميع الكتب الأولى؛ قال تعالى: "وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه"[2].

([1]) جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية: **الأسطورة توثيق حضاري**، ص113

([2]) سورة المائدة، الآية:48

الفصل الثانـي

أساطير الخلق والتكوين

- الكون
  * السماوات والأرض
  * العرش والكرسي
  * البحر السماوي
  * جبل قاف
  * الحوت نون
  * اللوح المحفوظ
- الإنسان
  * آدم وحواء
  * هابيل وقابيل
  * الخضر
- إبليس والشيطان

الفصل الثاني

أساطير الخلق والتكوين

إن أقدم ما وصل الإنسان المعاصر من آثار الأوائل، وكتاباتهم أو نقوشاتهم تتناول – بحضور بارز– تصوراتهم عن الخلق والكون...عن أصله وتكوينه...عن مبدئه ونظامه...عن ظواهره وكائناته.

لقد كشفت اللقى الأثرية، والنصوص المدوّنة معتقدات الإنسان القديم، وأفكاره حول كثير من الأمور المحيطة به، فهل كانت هذه الأساطير بعيدة عمّا نعتقده اليوم، ونؤمن به، أم إنها تتردد بصداها في أشد الكتب تقديسا لدى الإنسان المعاصر، ومحل عنايته؟

هذا ما سأحاول سبر غوره، وكشف حقائقه، من خلال ما احتفّ به النص المقدس من مرويات، تكاد أن تكون مكرورات تحتفظ بروح المعتقد الغابر، وإن اعتراها بعض التحوير لبُعد الشّقة، وانقطاع المباشرة للنصوص الأولى، وتأثير ضرورات المكان والزمان.

فكيف تصوّر الإنسان أصل الكون؟ وما صار إليه؟ وما أهمية العرش والكرسي؟ وكيف تصور بحرا سماويا؟ وما دور الحوت نون؟ وما وظيفة اللوح المحفوظ؟

ومما خُلق الانسان ولماذا؟ وما حقيقة الصراع بين هابيل وقابيل؟ ومن هو الخضر؟

وما تصّوراته عن الشيطان وآلهة الشر؟

الكون

السماوات والأرض

يقول ابن كثير في تفسير قوله تعالى: "أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما "[1]، "أي كان الجميع متصلا بعضه ببعض، متلاصق متراكم بعضه فوق بعض

([1]) سورة الأنبياء، الآية:30

في ابتداء الأمر، ففتق هذه عن هذه، فجعل السماوات سبعا والأرض سبعا، وفصل بين السماء الدنيا والأرض بالهواء، فأمطرت السماء، وأنبتت الأرض"[1]، ثم يستدل بأقوال السلف، فيقول: "قال سعيد بن جبير: كانت السماء والأرض ملتزقتين، فلما رفع السماء، وأبرز منها الأرض كان ذلك فتقهما الذي ذكر الله في كتابه، وقال الحسن وقتادة: كانتا جميعا ففصل بينهما بهذا الهواء"[2].

أما عمّا كان قبل السماوات والأرض؛ فيخبرنا برواية عن أبي رزين...قال: قلت: يا رسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ قال: كان في عماء ما تحته هواء، وما فوقه هواء، ثم خلق العرش بعد ذلك"[3]، وقال قتادة في قوله تعالى: "وكان عرشه على الماء"[4]، "ينبئكم كيف كان بدء خلقه قبل أن يخلق السماوات والأرض"[5].

و"عن أبي هريرة أنه قال: يا نبي الله إذا رأيتك قرّت عيني، وطابت نفسي، فأخبرني عن كل شيء، قال: كل شيء خلق من الماء"[6].

يتبيّن مما سبق أن الخلق والتكوين لم ينشأ من عدم؛ فقد انبثق من الماء بعدما كان رتقا، وانفصلت السماوات والأرض عن ذلك الرتق بالهواء، وكل ذلك الخلق قد تم في الظلمة والعماء؛ حيث خلق الله " النور في يوم الأربعاء"[7]، من أيام الخلق، وهو اليوم الذي يسبق خلق الدواب، وخلق آدم، وبهذه العناصر؛ الماء والظلمة والهواء والانفصال والنور، تتشكل أسطورة التكوين.

وإذا استعرضنا أساطير الخلق والتكوين لدى شعوب العالم القديم، سنكتشف مدى الاتفاق والتشابه، ففي الأساطير الرافدية ابتداءً من السومرية "منذ مطلع الألف الرابع قبل

([1]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج3، ص310

([2]) السابق، ص10

([3]) السابق، ج2،ص644

([4]) سورة هود، الآية:7

([5]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج2، ص644

([6]) السابق، ج3، ص310،ص311

([7]) السابق، ج1، ص110

الميلاد"[1]، تقدّم تصورا مشابها؛ حيث تشير الأسطورة بشكل واضح، إلى فكرة انفصال السماء عن الأرض.

"بعد أن أُبعدت السماء عن الأرض

وفصلت الأرض عن السماء

وتم خلق الإنسان"[2].

وفي نص آخر يؤكد عملية الخلق من خلال الفصل:

"آن الإله الذي أخرج كل شيء نافع

الإله الذي لا مبدل لكلماته

إنليل الذي أنبت الحب والمرعى

أبعد السماء عن الارض

وأبعد الأرض عن السماء"[3].

إن إنليل الذي تولّد بين السماء والأرض، هو " إله الهواء، وكلمة إنليل مكونة من مقطعين؛ "إن" التي تعني السيد، و "ليل" التي تعني الهواء، أو الريح... بعد أن كبر إنليل، فصل بين أمه وأبيه فرفع أباه السماء "آن" إلى أعلى، وبسط أمه الأرض "كي""[4].

وهذه السماوات والأرض لم تكن سوى المياه البدئية، التي خلقت منها، وخلق منها كل شيء، وهي المعبر عنها بنمو التي تعني "المياه الأولى"[5]، تقول الأسطورة:

"بعد أن تفرقت مياه التكوين

([1]) السواح، فراس: **مغامرة العقل الأولى**، ط13، دار علاء الدين، دمشق، 2007م،ص31

([2]) السابق، ص34

([3]) السابق، ص35

([4]) معدّي، الحسيني الحسيني: **الأساطير السومرية**، ط1، كنوز للنشر والتوزيع، القاهرة، 2012م،ص96

([5]) السواح، فراس: **مغامرة العقل الأولى**، ص50

وعمت البركة أقطار السماء

وغطى الزرع والعشب وجه الأرض

أنكي إله الغمر، أنكي الملك

أنكي الرب الذي يقرر المصائر "[1].

"إن الكون في نظر السومريين ظهر من الإلهة السومرية الأم الأولى"نمو" وهـي إلهـة هيولية تحركت فيها إرادة الخلق، وتصارعت الحركة مع السكون، ونتج عن ذلك تكوّن الكـون "آن– كي" الذي يعني "السماء – الأرض"، وهو جبل كوني يقوم وسط مياه "نمو""[2].

وكان ذلك التخليق قد حدث، والنور لم يأتِ بعد، فلما فصل الهواء بين السماء والأرض، "تم التزوّد بنور السماء، في أشكال نانا (القمر)، و أتو (الشمس)، والنجوم والكواكب"[3].

وإذا نظرنا الى أساطير بابل فإن الإله مردوخ يخلق السماوات والأرض من (تيامـات) بعد أن تغلب عليها " وشطر جسمها؛ فعمل السماء من الشـطر الأول، والأرض مـن الشـطر الثاني، ثم نظم الكون؛ فوضع الكواكب في أمكنتها، وفوّض لسين(الإله القمر) قياس الـزمن"[4]، تقول أسطورة الإينوما إيليش البابلية:

"ثم اتكأ الرب يتفحص جثتها المسجاة(أي تعامة أو تيامت او تيامات)

ليصنع من جسدها أشياء رائعة

شقها نصفين فانفتحت كما الصدفة

رفع نصفها الأول وشكل منه السماء سقفا

وضع تحته العوارض وأقام الحرس

([1]) السواح، فراس: **مغامرة العقل الأولى**، ص49

([2]) معدّي، الحسيني الحسيني: **الأساطير السومرية**، ص96

([3]) هووك، صموئيل هنري: **منعطف المخيلة البشرية**، ترجمة:صبحي حديدي، دار الحوار للنشر والتوزيـع، سـورية، 1983م،ص20

([4]) فيروللو، شال: **أساطير بابل وكنعان**، ترجمة: ماجد خير بك، مطبعة الكاتب العربي، دمشق، 1990م، ص20

أمرهم بحراسة مائه فلا يتسرّب

ثم جال أنحاء السماء فاحصاً أرجاءها

...

وأقام لنفسه نظيرا له بناء هائلا أسماه عيشارا"[1]، (أي الأرض).

ثم تكمل الأسطورة في تصوير خلق الشمس والقمر والنجوم والكواكب، وتنظيم الخلق[2].

أما أسلحة مردوخ التي تمكن بها من تيامت، وفصل السماء عن الأرض من جسدها فأهمها أسلحة الريح بأنواعها المختلفة؛ حيث "صرف الرياح الأربع لتمسك بها من جميع أطرافها؛ ريح الجنوب، وريح الشمال، وريح الشرق، وريح الغرب، خلق الرياح الشريرة، رياح امخلو، والريح العاصف، الريح الإعصار، الريح التي لا شبيه لها، الريح الرباعية، والريح السباعية والزوابع، والريح الداهمة، ثم أفلت الرياح السبع التي خلق ليعصف بها أعماق تيامت"[3].

فما هي تيامت ؟

إنها المياه البدئية، أو الغمر التي خلقت منها السماوات والأرض، وكل شيء، تقول الأسطورة:

"بينما في الأعالي

لم تكن السماءُ قد سمتْ بعد

والأرضُ اليابسة في الأسفل

لم يكن أطلقَ عليها أيّ اسم

([1]) السواح، فراس: **مغامرة العقل الأولى**،ص75

([2]) ينظر: السابق، ص76-77

([3]) الماجدي، خزعل: **إنجيل بابل**، ط1، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، 1998، ص1998م، ص26

وحدهما، أبسو – الأوّل

والدهم

والأم تيامت

والدتهم جميعا

كانا معا يمزجان مياههما

فلا منابتَ القصب كانت قد تكتلتْ بعد

ولا المقاصب كانت فيها مميّزة"[1].

فأبسو وتيامت يمثلان المياه البدئية في عنصريهما الذكري والأنثوي، ويعبران عن المياه العذبة والمياه المالحة في حالة من التمازج[2].

وفي أسطورة أخرى "يبدو أن العماء الكوني الأول كان مكونا من ثالوث إلهـي، هـو (تيامت،أبسو، مُمُّو)... حينما في العلى لم تسمّ السماء السماء، حينما في الدنى لم تسـمّ الأرض الأرض، كان الآلهة الثلاثة يتحدون في رخاء أبدي؛ حيث لا مرعي خضر، ولا حقول قصـب، ولا ألواح قدر، ولا آلهة، ولا سماء"[3].

أما مدلولات هذه الآلهة الثلاثة التي تشكل العماء الكوني فهي، "تيامت: تمثل مياه البحار المالحة، وأبسو: يمثل ماء الأنهار العذب، و(مُمّو) يمثل الضباب"[4].

وحسب أساطير نشوء الكون في مصر القديمة فإنّ "الأزل لم يعرف سوى المحيط البدئي الذي تشخص عندهم في الإله نون"[5]، ومن هذا المحيط المائي الأولي تكونـت الارض، " فقـد

([1]) الشواف، قاسم: **ديوان الأساطير سومر وأكاد وآشور**،ط1، دار الساقي، بيروت،1997م،ج2،ص116

([2]) ينظر: الشواف،قاسم: **ديوان الأساطير**، ج2، ص16، الهامش

([3]) الماجدي، خزعل: **إنجيل بابل**، ص13

([4]) السابق، ص16

([5]) س.بريوشينكين: **أسرار الفيزياء الفلكية والميثولوجيا القديمة**، ترجمة: حسان مخائيل اسحق،ط1، دار علاء الـدين، دمشق، 2006م،ص7

أنجب نون المحيط اللامتناهي الموجود منذ ملايين السنين، أنجب الإله العظيم آتوم الذي أعلـــن: ليس لي أب وليس لي أم، لقد خلقت نفسي من مياه المحيط، وأنا الإله الأول في الكون، وسوف أخلق الآلهة الآخرين، ثم أخذت مياه المحيط تتراجع شيئا فشيئا حتى ظهرت منها قطعـــة مـــن اليابسة، دعيت بالهضبة البدئية بين- بين، التي صارت مركز الأرض وأساسها"[1].

وفي نصوص أخرى للتكوين الأول في الأساطير المصرية يظهر أربعـــة أزواج إلهيـــة تجمع الذكورة والأنوثة، يتشكل منها الثامون الهيولي، وهي:

"1- نون ونوت: يمثلان المياه الهيولية الأزلية

2- حح وححة: يمثلان سرمدية الزمان والمكان

3- كيكوي وكيكوة: يمثلان الظلام

4- كيرة وكيرهة: يمثلان الليل"[2].

وفي هذه الأساطير، نجد عناصر مشتركة مع الأساطير الأخرى في تصـــويرها لنشـــأة الكون؛ حيث المياه البدئية، وحالة العماء والظلام، وإله الهواء، وحكم الأزلية لهذه المادة الأولية، التي انبثق عنها التكوين، وظهر النور، وظهرت الحياة، وظهر النظام بفعل آلهة تترا، من مثل " الإله الشمس (رع)، ظهر من المياه الهيولية (نون) بصورة (آتوم)... والإله(آمون) الذي عمـــل على تحريك الخلق، وإنه خفي لا شكل، ولا أب ولا أم له، وهو الإله الهوائي الذي ظهـــر منـــه الوجود كله"[3].

وإذا يممنا شطر أساطير الهند القديمة، لا نجد فرقا موضوعيا، فالعناصر الأساسية فـــي التكوين حاضرة، فلم يكن "ثمة شيء في البدء؛ لا الشمس ولا القمر ولا الكواكب، كانت الميـــاه تملأ المكان اللامحدود كله، وكانت هذه قد ظهرت في الخراب الكوني الأول، الذي استقر ساكنا

([1]) .بريوشينكين: **أسرار الفيزياء الفلكية والميثولوجيا القديمة**، ص8

([2]) الماجدي، خزعل: **الدين المصري**، ط1، درار الشروق للنشر والتوزيع،عمان،1999م، ص70

([3]) السابق، ص71

دون حركة، وخرجت المياه من ظلامه مثل المخلوقات الأخرى كلها، وولدت المياه النار، ومن طاقة الدفء العظيمة تشكلت فيها بيضة كونية، ولم يكن الوقت قد ظهر بعد، ولم يكن ثمة من يقيسه، لكن البيضة الذهبية عامت بقدر ما طالت السنة في مياه المحيط الذي لا شاطئ له، ولا قاع، وبعد سنة خرج من الجنين الذهبي الكائن الأول براهما، لقد كسر براهما البيضة؛ فانشطرت هذه إلى نصفين، النصف الأعلى صار سماء، والنصف السفلي صار أرضا، ووضع براهما بينهما المكان الجوي، وهكذا قسمها، لقد ثبّت براهما أركان الأرض في وسط المياه، وخلق جهات الكون، ووضع بداية الزمان، وبذا تكون قد خلقت المعمورة"[1].

وبحسب الأساطير الإيرانية القديمة، وخاصة المانوية "لم يكن عالمنا موجودا من الأزل بل كان هناك أصلان: أصل النور، وأصل الظلام"[2].

وبعد معارك بينهما تمكن ملك النور من هزيمة عفاريت الظلام وسرعان ما " داسهم تحت قدمه، وسلخ جلودهم، وقيد كثيرا من العفاريت بالسلاسل في السماوات، ثم عمد مهرايزد إلى بناء عالمنا، وأبدع إحدى عشرة سماء من جلود العفاريت، وأوجد من لحومهم ثماني أرضين، ومن عظامهم الجبال الراسيات، وأمر أحد أبنائه (باهرك بد) بالجلوس على ذروة السماوات وأن يقبض بيده على حبالها كي لا تنهار بعضها على بعض، وأوعز إلى ابنه الآخر (مان بد) أن يضع الأرضين على كتفيه كي لا تنهار...وخلق مهرايزد...وأبدع عجلة الشمس من النار، وعجلة القمر من الريح، والماء والنجوم من النور الذي كان قد نكب بآفة العفاريت"[3].

وإن كانت العناصر الخمسة في هذه الاسطورة، وهي الماء والريح والنار والنسيم والنور من أعوان ملك النور إلا أن عفاريت الظلام كانت في وقت سابق قد سيطرت عليها، وابتعلتها؛

([1]) ألبيديل، م.ف.:**سحر الأساطير دراسة في الأسطورة.التاريخ.الحياة**، ترجمة: حسان ميخائيل اسحق،ط1، دار علاء الدين، دمشق،2005م،ص96

([2]) يارشاطر، احسان: **الأساطير الإيرانية القديمة**، ترجمة: محمد صادق نشأت،ط1، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة،1965م،ص78

([3]) السابق، ص82،81

فلما تمكّن مهرايزد من عفاريت الظلام وهزمها تحررت ثانية، وساهمت في تكوين الخلق الجديد.[1]

وأما أصل العالم كما يصوره لنا الشاعر أوفيد المولود سنة 43ق.م، والذي يمثل الميثولوجيا الإغريقية والرومانية[2]، في كتابه مسخ الكائنات، يقول:

"قبل أن تكون أرض، وقبل أن تكون بحار، وقبل أن تكون سماء تظل الكون أجمع، كان ثمة عماء يلف العالم كله...كان كتلة مضطربة لا شكل لها، جماد لا حياة فيها، أو جملة من بذور مختلفة لعناصر الأشياء...ثم إنها مع كونها كتلة واحدة كان ثمة صراع...وكان لا بدّ لهذا الصراع من حاسم، فتجلى الإله كي يفصل بين الشيء ونقيضه، ففصل ما بين السماء والأرض، وما بين الأرض والماء، وخلّص الهواء الكثيف من الأثير الشفيف"[3].

وإذا استعرضنا تصور الخلق والتكوين من الكتاب المقدس للمندائية الصابئة نجده لا يبتعد عن فكرة الخلق من المياه الأولى، وسأورد مقتطفات تدل على ذلك:

"وأما الأرض التي سماها بنو البشر أرضا فما هي بأرض إن هي إلا مياه كثّفت بأمر الله"[4]، "باسم الحي العظيم، إنا جعلنا الكون منازل وطبقات مكتملات وغير مكتملات، وأوكلنا بكل طبقة حراسا، ملائكة أجناسا،... وزيناها بمصابيح تدور، ووهبناها رياحا سارية، ومياها جارية... وانبتنا فيها من كل شيء بهيج"[5]، "من ضياء أبي الزاخر أتيت أنا بثاهيل[6]، "قال لي: قم يا بني... اذهب إلى المعمورة وكثفها في المياه العكرة، ارفع فوقها السماء، وفجر فيها ينابيع الماء"[7]، "اذهب أيها الابن المطيع...كثف الأرض، وابسط الرقيع. عُدت إلى المياه التي

([1]) ينظر: يارشاطر، احسان: **الأساطير الإيرانية القديمة**، ص82-84

([2]) **أوفيد**- ويكيبيديا، الموسوعة الحرة/http://ar.wikipedia.org/wiki

([3]) أوفيد، الشاعر: **مسخ الكائنات**، ترجمة: ثروت عكاشة،ط3، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،1992،ص31-32

([4]) **كنزا ربا اليمين**: ص227

([5]) السابق، ص242

([6]) ملك أثري يمثل الحياة الرابعة شارك في عملية الخلق والتكوين،انظر: **كنزا ربا اليمين**، ص310

([7]) السابق،ص290

تأكل بعضٌ بعضا، القيت فيها السر فأصبحت أرضا...ثم تكثفت، غدت جمادا تربا...وصعدت اجنحتها سحبا، بيضاء كالأثير حول العالم تطير...كان هذا صوتي الأول...أول نداء...كثّف به الأرض، ورفعت السماء، بالنداء الثاني امتدت البحار وتدفقت المياه في الجداول والأنهار"[1]، وتستمر النداءات إلى النداء السابع، ويستمر مع النداءات التخليق وتنظيمه. وقبل التكوين لم يكن سوى الظلام المملوء بعناصر الوجود المتناقضة والمضطربة، ولكن كلمة الله تتوجه إليه فينبثق كل الوجود وتنفصل العناصر، وتتميّز، وتكون الحياة، "اذهب إلى عالم الظلام، المملوء كله بالشر، كله مملوء بالشر، بالغائلة، بالنار الآكلة، عالم الفتنة المضطرب، عالم الغش والكذب، المزروع بالشوك والعليق، اذهب إليه، سيطر عليه، ابسط الأرض، وارفع السماء، وعلّق فيها الكواكب، هب الشمس ضياء، والقمر بهاء، والنجوم سناء، والماء عذوبة، والنار أنسا، ولتبدأ بأمري الحياة"[2].

وأخيرا سأتناول التوراة لتحدثنا عن أسطورة الخلق والتكوين، وللتوراة ما لها من قبل ومن بعد، فقد امتصت كثيرا من أساطير المنطقة كأساطير بلاد الرافدين، وبلاد النيل[3]، كما إنها إنها تسللت إلى المرويات لدى المسلمين، وكذلك تعشّقها بعض العلماء بطرائق متعددة مباشرة وغير مباشرة، تقول التوراة:

"في البدء خلق الله السماوات والأرض، وكانت الأرض خربة وخالية، وعلى وجه الغمر[4] ظلمة، وروح الله يرف على وجه المياه، وقال الله: ليكن نور، فكان نور... وفصل الله بين النور والظلمة... وقال الله: ليكن جَلَد[5] في وسط المياه، وليكن فاصلا بين مياه ومياه... وكان كذلك، ودعا الله الجلد سماء... وقال الله: لتكن أنوار في جلد السماء لتفصل النهار

([1]) **كنزا ربا اليمين**، ص293،292

([2]) السابق، ص8

([3]) ينظر: إلياد، **ميرسيا: تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية**، ط1، دار دمشق، دمشق، 1987م،ج1، ص199 / السواح، فراس: **الأسطورة والمعنى**،ط2،دار علاء الدين، دمشق، 2001م، ص296/ ناظم،سلوى: الت**رجمة السبيعينية للعهد القديم بين الواقع و الاسطورة**،ص15 http:\\ kotob.no-ip.org

([4]) المياه الكثيرة، انظر: **معجم الكلمات الصعبة للعهد القديم** ص15

([5]) وجه السماء المنظور، القبة الزرقاء، ينظر: **معجم الكلمات الصعبة للعهد القديم**

والليل... وكان كذلك، فعمل الله النورين العظيمين النور؛ الأكبر لحكم النهار، والنور الأصـــغر لحكم الليل والنجوم، وجعلهما الله في جلد السماء لتنير على الأرض"[1].

ولا يخفى فيما تقدمه التوراة لبدء الخلق من اشتمال التصور على العناصـــر الأساســـية للتكوين؛ حيث المياه والظلمة والنور والانفصال، ثم يتواصل تنظيم الكون خلال الستة الأيـــام، ليستريح الرب في اليوم السابع.

وفي كل تلك الأساطير يبدأ التكوين من المياه البدئية، ليتكون منها الأرض والسماوات، وتبدأ حالة التنظيم والنظام تغلب حالة الفوضى والخراب؛ فلا "نجد مفهوم الخلق من العدم في أي من أساطير الخلق القديمة، فالخلق في مجمل تلك الأساطير يتمثل في فعل اخفاء النظام مـــن حالة العماء الأصلية"[2].

العرش والكرسي

ظهر العرش والكرسي من خلال المرويات في التفسير، وأقوال العلماء، فـــي صـــورة تقترب من التصور الأسطوري القديم؛ فالعرش، وكذلك كرسيّه عظيم جـــدا، ومصـــنوع مـــن الحجارة الكريمة، أو المعادن النفيسة، يشع بالنور من نور الله، وإن هذا العـــرش يعلـــو الميـــاه البدئية في السماوات العلا، وله قوائم، تحمله الملائكة المجنحة، على صور حيوانات أسطورية، تسبّح لله المستوي على العرش، والشمس عندما تغرب تذهب تحت العـــرش تســـتأذن الله فـــي الشروق مجددا.

وبعضهم يرى أن "الكرسي موضع القدمين"[3]، وكذلك روي عن ابن عباس أيضا؛ حيث قال: "الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يقدر أحد قدره"[4]، ورى السُّديّ عـــن أبـــي مالـــك:

([1]) الكتاب المقدس: **العهد القديم، سفر التكوين، الاصحاح الأول**، ص1

([2]) هووك، صموئيل هنري: **منعطف المخيلة البشرية**، ص19

([3]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج1، ص464

([4]) السابق: ص464

"الكرسي تحت العرش، وقال السدي: السماوات والأرض في جوف الكرسي، والكرسي بين يدي العرش"[1].

وعن عظمة هذا الكرسي، يقول الضحاك عن ابن عباس: "لـــو أن الســـماوات الســـبع والأرضين السبع بسطن ثم وصلن بعضهن إلى بعض، ما كنّ في سعة الكرسي إلا بمنزلة الحلقة في المفازة"[2]، وهذا عين ما ورد في رواية عن النبي الكريم: "والذي نفسي بيده، ما الســـماوات السبع، والأرضون السبع، عند الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وإن فضل العـــرش علـــى الكرسي، كفضل الفلاة على تلك الحلقة"[3]، وجاء في رواية أخرى وصف يعظـــم حجـــم هـــذا العرش من خلال قوله عليه الصلاة والسلام: "إن كرسيه وسع السماوات والأرض"[4].

وأما مادة هذا العرش، فقد قال سعد الطائي: "العرش ياقوتة حمراء"[5]، ويقول ابن كثير: "وقد ذكر غير واحد أن العرش من ياقوتة حمراء، اتساع ما بين قطريه مسيرة خمســـين ألـــف سنة، وارتفاعه عن الأرض السابعة مسيرة خمسين ألف سنة"[6]، ويقول في موطن آخـــر مـــن تفسيره: "مسافة ما بين العرش العظيم إلى أسفل السافلين، وهو قرار الأرض الســـابعة، وذلـــك مسيرة خمسين ألف سنة، هذا ارتفاع العرش عن المركز الذي وسط الأرض السابعة، وكـــذلك اتساع العرش من قطر إلى قطر مسيرة خمسين ألف سنة، وأنه من ياقوتة حمراء"[7].

والعرش يحتف بالنور، ونوره من نور الله، قال وهب بن منبه: "خلقه الله من نوره"[8]، وعن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: "إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار، نور العرش من نـــور

([1]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج1، ص464

([2]) السابق: ص464

([3]) السابق: ص465

([4]) السابق: ص465

([5]) السابق، ج2، ص598

([6]) السابق، ج4، ص108

([7]) السابق، ج4، ص610

([8]) السابق، ج2، ص598

وجهه"[1]، وفي قول عكرمة: "نور الشمس جزء من سبعين جزءا من نـــور الكرســـي، ونـــور الكرسي جزء من سبعين جزءا من نور العرش، ونور العرش جزء من سبعين جزءا من نـــور الستر "[2].

وهذا العرش قبل خلق السماوات والأرض كان مستقرا على الماء الأولى، قال رســـول الله صلى الله عليه وسلم:"كان عرشه على الماء"[3]، وعندما "سئل ابن عباس عن قول الله "كان عرشه على الماء" على أي شيء كان الماء؟ قال: على متن الريح"[4].

أما قوائم هذا العرش فيمثلها قول رسول الله عليه الصلاة والسلام: "صـــدق أميـــة بـــن الصلت في شيء من شعره، فقال:

(الطويل)

رجلٌ وثور تحت رجل يمينه　　　　والنسر للأخرى وليث مُرْصِدُ

فقال رسول الله: صدق، فقال:

والشمس تطلع كل آخر ليلة　　　　حمراء يصبح لونها يتورد

تأبى فما تطلع لنا في رسلها　　　　إلا معــذبــة وإلا تجـــلــد

فقال رسول الله: صدق، وهذا إسناد جيد، وهو يقضي أن حملة العرش أربعة، فإذا كان يوم القيامة كانوا ثمانية"[5]، ويقول ابن كثير في رواية تصف حملة العرش الثمانية: "ثم فوق ذلك ذلك ثمانية أوعال، بين أظلافهن وركبهن ما بين سماء وسماء، ثم على ظهورهن العرش"[6]، ثم

(1) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج3، ص516
(2) السابق، ج4، ص393-394
(3) السابق، ج2، ص644
(4) السابق، ج2، ص644
(5) السابق، ج4، ص105
(6) السابق، ج4، ص105

يؤكد أن العرش قبة، وله قوائم، وهو فوق الناس من الجهة التي هو فيها على الأرض حسب تصوره، فيقول: "لأنه على الصحيح الذي تقوم عليه الأدلة قبة مما يلي العالم من هذا الوجه(يقصد المكان الذي فيه)، وليس بمحيط كسائر الأفلاك؛ لأن له قوائم، وحملة يحملونه، ولا يتصور هذا في الفلك المستدير، وهذا واضح لمن تدبر ما وردت به الآيات والأحاديث الصحيحة"[1].

أما عن غروب الشمس، فقال رسول الله: "يا أبا ذر، أتدري أين تذهب هذه الشمس؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنها تذهب فتسجد تحت العرش، ثم تستأذن ربها"[2]، إذاً مستقر الشمس المكاني "تحت العرش مما يلي الأرض من ذلك الجانب، وهي أينما كانت فهي تحت العرش، هي وجميع المخلوقات؛ لأنه سقفها، وليس بكرة كما يزعم كثير من أرباب الهيئة، وإنما هو قبة ذات قوائم، تحمله الملائكة، وهو فوق العالم مما يلي رؤوس الناس؛ فالشمس إذا كانت في قبة الفلك وقت الظهيرة تكون أقرب ما تكون إلى العرش، فإذا استدارت في فلكها الرابع إلى مقابلة هذا المقام، وهو وقت نصف الليل صارت أبعد ما تكون إلى العرش، فحينئذ تسجد، وتستأذن في الطلوع كما جاءت بذلك الأحاديث"[3].

وأما من تحت العرش فهم في تسبيح وتقديس، "ينزل ربنا عز وجل في ظلل في الغمام، وحوله الكروبيون، وهم أكثر من أهل السماوات السبع، ومن الجن والإنس، وجميع الخلق لهم قرون كأكعب القنا، وهم تحت العرش، لهم زجل التسبيح والتهليل والتقديس لله عز وجل"[4].

إن هذا التصور عن العرش، وكرسيّه موضع القدم، وحملته، ومكانه وبيئته، يتفق مع أساطير الأمم السابقة، وهو ما سأعرضه لإدراك الاتفاق والتشابه.

---

(1) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج2، ص737

(2) السابق، ج3، ص716

(3) السابق، ج3، ص892

(4) السابق، ج3، ص516

فمن حيث ضرورة العرش والكرسي للإله السماوي، وغيره من الآلهة فكرة حاضرة في مختلف أساطير الأمم، ففي أسطورة سومرية يتّضح من خلالها فكرة لزوم العرش السماوي للإله، تقول الأسطورة:

"سومر يا أعظم بلدان العالم...

سيّدك سيد معظم، يجلس مع "آن" في العرش السماوي"[1].

ونعثر في تمجيد الإله مردوخ في الأسطورة البابلية على فكرة مشابهة:

"ابتهجوا، وأعطوه ولاءهم، مردوخ ملكا، منحوه الصولجان والعرش والرداء الملكي"[2].

كذلك الأمر في أسطورة أكادية أخرى " استدعى الأنوناكي وجعلهم يجلسون على عروشهم الذهبية"[3]، علما أنّ فكرة العرش للآلهة في الأساطير الرافدية بارزة لا تخفى على قارئ تلك الأساطير، وإنما اقتصرت على ما يفي بالتأكيد.

وإذا انتقلنا إلى الأساطير الأوغاريتية، فالأمر نفسه، بل ما عثر عليه فيها أكثر تفصيلا، ففي نص يصف استقرار الإله بعل فوق عرشه:

"جلس البعل على كرسيّ ملكه

استقر على عرش سلطان مملكته"[4].

و"عندما خاض الإله بعل تحديا مع الإله موت، راح عشتر يحتل عرش بعل، ولكن قدميه لم تصلا إلى موطئ الكرسي، ولا رأسه لامس سقف المظلة التي عليها العرش؛ لأنه كان صغيرا"[5]، فالعرش والكرسي لازم للدلالة على السيطرة والانتصار.

([1]) السواح، فراس: **مغامرة العقل الأولى**،ص43

([2]) السابق، ص71

([3]) السابق، ص340

([4]) فريحة، أنيس: **ملاحم وأساطير من أوغاريت**، دار النهار للنشر، بيروت، 1980م، ص181

([5]) السابق، ص74

"اعصف، اعصف بـــ"يم"

ادفع به عن عرشه

ادفع "نهر" عن كرسي سيادته

ولسوف تنطلق من يد بعل"[1].

وفي نص آخر:

"أولئك الذين أزاحوا بعل عن أعالي صفون

الذين دفعوا به عن كرسي ملكه

وأبعدوه عن عرش جلالته"[2].

كذلك نجد الأمر نفسه في الأساطير المصرية، فالإله بتاح "اعتلى سدة العرش العظيم"[3].

وفي كتاب الموتى الفرعوني، يطلب أوزيريس أن يتبوأ عرش العالم السفلي:

"هلا أيها الواحد المهيب...

لتدعني أعبر إلى كرسي عرشي"[4].

كما جاء في أحد التمجيدات "إن حورس على عرشه،إن حورس على كرسيّه"[5]، وفـــي نص آخر لتقديم التوسلات للإله العظيم "هلا يا من أنت ممجد.. يا من أنت موقر، يا إله الأرواح العظيم.. أنت الروح المقدس، مالك القوة الفائقة الرهيبة التي تخشاها قلوب الآلهة، يا من أنـــت متوج.. يا من أنت متوج فوق عرشك العظيم"[6].

([1]) السواح، فراس: **مغامرة العقل الأولى**، ص116

([2]) السابق، ص123-124

([3]) هووك، صموئيل هنري: **منعطف المخيلة البشرية**،ص59

([4]) إم هرو، برت: **كتاب الموتى الفرعوني**،ط1، ترجمة: فيليب عطية، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1988م، ص83

([5]) السابق، ص86

([6]) السابق، ص105

وفي رسومات كثيرة للحضارة المصرية القديمة، تظهر آلهتهم وهم يجلسون على الكرسي داخل العرش، كما يظهر الإله أوزيريس في رسم من كتاب الموتى داخل عرشه وحوله أربعة آلهة[1].

وعلى الرغم من ظهور التعدد الإلهي في الأساطير الفرعونية، فقد "كان للفراعنة إله واحد هو رع، وهو رب الأرباب، وخالق الكون، ورمزوا إليه بالشمس ذات الأجنحة، وأسفل منها ثمانية تحمل عرش الإله رع، وهم حملة العرش"[2].

وأما أساطير الهند القديمة؛ ففي أسطورة هندية نجد مقدّسي الإله فشنو المتجسد في شخصية كرشنا، يعتقدون أنه "خلق الكون كله، وأنه بعد أن قام من النوم، أمر البراهما أن يخلق الأرض، ثم اتخذ له مكانا في الفيكونتا وهي السماء التي كان نفسه إلها لها، وهناك يجلس فشنو على العرش"[3].

وفي الأساطير الإغريقية والرومانية، يجلس إله الشمس على عرش من الأحجار الكريمة، "كان إله الشمس جالسا في ثوب أرجواني على عرش يتألق بزمرده"[4].

وفي أسطورة أخرى، يصورون آلهتهم وقد أجلستهم أثينا على عروشهم، لقد " أجلست الآلهة الاثني عشر، في جلال وشموخ فوق عروشهم العالية، يتوسطهم جوبيتر(الرماني وهو زيوس الإغريق)، تحفه مهابة الملوك"[5].

كما تصور الزرادشتيون إلههم فوق العرش السماوي المصنوع من الذهب، "وبابتهاج تجتاز أرواح الصالحين الجسر نحو عرش أهورا مازدا الذهبي"[6].

([1]) ينظر: السابق، ص167. وصورة (4) في الصور الأصلية للبردية، انظر: شكل رقم (1) في ملحق الصور

([2]) هاشم، محمد يونس: **بين الأساطير الصهيونية والشرائع السماوية**،ط1، دار الكتاب العربي، 2010م ص83

([3]) كامل، مجدي: **أشهر الأساطير في التاريخ**،ط1، دار الكتاب العربي، دمشق، 2003م، ص33

([4]) أوفيد: **مسخ الكائنات**، ص52

([5]) السابق، ص135

([6]) عبد الرحمن، خليل: **أفستا، الكتاب المقدس للديانة الزرادشتية**، ط2، روافد للثقافة والفنون، دمشق،2008م،ص375

وفي العهد القديم؛ حيث تأثر واضعوه بتراث المنطقة الأسطوري، تسللت المعتقدات الأسطورية إليه، خاصة ما استحسنوه منها، وما تواءم مع ذائقتهم الفكرية والوجدانية حينذاك، وما تراكم لمعرفتهم الجديدة وقتئذٍ من أساطير الامم؛ المصرية والرافدية والكنعانية والفارسية، وقد كانت فكرة الكرسي والعرش توحي لمعاني السيطرة والسيادة والغلبة، وكذلك توحي بالجلوس الحقيقي كما هو مشاهد للملوك الأرضيين، فالعهد القديم يصرّح بجلوس الرب على كرسيه في هيكل عرشه، "وقال: فاسمع إذاً كلامَ الرب: قد رأيت الرب جالسا على كرسيّه، وكل جند السماء وقوف لديه، عن يمينه وعن يساره"[1]

وفي المزمور الحادي عشر "الرب في هيكل قدسه، الرب في السماء كرسيّه"[2]، وهذا الكرسي الرباني ليس محدثا بل قديما، يتناسب وأزلية الرب، "كرسيك مثبتة منذ القدم، منذ الأزل أنت"[3]، وأما مكانه ففي السماوات؛ حيث ملكوت الله، " الرب في السماوات ثبّت كرسيّه، ومملكته على الكل يسود"[4].

وفي وصف حزقيال لمادة العرش، وحملته، يقول: "وفوق المقبب الذي على رؤوسها شبه عرش كمنظر حجر العقيق الازرق، وعلى شبه العرش شبه كمنظر إنسان عليه من فوق"[5]، وهذه الكائنات التي تحمل العرش كما رآها حزقيال الكاهن في أرض الكلدانيين كانت أربعة حيوانات تحمل العرش، يقول: " فنظرت واذا بريح عاصفة جاءت من الشمال. سحابة عظيمة و نار متواصلة وحولها لمعان، ومن وسطها كمنظر النحاس اللامع من وسط النار. ومن وسطها شبه أربعة حيوانات وهذا منظرها: لها شبه إنسان. ولكل واحد أربعة أوجه، ولكل واحد أربعة أجنحة. وأرجلها أرجل قائمة، وأقدام أرجلها كقدم رجل العجل... وأيدي إنسان تحت أجنحتها... أما شِبْهُ وجوهها فوجه إنسان، ووجه أسد لليمين لأربعتها، ووجه ثور من الشمال

([1]) **العهد القديم**، ملوك الأوّل 19:22

([2]) **العهد القديم**، مزمور 4:11

([3]) **العهد القديم**، مزمور 2:93

([4]) **العهد القديم**، مزمور 19:103

([5]) **العهد القديم**، حزقيال 26:1

لأربعتها، ووجه نسر لأربعتها"[1]. حيث يظهر في هذا التصوير تشابها لتماثيل أبي الهول المصري في بعض جوانبه، وللثيران المجنحة الرافدية، وهو الى حدّ بعيد يتفق مع المخيال الأسطوري في اختلاطٍ غير مألوف للكائنات الحية بعضها من بعض، في نسخ غير موجودة واقعيا، إلا من خلال الرسومات الأثرية، وتماثيل الحضارات الغابرة.

كما يصف حزقيال حملة العرش بالكروبيم، وهو وصف للملائكة المقربة، ويكشف عن مادة العرش الذي يحملونه، يقول: "ثم نظرت وإذا على المقبب الذي على رأس الكروبيم شيء كحجر العقيق الأزرق كمنظر شبه عرشٍ"[2].

وهذا التجسيد يتفق أيضا مع ما جاء في إشعياء، يقول: "في سنة وفاة عُزِيّا الملك رأيت السيد(أي الرب) جالسا على كرسي عالٍ مرتفع، وأذياله تملأ الهيكل، السرافيم واقفون فوقه، لكل واحد ستة أجنحة، باثنين يغطي وجهه وباثنين يغطي رجليه وباثنين يطير"[3].

أما المسيحية فلم تكن بعيدة عن تشرب الأساطير السابقة، وطبعها بطابع ديني خاص، وقد تأسست معظم عقائدها بالاستناد على العهد القديم، واعتماد مؤثرات التطور الفكري الطبيعي، فما تستهجنه تمجّه، أو تهجّنه في ضوء مسوغات الفكر الجديد.

ففي رؤيا يوحنا اللاهوتي لا نجد مفارقة ذات بالٍ عن تصور حزقيال، يقول: " وللوقت صرت في الروح، وإذا عرش موضوع في السماء، وعلى العرش جالس، وكان الجالس في المنظر شبه حجر اليَشْب والعقيق، وقوس قزح حول العرش في المنظر شبه الزمرد... ومن العرش يخرج بروق ورعود وأصوات، وأمام العرش سبعة مصابيح نار متّقدة، هي سبعة ارواح الله... وفي وسط العرش وحول العرش أربعة حيوانات مملوءة عيونا من قدام ومن وراء. والحيوان الأول شبه أسد، والحيوان الثاني شبه عجل، والحيوان الثالث له وجه مثل وجه إنسان، والحيوان الرابع شبه نسر طائر. والأربعة الحيوانات لكل واحد منها ستة أجنحة حولها، ومن

([1]) **العهد القديم**، حزقيال1:4-10

([2]) **العهد القديم**، حزقيال1:10

([3]) **العهد القديم**، إشيعاء1:6-2

داخل مملوءة عيونا، ولا تزال نهارا وليلا قائلة: قدوس قدوس قدوس الرب الاله القادر على كل شيء، الذي كان والكائن والذي يأتي. وحينما تعطي الحيوانات مجدا وكرامة وشكرا للجالس على العرش الحي الى أبد الابدين"[1].

وفي إنجيل متى تكريس واضح لفكرة جلوس الله على العرش في السماء، فمن "حلف بالسماء فقد حلف بعرش الله، وبالجالس عليه"[2]، والمسيح عندما غادر الدنيا ذهب الى الله ليجلس عن يمين العرش، "ناظرين الى رئيس الإيمان ومكمله يسوع، الذي من أجل السرور الموضوع أمامه احتمل الصليب مستهينا بالخزي، فجلس في يمين عرش الله"[3].

البحر السماوي

يتجلى البحر السماوي في المعتقدات القديمة باعتبار أنه مرفد الأنهار الأرضية، ومصدر الأمطار السماوية، التي تبعث الحياة في الأرض؛ ففي تفسير قوله تعالى: "والبحر المسجور" من سورة الطور يقول: "الربيع بن أنس: هو الماء الذي تحت العرش الذي ينزل الله منه المطر، الذي تحيا به الأجساد في قبورها يوم معادها"[4]، و"قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: هذه الأنهار تشخب من جنة عدن"[5]، ومعلوم أن جنة عدن في السماء.

وفي تفسير (ن) قيل: "المراد بقول (ن): حوت عظيم على تيار الماء العظيم المحيط، وهو حامل للأرضين السبع"[6]، وعن رسول الله أنه قال: "فوق السماء السابعة بحر ما بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم فوق ذلك ثمانية أوعال بين أظلافهن وركبهن مثل ما بين سماء وسماء، ثم على ظهورهن العرش"[7]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "خلق الله

---

(1) **العهد الجديد**، رؤيا يوحنا اللاهوتي4:2-9

(2) **العهد الجديد**، إنجيل متى، 22:23

(3) **العهد الجديد**، الرسالة إلى العبرانيين2:12

(4) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**،ج4، ص349

(5) السابق، ج4، ص257

(6) السابق، ج4، ص584

(7) السابق، ج4، ص105

تبارك وتعالى من وراء هذه الأرض بحرا محيطا بها، ثم خلق من وراء ذلك البحر جبلا يقال له: قاف، سماء الدنيا مرفوعة عليه، ثم خلق الله تعالى من وراء ذلك الجبل أرضا، مثل تلك الأرض سبع مرات، ثم خلق من وراء ذلك بحرا محيطا بها، ثم خلق من وراء ذلك جبلا، يقال له: قاف، السماء الثانية مرفوعة عليه، حتى عدّ سبع أرضين، وسبعة أبحر، وسبعة أجْبُل، وسبع سماوات، قال: وذلك في قوله تعالى: والبحر يمدّه من بعده سبعة أبحر"[1]، وعن "عبد الله بن المبارك أنه قال: إن للريح جناحا، وإن القمر يأوي إلى غلاف من الماء"[2].

يتبين من هذه النصوص تصور لبحر محيط سماوي، تنزل منه الأمطار، وتصدر عنه الأنهار، وهو ما كان يظهر في الأساطير القديمة، ففي اعتقاد الرافديين أن الآلهة تنزل من مكانها العالي إلى الأرض من خلال زورق؛ مما يوحي أن هناك بحرا سماويا:

"جمعت إنانا النواميس المقدسة

وحملتها جميعا في زورق السماء

وتم دفع الزورق فانساب بعيدا عن المرفأ"[3].

وفي ملحمة الإينوما إيليش البابلية تصدر الأنهار من عيني تعامة:

"أخذ من لعاب تعامة

فخلق الغيوم وحملها بالمطر الغزير

وخلق من لعابها أيضا ضبابا

ثم عمد إلى رأسها فصنع منه تلالا

وفجر من أعماقها مياها

فاندفع من عينيها نهرا دجلة والفرات"[1].

([1]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج4، ص322

([2]) السابق، ج3، ص894

([3]) السواح، فراس: **الأسطورة والمعنى**، ص120-121

وإذا كان أوتنابشتيم الذي نجا من الطوفان يسكن جنة الخلد، وهي في السماء، فإنّ جلجامش مضطر لقطع مياه الموت لعبور هذه المياه، التي تصل الأرض بالسماء؛

"ثم أردف جلجامش قائلا لها، لفتاة الحان:

والآن أين الطريق إلى أوتنابشتيم يا فتاة الحان؟

أين أتجه؟ أواه كيف المسير؟

لأقطعن البحر إن استطعت...

فقالت له ساقية الحان، قالت لجلجامش:

أبدا لم تُعبر هذي المياه

ولم يقدر قادم من بعيد على قطع هذي البحار

شمش القدر يقطعها، فمن غيره يستطيع ذلك؟

صعبة العبور، عصية على الاجتياز

فيها مياه الموت تصدّ العابرين

فمن أي مكان تعبر يا جلجامش؟

وما عساك فاعل إن وصلت مياه الموت؟"[2].

وبعزم يذهب جلجامش متحديا الصعاب، يرقى مسالك الأهوال، يصارع الموت، وقد صرع من قبل خمبابا وثور السماء، وأخيرا ينتصر، ولكنّه يفشل في الخلود، "وها أنذا آت إلى أوتنابشتيم المدعو القاصي... عبرت شعاب الجبال العصبة، قطعت جميع البحار "[3].

([1]) السابق، ص40

([2]) السواح، فراس: **جلجامش ملحمة الرافدين الخالدة**، ط2، دار علاء الدين، دمشق،2002م، ص207-208

([3]) السابق، ص214

إن "القدماء كانوا يتخيلون نهرا يحيط بأقصى المعمورة، وعند هذا النهر ينتهي العالم العلوي"[1].

كذلك يعتقدون أن الكواكب تنزل المطر؛ حيث جاء في أسطورة أوغاريتية أن الإلهة عناة أخت بعل اغتسلت بمطر الكواكب:

"رشّتْ ماءً واغتسلت

بِطلّ السماء وزيت الأرض

طَل السماء غسْلُها

ومطر الكواكب ماءُ اغتسالها"[2].

و"في بلاد مثل مصر التي تعتمد في محاصيلها على فيضان النيل، وفي تلك العصور القديمة بالذات التي يشغل فيها النهر منزلة الآلهة، كان الإنسان يتصور أن الأنهار تنبع من مناطق مجهولة، يمسك فيها أحد الآلهة بقدر، ويسكب ما فيه على هواه، أو بحكمة"[3]، كما اعتقدوا بوجود نيل سماويّ، يسكب الماء على الأرض، فقد جاء في صلاة أخناتون:

"لقد خلقت نيلا من السماء

يرسل الماء على المخلوقات فيسقي

حقولهم ويجعل الجبال تفيض سيولا

فتروي الناس والقطعان في الأرض"[4].

ويصورون – في أكثر من موضع – آلهتهم تجوب الفضاء السماوي، في زوارق ومجاديف؛ فهذا "رع يبحر مع الريح الهادئة، وزورق سكتت يتقدم؛ ليأتي إلى المرفأ، بحارة رع

([1]) فريحة، أنيس: **ملاحم وأساطير أوغاريت**، ص51

([2]) فريحة، أنيس: **ملاحم وأساطير أوغاريت**، ص200

([3]) كامل، مجدي: **أشهر الأساطير في التاريخ**، ص10

([4]) السواح، فراس: **مغامرة العقل الأولى**، ص134

يبتهجون، وقلب نبت-إنخ (أي سيدة الحياة وهو لقب من ألقاب إيزيس) مسرور؛ لأن عدو سيدها قد تهاوى إلى الأرض. لسوف تنظر حورس على منصة الربان في الزورق"[1]، وفي نص آخر، "هلا أيها الآلهة الذين يتبعون زورق الإله حيح (زورق ملايين السنين)، الذين تحضرونه فوق نترخرت (العالم السفلي)، ويجعلونه يبحر فوق نوت، والذي يجعلون الأرواح تدخل أجسادها الممجدة... لتدمروا العدو؛ كي يبتهج بهذا زورق الشمس، ويواصل الإله العظيم رحلته في سلام"[2]؛ ففي المعتقد المصري القديم أن "الإله رع يركب قاربا، لأن في السماء نيلا سماويا، وكان هناك قاربان: الأول للرحلة النهارية على النيل السماوية، والثاني للمرحلة الليلية على النيل السفلي"[3].

أما في المعتقدات الزرادشتية فالبحر السماوي شديد الوضوح، كذلك دوره في مصدرية المطر؛ حيث جاء في الأفستا:

"ما بين الأرض والسماء عند بحر فاروكاش (اسم البحر السماوي) تدنو تيشتريا (أي نجم الشعرى) من البحر، تيشتريا الرائعة العظيمة، العميقة والواسعة، على هيئة حصان مقدس، وهي ترفع المياه؛ حيث تضربها الرياح القوية... تُنزل المكافأة من السماء إلى العالم، ويحصل الناس على موسم جيد"[4]، إن دور تيشتريا هو أن تأخذ المياه من البحر السماوي العظيم، وتنزلها على الأرض، وعند "بحر فاروكاش العظيم الرائع العميق والواسع... تسرع نحوه تيشتريا العظيمة على حصان أبيض سريع... وتسيل المياه يا زرادشت من بحر فاروكاش شافية ونقية، وتوزعها تيشتريا العظيمة بين البلدان"[5].

وحيث إن شجرة سدرة المنتهى قبل العرش فهي تنمو في البحر السماوي، فإنْ "كنت يا راشنو المقدس، على شجرة النسر التي تنتصف وسط بحر فاروكاش، التي تدعى شجرة الأدوية

---

(1) ام هرو، برت: **كتاب الموتى الفرعوني**، ص39

(2) ام هرو، برت: **كتاب الموتى الفرعوني**، ص104

(3) الماجدي، خزعل: **الدين المصري**، ص109

(4) خليل، عبد الرحمن: **أفستا**، ص442

(5) السابق، ص448-449

الجديدة، شجرة الأدوية القوية، شجرة كل الأدوية، التي توجد عليها بذور كل النباتـــات، فإننـــا نتضرع إليك ونباركك"[1].

أما المندائية الصابئة فيعتقدون أن الإنسان عندما يموت تصعد نفسه إلى السماء، وقبـــل وصولها عليها اجتياز بحر سوف العظيم:

"جلّ الحيّ عما تفعلون

انكم وجهتم وجوهكم صوب بحر سوف العظيم[2]

فأين تذهبون"[3].

وفي تصورهم أن الكون يتكون من سبع طبقات من المياه؛ لذلك فلا بدّ من اجتياز النفس هذه الطبقات حتى تبلغ عرش الحي العظيم.

"سؤال أتاني من بيت الحيّ: من بسط الرقيع؟

وبم هو معلق؟ وبماذا ينار؟

قال: يا أبي، إنه من سبع طبقات من المياه الآسنة

بسطها بثاهيل بقوة أباثرَ أبيه

ووضع بين طبقة وطبقة، مصابيح ضياء معلقة

تضيئها الملائكة بقدرة الله"[4].

وعندما تعمل النفس الأعمال الصالحة فإنها تنجو، وتخلص من الاحتبـــاس فـــي بحـــر الظلام:

([1]) السابق، ص489

([2]) بحر سماوي عظيم على النفس أن تعبره في المراحل الأولى من عروجها، انظر: **مصطلحات كنزاربا – اليمين**

([3]) **كنزا ربا – اليمين**، ص121

([4]) السابق، ص151

"انظري إلى البحر الكبير الذي لا مخاض منه

انظري إلى نهر هطفون الذي لا معبر عليه...

لا منفذ فيه ولا سبيل

اسمعي أيتها النفس

لكي تصعدي

لا تخالفي ولا تترددي

سألقي لك على هذا البحر معبرا

وسأمدّ لك على نهر هطفون جسرا"[1].

وأما التوراة، فتقدم هذا المعنى بشكل ضمني، عندما تناول سفر التكوين موضوع الطوفان؛ حيث بدت السماء كبحر محجوب بسدود، والأرض تطفو على مياه الغمر العظيم:

انفجرت كل ينابيع الغمر العظيم، وانفتحت طاقات السماء، وكان المطر على الأرض أربعين يوما، وأربعين ليلة"[2]، وهذا إنما يعني أن فكرة البحر السماوي كانت معروفة سابقا، وكأنها مسلّمة من المسلمات، علما أن تصور البحر المحيط الأولي، المعبّر عنه بالغمر العظيم، ليس هو ابتكار توراتي، وإنما هو "صورة قديمة جدا"[3]، تسبق عهد التوراة، وتظهر في أساطير العالم القديم، إن " المحررين المتأخرين لسفر التكوين قد حافظوا على كل ميثولوجيا من نموذج تقليدي"[4].

([1]) **كنزا ربا – اليسار**: ص90

([2]) **سفر التكوين** 7: 11-12

([3]) إلياد، ميرسيا: **تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية**،ط1، ترجمة: عبد الهادي عباس، دار دمشق، دمشق، 1987م، ج1، ص204

([4]) السابق، ج1،ص212

ولا يختلف التصور الفضائي لدى الإغريق والرومان عما سبق؛ حيث تصوروا الشمس محمولة في سفينة تسبح بالفضاء "وبدت المركبة كالسفينة التي يتلاعب فيها الموج"(1).

جبل قاف

قد نال الجبل قسطا وافرا من الاهتمام في الميثولوجيا القديمة، والمعتقدات الدينية أيضا؛ فالجبال المرتفعة جدا مسكن الآلهة، كما سكن الإله (بعل) ومن قبله (إيل) المرتفعات، مثل جبل سابان(2)، وكما سكنت الآلهة الاغريقية الاثنا عشر جبل أوليمب(3)، وقد كلم الله موسى وتجلى له على جبل الطور، وأتى الوحيُ النبيَّ الكريمَ في غار حراء على جبل؛ حيث عُزْلته، وما زالت المعابد تبنى على المرتفعات، فإن قهرتها الظروف بُنيتْ ورُفعتْ بالأهرامات والزيقورات والمآذن(4)... فهل الجبال بوابات السمو، ومجمع الأرواح المقدسة، ورافعة السماء ؟ ربما هكذا كان الإنسان الأسطوري يعتقد، وما يزال...

إن ارتفاع الجبل يوحي بالاقتراب من السماء المقدسة لدى الإنسان، فهي في تصوره مسكن الآلهة ومكان عروشها، ولذلك أُعتبرت "القمم تنتمي إلى العالم المتصاعد؛ فهي إذن ممثلة السماء"(5)؛ ولذلك حظيت بالقداسة(6)، فكان ميعاد موسى مع ربه على جبل الطور، وكانت الأهرامات المصرية، والزيقورات البابلية(7)، آثارا تخلد معتقداتٍ أسطورية للأمم السالفة.

إن أهمية الجبال لدى الانسان في معانقة السماء، بله حملها، امتدّ في تصوره إلى ما وراء الطبيعة المشاهدة، يقول ابن كثير: "وقد روي عن بعض السلف أنهم قالوا: ق جبل محيط بجميع الأرض، يقال له جبل قاف"(8)، كذلك روي مع زيادة تفصيل، عن ابن عباس رضي الله

---

(1) أوفيد: **مسخ الكائنات**، ص54

(2) ينظر: إلياد، ميرسيا: **تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية**، ج1،ص191-192

(3) ينظر:معدّي، الحسيني الحسيني: **الأساطير الإغريقية**، كنوز للنشر والتوزيع، القاهرة

(4) ينظر: القمني، سيد: **الأسطورة والتراث**، ص242

(5) إلياد، ميرسيا: **تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية**، ج1،ص258

(6) ينظر: عبد الرحمن، خليل: **أفستا**، ص125

(7) ينظر: هوك، صموئيل هنري: **منعطف المخيلة البشرية**، ص114

(8) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج4، ص321

عنهما قال: "خلق الله تبارك وتعالى من وراء هذه الأرض بحرا محيطا بها، ثم خلق من وراء ذلك البحر جبلا يقال له: قاف، سماء الدنيا مرفوعة عليه، ثم خلق الله تعالى من وراء ذلك الجبل أرضا، مثل تلك الأرض سبع مرات، ثم خلق من وراء ذلك بحرا محيطا بها، ثم خلق من وراء ذلك جبلا، يقال له: قاف، السماء الثانية مرفوعة عليه، حتى عدّ سبع أرضين، وسبعة أبحر، وسبعة أجْبُل، وسبع سماوات"[1].

ولم تكن الأساطير القديمة بعيدة عن حضور مثل هذا الجبل الكوني المحيط، ففي مرحلة سابقة لخلق السماء والأرض بدتْ "صورة مر- ور كإله، وكجبل كوني يظهر من هيولي(إم) الهوائية، بصورة جبل الكون السومري (أن- كي) الذي يظهر من هيولي الإله (نمو) السومرية المائية"[2].

أما النفوس الطيبة التي تجتاز مرحلة الحساب، ووزن القلب، في الأساطير المصرية القديمة، فإنها تحظى بالاستقرار على الجبل السماوي، يقول المناجي ربه: "كلما ارتقيت إلى أعالي الهواء، لتضمن لي أن أصل إلى السماوات الأبدية، وإلى الجبل الذي يستقر فيه مقربوك"[3]، بينما في التصور الزرادشتي؛ فأرواح الموتى لا بدّ لها أن تجتاز الجبل الكوني على على جسر سيفات[4].

وتظهر بيئة هذا الجبل بشكل واضح، من خلال الأفستا؛ فإنْ "كنتَ يا راشنو المقدس فوق جبل هارابرازيتي، الجبل الساطع، الذي تدور حوله العديد من النجوم، الذي لا يأتي عليه ليل ولا ظلام، لا الرياح الباردة ولا الحارة، لا الأمراض المميتة ولا النجاسة المصنوعة من قبل الأبالسة، وحتى الغيوم لا تستطيع أن تصل إلى قمة هارابرازايتي، فإننا نتضرع إليك ونباركك"[5].

([1]) السابق، ص322

([2]) الماجدي، خزعل: **المعتقدات الأمورية**، ط1، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، 2002م ص45

([3]) ام هرو، برت: **كتاب الموتى الفرعوني**، ص 38

([4]) ينظر: إلياد، ميرسيا: **تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية**، ج1، ص404

([5]) عبد الرحمن، خليل: **أفستا**، ص490

وقد ذكر جبل (كاف) من ضمن الجبال التي نمتْ حتى مواقع النجوم والقمر والشـــمس، "في البداية نمتِ الجبال لفترة ثمانية عشرة سنة، أما جبل آلبورز فقد نما على مدى 800 ســنة: 200سنة نما حتى موقع النجوم، 200 سنة حتى موقع القمر، 200 سنة حتى موقــع الشــمس، 200 سنة حتى موقع الضوء اللانهائي"[1]، ثم نمت جبال أخرى، وتفرعت عــن هــذا الجبــل، وانبثقت في العلو من علوه، منها "جبل كاف"[2]، وفي صفة هذا الجبل جاء أنّ "جبــل آلبــورز يحيط بهذه الأرض، ومتصل بالسماء"[3]، ومما يعزز كون جبل (كاف) هو جبل (قاف) ما يرويه وهب مِن أنّ "ذا القرنين أتى على جبل قاف، فرأى حوله جبالا صغارا، فقال له: من أنت؟ قال: أنا قاف، قال: فأخبرني ما هذه الجبال التي حولك، فقال: هي عروقي، فإذا أراد الله أن يزلــزل أرضا أمرني فحركت عروقا من عروقي فتزلزل الأرض المتصلة به"[4].

وربما ما أورده أبو طالب المكي المتوفي سنة 386هـ، في كتابه قوت القلوب يكشــف عن تشابه واضح مع ما ذكرته – حسب الأفستا – من تعدد هذه الجبال، كما أنه يأتي في تعدادها على اسم جبل (كاف)، يقول: "قيل لأبي يزيد بلغت جبل قاف؟ فقال: جبل قــاف أمــره قريــب الشأن، في جبل كاف، وجبل عين، وجبل صاد، قال: وما هذا؟ قال: هذه جبال محيطة بالأرضين السفلى، حول كل أرض جبل بمنزلة جبل قاف محيط بهده الأرض الدنيا، وهو أصغرها، وهــذه أصغر الأرضين"[5].

الحوت نون

قال تعالى: "وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه"[6]، والمقصود بذي النون هو النبي يونس عليه السلام، الذي ترك قومه، وتوعدهم بالعذاب، بعدما اســتكبروا، ورفضــوا

---

(1) السابق، ص802

(2) عبد الرحمن، خليل: **أفستا**، ص802

(3) السابق، ص802

(4) خان، محمد عبد المعيد: **الأساطير العربية قبل الإسلام**،ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2005م، ص171

(5) المكي، أبو طالب محمد بن علي: **قوت القلوب في معاملة المحبوب**،دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع،ج2، ص69

(6) سورة الأنبياء، الاية:87

الاستجابة، وقد آمنوا بعدما غادر، وركب سفينة، فأوشكت على الغرق، فاقترع ركابها على من يلقوه منها إلى البحر؛ لتهدِئة العاصفة، فوقعت عليه القرعة ثلاثا، فألقى نفسه في البحر، فالتقمه الحوت، فمكث في بطنه بضعة أيام، ثم قذفه الحوت على الشاطئ"[1].

ومن هذا يتبين أن نون هو الحوت؛ ولذلك سُمي يونس عليه السلام ذا النون، أي صاحب الحوت[2].

أما العهد القديم فقد خصّ سِفرا من بضع صفحات بعنوان يونان، وأورد هــذه القصـــة بالتفصيل، وفيها يتبيّن أن يونان هو نفسه يونس المبعوث إلى نينوى، وهو صاحب الحـــوت[3]، والذي يهمني في هذه القصة إبراز كلمة نون، والتي تعني الحوت.

ومع نون تشكلت أسطورة متحورة عن نون في الأساطير المصرية القديمة، يقول ابـــن كثير فيما يرويه عن عدد من الصحابة رضوان الله عليهم: "إن الله تبارك وتعالى كان عرشـــه على الماء، ولم يخلق شيئا غير ما خلق قبل الماء. فلما أراد أن يخلق الخلق، أخرج من المـــاء دخانا، فارتفع فوق الماء فسما عليه، فسماه سماء، ثم أيبس الماء فجعله أرضا واحدة، ثم فتقهـــا فجعلها سبع أرضين في يومين في الأحد والاثنين، فخلق الأرض على حوت، والحوت هو النون الذي ذكره الله في القرآن: (ن والقلم) والحوت في الماء، والماء على ظهر ملك، والملك علـــى صخرة، والصخرة في الريح... فتحرك الحوت فاضطرب، فتزلزلت الأرض، فأرســـى عليهـــا الجبال فقرت"[4]، ويقول في موطن آخر من تفسيره: "وقيل المراد بقول (ن): حوت عظيم على تيار الماء العظيم المحيط، وهو حامل للأرضين السبع"[5]، ثم يسرد روايات متعددة في شأن هذا النون، وكلها بالمعنى نفسه تقريبا، منها: "ثم خلق النون، ورفع بخار الماء؛ ففتقت منه الســـماء،

---

(1) ينظر: ابن كثير، ابو الفداء اسماعيل: **قصص الأنبياء**،ط1، دار الخير، دمشق، 1992م، ص257-265

(2) ينظر: **المعجم الوسيط:** مادة نون

(3) ينظر: **العهد القديم:** سفر يونان

(4) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج1،ص108-109

(5) السابق، ج4، ص582

وبسطن الأرض على ظهر النون؛ فاضطرب النون، فمادت الأرض، فأثبتها بالجبال"[1]، ومنهـا أن ما جاء في الحديث أن أول طعام يأكله أهل الجنة، هو زيادة كبد الحوت، فقد حمله بعضـهم على هذا الحوت[2].

فمن أين تسللت كلمة نون؟

وفق الأساطير المصرية القديمة، يقول المتوفى أوزيريس- آني: "لقد تخلصت من جميع ما قد فعلت من أخطاء منذ أن ظهرت الأرض إلى الوجود من النون، وعندما انبثقت من لجـة الماء في الزمن السحيق"[3]؛ إذن الأرض انبثقت من الماء البدئي المحيط، وهي تحتاج لحامـل، وخير حامل في الماء، هو الحوت، والأرض ظهرت من النون، والنون هو الحوت.

ووفق الأسطورة المصرية القديمة فقد نادى الإله (رع) ولده (نوت)، التي هـي مؤنـث (نون)[4]، قائلا: "وأنتِ يا ابنتي نوت، احملي أباك على ظهرك، ودعيه معلقا فـوق الأرض"[5]، وعندما أذعنت للأمر "تحولت إلى بقرة، وحملت أباها (رع) فوق ظهرها الكبير"[6]، وهذه البقرة "امتدّ بطنها كقبة زرقاء، صارت هي نفسها فيما بعد السماء التي تغطي الكون، وراح (رع) ينثر على صفحتها النجوم لتنير الليل"[7]؛ وبذلك حُملت السماء بوساطة نوت البقرة، وبقيـت الأرض حسب الأساطير المتوفرة بارزة من المحيط المائي الأولي دون ذكر حامـل لهـا فـوق المـاء العظيم[8].

ويبدو أن فكرة حمل الأرض، بوساطة نون أي الحوت، خير ما يُكمّل هذه الأسـطورة، وهو ما ظهر في التراث الدخيل إلى الإسلام، خاصة وقد ظهرت الأرض من لجة نون، وهـو

---

(1) السابق، ص582

(2) ينظر: السابق، ص583

(3) ام هرو، برت: **كتاب الموتى الفرعوني**، ص 165

(4) ينظر: الماجدي، خزعل: **الدين المصري**، ص70

(5) كامل، مجدي: **أشهر الأساطير في التاريخ**، ط1، دار الكتاب العربي، دمشق، 2003م،ص26

(6) السابق، ص27

(7) السابق، ص28

(8) انظر: شكل رقم (2) في ملحق الصور

مذكر نوت التي حملت النجوم و(رع)، وتزداد امكانية ذلك مع ما ورد في القرآن الكريم من تسمية الحوت بالنون في قوله تعالى: "وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه"[1].

وما زالت أسطورة الحوت العظيم المتواجد في البحر المحيط السماوي، تلهم المخيال الشعبي بالرعب، فكما ظهر في النصوص السابقة سببا للزلازل، فهو مرعب أيضا؛ "لأنه يبتلع القمر؛ فيتظاهر الأطفال الريفيون عندما ينكسف القمر صارخين "دشر قمرنا يا حوت... أحسن ما نفقع ونموت"، ويشاركهم الكبار أحيانا في إطلاق الرصاص؛ لينجو القمر من الموت في بطن الحوت"[2].

اللوح المحفوظ

يقول ابن كثير عن ابن عباس رضي الله عنهما: "إن الله خلق لوحا محفوظا من درة بيضاء، دفتاه ياقوته حمراء، قلمه نور، وكتابه نور، وعرضه ما بين السماء والأرض، ينظر فيه كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة، يخلق في كل نظرة، ويحيي ويميت، ويعز ويذل، ويفعل ما يشاء"[3]، وبعضهم يرفع هذا الأثر إلى النبي الكريم[4].

يتبين مما سبق أن هذا اللوح المحفوظ ذو طبيعة حجرية كريمة، يقدّر الله فيه مقادير الوجود، وما هو كائن، يقول عبد الرحمن بن سلمان: "ما من شيء قضى الله: القرآن، فما قبله وما بعده إلا وهو في اللوح المحفوظ، واللوح المحفوظ بين عيني إسرافيل لا يؤذن له بالنظر فيه"[5].

وأما مكانه فيتحدد أيضا في نص آخر، يقول ابن عباس رضي الله عنهما: "واللوح لوح من درة بيضاء، طوله ما بين السماء والأرض، وعرضه ما بين المشرق والمغرب، وحافتاه من

([1]) سورة الأنبياء، الآية:87

([2]) خليل، خليل أحمد: **مضمون الأسطورة في الفكر العربي**، الأسوار للطباعة والنشر، ص54

([3]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج4، ص398

([4]) ينظر: السابق، ص725

([5]) السابق، ج4، ص725

الدر والياقوت، ودفتاه ياقوتة حمراء، وقلمه نور، وكلامه معقود بالعرش، وأصله في حجر ملك، وقال مقاتل: اللوح المحفوظ عن يمين العرش"[1].

نخلص من هذه المرويات إلى وجود لوح أو ألواح من القدر، على شكل كتاب عظيم، قد قضى الله فيه كل ما كان، وما سيكون، وهذا اللوح مادته من الحجارة الكريمة والدر، التي توحي بثبات ما ينقش فيها، وعدم احتمال محوه مع تطاول الزمن، ومكان هذا اللوح قرب عـــرش الله سبحانه أو معقودا به في حِجر ملك.

فهل ورد شيء في الأساطير القديمة، عن هذا اللوح المحفوظ قرب عرش الإله؟

في أسطورة سومرية، تتلخص في "أن زو يرغب في السيطرة علـــى الآلهـــة جميعـــا، واحتلال مركز الصدارة. ولن يتيسر له ذلك إلا إذا سرق ألواح الأقدار التي يحملها أنليل، تلـــك الألواح التي تعطي حاملها سلطة مطلقة في الآلهة والبشر والأكوان. ينجح طائر العالم الأســـفل في مسعاه، ويهرب بالألواح بعيدا، تاركا الآلهة في جزع شديد للحادث الجلل، الذي أسلم مصائر الأكوان لقوى العماء...

لقد شهدت عيناه سر سيطرة أنليل وقوته

رأى ألواح الأقدار وتملاها مرارا

وكلما رأى أبا الآلهة، رب الدورناكي

.. طمعت نفسه في مركز أنليل:

سأحكم فوق جميع الإيجيجي...

وعندما مضى أنليل ليستحم في الماء الصافية

خلع تاجه فوضعه على العرش

خطف ألواح الأقدار

([1]) السابق، ص725

فاغتصب السلطة والملك والسيادة

ثم طار زو حيث اختفى في جباله

(وفي نهاية الأسطورة)، نستطيع الاستنتاج بأن واحدا من الآلهة قد تطوع لقتال زو، وأكمل مهمته بنجاح؛ ذلك أن لقب قاهر زو قد ألصق بأكثر من عمل فني، قد صور مصرع ذلك الوحش"[1].

وكذلك نجد في "الأساطير البابلية أن الموضوع المسمى لوح الأقدار يلعب دورا هاما، في عدة أساطير كان امتلاكه إحدى مزايا المعبود، ونسمع عن سرقة الألواح أو الاستيلاء عليها بالقوة في مناسبات عديدة، والإله الذي يملكها يمتلك القدرة على ضبط نظام الكون. وفي الأسطورة التي نحن بصددها الآن، ترغب (إنانا) في إسباغ بركات الحضارة على مدينتها الخاصة (إريخ)، ولكي تفعل ذلك لا بدّ لها من امتلاك الـ"مي"؛ وهي كلمة سومرية يبدو أنها تدل على القدرة ذاتها الناتجة عن امتلاك ألواح القدر الأكادية، في ذلك الوقت يكون لوح الـ"مي" بين يدي إنكي إله الحكمة، فترحل إنانا بالتالي إلى إريدو؛ حيث يقيم إنكي في داره المبنية من (أبسو) – لجة المياه الحلوة. يستقبل إنكي ابنته إنانا بحفاوة، ويقيم لها وليمة عظيمة، وحين تأخذها نشوة الخمر يعدها بكل أصناف الهدايا، بما فيها لوح الـ"مي" أو ألواح الأحكام المقدسة... تتقبل إنانا الهدايا بسرور، وتحمل على ظهر مركبها ذي الصواري (قارب السماء)، ويبحر إلى إريخ. حين يصحو إنكي من سكرته يدرك أن ألواح الـ"مي" ليست في مكانها المعتاد، والإشارة هنا إلى وجود مكان تحفظ فيه الـ"مي"؛ يدل على أنها تأخذ شكل الألواح"[2].

وضرورة المحافظة على هذا اللوح (مي)، جعل منها صفة لازمة له فقيل: لوح محفوظ؛ فهو محفوظ من إطلاع أحد عليه غير الله سبحانه، ومحفوظ من أن تطاله يد طامعة أو سارقة، إذ هو معقود بالعرش، وفي حِجر ملك حافظ له، خاصة مع أهميته، وتعدد حالات سرقته والاستيلاء عليه.

([1]) السواح، فراس: **مغامرة العقل الأولى**، ص228-230

([2]) هووك، صموئيل هنري: **منعطف المخيلة البشرية**، ص23

وإن لم ترد طبيعة هذا اللوح أو الألواح وفق ما تـوَفر من أساطير سومرية وبابلية، إلا أنه يغلب الظن في تصوّرهم له من الصخور أو الحجارة الكريمة، كونهم يكتبون على ألـواح، فطالما نقشوا تشريعاتهم ومعتقداتهم على الألواح، وعلى نـُصبٍ من الحجارة الصـلدة؛ لتخلـد كلماتهم وإرادتهم.

وربما ما كشفت عنه الأساطير الإغريقية من طبيعة مادته البرونزية والحديدية، وأتـت منسجمة مع ما عُرف في عصرهم، وشاع استخدامه، خاصة في التماثيل وبعض النقوش، فكذلك المتوقع أن يكون لوح القدر من الحجارة الكريمة في عصر الحضارة الرافدية انسجاما مع تلـك الطبيعة حينذاك؛ كون الغاية من اختيار المادة المكتوبة عليها مقادير الكون الدلالة على البقـاء والخلود في وجه تعديات الزمان.

وتظهر هذه الطبيعة من خلال أسطورة تأليه يوليوس قيصر، فعنـدما حاولـت الإلهـة فينوس أن ترفع شكواها لأبيها، إله السماء جوبيتر، ضد ربات القدر الثلاث، اللـواتي قضـين بالموت على قيصر، "غير أن أباها ناداها قائلا: أوَ تخالين يا ابنتي أنك في قدرتك وحدك تغيير القدر المقدور، توجهي إلى مقر ربات القدر الثلاث؛ حيث ترين سجلات الكون، ستجدين اللـوح المصنوع من البرونز والحديد، ذلك اللوح الخالد الذي لا يتحطم، ولا يخشى رعد السـماء، ولا غضب البرق، ولا أي زلزالٍ عاصف، وسترين ما قدّر على ذراريك محفورا علـى الصـلب، الذي لا يبلى. ولقد طالعت بنفسي ما هو مكتوب، ووعته ذاكرتي، وسأعيد على سمعك ما قرأتُ يا فينوس.. حتى لا تظلين – يا فينوس – جاهلة بالمستقبل. لقد انتهى عمر هذا الإنسـان الـذي تبكين من أجله، وأكمل سنيه التي كتبت له في لوح القدر أن يحياها، غير أنه سيصبح بعدُ إلهـا يصعد إلى السماء، وسوف تُقام طقوس عبادته في معابد الأرض جمعاء"[1].

حتى إن إله السماء، أكبر الآلهة جوبيتر، يلتزم بما قضي في لوح القدر، وقد كان "على وشك أن يرسل صواعقه على الأرض؛ لتأتي على من فيها أجمع، لولا أنه خشي إنْ هو أطلـق صواعقه الملتهبة أن تشب النار في طبقات الجو العالية، التي يسودها الصفاء، وتنتقل منها إلـى

([1]) أوفيد، الشاعر: **مسخ الكائنات**، ص331-332

قبة السماء كلها، كما ذكر ما جاء في لوح القدر من أنه سيكون وقت تشتعل فيه الأرض والبحار وقبة السماء، وينهار الكون أجمع، فعدل عما كان سيأخذ فيه من استخدام وسائل الـدمار التـي أعدها، ورأى أنْ يعمّ العالم بسيول جارفة تأتي على البشر أجمع"[1].

لقد استبدل جوبيتر الطوفان بالدمار الشامل؛ لأنه مكتوب ذلك في ألواح القدر، فما كتب في لوح القدر كتب على نفس جوبيتر، ولا بدّ من مراعاة الأقدار والمواقيـت بمـا سـلف بـه القضاء.

الإنسان

آدم وحواء

يتلخص خلق آدم بقول ابن كثير: "إنه تعالى خلق آدم عليه السلام بيده من طين لازب، وصوره بشرا سويا، ونفخ فيه من روحه"[2]، "واللازب: اللزج الصلب من حمأ مسنون منـتن، وإنما كان حمأ مسنونا بعد التراب، فخلق منه آدم بيده، قال: وكان إبليس يأتيه فيضربه برجلـه فيصلصل... قال: ثم يدخل في فيه ويخرج من دبره، ويدخل من دبره ويخرج من فيه "[3]، وهذا قبل أن ينفخ الله فيه من روحه.

وفي موضع آخر من تفسيره... يبعث الله ملك الموت ليأتيه بتراب من الأرض، فأخـذ من وجه الأرض وخلط، ولم يأخذ من مكان واحد، فأخذ تربة حمراء وبيضاء وسوداء؛ ولـذلك خرج بنو آدم مختلفين، وصعد به؛ فبُلّ التراب حتى عاد طينا لازبا، واللازب هو الذي يلتـزق بعضه ببعض، ولما بلغ الحين الذي يريد الله عز وجل، نفخ فيه من روحه، فسجد له الملائكـة كلهم أجمعون إلا إبليس أبى واستكبر[4].

([1]) أوفيد، الشاعر: **مسخ الكائنات**، ص37

([2]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج2، ص301

([3]) السابق، ج1، ص119

([4]) ينظر: السابق،ج2، ص120-121

وأما الهدف من خلق آدم وغايته فهو القيام بالعبادة والطاعة، قال تعالى: "إني جاعل في الأرض خليفة"[1]، أي "أني جاعل في الأرض خليفة مني، يخلفني في الحكم بالعدل بين خلقي، وأن ذلك الخليفة هو آدم، ومن قام مقامه في طاعة الله"[2].

وأما خلق حواء فتمّ بعدما خلق الله آدم، وألقى عليه السِنة، "ثم أخذ ضلعا من أضلاعه من شقه الأيسر، ولأم مكانه لحما، وآدم نائم، لم يهب حتى خلق الله من ضلعه تلك زوجته حواء، فسواها امرأة ليسكن إليها"[3]، أما لماذا سمّاها حواء فينقل ابن كثير عن عدد من الصحابة: "قالت له الملائكة ينظرون ما بلغ من علمه: ما اسمها يا آدم؟ قال: حواء، قالوا: ولم حواء؟ قال: إنها خلقت من شيء حيّ"[4].

وقد أسكنهما الله الجنة، ونهاهما عن الأكل من شجرة من أشجارها، وقد اختلف في نوع هذه الشجرة على أنها: الكرْم أو العنب، والحنطة أو السنبلة أو البر، والنخلة، والتينة[5]، ولكن إبليس لم يتركهما وشأنهما؛ فوسوس لهما وأزلهما، فكيف أمكن لإبليس أن يدخل الجنة المطهرة؟ وهو ما تساءله المفسرون، وذكروا عن " السلف كالسدي بأسانيده، وأبي العالية، ووهب بن مُنَبّه، وغيرهم أخبارا إسرائيلية من قصة إبليس والحية، وكيف جرى دخول إبليس إلى الجنة ووسوسته؟"[6].

"وأجاب الجمهور بأجوبة، أحدها: أنه مُنع من دخول الجنة مكرما، فأما على وجه السرقة والإهانة فلا يمتنع، ولهذا قال بعضهم: كما جاء في التوراة أنه دخل في فم الحية إلى الجنة"[7].

---

(1) سورة البقرة، آية: 30

(2) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج1، ص112

(3) السابق، ص124

(4) السابق،ص124

(5) ينظر: السابق، ص124–125

(6) السابق، ص125

(7) السابق، ج2، ص127

ولما خالفا أمر الله سبحانه، وأكلا من الشجرة، عاقبهما الله بالهبوط من الجنة، ومعهما إبليس والحية أيضا، "وقيل: المراد بالخطاب في (اهبطوا): آدم وحواء وإبليس والحية"[1]، وكان قضاء الله بالهبوط لهم جميعا متفرقين، فقد "أهبط آدم بالهند، وحواء بجده، وإبليس بدستميسان من البصرة على أميال، وأهبطت الحية بأصبهان"[2]، ونالت حواء جزاء إغرائها لآدم على المخالفة؛ فعن ابن عباس قال: لما أكل آدم من الشجرة، قيل له: لم أكلت من الشجرة التي نهيتك عنها؟ قال: حواء أمرتني، قال: فإنها قد أعقبتها أن لا تحمل إلا كرها، ولا تضع إلا كرها"[3].

وينقل ابن كثير في هذا الصدد أيضا: "خلقت حواء عليها السلام، فلما عصت، قال تعالى: إني خلقتك مطهرة، وسأدميك كما أدميت هذه الشجرة"[4].

يحتوي هذا التصور لأصل الإنسان على عناصر أساسية؛ أهمها أن خلق آدم كان من التراب والماء أي الطين، وأن هذا الخلق تعرض له الشيطان أو إبليس، كما أن الله سبحانه قد نفخ فيه من روحه، أي أن فيه شيء من الله تعالى، يجعله مخلوقا على صورته، والغاية من خلقه هو طاعة الله وعبادته، ثم خلق الله حواء من ضلع آدم، وأسكنهما الجنة، لكن الشيطان أو إبليس كاد لهما بوساطة الحية، ودعاهما للأكل من شجرة الخلد الممنوعة، مما ترتب على ذلك مخالفة أمر الله تعالى، الذي قرر أن يخرجهم من جنة الخلد، كما يشمل هذا التصور على خصوصية في العقاب نالتها حواء، فجعلها تتألم بالحيض والولادة.

والجدير بالذكر أن اسم آدم لم يرد في الأساطير صراحة سوى الأساطير الأوغاريتية، ولكن تكاثر ورود وصفه، وذكر حالة خلقه بأسماء ودلالات مختلفة.

ففي الأساطير السومرية نجد اسم الإلهة (ننتي نوجا)، "ويبدو أنها إلهة سومرية قديمة الأصل، إذ إن النصوص تذكرها عام 2600 ق.م... وهذه الإلهة هي التي نرجح أنها تشكل

([1]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ص308

([2]) السابق، ج1، ص126

([3]) السابق، ج2، ص307

([4]) السابق، ج1، ص102

الجذر اللغوي والمعنوي لشخصية (حواء)؛ لأن كلمة (ننتي) تعني السيدة التي تحيي، أي حواء، كما أن كلمة (تي) تحمل معنيين، أولهما: الحياة، وثانيهما: الضلع ولذلك نـــرجح... أن يكـــون ايحاء المعنى الثاني هو الذي ساهم في نشوء أسطورة خلق حواء من ضلع آدم"[1]، فهي ســـيدة الضلع، وسيدة الحياة،[2]، "وفي جنة الآلهة السومرية المعروفة باسم (دلمون) جاء الابن الإلهـــي أنكي، ويعني اسمه (إله الأرض)، وبالتحديد (اليابس المنزرع)، ممثلا لبدايـــة البشـــرية علـــى الأرض، ولكنه أصيب بمرض في ضلعه بعد أن أكل من ثمار، حرّمتها عليه الإلهة ننهورساج، فخلقت الآلهة إلهة انثى تحمل اسم (نن تي) لعلاج وتمريض أنكي"[3].

تقول الأسطورة السومرية عن الإله أنكي ومشروع خلق البشر:

" لدى استماعه كلمة أمه نامّو

غادر أنكي فراشه

وبعد أن قام...

الذكي والحكيم والفطن... والماهر

صانع كل شيء، قام بإعداد قالب

وصنعه بالقرب منه ودرسه بإمعان

وعندما توصل أنكي الصانع بشكل طبيعي

توصل إلى انجاز مشروعه بدقة

توجه عند ذلك إلى أمه نامّو:

أماه المخلوق الذي فكرتِ به

هوذا جاهز للقيام بالعمل من أجل الآلهة

([1]) الماجدي، خزعل: **المعتقدات الأمورية**، ص65-66

([2]) ينظر:هووك، صموئيل هنري: **منعطف المخيلة البشرية**، ص97

([3]) القمني،سيد: **الأسطورة والتراث**، ص160

عندما تعمدين إلى عراك كتلة

من الصلصال تستخرجينها من ضفاف الأبسو

سوف نعطي شكلا لصلصال ذلك القالب

وعندما ترغبين أنت بنفسك

أن تضعي له طبيعة

سوف تساعدك نينماخ

...

وتعين له نينماخ مهمة العمل من أجل الآلهة"[1]

وبعدما أخذت نينماخ عند ذلك الصلصال، وشكلت منه الإنسان، لم يستطع الحركة، ولا الرؤية، ولا الكلام، ولا تشكلت الأعضاء التناسلية... حينذاك يتولى أنكي وضع الروح فيـــه[2]، وأخيرا يقول أنكي:

"لنحتفل بمقدرتي الخلاقة

المتألقة بمهارة الصنع

ليقم إذن إنكوم ونينكوم (رجل وامرأة لهما رتبة سيد وسيدة ربما كانا منشدي الآلهة)

بإنشاد المدائح لي

اعترفي بتفوقي أي أختي

مجدي

ولنشيّد لي الآلهة معبدا"[3].

([1]) الشواف، قاسم: **ديوان الأساطير سومر وأكاد وآشور**، ج1، ص65-66

([2]) ينظر: السابق، ص67-71

([3]) السابق، ج1،ص72

من خلال هذه الأسطورة يتّضح أن فكرة خلق الإنسان بدأت مـــن الطـــين الصلصـــال، وغايتها القيام بمهمة لأجل الآلهة، وهذه المهمة هي الطاعة والتمجيد، ولم يتم هذا الخلق بشـــكل حيّ دون نفخ الروح من الإله أنكي[1]، ولقد "جاء الآلهة إلى أنكي طالبين منه أن يخلق لهم مـــن يحمل عنهم عبء العمل، ويقوم على خدمتهم، فيقوم أنكي بخلق الإنسان يساعده في ذلـــك أمـــه نمو، المياه الأولى، وننماخ، الأرض الأم، وبالتعاون مع ننماخ، وبعد الإنتهاء من صنع نمـــوذج الإنسان الأول تقوم ننماخ بإعطائه صورة الآلهة"[2]:

"ولسوف نعلق عليها صورة الآلهة

في هيئة الإنسان"[3].

وفي أسطورة أخرى، يُستعاض عن الروح بدم الآلهة، تقول:

"ومع لحمه ودمه

مزجت ننتو الطين...

فكانت روح من لحم الإله وتؤدي بالإنسان

الحي رمزا لها"[4].

وفي نص آخر:

"سوف نضحي بالّالين إلهين اثنين

بدمهما سوف نخلق البشر"[5].

وفي نص يحدد غاية خلق الإنسان:

([1]) ينظر: إلياد، ميرسيا: **تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية**، ج1، ص83

([2]) السواح، فراس: **الأسطورة والمعنى**، ص97-98

([3]) السواح، فراس: **مغامرة العقل الأولى**، ص46

([4]) الربيعو، تركي علي: **الإسلام وملحمة الخلق والأسطورة**، ص32

([5]) الشواف، قاسم: **ديوان الأساطير سومر وأكاد وآشور**، ج2، ص93

"ولكن بمعونة أنكي سوف نخلق الإنسان

الذي سوف يخشى الآلهة ويعبدها

فليعطني أنكي طينا أعجنه"[1].

وربما لفظ آدم هو ما دلّ عليه اللفظ العبري "بدمو طينو... أي طين مدمّى. وفي الآرامية (دمثو) أي تراب أحمر، تراب معجون بالدم. ولعل لفظ آدم يشير أيضا إلى ما ذهبنا إليه. آدم تعني أحمر بالعبرية، وكل اشتقاقاتها اللغوية"[2]، وهو ما يتفق مع الأسطورة البابلية التي ترى أن الإله (مردك أو مردوخ) انحنى على الأرض، و "شرع يعجن التراب بدمائه (أي دماء تيامات وهي تمثل جانب الشر في وجه مردوخ، الأمر الذي يفسر دخول إبليس الى آدم الطيني قبل نفخ الروح كما مرّ سابقا)، ويصنع من الطين ناسا تقوم على خدمة الآلهة، والصلاة لهم، وعبادتهم"[3]، كذلك يوكل لهم حكم الأرض التي صنعها، وسيكون الإنسان "خليفة مردوخ على الأرض، ووكيل سلطانه فيها:

توجّه الآلهة بالسؤال لبكرهم مردوخ

بعد كل ما صنعت يداك

لمن ستوكل سلطانك؟

وفوق الأرض التي أبدعتها يداك

لمن ستوكل حكمك"[4].

وهو ما يؤكده مردوخ في نص آخر، من أن غاية خلق الانسان هو خدمة الالهة، ويسمي الإنسان الأول لالو:

([1]) السواح، فراس: **مغامرة العقل الأولى**، ص102

([2]) الربيعو، تركي علي: **الإسلام وملحمة الخلق والأسطورة**، ص33

([3]) كامل، مجدي: **أشهر الأساطير في التاريخ**، ص41

([4]) السواح، فراس: **الأسطورة والمعنى**، ص96

"سأخلق دماء وعظاما

منها سأشكل لالو وسيكون اسمه الإنسان

نعم سوف أخلق لالو الإنسان

وسنفرض عليه خدمة الآلهة...

ومن دمائه

(أي دماء الإله كينغو، قائد جيش تعامة، وهو ما يشير الى دخول إبليس في قالب آدم الصلصالي قبل بعث الحياة فيه، خاصة اذا أضيف الى ذلك فكرة جريان الشيطان من ابن آدم مجرى الدم في العروق)

جرى خلق البشر"[1].

ولقد استخدم مردوخ المغرفة، حسب نص آخر، بدل قبضة اليد في غرف الطين:

"ثم وضع مردوخ مغرفة من قصب، وضعها على وجه الماء

وعجن طينا وسكبه مستعملا المغرفة

فلكي يخلد الآلهة ويهدأوا في مساكنهم

خلق لهم الإنسان

إلى جانبهم خلق لهم بذور البشر"[2].

وقد "كان الإنسان قديما يعتقد بأنه خلق من أجل خدمة الآلهة، وذلك عن طريق تقديم الطعام والشراب والمأوى لها ضمن طقوس وصلوات يقدمها في المعبد"[3].

([1]) السواح، فراس: **مغامرة العقل الأولى**، ص82

([2]) السابق، ص99

([3]) نعمة، حسن: **ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة**، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1994م، ص18

أما دخول عنصري الأفعى والشجرة إلى قصة آدم وحواء، فيمثلها أصدق تمثيل ما عثر عليه من أثر رافديّ، أثار الجدل؛ حيث "نجد في الرسم رجلا وامرأة يجلسان متقابلين وبينهما شجرة، يمدان يديهما إلى ثمارها، وخلف المرأة تنتصب حية طويلة، في وضع أشبه بوضع الهامس في أذن المرأة"[1]، والشكل[2]عبارة عن "ختم أسطوانة سومرية، ينتمي إلى حوالي منتصف الألف الثالث ق.م. كائن حاليا بالمتحف البريطاني بلندن، يمثل أفعى تنتصب خلف امرأة، تمدّ يدها في شكل دعوة للرجل الجالس أمامها؛ لتناول ثمرة من شجرة، أو نخلة بينهما"[3].

وتظهر "الحيّة كمسؤول عن خسارة الخلود"[4]، في ملحمة جلجامش أيضا، "فإذا كانت الحية قد توحدت صراحة بالشيطان حين تسلل إبليس إلى الجنة داخل الحية، والحية هي التي أغرت حواء بالأكل من الشجرة المحرمة"[5]؛ فخسر الإنسان الخلود، فإنها هنا تتمكن من الكيد، وتسلب نبتة الخلود من جلجامش الإنسان، وتنال بصفتها إبليس ما عزم عليه ضد آدم الإنسان من إغوائه، وإخراجه من خلوده في جنة رضوان الآلهة عليه:

"فرأى جلجامش بركة ماء بارد

نزل فيها واستحم بمائها

فتشممت أفعى رائحة النبتة

تسللت خارجة من الماء وخطفتها

وفيما هي عائدة تجدد جلدها

وهنا جلس جلجامش وبكى

---

(1) السواح، فراس: **مغامرة العقل الأولى**،ص248

(2) انظر: شكل رقم(3) في ملحق الصور

(3) القمني،سيد:**الأسطورة والتراث**، ص160

(4) السواح، فراس: **مغامرة العقل الأولى**، ص254

(5) عبد الحكيم، شوقي: **موسوعة الفلكلور والأساطير العربية**، مكتبة مدبولي، القاهرة، ص186

فاضت دموعه على خديه"[1].

وفي سياق الحديث عن الخلود، وعلاقة شجرة الخلد التي خالف آدم أمر الله؛ فأكل منها، وكانت النتيجة عكسية؛ تأتي صورة مشابهة من بعض جوانبها، "كما روت أسطورة آدبا البابلية، فآدبا والاسم هذا شديد الشبه بآدم، هو الإنسان الأول، الذي خسر الخلود بسبب غلطة صغيرة، تماما كآدم، فإنّ كليهما قد خسر الحياة الأبدية، وجلب الموت على ذريته من بعده"[2].

تقول الأسطورة: إن الإله (إيا) أوصاه بعدم الأكل من خبز الحياة:

"أحضروا له خبز الحياة ليأكل منه فلم يقربه

ثم أحضروا له شراب الحياة فلم يشرب منه...

فنظر إليه آنو وضحك منه

اقترب مني يا آدابا لماذا لم تأكل ولم تشرب؟

ألا تود الحصول على الخلود؟ واحسرتاه على البشر التعساء

لقد أمرني سيدي إيا ألا آكل وألا أشرب

خذوه واعيدوه إلى الأرض"[3].

وفي الأساطير الأمورية، تجد أن أسطورة خلق الإنسان، "أخذت ذات السلوك، فقد كان هناك إله السماء(مر)، وإلهة الأرض (أر)، وقد خلق هذان الإلهان الإنسان الأول، الذكر والأنثى على صورتهما، بل وإن هذين الإنسانين أخذا إسميهما من هذين الإلهين، كان اسم الرجل الأول...(مر)، وهو ما يفسر شيوع كلمة (إمرء) في اللغة العربية التي تدل على الرجل، أما اسم المرأة الأولى...(أر)، بل كان تأنيثا لاسم الرجل، وبذلك يكون (مرة)، وما زلنا حتى يومنا هذا نسمي المرأة (مره) في لهجاتنا الشعبية، كذلك نرى أن اسم امرأة ومرأة تطورا عن اسم (مرة)،

([1]) السواح، فراس: **جلجامش ملحمة الرافدين الخالدة**، ص234

([2]) السواح، فراس: **مغامرة العقل الأولى**،ص252

([3]) السواح، فراس: **مدخل إلى نصوص الشرق القديم**، ط1، دار علاء الدين، دمشق، 2006م ص123-124

وهو اسم المرأة الأولى، أو حواء الأولى... وهكذا يكون (مر) و (مرة) اسمين لآدم وحواء الأموريين"[1].

وأما ذكر آدم بالحرف فقد جاء في النصوص الأوغاريتية الفينيقية، "وتعني: البشر أو الإنسان، وقد وردت هذه الكلمة في عدة نصوص أوغاريتية، ومنها ملحمة كرت عندما يظهر الإله إيل للملك كرت في الحلم:

وبينما هو يبكي وقع في غفوة

بينما هو يذرف الدموع غلبه النعاس

نعم لقد غلب كرت النعاس

وغاب في سبات عميق

ولكنه ما لبث أن أجفل

إذ ظهر له في الحلم (إيل)

في رؤاه ظهر أبو آدم"[2].

وأما في الأساطير المصرية القديمة، فإن خلق الإنسان ليس بالوضوح الذي جاء في الأساطير الرافدية، فخلقه "لا يشغل مكانا خاصا في الميثولوجيا المصرية. هناك دلائل تمثيلية على (خنوم)، وهو يصنع البشر بدولاب الفخار"[3]، وهناك نص في كتاب الموتى الفرعوني يبعث بإشارة ضعيفة إلى خلق الإنسان؛ الذكر والانثى في صورة الأله:

"إنها قطرات الدم التي سقطت من عضو (رع)، عندما ذهب يبذر نفسه، لقد انبثقت إلى الوجود كإلهين هما (حو) و (سا) اللذان يسيران في ركب رع"[4]، وخاصة أن الأنسان هو الكائن

([1]) الماجدي، خزعل: **المعتقدات الأمورية**، ص97

([2]) السواح، فراس: **مغامرة العقل الأولى**،148

([3]) هووك، صموئيل هنري: **منعطف المخيلة البشرية**، ص59

([4]) إم هرو، برت: **كتاب الموتى الفرعوني**، 46

الفريد الذي ظهر على الأرض بوصف العاقل المدرك للحقائق، و(حو) يشير إلى عملية الإدراك، و(سا) يشير إلى عملية المعرفة العقلية[1].

ويذكر ميرسيا إلياد أن "البشر ولدوا من دموع إله الشمس رع، وفي نص مؤلف حوالي 2000ق.م... جاء فيه: إن البشر قطيع الإله كانوا بخير، فصنع الإله الشمس السماء والأرض على شرفهم... صنع الهواء لإحياء أنوفهم، لأنهم صوره، وناتجين من لحمه، إنه يشع في السماء، لقد صنع النبات من أجلهم، والحيوانات والطيور والأسماك لأجل غذائهم"[2].

وأما في الأساطير الإغريقية فالأمر لا يختلف عما فصلته سابقا، فإله الكون الذي صوّر العالم "هو الذي خلق الإنسان من بذرته... ثم أتى بروميثيوس بن يابيتوس[3] فقبض قبضة من تراب الأرض وعجنها بماء المطر، وسواها إنسانا على صورة الآلهة المهيمنة على كل شيء"[4].

وإذا استعرضت الكتاب المقدس للمندائية الصابئة وجدت قصة خلق الإنسان تتكرر باسميّ آدم وحواء، في أكثر من موطن، ولكن سأختار ما يفي بالغرض:

"آدم الذي من طين...

صور بثاهيل[5] آدم هيئة حواء زوجته...بثّ بثاهيل من روحه فيه... ولكن آدم لم يقم، عاد بثاهيل إلى أبيه، وصعد إلى منجم السر، وغاب فيه، ثم عاد بثاهيل، وفي عمامته السر الأعظم، وحين دنا من آدم تناوله منداد هيتي[6] من يده، وألقاه عليه، ففتح آدم عينيه... الذي

([1]) إم هرو، برت: **كتاب الموتى الفرعوني**، ص204-205

([2]) إلياد، ميرسيا: **تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية**، ج1، ص118

([3]) راعي البشر وحاميهم من غضب الآلهة ومانحهم خيرات الحضارة

([4]) أوفيد، الشاعر: **مسخ الكائنات**، ص33

([5]) بثاهيل: ملاك أثري يمثل الحياة الرابعة شارك في عملية الخلق والتكوين وله مطهر، ينظر: **مصطلحات كنزا ربا اليمين**

([6]) منداد هيتي: ملاك أثري نوراني ويعني عارف الحياة، **مصطلحات كنزا ربا اليمين**

جاءني من بيت الحي، من الحي أنا صرت... نهض آدم على رجليه، وسجد، وسبّح للأثـــري[1] الذي فتح عينيه، ثم تطلع إلى حواء، وتطلعت إليه"[2].

أما أصل خلق الإنسان وفق التوراة فأخرته كون "الديانة اليهودية ثبتت بشكلها النهائي في بابل، جعل من الطبيعي أن تتأثر بالديانات والمعتقدات التي كانت مسيطرة هناك فـــي ذلـــك الزمن"[3]؛ "وعلى ذلك فإن التراث اليهودي المتمثل في كتبهم وأسفارهم المقدسة لا يمثل العقلية اليهودية فحسب، بل يحمل في ثناياه ثقافات وحضارات ومعتقدات وعادات وطقوس الأمم التـــي عاش اليهود بينها عبر تاريخهم الطويل"[4].

تقول التوراة:

" وجبل الرب الإله آدم ترابا من الأرض، ونفخ في أنفه نسمة حياة. فصـــار آدم نفســـا حية، وغرس الرب الإله جنة في عدن شرقا، ووضع هناك آدم الذي جبله، وأنبت الرب الإلـــه من الأرض كل شجرة شهية للنظر، وجيدة للأكل، وشجرة الحياة في وسط الجنة، وشجرة معرفة الخير والشر... وأوصى الرب الإله آدم قائلا: من جميع شجر الجنة تأكل أكلا، وأمـــا شـــجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها، لأنك يوم تأكل منها موتا تموت... فأوقع الرب الإله ســـباتا على آدم فنام، فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحما، وبنى الرب الإله الضلع التي أخـــذها من آدم امرأة وأحضرها إلى آدم"[5]، " وكانت الحية أحيل جميع حيوانات البرية التـــي عملهـــا الرب الإله، فقالت للمرأة: أحقا قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة، فقالت المرأة للحية: من ثمر شجر الجنة نأكل، وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله: لا تأكلا منه ولا تمساه لـــئلا تموتا، فقالت الحية للمرأة: لن تموتا، بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله

([1]) أثري: هو الملاك، **مصطلحات كنزا ربا اليمين**

([2]) **كنزا ربا اليمين**، ص189-190

([3]) الزغبي، فتحي محمد: **تأثير اليهودية بالأديان الوثنية**، ط1، دار البشير للثقافة والعلوم الإســـلامية، مصـــر، 1994م، ص436

([4]) السابق، ص437

([5]) **سفر التكوين** 2:7-9، 16-17، 21-22

عارفين الخير والشر... فأخذت من ثمرها وأكلت، وأعطت رجلها أيضا معها فأكـل... وقـال للمرأة: تكثيرا أكثر أتعاب حبلك، بالوجع تلدين أولادا... ودعا آدم اسم امرأته حواء لأنها أم كل حي... فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل الأرض التي أخذ منها، فطرد الإنسان"[1].

وهكذا، يتبين مدى التوافق بين مختلف المصادر لأسطورة خلق الإنسـان، واشـتمالها جميعا على عناصر اساسية مشتركة، تجعل منها مكرورات لدى جميع الأمم تقريبـا، وأصـداء تتجلى في قاع المعتقدات، وبذلك يتأكد أن "قصة آدم، أو آدم وحواء، تكاد تكون قصة كونية"[2].

هابيل وقابيل

يقول تعالى: "واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبـل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين... فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله"[3].

عندما يتناول المفسرون هذا النص القرآني، يأخذ بالتضخم، ويطول بالتأويل، ويمتـزج بثقافات إضافية، وشيئا فشيئا؛ يُضفى هالة من القداسة على ما حول النص، يحرم المساس بهـا، فالنص القرآني "يبدو وكأنه وعاء لقوة خارجية، تفرقه عن محيطه، وتمنحه معنى وقيمة، وقـد تقيم هذه القوة في ماهية الشيء نفسه، أو في صورته، فصخرة تتكشف عن قدسية لأن وجودها بالذات هو تجلٍ للقدسي"[4].

كيف تناول ابن كثير حوادث هذا النص؟

ابن كثير كغيره من العلماء والمفسرين والمؤرخين يعيش في وسط إسـلامي، زاخـر بالثقافات المتعددة، تموج فيها تجليات ما قبل إسلامية، وشظايا أساطير، وبقايا معتقدات مترسبة في الفكر والوجدان، تنتح من علم المرويات والعرفان، وهذه القصة يلخصها في تفسـيره مـن خلال روايات عدّة، سأنقل منها ما يفي بالغرض:

([1]) **سفر التكوين** 1:3-6، 16- 24

([2]) عجينة، محمد: **موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالتها**، ط1، دار الفارابي، بيروت، 1994م، ج1، ص172

([3]) سورة المائدة، الآيات: 27-30

([4]) إلياد، مرسيا: **أسطورة العود الأبدي**، ط1، ترجمة: نهاد خياطة، طلاس، دمشق، 1987م، ص17

"كان لا يولد لآدم مولود إلا ولد معه جارية، فكان يزوج غلام هذا البطن جارية هذا البطن الآخر، ويزوج جارية هذا البطن غلام هذا البطن الآخر، حتى ولد له ابنان يقال لهما: قابيل وهابيل، وكان قابيل صاحب زرع، وكان هابيل صاحب ضرع، وكان قابيل أكبرهما، وكان له أخت أحسن من أخت هابيل، وإن هابيل طلب أن ينكح أخت قابيل فأبى عليه، وقال: هي أختي، ولدت معي، وهي أحسن من أختك، وأنا أحق أن أتزوج بها. فأمره أبوه أن يزوجها هابيل فأبى، وأنهما قربا قربانا إلى الله عز وجل أيهما أحق بالجارية... فلما قربا، قرب هابيل جذعة سمنة، وقرب قابيل حزمة سنبل، فوجد فيها سنبلة عظيمة، ففركها فأكلها. فنزلت النار؛ فأكلت قربان هابيل، وتركت قربان قابيل؛ فغضب، وقال: لأقتلنك حتى لا تنكح أختي"[1].

وفي رواية أخرى يصفها ابن كثير بالإسناد الجيد، جاء فيها: " فقربا قربانا، فتقبل من صاحب الكبش، ولم يتقبل من صاحب الزرع"[2]، وفي أخرى "إن صاحب الغنم قرّب أكرم غنمه، وأسمنها وأحسنها، طيبة بها نفسه، وإن صاحب الحرث قرب أشر حرثه؛ الكودن والزوان، غير طيبة بها نفسه، وإن الله عز وجل، تقبل قربان صاحب الغنم، ولم يتقبل قربان صاحب الحرث"[3]، "وكان الرجل إذا قرب قربانا، فرَضيه الله، أرسل إليه نارا فتأكله، وإن لم يكن رضيه الله خبت النار، فقربا قربانا، وكان أحدهما راعيا، وكان الآخر حراثا، وإن صاحب الغنم قرب خير غنمه وأسمنها، وقرب الآخر بعض زرعه، فجاءت النار فنزلت بينهما، فأكلت الشاة وتركت الزرع"[4]، "حتى قال ابن عباس وغيره: إنها الكبش الذي فدى به الذبيح، وهو مناسب"[5]؛ أي أن الكبش الذي قربه هابيل فأكلته النار، جعله الله فداء ابن ابراهيم، عندما همَّ بالتضحية بولده، كما يرى ابن كثير هذا قول مناسب.

إن عناصر هذه القصة التي سأقف عليها عارضا أساطير الأوائل حولها، هي: نزاع حول الزواج من فتاة جميلة، وحال كل من الأخوين المتنازعين؛ المزارع والراعي، والقربان

---

(1) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج2، ص63

(2) السابق، ص64

(3) السابق، ص64

(4) السابق، ج2، ص65

(5) السابق، ص65

المقبول عند الله كدلالة رضا، ومدى توافر هذه العناصر في أساطير قديمة مشابهة، وإنْ اعتراها بعضُ التحولات في مسارها المضطرب عبر تنقلاتها الطويلة.

"وقد اتضح من الأساطير السومرية التي عثر عليها المنقبون، أن قصة قابيل هابيل... التي تمثل النزاع بين الفلاح والراعي، ترجع جذورها إلى عهد موغل في القدم"[1].

ففي أسطورة سومرية تكشف عن صراع بين الأخوين؛ إيميش وإينتين، حيث يمثل إيميش العناية بالحيوان، ويمثل إينتين العناية بالزراعة وشؤونها، ويظهر من هذه الأسطورة أن نزاعا قد حدث بينهما، أدى إلى أن يتحاكما إلى الإله إنليل (إله الهواء)، فيحكم لإينتين، ويجعله فلاح الآلهة، تقول الأسطورة:

"جعل إينتين النعجة تلد الحمل والمعزى تلد الجدي

وجعل البقر يتكاثر، وأكثر من نتاج السمن واللبن

...في السهول أبهج قلب التيس...

وجعل من نتاج النخيل والأعناب الدبس والخمر

وأكثر من ثمار الأشجار حيثما نبت والكلأ...

وجعل الحقول تكثر من غلالها...

أما إيميش فإنه هو الذي أوجد الشجر والحقول

وجعل حظائر الماشية والأغنام كثيرة

وأكثر من نتاج المزارع...

(يحكم إنليل في الخلاف)

أجاب إنليل إيميش وإينتين وقال:

([1]) سوسة، أحمد: **العرب واليهود في التاريخ**، ط2، العربي للإعلام والنشر والطباعة، دمشق، 1973م، ص199

إينتين هو الذي يعرف سر الماء الذي

يحيي جميع الأرضين وبصفته فلاح الآلهة

لقد نتج كل شيء

فيا بني إيميش أنى لك أن تقرن نفسك بأخيك

إينتين...

وهكذا نـــفُيَ الخصام بين إينتين و إيميش

إينتين فلاح الآلهة المجد، ظهر أقوى من إيميش

فسبحانك يا أيها الأب إنليل"[1].

وفي أسطورة أخرى يظهر الوئام بين الأخ الراعي (لهار) والأخت الفلاحة (إنشان)، ثم يعقبه نزاع لا تعرَف نتيجته "بسبب فقدان الرقيم الذي يحكي هذه القصة"[2].

بينما يرى فراس السواح أن سبب الخصام في "أيهما أفضل من الآخر، ويبدي كل منهما مآثره، وفعاله، وكما هو الأمر في أسطورة إيميش، فإن لهار وأشنان يحتكمان إلى الآلهة، فيحكم إنليل وأنكي لأشنان المزارعة بالغلبة والتفوق، وتنتصر الزراعـــة للمـــرة الثانيـــة"[3]، تقـــول الأسطورة:

"نزل لهار و إنشان من الـــ "دول كوك"

وخصص إنليل و إنكي الماشية إلى لهار

وعيّنا له الخضار والعشب

وبنيا لأنشان بيتا

([1]) الربيعو، تركي علي: **الإسلام وملحمة الخلق والأسطورة**، ص115-116

([2]) السابق، ص118

([3]) السواح، فراس: **مغامرة العقل الأولى**، ص265

وقدما لها النير والمحراث

فاختص لهار بالماشية ورعاها

وهو راع قد أكثر خيرات الماشية والغنم

وإنشان عُنيت بالحقول والزرع"[1].

في تيْنكَ الأسطورتين نلمح عنصر الأخوة، وعنصر النزاع والخصام، ثم طلب التحكيم، وعنصر الحال لكلا الطرفين، وهما الراعي والمزارع دون أن يظهر عنصر الزواج.

وفي الأسطورة الثالثة الأكثر قربا من قصة هابيل وقابيل، هي الأسطورة التي سميت "إنانا تفضل الفلاح، وهي تمثل فكرة النزاع بين الفلاح والراعي أيضا، وأبطال القصة أربعة هم: (إنانا) وأخوها (أتو) إله الشمس، و(دموزي).. الإله الراعي، و (أنكيمدو) الإله الفلاح"[2].

"توشك إنانا أو عشتار في مستهل الأسطورة على اختيار زوج، ويتوزع اختيارها بين دموزي الراعي– الإله، وبين أنكيمدو الفلاح– الإله، يفضل أتو، شقيق إنانا، وإله الشمس اختيارها لدموزي، لكن إنانا بالذات تؤثر أنكيمدو"[3]:

"أنا العذراء سأتزوج المزارع

الفلاح الذي يزرع النباتات ويعطي الغلال الوفيرة

الفلاح الذي ينتج الحبوب الغزيرة"[4].

وفي محاولة من أخيها الإله أوتو[5] لإقناعها بدموزي، يقول:

" يا أختي، الراعي المكتنز أشياء كثيرة

([1]) الربيعو: **الإسلام وملحمة الخلق والأسطورة**، ص117

([2]) سوسة، أحمد: **العرب واليهود في التاريخ**، ص200

([3]) هووك، صموئيل هنري: **منعطف المخيلة البشرية**، ص28

([4]) السواح، فراس: **مغامرة العقل الأولى**، ص265

([5]) ملاحظة: اختلاف ضبط بعض الاسماء خاصة في الحركات الطويلة والقصيرة ناتج عن اختلاف ضبط المراجع

لماذا لا تحسنين إليه، يا أيتها العذراء أنانا؟

إن سمنه جيد وخمرته من التمر طيبة

وكل ما يمسه الراعي بيده جميل

فيا أنانا إن دموزي المكتنز أشياء كثيرة

وزاخر باللآلئ والأحجار الكريمة، لماذا لا تحسنين إليه؟

سمنه سيأكله معك

حامي الملك، لماذا لا تمنحينه حبك؟"[1].

وفي نهاية الأسطورة تقتنع إنانا بدموزي زوجا لها وتقبل قربانه:

"هل لدى الفلاح أكثر مني، هل يكثرني الفلاح

فأي شيء لدى الفلاح أكثر مني

إن هو يعطيني رداءه الأسود أعطيه نعجتي السوداء

وإن هو يعطني رداءه الأبيض أعطيه نعجتي البيضاء

وإن هو يسقني أعتق خمرته من التمر، أسقيه حليبي...

وإن هو يعطني أحسن ما قسم له أعطيه جبني الناعم

أصب له سمنا كثيرا، وأصب له حليبا وفيرا

آلفلاح أكثر مني، فأي شيء لديه أكثر مني؟"[2].

ويترفع أنكيمدو عن الاستمرار في الخصام ويقبل النتيجة بتسامح:

"أيها الراعي، لماذا تريد أن تبدأ خصاما؟

أي دموزي، لماذا تريد أن تبدأ معي خصاما؟

([1]) الربيعو، تركي علي: **الإسلام وملحمة الخلق والأسطورة**، ص118

([2]) السابق، ص119

ولماذا نعقد بيننا المقارنة؟

ألا فلتدع مواشيك تأكل عشب الأرض

وفي مروجي الخضراء فلترتع قطعانك

وفي سهول (زابالام) فلتأكل الحبوب

ولتشرب من ماء نهري (أونم)"[1].

ولكن هذا الانتصار والزواج، وقبول قربان دموزي الراعي، يعقبه فصل مأساوي لـــه؛ حيث تضحي به إنانا، "وتغدو التضحية بالراعي شرط لانتصـــار الزراعـــة، واســـتكمال دورة الخصب على الأرض"[2]، ويبدو أن "غاية الأسطورة هو تركيز مبدأ التعايش بين مهنتين؛ بحيث ينتفع كل صاحب مهنة من مزايا المهنة الأخرى في حالة من التكامل الذي تتطلبه عملية بنـــاء الحضارة"[3]، و"هذه الحالة عرضها القرآن الكريم ضمنا، في قصة داود وسليمان، وتحكيمهمـــا بين الراعي والفلاح؛ حيث إن مرحلة داود جبلية – رعوية، وأما مرحلـــة ســـليمان فرعويـــة- حضرية، هذا الصراع انتهى بسيادة حكم سليمان التوفيقي التصـــالحي تحقيقـــا للتعـــايش بـــين فكرتين"[4]، قال تعالى في هذا الشأن: " وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين، ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما وسخرنا مـــع داود الجبـــال يسبحن والطير وكنا فاعلين"[5].

وفي هذه الأسطورة ظهر التنافس واضحا بين الراعي والفلاح على الزواج من إنانا أو عشتار، التي تمثل المرأة الجميلة، وقد قدم كل منهما قربانه، وقبلت قربان الراعي، "ولكـــن دون نهاية مأساوية"[6] خلافا لنهاية قصة هابيل وقابيل الدموية.

([1]) السواح، فراس: **مغامرة العقل الأولى**، ص266-267

([2]) السابق، ص267

([3]) جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، قسم الدراسات والبحوث: **الأسطورة توثيق حضاري**، ص51

([4]) السابق، ص53

([5]) سورة الأنبياء، الآيتان: 78-79

([6]) هووك، صموئيل هنري: **منعطف المخيلة البشرية**، ص28

وما ذكره ابن كثير عن ابن عباس من أن كبش الراعي (القربان)هو كبش الفداء الـذي بعثه الله لإبراهيم ليفدي به الذبيح من ولده، يوحي بأن " الأضحية الحيوانية هي بديل ارتضـته الآلهة تخفيفا ومواساة للإنسان... وهذا ما يفسر قبول الرب لقربان هابيل الراعي وايثاره علـى قايين المزارع"[1].

وأما في الأساطير المصرية القديمة، فتكاد تتلاشى نظائر هذه الأسطورة، ويظهر أصلها في "أول البشر في مصر (أوزيريس) رمزا للأرض المنزرعة، إلها للخير، وأخاه (ست) رمـز البوادي والبداوة إلها للشر"[2].

وأما في التوراة، "فقد ولدت حواء قايين الذي كان يزرع الأرض، وهابيل راعي القطيع الصغير، وعندما قدم الأخوان أضحية الشكر، قايين من منتجات الأرض، وهابيل المواليد الأولى من قطيعه، قبل يهوه تقدمة هذا الأخير، ولم يقبل تقدمة قايين"[3].

جاء في سفر التكوين:

" كان هابيل راعيا للغنم، وكان قايين عاملا في الأرض، وحدث من بعد أيام أن قـايين قدم من أثمار الأرض قربانا للرب، وقدم هابيل أيضا من أبكار غنمه ومن سمانها. فنظر الرب إلى هابيل وقربانه. ولكن إلى قايين وقربانه لم ينظر. فاغتاظ قايين جدا وسقط وجهه... وكلـم قايين هابيل أخاه. وحدث إذ كانا في الحقل أن قايين قام على هابيل أخيه وقتله"[4]

الخضر

وليّ من أولياء الله، عدّه البعض نبيا[5]، صاحب العلم الرباني، يظهر في التفسير بشكل واضح مع نبي الله موسى عليه السلام، عندما قصده ليتعلم منه، وقد ذهب بعض العلمـاء إلـى

---

(1) الربيعو، تركي علي: **الإسلام وملحمة الخلق والأسطورة**، ص17

(2) القمني،سيد: **الأسطورة والتراث**، ص163

(3) إلياد، ميرسيا: **تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية**، ج1، ص208

(4) سفر التكوين4: 2-8

(5) ينظر: ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج3، ص195

"كونه باقيا إلى الآن، ثم إلى يوم القيامة"[1]، وذُكر أن اسمه بليا بن ملكان، وكـان يكنـى أبـا العباس، ويلقب بالخضر[2]، وجاء في حديث للبخاري في سبب تسميته بالخضر أن رسـول الله قال: "إنما سمي الخضر لأنه جلس على فروة، فإذا هي تهتز من تحته خضراء. والمراد بالفروة ههنا الحشيش اليابس، وهو الهشيم من النبات"[3].

وقد كانت علامة معرفة موسى وفتاه بمكان الخضر، من خلال عودة حوت ميت إلـى الحياة، كان يحمله الفتى لمأكلة، فانطلق في البحر سربا، بطريقة عجيبة؛ إذ إنها تصور عـودة الميت للحياة. وأما سبب عودته للحياة فذلك "أنه كان قد أمر بحمل حوت مملوح معه، وقيل له: متى فقدت الحوت فهو ثمة، فسارا حتى بلغا مجمع البحرين، وهناك عين، يقال لها: عين الحياة، فناما هنالك، وأصاب الحوت من رشاش ذلك الماء، فاضطرب، وكان في مكتل مع يوشع عليـه السلام (فتى موسى)، وطفر من المكتل إلى البحر"[4]، وعندئذ التقيا الخضر[5].

ثم أظهر الخضر لموسى عليه السلام بعض علمه بأسرار البواطن التي ظاهرها الباطل والموت والخراب، وباطنها الحق والحياة والعمار، وتجلى ذلك في ثلاثة حوادث، ظاهرها الشر، وباطنها الخير، وهي: خرق السفينة، وقتل نفس بغير نفس، وإصلاح جدار كـاد يـنقضّ دون مقابل، وهذه الحوادث كانت تنطوي على أسرار، فيها الرحمة التي خفيت عـن موسـى عليـه السلام، فلم يستطع صبرا معها؛ فكان الفراق بينه وبين الخضر، وقد أبان له عن مقاصدها، فأما خرق السفينة؛ فكان عيبا لغاية حفظها لصاحبها من ملك يأخذ كل سفينة غصبا، وأما قتل غـلام بغير نفس؛ فكان بقصد حفظ والديه من طغيانه وكفره وإرهاقه لهما، وقد أراد الله لهمـا غلامـا خيرا منه، وأما الجدار؛ فأقامه لحفظ كنز تحته حتى يبلغ الغلامين اليتيمين أشدهما، ويسـتخرجا كنزهما رحمة من الله لهما، وقد كان أبوهما صالحين.

---

(1) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج3، ص195
(2) السابق، ج3، ص195
(3) السابق، ج3، ص195
(4) السابق، ج3، ص184
(5) السابق، ج3، ص185-186

وبذلك يتبين أن الخضر يبعث الخضرة والحياة، وقد نال الخلود، و "أعطي الحياة، حتى بلغ من شأنه أنه يحشر مع هذه الأمة، وفي زمرتهم حتى يكون تبعا لمحمد صلى الله عليه وسلم، وهو رجل من قرن إبراهيم الخليل، وذي القرنين، وكان على مقدمة جنده، حيث طلب ذو القرنين عين الحياة، ففاتته وأصابها الخضر"[1].

وما كان الحوت الميت ليحيا، لولا ماء الحياة التي اندغمت في دلالة الخضر، ووجوده بالمكان، "فصارت حقيقة الحياة في الحوت... فعجب موسى من حياة حوت ميت، قد طبخ على النار"[2]، وربما الخضر نفسه نال الحياة الخالدة بشربة من هذا الماء، فقد "سافر الإسكندر ليشرب من هذا الماء اعتمادا على كلام أفلاطون أن من شرب من ماء الحياة، فإنه لا يموت؛ لأن أفلاطون كان قد بلغ هذا المحل، وشرب من هذا البحر، فهو باق إلى يومنا هذا، من جبل يسمى دراوند، وكان أرسطو تلميذ أفلاطون، وهو أستاذ الإسكندر، صحب الإسكندر في مسيره إلى مجمع البحرين، فلما وصل إلى أرض الظلمات، ساروا وتبعهم نفر من العسكر، وأقام الباقون بمدينة تسمى (ثُبُتْ)... وهو حدّ ما تطلع الشمس عليه، وكان في جملة من صحب الإسكندر من عسكره الخضر عليه السلام، فساروا مدة لا يعلمون عددها، ولا يدركون أمدها، وهم على ساحل البحر، وكلما نزلوا منزلا شربوا من الماء، فلما ملوا من طول السفر، أخذوا في الرجوع إلى حيث أقام العسكر، وقد كانوا مروا بمجمع البحرين على طريقهم، من غير أن يشعروا به، فما أقاموا عنده، ولا نزلوا به لعدم العلامة، وكان الخضر عليه السلام قد ألهم بأن أخذ طيرا، فذبحه وربطه على ساقه؛ فكان يمشي ورجله في الماء، فلما بلغ هذا المحل انتعش الطير، واضطرب عليه، فأقام عنده، وشرب من ذلك الماء، واغتسل منه، وسبح فيه، فكتمه عن الإسكندر، وكتم أمره إلى أن خرج، فلما نظر أرسطو إلى الخضر عليه السلام، علم أنه قد فاز من دونهم بذلك؛ فلزم خدمته إلى أن مات، واستفاد الخضر هو والإسكندر علوما جمة"[3]. وبذلك نال الخضر "الخلود وأصبح كل مكان مر به أخضر"[4].

([1]) الترمذي، محمد بن علي بن الحسن الحكيم: **كتاب ختم الأولياء**، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1965م، ص362

([2]) الجيلي، عبد الكريم بن إبراهيم: **الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل**، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م، ص250

([3]) السابق، ص250

([4]) عجينة، محمد: **موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالتها**، ج2، ص201

وقد ظهر الخضر في ميثولوجيا الشعوب بأسماء كثيرة، منها: إلياس[1] (إيليا)، وسنت جورج[2]، وجرجس[3]، أو مار جريس، ورباح، وبعل أو أدونيس[4].

أما صدى هذه الأسطورة، فيتردد من خلال ملحمة جلجامش، الذي بحث عن الخلود متخطيا البحار والأنهار، ومجتازا الفلوات والمخاطر، ولكنه بعدما وجد نبتة الخلود خسرها عند عين ماء، وفازت بها الحية، "بينما شرب الخضر من ماء الخلود فكان صاحب العين؛ لذلك هو حي غائب"[5].

"جلجامش الصافي الروع

فاتح ممرات الجبال

ناقب الآبار في سفوح المرتفعات

عبر المحيط، البحر المترامي إلى حيث تشرق الشمس

وارتاد أصقاع الأرض بحثا عن الحياة

شق طريقه بعزم يديه إلى أوتنابشتيم البعيد

الذي استرد إلى الحياة ما خربه الطوفان "[6].

ولكن بعدما حصل على نبتة الخلود

" رأى جلجامش بركة ماء بارد

نزل فيها واستحم بمائها

([1]) ينظر: عودة، أحمد حسين: **ثلاثة عظماء من القرآن الكريم**،ط1، جمعية القرآن الكريم، بيروت، 2013م، ص17

([2]) إلياد، ميرسيا: **تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية**،ج2،ص440

([3]) السابق،ج3،ص246

([4]) فريزر، جيمس: **أدونيس أو تموز**، ترجمة: جبرا إبراهيم جبرا، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت،1979م، ص78

([5]) القمني،سيد:**الأسطورة والتراث**، ص235

([6]) السواح، فراس: **جلجامش ملحمة الرافدين الخالدة**، ص109

فتشممت أفعى رائحة النبتة

تسللت خارجة من الماء وخطفتها

فيما هي عائدة تجدد جلدها

وهنا جلس جلجامش وبكى"[1].

"واسم الخَضِر... يعني الأخضر، وهي صفة قديمة للإله تموز البابلي ابن الأم الكبرى عشتار، الذي كان من بعدها تجسيدا لروح النبات، وليس الخضر في الواقع إلا استمرارا في الخيال الشعبي لذلك الإله الزراعي، الذي يجدد حياته في كل عام بالموت والبعث، وهو مثله السيد الحي في كل زمان ومكان"[2].

وكما كان الخضر رمزا للخصب والاخضرار، فحيثما حل من موات استحال للخضرة؛ فكذلك "حورس قد تربع على عرشه...(و) اكتسى العالم بالخضرة بواسطتك"[3]. "والخضر حاضر غائب يظهر في وقت إلى آخر للقيامة بمعجزة، أو لتأدية خدمة للصالحين"[4]، "فهو يكشف عن نفسه أحيانا في معابده الكثيرة المبثوثة في طول البلاد وعرضها، وفي كل منها ضريح أو ما يشبه الضريح"[5].

وبهذا تبقى "روح الخضر على اتصال مباشر بالبشر... هذا الاتصال الذي يعبّر عن تطور في العلاقة بعالم الروح، عبر الوسطاء الصالحين، فيرتدي نسيجا عجيبا أسطوريا في منطلقه، وإنما خيرا في أهدافه"[6].

إن ارتباط الحياة بعين ماء، ثم حلول الخضرة، حيث حل الحي الخالد، لهو تعبير مكرور لروح أدونيس، التي تحل في الماء؛ لتهب الوجود حيثما حلّت بعثا، وحياة خضراء في

([1]) السواح، فراس: **جلجامش ملحمة الرافدين الخالدة**، ص234

([2]) السواح، فراس: **لغز عشتار**، ط8، دار علاء الدين، دمشق، 2002م، ص152-153

([3]) إم هرو، برت: **كتاب الموتى الفرعوني**، ص10

([4]) خليل،خليل أحمد: **مضمون الأسطورة في الفكر العربي**، ص96

([5]) فريزر، جيمس: **أدونيس أو تموز**، ص76

([6]) طربيه،جرجي أنطونيوس: **الوَجدية وأثرها في الأندلس**، ص69-70

المزروعات، والنباتات والأشجار، إنها العودة الميمونة، التي يستحيل معها كل يابس إلى أخضر، ينبض بالحياة، إنها هبة عظمى من الله سبحانه على الكائنات، وما الخضر إلا تجلٍ من تجلياتها.

الشيطان أو إبليس

يقول ابن كثير: "الشيطان في لغة العرب مشتق من شطن، إذا بعُد، فهو بعيد بطبعه عن طباع البشر، وبعيد بفسقه عن كل خير، وقيل: مشتق من شاط لأنه مخلوق من نار"(1).

وأما عن سبب تسميته بإبليس فيقول: "سماه إبليس إعلاما له بأنه قد أبلس من الرحمة، وأنزله من السماء مذموما مدحورا إلى الأرض"(2)؛ فقد كان إبليس قبل أن يُمسخ شيطانا من المقربين، وعندما امتنع عن السجود لآدم عليه السلام بدعوى "أنه خير منه فإنه مخلوق من نار وآدم خلق من طين، والنار خير من الطين في زعمه، وقد أخطأ في ذلك وخالف أمر الله تعالى، وكفر بذلك، فأبعده الله عز وجل، وأرغم أنفه، وطرده عن باب رحمته، ومحل أنسه، وحضرة قدسه"(3).

وقال ابن عباس "كان إبليس من حي من أحياء الملائكة، يقال لهم الجن، خلقوا من نار السموم من بين الملائكة، وكان اسمه الحارث، وكان خازنا من خزان الجنة، وخلقت الملائكة من نور غير هذا الحي"(4)، وفي رواية أخرى عن ابن عباس، قال: "كان إبليس من أشراف الملائكة، وأكرمهم قبيلة، وكان خازنا على الجنان، وكان له سلطان السماء الدنيا، وسلطان الأرض، وكان مما سولت له نفسه من قضاء الله أنه رأى أن له بذلك شرفا على أهل السماء، فوقع من ذلك في قلبه كبر... وكان اسمه عزازيل"(5)، و"عزازيل يعني إله الخراب والقفار، وقد ورد في التوراة، وهو رئيس الملائكة الذين هبطوا إلى الأرض فأعجبتهم بنات الناس، وتزوجوا

(1) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج1، ص32

(2) السابق، ج4، ص64

(3) السابق، ص64

(4) السابق، ج3، ص179

(5) السابق، ج3، ص179

منهن، ثم انهزموا أمام جند السماء؛ فلاذ بالصحراء"[1]، وفي موطن آخر، يقول في وصفه أنــه "من أشرف الملائكة، من ذوي الأجنحة الأربعة ثم أبلس بعد"[2].

وينقل ابن كثير روايات في أسر الملائكة له:

"كان إبليس من الجن الذين طردتهم الملائكة فأسره بعض الملائكة، فــذهب بــه إلــى السماء"[3]، وقد حدث هذا نتيجة قتال بين الملائكة والجن فقد "كانت الملائكة تقاتل الجن، فســبي إبليس، وكان صغيرا، فكان مع الملائكة، يتعبد معها، فلما أُمروا بالسجود لآدم ســجدوا فــأبى إبليس"[4].

وترتب على معصيته هذه أن "سخط الله عليــه فمســخه شــيطانا رجيمــا، لعنــه الله ممسوخا"[5]، وجعل الله مسكنه صدور بني آدم، ينقل ابن كثير أن إبليس قــال: "يــا رب إنــك أخرجتني من الجنة من أجل آدم، وإني لا أستطيعه إلا بسلطانك، قال: فأنت مسلط، قال: يا رب، زدني، قال: لا يولد له ولد إلا ولد لك مثله، قال: يا رب، زدني، قال: أجلــب علــيهم بخيلــك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد، وعدهم، وما يعدهم الشيطان إلا غرورا"[6].

وكان لإبليس صور عديدة، يتشكل فيها، منها صورة البشر، فقد تعرض لإبراهيم عليــه السلام حيث رماه بالجمرات [7]، كذلك "تصور في صورة سراقة بن مالك بن جعشم المــدلجي، يدبر المشركين، ويخبرهم أنه لا غالب لهم من الناس، فلما أبصر عدو الله الملائكة، نكص على عقبيه، وقال: إني بريء منكم، إني أرى ما لا ترون، فتشبث به الحارث بن هشام، وهو يرى أنه سراقة لما سمع من كلامه، فضرب في صدر الحارث؛ فسقط الحارث، وانطلق إبليس لا يُــرى

([1]) معدي، الحسيني: **أساطير الشعوب حول الجن والشياطين**، ط1، كنوز للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013م، ص79–80

([2]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج1، ص121

([3]) السابق، ج1، ص121

([4]) السابق، ج1، ص122

([5]) السابق،ج3، ص180

([6]) السابق، ج4، ص88

([7]) ينظر: السابق، ج1، ص276

حتى سقط في البحر، ورفع ثوبه"[1]، وذهابه إلى البحر يوافق ما رواه مسلم عن النبي الأمين من كون عرش إبليس على البحر؛ حيث سَأل النبيُّ ابن الصياد، فقال: "ما ترى؟ قال: أرى عرشا على الماء، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ترى عرش إبليس على البحر"[2]، كذلك ما نقله ابن كثير عن مسلم عن النبي قال: "إن الشيطان ليضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه في الناس"[3].

وللشيطان صور أخرى في غير البشر، من مثل الحية والكلب الأسود، وقد "استثنى الإمام أحمد صيد الكلب الأسود لأنه عنده مما يجب قتله، ولا يحل اقتناؤه؛ لما ثبت في صحيح مسلم عن أبي ذر أن رسول الله قال: يقطع الصلاة الحمار والمرأة والكلب الأسود، فقلت: ما بال الكلب الأسود من الأحمر؟ فقال: الكلب الأسود شيطان، وفي الحديث الآخر أن رسول الله أمر بقتل الكلاب، ثم قال:... اقتلوا منها كل أسود بهيم"[4].

وكما ذكرت سابقا عن دخول إبليس الجنة بوساطة الحية، فإنه في الجحيم يظهر من شجرة الزقزم في صور الحيات، وقيل المراد بقوله تعالى: "طلعها كأنه رؤوس الشياطين"[5]، "ضرب من الحيات، رؤوسها بشعة المنظر"[6]، وفيه "إضفاء صورة الشيطان على المظاهر الطبيعية القبيحة"[7]، وربما ما أورده ابن كثير في شأن الشجاع الأقرع، الذي يتمثل يوم القيامة لصاحب المال الذي لا يؤدي حق الله فيه، هو من هذا القبيل[8]، وكذلك هي الحيات في الدنيا مسخ الجن، وقد كان إبليس من الجن فمسخه الله بفسقه شيطانا، ثم تجلى الشيطان في صور الحيات، يقول ابن كثير في حديث غريب عن النبي صلى الله عليه وسلم: "الحيات مسخ

([1]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج2، ص469

([2]) النووي، محي الدين يحيى بن شرف: **صحيح مسلم بشرح النووي**،ط1، الدار الثقافية العربية، بيروت، 1930م، ج18، ص49

([3]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج1، ص217

([4]) السابق، ج2، ص24

([5]) سورة الصافات، آية: 65

([6]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج4، ص15

([7]) عسكر، قصي: **أساطير العرب قبل الإسلام**، ط1، دار معد، دمشق، 2007م، ص187

([8]) ينظر: ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج1، ص646

الجن"[1]؛ ولذلك حل قتلها "ولا يُختلف في قتلها"[2]، شأنها شأن الكلب الأسود، وقد نص الحديث على أنه شيطان، وكذلك فعل إبراهيم عليه؛ حيث رجم الشيطان كلما تعرض له[3]، ولكن يجب قتلها بعد أن تستأذنها ثلاثا، فإن بدت لك فاقتلها؛ حتى لا ينالك مكروه بقتلها دون استئذان[4].

وهو بذلك صورة من صور الجن؛ حيث جاء في الحديث: "الجن ثلاثة أصناف: صنف لهم أجنحة، يطيرون في الهواء، وصنف حيات وكلاب، وصنف يحلون ويظعنون"[5].

ويظهر الشيطان في البشر من خلال الموتة والكبر والشِعر، وهذه همزه ونفخه ونفثه؛ ولذلك تعوذ منها الرسول الكريم، فقال: "اللهم أعوذ بك من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه الشعر"[6]، كما يجعل المفسرون السحر من تعليم الشيطان، قال تعالى: "واتبعوا ما تتلوا الشياطين"[7]، وفيها يقول الحسن: "ثلث الشعر، وثلث السحر، وثلث الكهانة"[8]، وبتعاليم سحره استحالت حبال السحرة وعصيّهم إلى حيات "كأمثال الحبال قد ملأت الوادي، يركب بعضها بعضا"[9].

ولكن هذا الشيطان وإن كان تـُرك له المجال على الأرض يصول ويجول، فإنه قد سُدت أمامه مسالك السماء، ورصدت له الشهب، وترك لعالم الشهادة، وحُجب عن عالم الملكوت، يقول ابن كثير من رواية ابن عباس: "كان للشيطان مقاعد في السماء، قال: فكانوا يستمعون الوحي، قال: وكانت النجوم لا تجري، وكانت الشياطين لا ترمى، قال: فإذا سمعوا الوحي نزلوا إلى الأرض فزادوا في الكلمة تسعا، قال: فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(1) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج2، ص111

(2) السابق: ج2، ص147

(3) ينظر: السابق: ج1، ص276

(4) ينظر: الشبلي، بدر الدين ابو عبد الله محمد بن عبد الله: **غرائب وعجائب الجن كما يصورها القرآن والسنة**، مكتبة القرآن، القاهرة، 1982م، ص84

(5) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج3، ص828

(6) السابق ج1، ص30

(7) سورة البقرة، آية: 102

(8) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج1، ص208

(9) السابق: ج2، ص353

جعل الشيطان إذا قصد مقعده جاءه شهاب فلم يخطئه، حتى يحرقه، قال: فشكوا ذلك إلى إبليس لعنه الله، فقال: ما هو إلا أمر حدث، قال: فبعث جنوده، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بين جبلي نخلة... فرجعوا إلى إبليس، فأخبروه، فقال: هذا الذي حدث"[1].

مما سبق يتبين أن إبليس كان كائنا من المقربين من الحضرة الإلهية، خلق من نار، فتمرد على أمر الله وتكبر؛ فطرده الله من الرحمة، وصار شيطانا شريرا، وسلك طريق الغواية، يقعد لبني آدم متجليا لهم بالفكر والخاطر تارة، وبالفعل والسلوك تارة أخرى، ومتصورا لهم في صور شتى، وأشكال عدّة، كالآدمي والكلب والحية، ينفث وسواسه وشره بوسائط مختلفة، كالساحر والشاعر والكاهن، وبجنود آخرين كالمال والبنين، وقد اتخذ البحر عرشا له ومستقرا، وجرى من ابن آدم كالدم في العروق، وجعلت له الصدور مسكنا، والعالم شركا، والجحيم مصيرا، وصار "كل فكرة عن الشر يمكن أن تخطر على الذهن البشري، قد تمثلت في صورة الشيطان"[2].

لقد ظهرت فكرة الشيطان "أول مرة في تعاليم زرادشت – حوالي مطلع الألف الأول قبل الميلاد– ثم تابعت ظهوراتها بتنويعات ومضامين مختلفة خلال أكثر من ألف عام تلت، ودخلت في صميم معتقدات يدين بها اليوم أكثر من نصف سكان المعمورة"[3]، فزرادشت "كان أول من تصور وجود مبدأ كوني للشر، هو علة الفساد، والنموذج البدئي لكل الشرور المتبدية في العالم، وجسّد هذا المبدأ في شخصية ما ورائية كبرى"[4].

جاء في أفيستا، الكتاب المقدس للزرادشتية:

"من البلد الشمالي، من البلدان الشمالية أسرع أنكرامانيو مليئا بالموت، إبليس الأبالسة، هكذا قال الشرير والمليء بالموت أنكرامانيو: تقدم أيها الدروج، واقتل زرادشت الصالح، فأحاط

(1) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج4، ص5

(2) العقاد، عباس محمود: **إبليس**، دار الكتاب العربي، بيروت، ص34

(3) السواح، فراس: **الرحمن والشيطان**، ط3، دار علاء الدين، دمشق، 2004م، ص7

(4) السابق: ص99

به الدروج والشيطان بويتي[1] والكراهية والهلاك القاتل... فكر زرادشت في قرارة نفسه: الأبالسة الأشرار والحاقدون، والأشرار يتشاورون حول مقتلي، قام زرادشت... ماسكا بيديه أحجارا بحجم المنزل... سأهزم مخلوقات الأبالسة... أجاب أنكرامانيو: تبرأ من ديانة مازداياسنا الخيرة، وستجد السعادة"[2]، لكن زرادشت يرفض، ويجابه الأبالسة بالصلاة والصدق والصلاح والطهارة والخير والحكمة، وإن تمكن الشيطان من إماتته، فروحه ستذهب إلى إله النور، وتنعم بالسعادة، وفي المقابل سيملك "الشيطان روح الإنسان السيّئ المقيدة، الإنسان الذي يعبد الشيطان الحي المقرف الذي قاده الشر، والذي قادته الحقيقة آشا، يسيران بطريقهما التي جهزه الزمن، وعند الجسر (أي الصراط)، الذي صنعه مازدا، عند جسر جينفات النقي، هذا هو مكان الحسم... هنا تأتي عذراء رائعة، ذات قامة ممشوقة منتعشة طويلة، ترافقها القداسة، الحقيقة والسلطة العظيمة، تسقط هذه العذراء الأرواح الشريرة للناس السيئين في الظلام، أما أرواح الناس الأتقياء فتأتي إلى سلطتها في الطرف الثاني على جبل هارابيرزايتي العالي، تقود هذه العذراء الصالحين عبر جسر جينفات، وتلحقهم بملائكة اليازاد السماويين، هناك ستقوم الروح الخيرة من عرشها الذهبي للقاء الصالح، وتقول له: وأخيرا وصلت إلينا طاهرا من العالم العابر إلى عالم لا يعرف الانحلال، تتقدم أرواح الصالحين نحو آهورامازدا نحو المقدسين الخالدين، نحو عروشهم الذهبية، نحو كارونمان، مقر آهورامازدا، ومقر المقدسين الخالدين، ومقر الطاهرين، عندما يتعرض الصالح للطهارة بعد موته، الأشرار الأبالسة ذوو الأفكار الشريرة يرتعبون من وجوده، مثلما يرتعب الحمل أمام الذئب"[3].

يبدو واضحا دور الشيطان في الزرادشتية؛ فهو يسكن العالم، ويأتي الإنسان بالأفكار الشريرة، وهو يسبب الموت، ومن يتبعه سيكون مصيره الجحيم، وكما ذكرت سابقا فهَمْز الشيطان الموت، وعندما تعرض لإبراهيم عليه السلام رجمه بالحجارة، وكذلك زرادشت حمل الحجارة في مواجهته، وعارضه، وهكذا يعرض زرادشت حال من تبع الشيطان ومن هجره في

---

(1) في البهلوية تعني شياطين الأديان الأخرى، وفي أفستا تعني شيطان الموت، والدروج من جنود أهريمان الشرير، منهم بوت الذي يخلق لهيبا قويا في جسد الانسان فيموت، ينظر: **هامش كتاب الأفستا**.

(2) عبد الرحمن: **أفستا**، ص721-722

(3) السابق، ص724

العالم الآخر، فقد رأى "إنسانا مشهورا مالكا ثراء فاحشا، الذي كابدت روحه في جسده، وقاست من عذابات جوع جهنمي، وهو بدا حزينا، وبالمقابل رأيت إنسانا يعيش في العوز فقيرا، وبدون سند، أما روحه فكانت مزدهرة في الجنة، وهو بدا لي سعيدا"[1].

أما أصل خلق أهريمان الشرير فهو من "العالم المظلم"[2]، وكذلك الجحيم مظلمة مع أنها نار؛ "فهي سوداء مظلمة مدلهة لا ضوء لها"[3].

إن الزرادشتية تقدم العالم في ثنائية من الخير والشر... من النور والظلمة، وهم بذلك يجعلون الشيطان كينونة شريرة مظلمة، ولهم "عقائد خاصة في خلق العالم؛ إذ كانوا يعتبرون كل ما هو جميل في هذا العالم من صنع الإله، ويعدون القبائح والشرور والمخلوقات الضارة من عمل الشيطان، والشيطان في نظرهم عفريت خبيث لئيم، شمر عن ساعد الجد؛ لإيذاء مخلوقات الإله، وصدهم عن سوء السبيل، ويعمل على نشر المعاصي، وخلق الآفات المختلفة بجد واجتهاد، وهو الذي جاء بالشيخوخة، والمرض، والألم، والتعب، والكذب، والرذيلة إلى الدنيا"[4].

أما البدايات الأولى لفكرة الشيطان فهي سابقة للزراداشتية، ومترسبة في قاع الأساطير الرافدية والكنعانية والمصرية القديمة، ففي الأساطير الرافدية ينقسم الكون "لطبيعة مزدوجة؛ مادة متناقضة، إن لم تكن شيطانية بكل صراحة، وشكل إلهي؛ لأنه صنعه مردوك، إن القبة السماوية مشكلة من نصف جسد تيامات، ولكن النجوم والأفلاك تصبح مقرات أو صور للآلهة، إن الأرض ذاتها تضم النصف الثاني من تيامات، وأعضائها المختلفة، ولكنها تقدست بالمدن والمعابد، وبنتيجة الحساب، فإن العالم يظهر حصيلة لخلط من أولية عميائية وشيطانية من جهة، وإبداعية وحضور وحكمة إلهية من الجهة الأخرى"[5]، تقول الأسطورة:

"وإذ استنهضت

([1]) عبد الرحمن: **أفستا**، ص731

([2]) السابق، ص796

([3]) القرطبي، عبد الله بن أحمد: **التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة**، مكتبة أسامة الإسلامية، القاهرة، ص449

([4]) يارشاطر، احسان: **الأساطير الإيرانية القديمة**، ص21

([5]) إلياد، ميرسيا: **تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية**، ج1، ص97

تيامت صنائعها

جمعت جيوشها من أجل المعركة

ضد ذريتها من الآلهة

ومنذ ذلك الحين وأكثر من أبسو

أظهرت تيامت علائم الشر

(لاحظ أنها لم تكن شريرة قبل ذلك شأن إبليس إذ كان أشرف الملائكة ومن المقربين)

ونقلت الأخبار إلى إيا

بأنها استنفرت قواها للقتال

وعندما تعرف إيا

على هذه القضية

بقي في البداية مشدوها دون حركة

وبقي صامتا

إلا أنه بعد أن عمد إلى التفكير

وبعد هدوء غضبه

توجه شخصيا لمقابلة جدّه أنشار...

(مفصحا له عن مؤامرة تيامت وإعدادها للحرب)

أعدت لنفسها أسلحة لا تقاوم

ذات أسنان حادة

وأنياب لا ترحم

ملأت أجسادها

بالسم عوضا عن الدم

كما ولدت حيات شرسة

(لاحظ عنصر الحيات في التكوين الشيطاني الشرير)

ألبستها ثوب الرعب...

من يراها تنهار قواه...

كما فتقت أيضا وحوشا مائية

وتنينات هائلة ومسوخا بحرية

وكذلك أسودا جبارة

وكلاب حراسة هائجة وبشرا-عقارب

ومسوخا هجومية

وبشرا أسماكا وثيرانا وحشية ضخمة

(لاحظ في الأسطورة تشكلات الشيطان، من التنينات والكلاب والوحوش، فهـي تتفـق تماما مع فكرة أن الشيطان مخلوق من نار، وهو التنين، وتشكلاته في بشر عقـارب، وكـلاب ووحوش شرسة)

جميعهم شاهرون أسلحة لا ترحم وهم

لا يعرفون الخوف في المعارك

لا حدّ لما خولوه من قدرات

ومقاومتهم غير ممكنة"[(1)]

لكن مع قيام مردوك بالنزال، وتمكنه منها، هزمت تيامت.

([1]) الشواف، قاسم: **ديوان الأساطير سومر وأكاد وآشور**، ج2، ص132-134

"وبارتياح عمد الإله

إلى التأمل في جثة تيامت

كان ينوي تقطيع هذا الجسم الهائل

ليضع منه العجائب

فشطره إلى نصفين

مثل سمكة يقصد تجفيفها

وتناول نصفها

وقنطره وجعل منه شكل سماء

ثم بسط جلده

ووضع عليه حراسا...

اجتاز السماء بعد ذلك

ودرس أماكن قاعات – الاحتفالات

لكي يقيم فيها نسخة مطابقة للأبسو...

كما أعد فيها منازل

الآلهة – العظام"[1].

ثم يتابع مردوك الخلق من جثة تيامت، فيخلق النجوم والكواكب والشمس والقمر والليل والنهار والرياح والسحاب والأنهار والجبال والأرض، وينظم الخلق، ويجلس على العرش مطاعا، والكل له ساجدين.

"وعند ذلك سجد الإيجيجي مجتمعين

([1]) الشواف: **ديوان الأساطير**، ج2، ص168–170

سجدوا أمامه

جميع الأنونانكي

قبلوا رجليه

وفي مؤتمرهم قرروا بالإجماع

السجود ووجوههم إلى الأرض"[1].

أما خلق الإنسان فلا يختلف عن الطبيعة المزدوجة للكون، فإن كان قد خلقه الإله مردوك، إلا إنه خُلق من دم الشيطان العتيق كينغو؛ ولذلك فهو ذو طبيعة خيّرة، وأخرى شيطانية، تجري منه مجرى الدم في العروق.

تقول الأسطورة الإنيوما إيليش "التي عثر عليها في آشور، وتعود لبدايات الألف الأول لما قبل الميلاد"[2]، في عقاب مردوك لكينغو:

"كينغو وحده

هو الذي حرّض على القتال

ودفع تيامت إلى الثورة

ونظم المعركة

عند ذلك عُمد إلى تقييده

وأُتيَ به أمام إيا

ومن ثم ولكي يتلقى عقابه

تمت إسالة دمه

([1]) الشواف: **ديوان الأساطير**، ج2، ص177-178

([2]) السابق، ج2، ص113

وبدمه

أنتج البشر...

فالفضل في ذلك يعود إلى موهبة مردوك"[1].

كما يظهر الشيطان الشرير في أسطورة جلجامش باسم الوحش خمبابا، لكن جلجامش يتمكن من القضاء عليه، ويواصل معراجه نحو الخلود، مستغيثا بمعرفة أوتنابشتيم، الذي نجا من الطوفان، وعاش في الخالدين.

"إلى أن يصل غابة الأرز

إلى أن يقتل خمبابا الرهيب

فيمحو من الأرض كل شر تكرهه"[2]

أما في الأساطير الأوغاريتية، فإن الإله (يم) يمثل الشيطان في صورة التنين، وكلمة (يم) "هي لفظة سامية مشتركة تعني البحر"[3]، و "يرمز إلى (يم) بلوياثان الحية المتلوية ذات الرؤوس السبعة، ويرمز إليه أيضا بالتنين"[4]. وأما الإله (موت) فيمثل الشيطان في صورة الظلام والموت، وهو في هذه الأساطير "إله الموت، وإله العالم السفلي المظلم البارد... فموطنه القفار، والأماكن الجافة اليابسة من الصحراء، عمله القضاء على الحياة"[5]، ولقد كان (يم) مقدما عند الإله الأكبر إيل، وفي الاسطورة يظهر مقر (يم) في البحر:

"أسرع في بناء قصر يم في تشييد هيكل

القاضي نهر

([1]) الشواف: **ديوان الأساطير**، ج2، ص187-188

([2]) السواح، فراس: **جلجامش ملحمة الرافدين الخالدة**، ص151

([3]) فريحة، أنيس: **ملاحم وأساطير من أوغاريت**، ص49

([4]) السابق، ص50

([5]) السابق، ص52

ينتشل يم من البحر"[1].

لكن (بعل) يدخل في صراع مع الإله يم، والإله موت:

"عندما جلس بنو القدس لتناول الطعام كان البعل

جالسا بجانب إيل وإذا

بالإلهة تشاهدهم، تشاهد رسل يم، بعثة القاضي نهر

فأحنت الآلهة رؤوسها على ركبها على عروش

سلطانها، فصرخ بها البعل: كيف أحنيت أيتها الآلهة رؤوسك

على ركبك، وعلى عروش سلطانك، اتحدي أيتها

الآلهة، لا تذعني لإهانة رسل يم"[2].

ثم ينتهي الصراع بهزيمة (يم) على يد بعل:

"فيهوي يم

ويسقط إلى الأرض، ارتقص الصولجان بيد البعل

كنسر وفي قبضته فسحق هامة الأمير

يم وجبهة القاضي نهر فهوى يم وسقط"[3].

وفي صراعه مع (موت) يتوجب عليه القضاء على الحية والتنين؛ فيدخل العالم السفلي:

"إن أردت أن تصرع

لوياثان الحية المعوجة إن أردت أن تقضي على

الحية المتلوية العاتية او الملعونة

([1]) فريحة، أنيس: **ملاحم وأساطير من أوغاريت**، ص109

([2]) السابق، ص113

([3]) السابق، ص121

ذات الرؤوس السبعة فإنك ستجد نفسك

وهنا منهمكا حتى وإن كانت السماء حزام ثوبك"[1].

لكنه يخرج منتصرا، ويُبعث بحياة جديدة بعد موته، ويقول:

"ألم أسحق يم حبيب

إيل؟ ألم أقضي على نهر الإله العظيم؟

ألم أكمّ فم التنين كما؟

ألم أسحق الحية المتلوية؟

الحية العاتية ذات الرؤوس السبعة

لقد سحقت حبيب آلهة الأرض موت...

سحقت عجل إيل الثائر

سحقت كلبة الآلهة النار

قضيت على ابنة إيل النار الملتهبة"[2].

وفي هذا تصوير لأشكال متعددة للشيطان في صور: التنين، والحية، والعجل الثائر، والكلب، والنار الملتهبة، حتى نجد له تجليات في الوجه الأسود لعناة[3]، ويكشف هذا النص عن كون يم حبيب إيل كبير الآلهة، والإله السماوي، وهو ما يتشابه إلى حد بعيد مع كون إبليس أشرف الملائكة المقربين في السماء قبل الهبوط، وأما صورة العجل الثائر لتجليات (يم)، فتتشابه مع صورة البعير في البيئة الصحراوية لتجليات الشيطان، يروي ابن كثير أن رسول الله قال:

([1]) فريحة، أنيس: **ملاحم وأساطير من أوغاريت**، ص158

([2]) السابق، ص197

([3]) ينظر: السواح، فراس: **لغز عشتار**، ص217

"على ظهر كل بعير شيطان، فإذا ركبتموها فسموا الله عز وجل"[1]، "فإنها خلقت من الشياطين"[2]، ولذلك نهيَ عن الصلاة في معاطنها[3]، وأنقض أكل لحمها الوضوء[4].

أما في الأساطير المصرية القديمة فالإله "سيت سيد العماء، والشواش الذي يعارض نظام الطبيعة، ويعمل على نشر الفوضى، ومملكته تقع في الجهة الشمالية من السماء... وهي إقليم الظلام والبرد والمطر والضباب والبروق والرعود، ومنه تأتي العواصف والأعاصير"[5]، وقد "تعددت رموز الإله سيت، فمن رموز سيت الحمار، ومنها الأفعى التي تشير إلى سيت في شكل الوحش الكوني آبيب، ومنها الخنزير البري، والعديد من المفترسات المائية، مثل التمساح، كما ساد الاعتقاد لدى المصريين بأن قوة الإله المدمرة تحل في بعض الحيوانات الشرسة، مثل: الكلاب والقطط البرية، والنمور، وما إليها"[6]؛ كما أن سيت "إله الشر...يمثل الصحراء بقحلها وقحطها، (و) يمثل الحسد والحقد... (وأما) هزم سيت أمام حورس... يمثل كذلك هزيمة الليل أمام النهار، وانتصار الحياة على الموت، والخير على الشر"[7].

أما في الميثولوجيا اليونانية، فنجد زيوس " يقوم بوظيفة أقرب إلى وظيفة الشيطان في الكون، بينما يقوم إله آخر هو بروثيوس المتمرد على زيوس، والذي ينصب عليه غضب رب الأرباب بتعليم الإنسان سر النار، ويلهمه الحكمة، ويعلمه الطريق إلى الخلود، ولهذا غضب عليه زيوس، واضطرمت ثورته بما يكشف غيرته من هذا الإله المنحاز للإنسان على الرغم من إرادة زيوس رب الأرباب"[8]، وهنا يختلط تقدير النفع والشر، وتختلط معه سمات الشيطان، وإني أرى أرى خلاف ما ذهب إليه البعض، من تقريب زيوس إلى دور الشيطان، إذ إنه يمثل أبا الآلهة

([1]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج4، ص181

([2]) ابن حجر العسقلاني: **فتح الباري**، ج1، ص694

([3]) ينظر: السابق، ص694

([4]) ينظر: العسقلاني، ابن حجر: **بلوغ المرام من أدلة الأحكام**، دار احياء الكتب العربية، ص27

([5]) السواح، فراس: **الرحمن والشيطان**، ص58

([6]) السابق، ص60

([7]) نعمة، حسن: **موسوعة ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة**، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1994م، ص255

([8]) معدي، الحسيني: **أساطير الشعوب حول الجن والشياطين**، ط1، كنوز للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013م، ص96

والبشر، وسيد الأولمب[1]، ولا ينبغي له هذا الدور مع هذا الثابت في الأساطير، وليس في منح البشر النار منقبة الخيرية المطلقة، فهي تشير إلى طبيعة نارية يتصف بها بروميثيوس، وهـذه طبيعة الشيطان، كما أن الإنسان استخدم النار في صناعة الأسلحة، التي صارت أشـد وسـائل الفتك، والظلم، وسفك الدماء، وهذا الحال يتفق ما يصبو إليه الشيطان، كما أنه ليس في تعلـيم الإنسان الخلود شرف التمجيد، وإنما هو مكر إبليس مع آدم في الجنة، حتى يخرجه منها ويشقى، وربما نجح بروميثيوس في ذلك، فهو وإن أظهر تبنّيه قضية الإنسان، ولكنه كان في ذلك ضـد الآلهة، وفي هذا يتوافق مع ظاهر إبليس تجاه الإنسان والله سبحانه، وأما خلقه للإنسان بطلب من زيوس[2]، فيدل على حالة قرب وسلام، كما كان إبليس في أول أمره، ومعلوم أن الانسان خلق، وفيه دم الشيطان كينغو يجري في عروقه، يقول زيوس مخاطبا برومثيوس:

"يا ابن يابيتس، بارعا فوق البارعين، كذلك يا سيدي لم تنس بعد أساليبك فـي المكـر والخداع"[3].

لكن هذا التوصيف الشيطاني كان لخير الإنسان، فقد غلب بروميثيوس الدهاء "واخـتلس قبسا من النار في جوف قصبته، وأحس زيوس مرسل الصواعق في العلا بلدغة في فؤاده؛ حيث لمح النار بين أبناء البشر"[4].

وربما هذا الالتباس لدى المؤمنين بآلهة متعددة على اختلاف ما يرضونه مـن صـفات لآلهتهم؛ كل بحسب درجة النفع لهم، يصبح الشيطان "خير ذريعة لتبرئة الله"[5]، لدى المـؤمنين به.

ولدى أفلاطون قول مختلف عن الأساطير الإغريقية، يظهر فيه جهده في تبرئة الآلهـة من فعل الشر، فقد أعلن "أن الضرورة التي جعلت الإله الصانع يقوم بصنع هذا العالم هو ميلـه

([1]) ينظر: شابيرو: **معجم الأساطير**،ص270

([2]) ينظر: السابق، ص209

([3]) العقاد، عباس محمود: **إبليس**، ص83

([4]) السابق، ص84

([5]) فرويد، سيغموند: **قلق في الحضارة**، ط1، ترجمة: جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، 1977م، ص 84

للخير فحسب"[1]، ويذهب إلى تقرير إلى أن الخير من الله، والشر من الناس، كما تبين لي من خلال مساجلة على لسان سقراط...، "الصالح علة كل شيء... بريء من ابتداع الشر... فالله على قدر ما هو صالح، لا يمكن أن يكون علة كل الأشياء، كما هو الشائع، بل على الضد، هو علة القليل من أحوال الناس... لأن شرورنا تفوق خيراتنا عددا، فلا نسند الخيرات إلى غيره، بل نفتش عن علة الشرور في غيره، لا فيه"[2]، ويخلص إلى "أن الله تعالى صانع الخير ليس إلا"[3]، دون ان يحدد مصدر الشر في الوجود بكائن ذي كينونة محددة كإبليس أو الشيطان.

أما في الكتاب المقدس لدى الصابئة المندائية فيظهر الشيطان كقوة تدميرية نارية، تستهدف الصالحين، "قال المردة والشياطين لكبيرهم وللرُّوهة [4]، أمهم وملكتهم: ما دام هؤلاء الرجال في أضويتهم فإن السيف لن ينال منهم.

غضبت الرُّوهة، وغضب إيل الرهيب، وقالا: لشياطين الغضب وللشيطان المسلط على النار: أوقدوا في العالم الحريق، في كل بيت وطريق، لا يبقى عدو ولا صديق، وأوقد في العالم النار، فمدّ مندادهيتي ظله فوق الثلاثة الأبرار[5]، قال المردة الأشرار: ما دام هؤلاء الرجال في في أضويتهم مقيمين فلن تصل إليهم أيدي الشياطين"[6].

إن كنزا ربا يعرض لحالة صراع بين الملائكة النورانيين والشياطين الناريين، ينتهي هذا الصراع بحماية الحي العظيم لكل من دخل نوره وضياءه، فلا سلطان للشياطين عليهم، والشيطان حسب كنزا ربا يتجلى في قوة طبيعية مدمرة، وفي قوة خلقية فاسدة، كما استبان مما اقتبسته من نصهم المقدس، فالنار تمثل القوة الطبيعية المهلكة، والغضب يمثل القوة الخلقية المفسدة، وابن كثير يفسر قوله تعالى: "وإما ينزغنك من الشيطان نزغ..."[7]، بقوله: "وإما

([1]) عباس، محمد: **أفلاطون والأسطورة**، دار التنوير، بيروت، 2008م، ص135

([2]) أفلاطون: **جمهورية أفلاطون**، ترجمة: حنا خباز، دار القلم، بيروت، ص68

([3]) السابق، ص69

([4]) الروهة من أسماء الروح الشريرة أم عالم الظلام

([5]) أي هيبل وشيتل وآنوشي، وهم مؤمنون بالحي العظيم وهم من الملائكة المطهرين

([6]) **كنزا ربا اليمين**، ص211-212

([7]) سورة الأعراف، آية: 200

يغضبك من الشيطان غضب"[1]، فالغضب قوة شيطانية مهلكة للنفس، وصارفة لها عن الخير والصلاح، كذلك يفسر بعضهم طائف الشيطان بالغضب[2] في قوله تعالى: إذا مسهم طائف من الشيطان"[3].

وإذا يممتُ البحث شطر العهد القديم؛ فلن أبتعد في مفهوم الشيطان عما سلف، وما التوراة إلا مكرورات الأولين، ظهر بها ما ترسب بمرور الأزمان، وسالف الحسبان، فقد "أخذوا بعضها من الأدب البابلي في أثناء أسرهم، ولكن أرجح من هذا أنهم أخذوها قبل ذلك العهد بزمن طويل من مصادر سامية، وسومرية قديمة، كانت منتشرة في جميع بلاد الشرق الأدنى"[4].

ففي التوراة يندمج "الإله والشيطان في شخصية واحدة هي شخصية يهوه، الذي نراه يلعب الدورين ببراعة"[5]؛ حيث جاء في العهد القديم:

"أنا الرب وليس آخر، مصدر النور، وخالق الظلمة، صانع السلام، وخالق الشر، أنا الرب صانع كل هذه"[6].

وبحسب قول العقاد: "لم يُذكر الشيطان في كتاب من الكتب قبل عصر المنفى إلى أرض بابل سنة (586 قبل الميلاد)... ثم كان ذكره فيها على الوصف، لا على التسمية، فجاء مرة بمعنى الخصم في القضية، وجاء مرة أخرى بمعنى المقاوم في الحرب، وأطلق مرة على الملك الذي يتصدى لبلعام في طريقه؛ لأنه كان بمعنى المعترض أو الضد أو الخصم المقاوم، ولم يذكر بصيغة العَلم إلا حيث قيل في الإصحاح الحادي والعشرين من سفر الأيام أنه وقف الشيطان ضد

([1]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج2، ص413

([2]) ينظر: السابق، ج2، ص413

([3]) سورة الأعراف، آية: 201

([4]) ديورانت، ول: **قصة الحضارة**، ترجمة: زكي محمود وزميله، مكتبة الأسرة، مصر، 2001م، المجلد الأول، ج2، ص368

([5]) السواح، فراس: **الرحمن والشيطان**، ص127

([6]) **أشعياء** 45: 6-7

إسرائيل"[1]، "ومع ذلك فإن الشيطان لم يكن غائبا تماما رغم ضآلة دوره، وقلة حيلتـــه، وهـــو يظهر شريك ليهوي أحيانا وتابعا له في أحيان أخرى"[2].

وفي قصة أيوب عليه السلام يأتي الشيطان اللهَ سبحانه مع الملائكة ليشي بأيوب، ثـــم يسمح له الله أن يمسه بفتنة، ويفعل ما يؤمر به، "وكان ذات يوم أنه جاء بنو الله ليمثلـــوا أمـــام الرب، وجاء الشيطان أيضا في وسطهم، فقال الرب للشيطان: من أين جئت؟ فأجاب الشـــيطان الرب، وقال: من الجوَلان في الأرض، ومن التمشي فيها، فقال الرب للشيطان: هل جعلت قلبك على عبدي أيوب؟ لأنه ليس مثله في الأرض رجل كامل ومستقيم، يتقي الله، ويحيد عن الشـــر، فأجاب الشيطان الرب، وقال: هل مجانا يتقي أيوب الله؟ أليس أنك سيّجت حوله وحـــول بيتـــه وحول كل ما له من كل ناحية؟ باركت أعمال يديْه؛ فانتشرت مواشيه في الأرض، ولكن أبســـط يدك الآن، ومسّ كل ما له فإنه في وجهك يجدّف عليك. فقال الرب للشيطان: هو ذا كل ما لـــه في يدك، وإنما إليه لا تمد يدك، ثم خرج الشيطان من أمام وجه الرب"[3].

وإن كانت التوراة لا تذكر الشيطان أو إبليس في قصة آدم وحواء، وخروجهما من الجنة إلا أنها تذكر صورة من صور تشكل الشيطان، وهي الحية[4].

ومن هذه النصوص، يتبين تمثلات الشيطان الطبيعية، في الحية والأمراض، وما أشـــبه ذلك، وتمثلاته النفسية والخلقية، من خلال حماية قلب أيوب، الذي هو محل الأعمال النفســـانية والخلقية، كالرضا والغضب ونحو ذلك.

إن الشيطان ما هو إلا صنف من الملائكة الأشرار، يستخدمهم الله ســـبحانه ضـــد مـــن يحمون غضبه عليهم، "أما هو فرؤوف يغفر الإثم، ولا يهلك، وكثيرا ما ردّ غضبه، ولم يشـــعل

([1]) العقاد، عباس محمود: **إبليس**، ص94-95

([2]) السواح، فراس: **الرحمن والشيطان**، ص128

([3]) أيوب 1: 6-12

([4]) ينظر: **التكوين** 3: 1-5: "وكانت الحية أصل جميع حيوانات البرية التي عملها الرب الإله، فقالت للمرأة: أحقا قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة؟ فقالت المرأة للحية: من ثمر شجر الجنة نأكل، وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة، فقـــال الله: لا تأكلا منه، ولا تمساه لئلا تموتا. فقالت الحية للمرأة: لن تموتا بل الله عالم أنه يوم تأكلان منـــه تنفـــتح أعينكمـــا، وتكونان كالله عارفين الخير والشر"

كل سخطه... أرسل عليهم حُمُوَّ غضبه سخطا ورجزا وضيقا، جيش من ملائكة أشرار، مهد سبيلا لغضبه، لم يمنع من الموت أنفسهم بل دفع حياتهم للوباء"[1].

ومن هؤلاء الجنود الأشرار من يستخدمهم الله تعالى كالوباء والحمى:

"الله جاء من تيمات، والقدوس من جبل فاران سِلاه، جلاله غطى السماوات والأرض، امتلأت من تسبيحه، وكان لمعان كالنور، له من يده شعاع، وهناك استتار قدرته، قدامه ذهبَ الوباء، وعند رجليْه خرجت الحمى... بغضب خطرتَ في الأرض، بسخط دُستَ الأمم"[2].

إن هذا الشيطان المهلك مهمته التدمير والتخريب، إنه خلق الله سبحانه:

"هأنذا قد خلقت الحداد الذي ينفخ الفحم في النار؛ ويُخرج آلة لعمله، وأنا خلقت المهلك ليخرب"[3].

وبهذه تصير "الفعاليات التدميرية للشيطان، ليست سوى الجانب الآخر من القدرة الخلاقة، والعمليات البناءة الأخرى التي تستثيرها"[4].

ويظهر كائن آخر مقابل الله عز وجل، تقدم له القرابين، ويسكن القفار والصحراء، وهو عزازيل:

"ومن جماعة بني إسرائيل، يأخذ تيسيْن من المعز لذبيحة خطية، وكبشا واحد لمحرقة... ويلقي هارون على التيسين قرعتين: قرعة للرب، وقرعة لعزازيل... وأما التيس الذي خرجت عليه القرعة لعزازيل؛ فيوقف حيا أمام الرب ليكفر عنه؛ ليرسله إلى عزازيل إلى البرية"[5].

---

(1) **المزمور** 78: 38-50

(2) **حبقوق3**: 3-12

(3) **أشعياء** 54: 16

(4) كامبل، جوزيف: **الأساطير والأحلام والدين**، دار الكلمة، دمشق، 2001م، ص194

(5) **لاويين** 16: 5-10

وأما فكرة صراع الملائكة مع الشياطين أو الجن على الأرض فتظهر جلية في السفر الرؤوي لأخنوخ؛ "عندما تكاثر البشر، ولد لهم بنات غضة، وجميلات، ورآهن الملائكة أبناء السماء فاشتهوهن، فقال بعضهم لبعض: لنذهب ونختر نساء من البشر، ولننجب أطفالا، فقال لهم شمهازا الذي كان رئيسهم: أخشى أن تتراجعوا، فأصبح وحدي المقترف لخطيئة كبيرة، فأجابوه: لنقسم كلنا لا عنين بعضنا بعضا ألا نتخلى عن هذا المخطط حتى نتمه، ونكون قد أنجزنا الأمر... اتخذوا نساء لأنفسهم، واحدة لكل منهم، وبدأوا بتقريبهن، وبالتنجس بالاحتكاك بهن، وعلموهن الأدوية والسحر والنبات، وأرشدوهن إلى الأعشاب، وحملت النساء، وولدن عمالقة، طولهم ثلاثة آلاف ذراع، ابتلعوا نتاج تعب البشر كله، إلى حدّ أن البشر لم يعودوا يستطيعون إطعامهم، وتحالف العمالقة ضدهم كي يقتلوهم، وابتلعوا البشر، وراحوا يذنبون تجاه الحيوانات كلها... وشربوا الدم... علم عزائيل البشر صنع السيوف والأسلحة والتروس والدروع، وهي أمور تعلمها الملائكة...وعلمهم شمهازا... الرقيات والسحر والشعوذة والمهارات.. فالناس فجروا وضلوا وضاعوا في دروبهم كلها... لما كان البشر يهلكون على الأرض صعد صراخ إلى السماوات"[1]، فأعلن الله سبحانه عقاب الملائكة والعمالقة، وأرسل لهم الملائكة الأبرار تقاتلهم، وكبل رفائيل قدمي ويدي عزائيل(عزازيل) وألقاه في الظلمات[2]، وهذا -الى حد بعيد- يشابه ما جرى من صراع الملائكة مع الجن على الأرض، وأسْر إبليس وأخذه الى السماء.

وفي المعتقدات المانوية، "يقول ماني بوجود مبدأين رئيسين، الأول هو الله، والثاني هو المادة، فمن الله يأتي كل خير، ومن المادة يأتي كل شر، وقد أنجبت المادة الشيطان، وهذا الشيطان ليس إلها رغم سلطته على النصف الظلم من الكون، وهو يخسر حربه مع الله"[3]، وهو كما يتبين من الأسطورة المانوية: "من تلك الأرض المظلمة كان الشيطان، لا أن يكون أزليا بعينه، ولكن جواهره كانت في عناصره أزلية، فاجتمعت تلك الجواهر من عناصره، (يقصد:

([1]) **مخطوطات قمران**، حققت بإشراف: أندريه دوبون، ترجمة:موسى ديب الخوري، دار الطليعة الجديدة، ط1، دمشق، 1998م، ج2، ص31-32

([2]) السابق، ج2، ص33

([3]) السواح، فراس: **دين الإنسان**، ط4، دار علاء الدين، دمشق، 2002م، ص104

الضباب، والحريق، والسموم، والسم، والظلمة)، فتكونت شيطانا، رأسه كرأس أسد، وبدنه كبدن تنين، وجناحه كجناح طائر، وذنبه كذنب حوت، وأرجله أربع كأرجل الدواب، فلما تكوّن هـذا الشيطان من الظلمة، تسمى إبليس القديم، ازدرد، واسترط، وأفسد، ومر يمنة ويسره، ونزل إلى السفل"[1].

وفي الأساطير التيبيتية، يعللون وجود الآلهة في السماء، كون الشيطان على الأرض، قد تسلل اليها من العالم السفلي "فالعالم خلق من قبل الآلهة السماوية (فيفا)، متخيلة كما لو أنها جبال السماء، فالبعض من هذه الآلهة نزل على الأرض جالبا معه الحيوانات والنباتات، وعلى الأرجح البشر الأول، وهذه الفترة الفردوسية عندما كان البشر يعيشون بالقرب من الأرباب، كان لها أن تدوم... ولكن شيطانا مستكنا تحت الطابق التاسع تحت الأرض، نجح في الإفلات، ونشر الشـر على الأرض، فانسحبت الأرباب للسماء، واستمر العالم بالتدهور... ومع ذلك... سيظهر علـى إثره عالم جديد، وستعود الآلهة إلى الأرض، وستبعث الأموات"[2].

وأما العرب في الجاهلية فقد أخذوا "فكرة الخير والشر عن الفرس واليونان والرومـان، فاعتقدوا بأن للإنسان شيطانا أو أكثر، وكان الشاعر يعرف شيطانه، ويسميه بالاسـم، ويصـفه بالتابع أو الرئي أو الملقي"[3]، وكانوا يقولون: "عن تلك اللحظات التي تفـيض بهـا القريحـة الشعرية: إنها من عمل الجن"[4].

ومن الطرائف في هذا الصدد ما يُروى من أن الفرزدق أتى الحسن، فقال: "إني هجوت إبليس، فاسمع؟ قال: لا حاجة لنا بما تقول، قال: لتسمعن أو لأخرجن، فأقول للناس: إن الحسـن ينهى عن هجاء إبليس، قال: اسكت، فإنك بلسانه تنطق"[5].

([1]) ابن النديم: **الفهرست**، دار المعرفة،بيروت، ص459

([2]) إلياد، ميرسيا: **تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية**، ج3، ص290

([3]) مسعود، ميخائيل: **الأساطير والمعتقدات العربية قبل الإسلام**، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، 1994م، ص140

([4]) الوردي، علي: **الأحلام بين العلم والعقيدة**، ط2، دار كوفان، لندن، 1994م، ص187

([5]) الأصفهاني، علي بن الحسين: **كتاب الأغاني**، ط3، تحقيق: إحسان عبـاس، دار صـادر، بيـروت، 2008م، ج21، ص213

الفصل الثالث

أساطير خرق العوائد الطبيعية

- الطوفان
- طيور الأبابيل
- ناقة صالح
- حية موسى
- نملة سليمان

الفصل الثالث

أساطير خرق العوائد الطبيعية

يحاول الإنسان – أيّ إنسان– منذ وجوده أن يفهم الطبيعة من حوله شيئا فشيئا، مادة وخاصيّة ونظاما؛ لكي يستأنسها، ويأمن غوائلها، ويستخدم بعضها لنفعه، وربما يفسر أمرها بما يفي برغبته، ويستكنه المجهول؛ حتى يستجلب سكينته، هذه الطبيعة التي هي أقوى منه في أحيان كثيرة لا تستكين لإرادته، ولا تخضع لتدبيره، وتأتيه بظواهر غريبة عنه في نوعها، أو في حجمها، أو في بعض صيرورتها التي لم يخبرها، أو لم يحظ بحقائق واقعها؛ عندئذ يأخذ الخيال سلطته، ويتشكل التصور بسطوته، ويستسلم الإنسان لصنيعته التي يأمن بها تارة، ويدفع بها عن نفسه شعور العجز المربك تارة أخرى.

هذه الطبيعة الولادة للمتغيرات، والسائرة في ديمومة ممتدة من المتناقضات، تجعل من الممكنات لا حدود لها في عالم الأسطورة، وتجعل باب الاحتمالات مشرعا على مصراعيه؛ لتعبره مدركات الإنسان، وهي مطمئنة آمنة.

وإنْ كانت هذه الطبيعة التزمتْ نظاما وخصائص عرفها الإنسان في جانب، لكنها تفارق ذلك في أحايين كثيرة، وفي مفارقاتها لا تخرج عن كونها منقادة في سيرورتها وصيرورتها لقوة ورائية غيبية، وما ألفتنا لها حينا إلا من طول العادة معها، وهي في أول أمرها خرق صار إلى عادة، فما يمنع أن تسير العادة إلى صيرورة الخرق؟

وهكذا تكثر الخوارق في الأساطير لتترك في النفس إيمانا ما، أو تحقق هدفا نبيلا، كانتصار على عادات الطبيعة بمعونة الإيمان بالآلهة، والقوى الغيبية الماورائية.

وفي هذا الفصل سأقدم تصورات خارقة للعادة لبعض الأحداث التاريخية، والمعتقدات السائرة في التفسير، من مثل: الطوفان، وطيور الأبابيل، وناقة ثمود، وحية موسى، ونملة سليمان، علما أنني ضربت صفحا عن ثلاثين خرقا ونيّف للعوائد الطبيعية مما ورد في التفسير موضوع البحث؛ وذلك لسببين، الأول: استيفاء القصد، وتحقق الغرض بما تناولته منها. والثاني:

الإطالة غير اللائقة في البحث التي تلزمني مع استعراضها، وصعوبة ذلك مع ضيق الوقت المتاح لإنجاز البحث، موضوع الدراسة. وسأذكر تلك الموضوعات لعلها تجد مقترحا لدراسة ما، تأخذها بالحسبان، وهي: إحياء الموتى، انشقاق البحر، انشقاق القمر، نار إبراهيم، بساط سليمان، الصعود إلى السماء، يونس في بطن الحوت، مائدة السماء، رفع الجبل ظلّة، مطر الحجارة، مطر الذهب، هروب الحجر بثوب موسى، سكينة التابوت، نقل عرش بلقيس، خاتم سليمان، انفجار المياه من الحجر المحمول، نبع الماء من بين الأصابع، نطق الحجر والشجر والطير، كلام الطفل بالبيان قبل الأوان، أهل الكهف، بكاء السماء بقطرات دم، اضاءة الظلمة من غير سببها، المن والسلوى، تكثير الطعام بقوة البركة، ضخامة الثمار بالمباركة، الحجر الأسود، إرم ذات العماد، جريان العائم عكس التيار، ضخامة الأجسام وقوتها، طول الأعمار، صحة الأجساد في القبور، خروج الدخان من مسجد الضرار بعد الدمار.

الطوفان

يُقدم التفسير حدَث الطوفان العظيم كنوع من العقاب أرسله الله سبحانه على قوم نوح عليه السلام، حينما كفروا بدعوة الله تعالى، بعدما لبث فيهم يدعوهم بالليل والنهار، وبالترغيب والترهيب ألف سنة إلا خمسين عاما، وفي هذا الزمن الممتد غاية الإعذار، فما زادهم ذلك إلا طغيانا، عندئذ قرر الله سبحانه النقمة والعذاب والهلاك... فأوحى إلى عبده نوح " اصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون"[1]، وبذلك تحققت رغبة نوح عليه السلام عندما قال: "رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديّارا"[2]، فشرع بعدما علم بقرار الله عز وجل يصنع السفينة، على مرآى من الله سبحانه، وتعليم بكيفية صنعها[3]، "قال بعض السلف: أمره الله تعالى أن يغرز الخشب، ويقطعه، وييبسه، فكان ذلك في مائة سنة، ونجرها في مائة سنة أخرى، وقيل في أربعين سنة"[4].

([1]) سورة هود، الآية: 37

([2]) سورة نوح، الآية: 26

([3]) ينظر: ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج2، ص654

([4]) السابق، ص654

وقد اختلف المفسرون في مقاسات السفينة، وشكل تصميمها؛ حيث ذكر أحدهم " أن الله أمره أن يصنعها من خشب الساج، وأن يجعل طولها ثمانين ذراعا، وعرضها خمسين ذراعا، وأن يطلي باطنها وظاهرها بالقار، وأن يجعل لها جؤجؤا أزورا، يشق الماء"[1]، وقال قتادة: "كان طولها ثلاثمائة ذراع في عرض خمسين، وعن الحسن: طولها ستمائة ذراع، وعرضها ثلاثمائة، وعنه مع ابن عباس: طولها ألف ومائتا ذراع في عرض ستمائة، وقيل طولها ألف ذراع وعرضها مائة ذراع"[2]، وأما ارتفاعها، فقالوا: "كان ارتفاعها في السماء ثلاثين ذراعا، ثلاث طبقات، كل طبقة عشرة أذرع، فالسفلى للدواب والوحوش، والوسطى للإنس، والعليا للطيور، وكان بابها في عرضها، ولها غطاء من فوقها مطبق عليها"[3].

وفي محاولة أخرى لمعرفة حقيقة السفينة، جاءت رواية عن ابن عباس، تستقدم رجلا ميتا في ذلك الزمان الغابر، بفضل عيسى عليه السلام في إحياء الموتى؛ ليُسائله، فبعدما تم ذلك، قال عيسى عليه السلام لهذا الرجل: "حدثنا عن سفينة نوح، قال: كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع، وعرضها ستمائة ذراع، وكانت ثلاث طبقات؛ فطبقة فيها الدواب والوحوش، وطبقة فيها الإنس، وطبقة فيها الطير، فلما كثر روث الدواب أوحى الله عز وجل إلى نوح عليه السلام أن اغمز ذنب الفيل، فغمزه، فوقع منه خنزير وخنزيرة، فأقبلا على الروث، فلما وقع الفأر بجوف السفينة يقرضها وحبالها، أوحى الله إليه أن اضرب بين عيني الأسد، فضرب فخرج من منخره سنور وسنورة، فأقبلا على الفأر، فقال عيسى عليه السلام: كيف علم نوح أن البلاد قد غرقت؟ قال: بعث الغراب يأتيه بالخبر، فوجد جيفة فوقع عليها، فدعا عليه بالخوف؛ فلذلك لا يألف البيوت، قال ثم بعث الحمامة فجاءت بورق زيتون بمنقارها، وطين برجليها، فعلم أن البلاد قد غرقت، فطوقها الخضرة التي في عنقها، ودعا لها أن تكون في أنس وأمان، فمن ثم تألف البيوت"[4].

([1]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج2، ص654

([2]) السابق، ص654

([3]) السابق، ص654

([4]) السابق، ص654-655

وعندما جاء موعد العقاب الرباني لإفناء الكفرة، وإهلاك العصاة، قال الله تعالى لنـــوح: "احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن، وما آمـــن معـــه إلا قليل"[1]، يقول ابن كثير: "فحينئذ أمر الله نوحا عليه السلام أن يحمل معه في السفينة مـــن كـــل زوجين اثنين من صنوف المخلوقات ذوات الأرواح، قيل: وغيرها من النباتات، اثنـــين ذكـــرا وانثى، فقيل: كان أول من أدخل من الطيور الدرة، وآخرها من أدخل من الحيوانـــات الحمـــار، فتعلق إبليس بذنبه، وجعل يريد أن ينهض فيثقله إبليس، وهو متعلق بذنبه، فجعل يقول له نـــوح عليه السلام: ما لك؟ ويحك، ادخل، فينهض ولا يقدر، فقال: ادخل وإن كان إبليس معك، فـــدخلا في السفينة، وذكر بعض السلف أنهم لم يستطيعوا أن يحملوا معهم الأسد حتـــى أُلقيـــتْ عليـــه الحمى"[2]، وأسند إلى النبي في ذلك بعض الأحاديث[3].

وأما من دخل معه في السفينة من البشر فتضاربت فيه أقوال المفســـرين؛ "فعـــن ابـــن عباس: كانوا ثمانين نفسا، منهم نساؤهم، وعن كعب الأحبار: كانوا اثنين وسبعين نفسا، وقيـــل: كانوا عشرة، وقيل: إنما كان نوح وبنوه الثلاثة؛ سام وحام ويافث، وكنائنه الأربع؛ نساء هؤلاء الثلاثة، وامرأة يام، وقيل بل امرأة نوح كانت معهم في السفينة، وهذا فيه نظر، بل الظاهر أنها هلكت؛ لأنها كانت على دين قومها"[4].

"وجاء أمر الله من الأمطار المتتابعة، والهتان الذي لا يقلع ولا يفتر، بل هو كمـــا قـــال تعالى: " ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر، وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر، وحملناه على ذات ألواح ودسر، تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر"[5]، "وفـــار التنـــور"[6]، أي صارت الأرض عيونا تفور، حتى فار الماء من التنانير، التي هي مكان النار، صـــارت تفـــور بالماء"[7].

([1]) سورة هود، الآية: 40

([2]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج2، ص655

([3]) ينظر: السابق، ص655

([4])السابق، ص656

([5]) سورة القمر، الآيات: 11-14

([6]) سورة هود، الآية: 40

([7]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج2، ص657

وسارت السفينة "على وجه الماء الذي قد طبق جميع الأرض، حتى طفت على رؤوس الجبال، وارتفعت عليها بخمسة عشر ذراعا، وقيل بثمانين ميلا"[1].

ولما أغرق الله سبحانه "أهل الأرض كلهم إلا أصحاب السفينة، أمر الأرض أن تبلع ماءها الذي نبع منها، واجتمع عليها، وأمر السماء أن تقلع عن المطر"[2].

ورست السفينة على جبل الجودي، وقد اختلف المفسرون في تحديد موقعه اختلافا كبيرا[3].

ثم فتح نوح عليه السلام "كوة الفلك التي ركب فيها، ثم أرسل الغراب لينظر له ما صنع الماء، فلم يرجع إليه، فأرسل الحمامة فرجعت إليه، لم تجد لرجليها موضعا، فبسط يده للحمامة فأخذها، فأدخلها، ثم مضى سبعة أيام، ثم أرسلها لتنظر له، فرجعت حين أمست، وفي فيها ورق زيتون، فعلم نوح أن الماء قد قلّ عن وجه الأرض، ثم مكث سبعة أيام، ثم أرسلها فلم ترجع، فعلم نوح أن الأرض قد برزت"[4].

ودعا نوح ربه مبتهلا: "رب أنزلني منزلا مباركا وانت خير المنزلين"[5]، "رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا"[6].

هكذا هي قصة الطوفان كما يقدمها لنا المفسرون، فكيف هي فيما عثر عليه من اللقى الأثرية، والكتابات الأسطورية القديمة قدم التاريخ المكتوب، والسابقة على التوراة، والكتب السماوية المعروفة؟

([1]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج2، ص657

([2]) السابق، ج2، ص657

([3]) ينظر: السابق، ص657-658

([4]) السابق، ج2، ص660

([5]) سورة المؤمنون، الآية: 29

([6]) سورة نوح، الآية: 28

لقد تجمعت في هذه القصة عناصر، شكلت نسقها العام، هذه العناصر تبدأ بعنصر الفساد البشري، ومن ثم قرار الآلهة بعقاب البشر وإهلاكهم طُرّاً بسبب هذا الشر والفساد، مع استثناء رجل صالح،اختلف اسمه بين الأساطير واتفقت في مسماه، أوحت له الآلهة أن يصنع الفلك؛ لأن العقاب سيكون بالطوفان العظيم، وعليه أن يصنع السفينة بمواصفات معينة، حتى تكون وسيلة نجاة، ثم على الرجل الصالح أن يُدخل معه إلى السفينة أهله، ويُدخل من كل كائن حي زوجان، وعندما يتم الطوفان تستقر هذه السفينة فوق جبل، ليبدأ صاحب الفلك استكشاف حالة الأرض المغمورة بالمياه، بوساطة الغراب والحمامة، ثم عندما يأمن، يقدم الشكر لله والحمد للآلهة، وبفعله السابق واللاحق نال رضا الله والخلود الأبديّ في الجنة. فهل هذه القصة بعناصرها قد وردت في مسطورات الأوائل ما قبل اليهودية والاسلام؟

تكاد أساطير الطوفان العالمي، والدمار الشامل تظهر في جل الحضارات البشرية القديمة، و"تكاد أن تكون معروفة في جميع أنحاء العالم"[1]، فلا تخلو أمة من أسطورة مماثلة، و "شائعة في أماكن متفرقة من العالم، وبين شعوب لا يربط بينها مكان أو زمان"[2]، "وبينما أظهرت الحفريات في مواقع متعددة من أراض الرافدين دليلا على حدوث فيضانات عاتية في أور وكيش، فلا دليل على حدوث طوفان غمر كامل البلاد"[3]، لقد وجد العلماء آثارا "تثبت الحقيقة التاريخية لهذا الحدث الخطير، ولكن عندما نتحقق الأمر نلاحظ أن طبقات الفيضانات ليست كلها على مستوى واحد، ولا تدل على فيضان واحد، بل على اثنين–اثنين على الأقل، منفصلين عن بعضهما بعدد من القرون"[4]، وربما هذه الفيضانات المتكررة، والتي أطاحت بمدن بمدن السومريين شكّلت ذكريات "تدحرجت عبر القرون، وتجمعت، واختلطت ببعضها البعض، وشكلت وحدة تامة ذابت كلها في كارثة واحدة، دعيت ذات يوم بالطوفان العالمي"[5].

([1]) إلياد، مرسيا: **مظاهر الأسطورة**، ط1، ترجمة: نهاد خياطة، دار كنعان للدراسات والنشر، دمشق، 1991م، ص55

([2]) السواح، فراس: **مغامرة العقل الأولى**، ص154

([3]) هووك، صموئيل هنري: **منعطف المخيلة البشرية**، ص40

([4]) فيروللو، شال: **أساطير بابل وكنعان**، ص27

([5]) السابق، ص27

وفي هذا الاتجاه، يقول قصي الشيخ: "فليس هناك من طوفان شامل غطى الأرض كلها"(1)، كما ينقل المسعودي عن الهند والصين إنكارهم لطوفان عالمي، فيقول: "وأما الهند والصين ومن وافقهم من الأمم... فيأبون كون الطوفان عمّ جميع الأرض"(2).

وإن كان هناك من ينفي حصول طوفان عالمي شامل إلا أن ثمة من يؤكد "حصول طوفان كبير غمر العالم أجمع"(3).

وأما تاريخ هذا الطوفان، فمن الباحثين من يُرجع تاريخ حدوثه "إلى خمسة آلف سنة، بينما هناك آخرون يرجعونه إلى أبعد من ذلك، أي سبعة إلى عشرة آلاف سنة"(4)، وقد "كان البابليون والآشوريون يقدمون تواريخ ملموسة للقضايا المتعلقة بالحياة اليومية... في حين كانوا في القضايا الأخرى يكتفون بصيغ عامة من قبيل: قبل الطوفان"(5)، فالطوفان هو "الحدث الذي حفظته ذاكرة سومر وآكاد؛ بحيث تم التأريخ إلى ما كان قبله، وما صار بعده"(6).

فكيف سجلت لنا اللقى الأثرية هذا الحدث العظيم؟

في الأساطير السومرية نجد أن بطل الطوفان هو زيوسودرا، ومعناه "ذو الحياة المديدة"(7)، وفي هذا اشارة واضحة لأمرين؛ الأول: أنه بتقواه نال الخلود الأبدي، والثاني: أنه ذو عمر طويل، وفي كلا الأمرين نجد نوحا من الخالدين في الجنة السماوية، كذلك نجد الإشارة الواضحة في لبثه الطويل بين قومه، يدعوهم إلى الله سبحانه، إذ لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما، وفيما عثر عليه في قائمة الملوك السومريين من تطاول للأعمار، يوحي بمشابهة ظلت

---

(1) عسكر، قصي: **أساطير العرب قبل الإسلام**، ص67

(2) المسعودي، علي بن الحسين: **التنبيه والأشراف**، دار الصاوي للطبع والنشر والتأليف، القاهرة، 1938م، ص171

(3) الحلبي، علاء: **المدن المفقودة بعد الطوفان**، ط1، دار ومؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 2007م، ص5

(4) الحلبي، علاء: **العالم قبل الطوفان**،ج1،ص205، www.alkutubcafe.net/onlineread.html

(5) كلشكوف: **الحياة الروحية في بابل**، ط1، ترجمة: عدنان عاكف حموي، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، 1995م، ص22

(6) الشواف،قاسم: **ديوان الأساطير سومر وأكاد وآشور**، ج4، ص243

(7) الشواف: **ديوان الأساطير**، ج2، ص277

حاضرة مع تعاقب الأزمان في قصة نوح التقي مع الطوفان، وهذه الأعمار تثير الدهشة، حيث "حكم ألوليم في أريدو 28800 سنة، وامتد حكم ألالجار 36000 سنة، وحكم البلاد ملكان آخران مدة 64800 سنة، وبعد أن هجرت أريدو انتقل الحكم إلى مدينة باد-تيبرا؛ حيث حكـــم اينمـــين لوانا مدة 43200 سنة، وتنص قائمة أن عدد الملوك الذين حكموا في عهد ما قبل الطوفان بلـــغ ثمانية، حكموا في خمس مدن لمدة 241200 سنة"[1].

وربما ما يفسر تناقص الأعمار بعد الطوفان، ما عثر عليه في هامش إحدى نسخ قوائم لارسا؛ حيث يقول الناسخ: "جاء الطوفان بعد أن هبطت الملكية من الأعالي"[2]، فالناسخ قد كتب أعمار الملوك ما قبل الطوفان، وهي – كما سبق ذِكره– مديدة جدا، وظهر له الفرق بين التاريخ الذي يدونه، وبين الواقع المعاش، فعنّ له تبرير ذلك على الهامش بأن أعمار الملوك هبطت بعد الطوفان عما كانت عليه قبله، وتظل هذه الأعمار الطوال مثار جدلٍ بـــين مصـــدق ومكـــذب ومتأول، والذي أذهب إليه في هذا البحث أن هذه الأعمار، هي أعمار ملكية مع بعض التضخيم، وليست أعمار أشخاص، بمعنى إنها عمر سلالة الملك الحاكم، أو بقاء شريعته بين قومه قبل أن تنسخ بشريعة تالية، أو تزول بملكية أخرى، أو أنها سنون غير سنيّنا، تخضع لحساب مغاير.

إن أساطير الطوفان تشير إلى غضب الآلهة على بني البشر، نتيجة عصيانهم وفسادهم، فتقرر تدميرهم، ولكن الإله أنكي يتصل بالملك زيوسودرا، "وكان إنسانا تقيا صالحا، فيحدثه من وراء حجاب، كاشفا له نوايا الآلهة، شارحا له خطته لإنقاذ الحياة، والتي تـــتلخص فـــي قيـــام زيوسودرا ببناء سفينة كبيرة لحمل الزمرة الصالحة من البشر، وبعض الحيوانـــات"[3]، تقـــول الأسطورة:

"اتخذ الآلهة عند ذلك قرارهم النهائي

قرار مؤذٍ أراده إنليل لهلاك البشر

([1]) كلشكوف: **الحياة الروحية في بابل**، ص25

([2]) هووك، صموئيل هنري: **منعطف المخيلة البشرية**، ص109

([3]) السواح،فراس: **مغامرة العقل الأولى**، ص158

...

فتح عندئذ أنكي فمه

متوجها إلى عبده...

الرسالة التي أبلغك إياها:

أيها الحائط استمع إلي جيدا

احفظ كل ما أقوله أيها السياج

اهدم بيتك لكي تبني فلكا

تخلّ عن ممتلكاتك

لكي تنقذ حياتك

الفلك الذي عليك بناؤه

متساوية الأضلاع

اجعل له سقفا

ليكن محكم الإغلاق من كل جهاته

ولتكن تجهيزاته متينة

وتقليفها سميكا ومقاوما

بعد ذلك سوف أمطرك...

فتح أنكي عند ذلك الساعة المائية وملأها

وعيّرها لتشير إلى حلول الطوفان بعد سبعة أيام

...

الحيوانات الطاهرة

الأكثر سمنة

أمسك بها وأدخلها إلى الفلك

أطيار السماء ذات الأرياش

والماشية

ودويبات السهوب

جميعها أدخلها إلى الفلك

...

ثم تبدلت هيئة الجو

وأرعد أدد في السماء

وبمجرد سماعه لهدّ الإله

أحضر له القار لسد روزنة الفلك

وما أن أحكم سدها

حتى أرعد أدد من جديد في السماء

بينما الرياح الغاضبة عصفت دفعة واحدة

وقطعت مرابط الفلك وأطلقته

...

ومزق أنزو السماء

بمخالبه (إشارة إلى انفتاح أبواب السماء بالمياه المنهمرة)

وضربت العاصفة الأرض

وبثورة الطوفان

لم يعد الأخ يرى أخاه

ارتفع صوت الطوفان مثل خوار ثور

ومثل صفير عقاب

كانت تهدر العاصفة

قائمة كانت الظلمات

إذ اختفى وجه الشمس

وهلك البشر مثل الذباب

مثل جذوع حطب ها هم

مكدسون على الشاطئ

ومثل جذوع مجروفة ها هم

مكومون على الضفة

...

طوال سبعة أيام وسبع ليال

استمرت عصفات الريح ووابل المطر

والطوفان"[1].

وعند انتهاء الطوفان قدّم زيوسودرا الشكر للآلهة:

"وزع باتجاه الرياح الأربعة

كل ما كان يحمله الفلك

ثم ضحى من أجل الآلهة"[2].

([1]) الشواف، قاسم: **ديوان الأساطير سومر وأكاد وآشور**، ج2، ص261-269

([2]) السابق، ص270

ومن نسله تعود الحياة البشرية من جديد، يقول أنكي:

"سوف أصلح حياة مخلوقاتي

لكي يعيدوا بناء مدنهم

حيث سأسهر على حمايتهم

وليشيدوا من جديد الأماكن المقدسة

سوف أقدم لهم الماء الطاهر

سوف أعمل على أن تعود بينهم

ممارسة الطقوس المقدسة والسلطات السامية

ومن جديد سوف يعم الرخاء"(1).

وفي أسطورة أخرى سومرية يوحي أنكي لنوح من وراء حجاب:

" في المعبد، الإله من وراء سياج

سمع زيوسودرا بالقرب منه

بينما كان يقف وراء الحاجز

أيها الحاجز أنا أكلمك استمع إلى كلماتي

انتبه مصغيا إلى تعليماتي

سوف يبيد الطوفان تجمعات السكان

ويغمر عاصمتهم

بغية إهلاك الجنس البشري

هذا ما كان قد تقرر

---

(1) الشواف: **ديوان الأساطير**، ج2، ص278

الأمر الذي أصدره آنو و إنليل لا يتبدل

سوف تهدم مملكة البشر

....

غمر الطوفان البلاد

وتقاذفت الرياح الفلك

على وجه المياه

عاد أوتو للظهور منيرا السماء والأرض

عند ذلك فتح زيوسودرا كوة في الفلك

...

وزيوسودرا الملك

سجد أمام أوتو

وقدم بدون حساب قرابين الثيران والخراف

...

سجد أمام آن و إنليل

اللذين عطفا على موقفه

لذلك فإنهما منحاه حياة

مماثلة لحياة الآلهة:

نفَس حياة أبدي مثل ما للآلهة

ولهذا السبب فزيوسودرا الملك

الذي أنقذ الحيوانات مع الجنس البشري

جعلت إقامته في منطقة ما وراء البحر

في دلمون حيث تشرق الشمس"[1].

أما الطوفان في الأساطير البابلية فأكثر تفصيلا منه عن السومرية؛ بسبب صلاح الألواح ذات العلاقة خلافا لما كانت عليه الألواح السومرية من التلف والندرة.

إن بطل أسطورة الطوفان البابلية هو " أوتو- نبشتم، وتوجد في ملحمة أخرى موازية لها، تعرف بملحمة أتراحاسيس... وأتراحاسيس هو الاسم الآخر لأتونبشتم"[2]، أما أتونبشتم فيعني "وجدت حياتي أو وجدت نفسي"[3]، وأتراحاسيس، فيعني "المتناهي في الحكمة"[4]، أو "فائق الحكمة"[5].

تقدم الأسطورة البابلية تلميحا عن سبب غضب الآلهة على البشر، واتخاذها قرار الفناء والهلاك لهم، يخاطب أيا إنليل قائلا في شأن الطوفان:

"حمل المذنب ذنبه، والآثم إثمه...امهله كي لا يفنى ولا تهمله كيلا يفسد"[6].

وفي أسطورة أتراحاسيس يظهر سبب آخر، ولكنه يحمل مضمونه المعنى السابق؛ حيث يزعج البشر الآلهة بضجيجهم، وتكاثرهم، الأمر الذي لا يكون ذلك إلا مع الفساد، فالآلهة ترضى لعبادها الشكر والطاعة، وتسخط دون ذلك، تقول الأسطورة:

"لقد عمرت الأرض وتكاثر الناس

تكاثروا حتى تخمت بهم الأرض كما تتخم الشاة

([1]) الشواف: **ديوان الأساطير**، ج2، ص282

([2]) الربيعو، تركي علي: **الإسلام وملحمة الخلق والأسطورة**، ص97

([3]) الشواف، قاسم: **ديوان الأساطير سومر وأكاد وآشور**، ج2، ص287

([4]) معدّي، الحسيني الحسيني: **الأساطير السومرية**، ص143

([5]) الشواف، قاسم: **ديوان الأساطير سومر وأكاد وآشور**، ج2، ص226

([6]) الماجدي، خزعل: **إنجيل بابل**، ص174

وتزايدوا حتى ازعجوا الإله إنليل بتجمعاتهم

لقد وصل ضجيجهم إليه في عليائه

فقال للآلهة الكبرى

لقد ازداد صخب البشر

وجعل النوم بعيدا عن عيوني

(ثم يأمر بمجموعة من العقوبات إلى أن يصل إلى عقاب الطوفان)

فتح أنكي فمه

وقال مخاطبا إنليل

لماذا أمرت...

سأمد يدا المساعدة إلى البشر..

والطوفان الذي قد أمرت به"[1].

وفي ملحمة جلجامش حينما يسأل أوتنابشتم عن سر الطوفان يأتيه بالتفصيل، فيوحي إيا إلى الرجل الصالح أتونتابشتم من وراء جدار:

"كوخ القصب، يا كوخ القصب، جدار يا جدار

انصت يا كوخ القصب وتفكر يا جدار

قوّض بيتك وابن سفينة

اترك مملكتك وانقذ حياتك

اهجر متاعك وانقذ نفسك

احمل في السفينة بذرة كل مخلوق حي

(1) السواح، فراس: **مغامرة العقل الاولى**، ص171-172

والسفينة التي أنت بانيها

ستأتي وفق قياس مضبوط

فتتساوى طولها وعرضها

ثم غطها...

جلب لي الكبار كل ما يلزم

في اليوم الخامس انهيت هيكلها

كانت مساحة سطحها إيكو واحدا

ومائة وعشرون ذراعا ارتفاع الواحد من جدرانها

انهيت شكلها الخارجي وأكملته

ستة طوابق صنعت فيها

وبذا قسمتها إلى سبعة أجزاء

وقسمت الأرضيات إلى تسعة

وثبت على جوانبها مصدات المياه

...

كل ما استطعت من بذور كل شيء حي حملت إليها

وبعد أن أدخلت إليها كل أهلي وأقاربي

وطرائد البرية ووحوشها وأصحاب الحرف

حدد لي شمش وقتا معينا

عندما يرسل سيد العاصفة حدد مطرا مدمرا في المساء[1].

([1]) بعض الترجمات في الفجر بدل في المساء، ينظر: الشواف: **ديوان الاساطير** ج2، ص293

ادخل الفلك وأغلق عليك بابك

حل الموعد المضروب

في المساء أرسل سيد العاصفة مطرا مدمرا"[1].

"نزع الإله نرجال دعائم أعمدة السماء

(وهو ما يقابل قوله تعالى: ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر[2]، وفي نص آخر: "ليقتلع نرجال دعائم بوابات السماء[3])

وتبعه نينورتا جاعلا

السدود العلوية تطفح بمياهها

نشر أدد على السماء صمت الموت

محيلا إلى الظلمات كل نور

حطمت الأرض وكأنها جرة

ولم يعد الأخ يرى أخاه

ولم يكن ممكنا تمييز أحد بين الجموع

لشدة تساقط مياه السماء"[4].

"وعند حلول اليوم السابع

توقفت جائحة العواصف والطوفان

بعد أن تعاركت في كل اتجاه

([1]) السواح، فراس: **جلجامش ملحمة الرافدين الخالدة**، ص218-222

([2]) سورة القمر، الآية: 11

([3]) الشواف: **ديوان الاساطير**، ج2، ص261

([4]) السابق، ص294

فقد أعيد جميع البشر إلى الطين"[1].

"واستقرت السفينة على جبل نصير

جبل نصير أمسك بالسفينة، منع حركتها"[2].

"أوقف جبل نصير الفلك ولم يسمح له بالحركة

خلال يوم أول ويوم ثان أوقف جبل

نصير الفلك ولم يسمح له بالحركة

وخلال يوم ثالث ورابع

وخلال يوم خامس وسادس

وبحلول اليوم السابع

أمسكت حمامة وأطلقتها

طارت الحمامة ثم عادت إليّ

لم تجد مكانا لها لتحط فعادت إليّ

ثم أمسكت بعد ذلك بسنونو وأطلقتها

طارت السنونو ثم عادت إليّ

ثم أمسكت غرابا وأطلقته

طار الغراب

وبما أنه شاهد انحسار المياه

فقد أكل وحام ثم حط ولم يعد

([1]) الشواف: **ديوان الاساطير**، ص296

([2]) السواح، فراس: **جلجامش ملحمة الرافدين الخالدة**، ص225

عند ذلك وزعت باتجاه الرياح الأربع

كل ما كان يحمله الفلك

ثم ضحيت من أجل الآلهة"[1].

وفي أسطورة أتراحاسيس تشابه مع ما سبق يغني عن إيراده.

أما في أساطير مصر القديمة فلم ترد أسطورة الطوفان على منوال الأساطير الرافدية، ولكن ظهرت أسطورة دمار البشر التي كانت هي بدورها بسبب "الخطيئة التي ارتكبها البشر ضد الإله رع"[2]، فتشاورت "الآلهة، ثم أحنوا جباههم، وهم يقولون مجتمعين: ليعاقب البشر دون محاكمة، فقامت سمخت ابنة رع تلاحق البشر في كل مكان... تضرب هنا وهناك، تذبح وتقتل وتصب الدم عبا"[3].

"وبالفعل استعرضت هذه الآلهة قوتها ضدهم... ثم عادت، وهي مصممة على الذهاب إليهم كرة أخرى، واستئصالهم تماما، وفي هذه الوهلة، أدركت رع الشفقة على البشر، فوجه رسله... لإحضار قدر كبير من فاكهة حمراء اللون... ثم أمر بتجهيز سبعة آلاف أبريق من الجعة، مزجت مع هذه الفاكهة، حتى يمكن أن تظهر وكأنها دماء قانية، وفي صباح اليوم الذي أزمعت حتحور (الملقبة سمخت أي القوية) أن تذهب فيه لتدمير البشر، أمر رع بأن تُصب الخمر في الحقول"[4]، "وأطلت الربة (سمخت) أمامها، فإذا طوفان شامل من الدم يغريها، ويدعوها لري الظمأ، وراحت ربة التقتيل تعب من السائل المسكر المخدر، وهي تظنه دما بشريا صرفا حتى ارتوت"[5]، و"أصبحت ثملة تماما، مما جعلها تغفل عن ضحاياها، ومن ثم أمكن انقاذ البشر من مصير رهيب بفضل تدخل الإله الأكبر رع"[6].

([1]) الشواف: **ديوان الأساطير**، ج2، ص292-297

([2]) تشرني، ياروسلاف: **الديانة المصرية القديمة**، ط1، ترجمة: أحمد قدري، دار الشروق، القاهرة، 1996م، ص58

([3]) كامل، مجدي: **أشهر الأساطير في التاريخ**، ص24

([4]) تشرني، ياروسلاف: **الديانة المصرية القديمة**، ص59

([5]) كامل، مجدي: **أشهر الأساطير في التاريخ**، ص25

([6]) تشرني، ياروسلاف: **الديانة المصرية القديمة**، ص59

هذا الطوفان الدموي الذي ملأ الآبار والحقول والأنهار، ظل يتردد في ذاكرة المعتقدات، يقول ابن كثير: "وأرسل الله عليهم (أي على المصريين) الدم، فكانوا ما استقوا من الأنهار والآبار، وما كان في أوعيتهم، وجدوه دما عبيطا"[1]، أي طريا[2] غير متجلط.

وأما في معتقدات اليونان والرومان الذين ورثوا أساطير الإغريق، فيقولون بحدوث طوفان، يكاد يتطابق في مقاصده مع ما ظهر في الأساطير الرافدية؛ حيث ينقل عن هذا الحدث العظيم الشاعر أوفيد الذي ولد قبل الميلاد، وقد رأى رب الأرباب جوبيتر ما حاق بالأرض من شر بفعل بعض البشر، الأمر الذي "أخافه أن يمتد هذا الشر إلى غيرهم، فيستفحل الخطب، لذا كان لا معدى عن إفناء البشر كافة، فلا يبقى منهم أحد في العالم"[3]، غير أن بعض الأرباب ساءهم "ما سوف يلقى البشر من عذاب، وما سوف تكون عليه الأرض بعد أن يقضي على هذا الجنس البشري كله، وما سوف تكون عليه معابدهم في الأرض بعد أن لن تجد منهم من يختلف إليها مقدما القرابين... فأعلن فيهم (جوبيتر) أن الأمور سوف تجري دون إضرار، وأنه سوف يخلق بشرا غير البشر"[4]، ورأى أن يعم العالم بسيول جارفة، تأتي على البشر أجمع"[5]، فحشد فحشد الرياح والأعاصير، والسحب الكثيفة، والضباب والظلمات، "ثم ما لبثت أن ألقت فيها سيلا متدفقا، عمّ الأرض، وفاض في أرجائها... فإذا البحار والأنهار والسماء بما ترسل من أمطار كلها حرب على الأرض، لم تترك فيها ركنا مشيدا ولا بنيانا قائما إلا أتت عليه، وإذا صفحة الأرض كلها مغمورة بالمياه"[6]، ولم ينج من هذا الطوفان سوى ديوكاليون وزوجته، بوساطة الفلك أو الصندوق الذي كانا فيه، ورسا على جبل بارناسوس، هذا الجبل الذي يمثل وسط الأرض، فقد أطلق زيوس "حمامتين في لحظة واحدة من طرفي الأرض ليرى أين يلتقيان، فالتقيا على جبل بارناسوس"[7]، أما سبب النجاة فلأن "ديوكاليون بن بروميثيوس خير البشر، وألزمهم

([1]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج2، ص359

([2]) ينظر: **المعجم الوسيط**، مادة عبط

([3]) أوفيد، الشاعر: **مسخ الكائنات**، ص35

([4]) السابق، ص37

([5]) السابق، ص37

([6]) السابق، ص38

([7]) معدي، الحسيني: **الأساطير الإغريقية**،ص82

للطريق السوي... وكان أول شيء فعله الزوجان أن اتجها بالشكر إلى ربات الجبل... ورأى جوبيتر الأرض وقد غطتها المياه الآسنة، وأنه لم يبق من الرجال غير واحد هو ديوكاليون، وأنه لم يبق من النساء غير واحدة هي بيرا، وكانا من عباد الآلهة المخلصين؛ لذلك نجوا من الهلاك، وسلمت لهما الحياة"(1)، ثم بعد ذلك يأمر جوبيتر المياه؛ فتتراجع وتنحسر عن الأرض، فتعود الحياة سيرتها الأولى(2).

وأما معتقدات المندائية الصابئة، التي حظيت بالازدهار قبل المسيحية، وتمد جذورها في تربة الأساطير البابلية، والتي هي بدورها تبددت في العقائد الدينية التالية، خاصة اليهودية والمسيحية والغنوصية (3)، فجاءت مشابهة في تصورها للطوفان لما سبق بيانه من وجوه كثيرة.

كثيرة.

لقد خص الكتاب المقدس للمندائية حدث الطوفان بعنوان منفرد على غرار التوراة، جاء فيه:

"ونودي على نوح أن ابن فلكا، فسيأتي الطوفان، وليكن فيه من كل جنس حي زوجان؛ ذكران وانثيان، وانقل الأرز من لبنان، والأنبوس من حران، وأقيم الفلك على أحسن بنيان؛ ثلاثمئة عام عمل فيه الصناع، طوله ثلاثمئة ذراع، وعرضه خمسون ذراعا، وثلاثون الارتفاع. واجمع من كل زوجين اثنين، ذكرين وانثيين، وأصعدهما إلى الفلك، على مدى اثنين وأربعين نهارا، واثنتين وأربعين ليلة، انفتحت ينابيع الماء، ينابيع عليا تنهمر من السماء، وينابيع سفلى تنبجس من الغبراء، واختفى التراب، وغرقت الجبال والهضاب، ثم أخذ العالم كله بالعباب، أحد عشر شهرا والفلك طاف فوق الماء، بين الزوابع والأنواء، ثم سكنت الريح الهوجاء، وهدأ الماء، وجنح الفلك على صخرة صماء، كانت هامة جبل قردون، وأحسن نوح بالسكون. لقد انتهى

---

(1) أوفيد، الشاعر: **مسخ الكائنات**، ص38

(2) ينظر: السابق، ص39

(3) ينظر: سباهي، عزيز: **أصول الصابئة المندائيين**،ط1، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، 1996م، ص61،53. و كلمة دار النشر: كتاب الميثولوجيا المندائية: خزعل الماجدي: http://almothaqaf.com\index.php\books\17931.html

الطوفان، وحل الأمان... أخرج نوح الغراب، وأطلقه فوق العباب، قال: إذا وجدت التراب فعدْ إليّ بشيرا، ولا تؤجلني كثيرا، وانطلق الغراب، خفق بأجنحته وغاب، وظل نوح ينتظر، ولكن رسوله لم يعد بجواب، لقد نسي الغراب ذمامه، قال: أيتها الحمامة إيتي إليّ أنت بعلامة، وطارت فرأت الغراب على جبل قردون قابعا فوق جثة ينهشها، ورأت زيتونة في العراء، أغصانها تتدلى فوق الماء، فالتقطت منها غصنا، وعادت به إلى نوح، من يومها للقيامة لعن نوح الغراب، وبارك الحمامة"[1].

وأما أسطورة الطوفان في التوراة؛ فهي من شدة تشابهها مع أساطير الرافدين تغني القارئ عن الحاجة لإمعان الفكر، من أجل استظهار نقاط التناص، "وتعفيه من كثرة التمحيص والتدقيق والبحث"[2] لشدة التشابهات.

إن "القصة التوراتية تـُظهر العديد من العناصر المشتركة مع الطوفان المروي في ملحمة جلجامش"[3]، حتى ليخيل للباحث أن كاتب التوراة يستعيد تصوره لحدث الطوفان متكئا على نصوص الأساطير السومرية والبابلية[4]، فيبدأ القصة ببيان سبب الطوفان، وهو تكاثر الناس، وكثرة شرهم، مما يستدعي اتخاذ الإله قرار الإهلاك بالطوفان، باستثناء نوح الرجل الصالح وأهله، فيوحي له أن يصنع فلكا، ويُدخِل إليه من كل حي زوجَين، ثم يأتي موعد الطوفان، فتنفتح طاقات السماء، وتنفجر ينابيع الأرض، حتى تغطي المياه كل الأرض، بجبالها الشاهقة، وبعد أن تموت كل نفسٍ حيّ على الأرض، تنحسر المياه؛ لتستقر السفينة على جبل أراراط، ويبدأ نوح بإطلاق الغراب، ثم الحمامة، ليرى إذا ما قلّت المياه على وجه الأرض، إلى أن يخرج من السفينة، ويرسل الحيوانات في كل اتجاه، ويقيم القربان لله سبحانه، فيعطيه الله عهد الأمان في أن لا يجري طوفانا مرة أخرى على الأرض، وعلامة هذا الميثاق قوس قزح.

([1]) **كنزا ربا – اليمين:** ص307-309

([2]) السواح: **مغامرة العقل الأولى**، ص181

([3]) إلياد، ميرسيا: **تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية**، ج1، ص211

([4]) الجوراني، وداد جاسم: **الرحلة إلى الفردوس والجحيم في أساطير العراق القديم**،ط1، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد،1998م

تقول التوراة:

"ابتدأ الناس يكثرون على الأرض... ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض.. فقال الرب: أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته، الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء لأني حزنت أني عملتهم. وأما نوح فوجد نعمة في عيني الرب... فقال الله لنوح: نهاية كل بشر قد أتت أمامي لأن الأرض امتلأت ظلما منهم، فها أنا مهلكهم مع الأرض، اصنع لنفسك فلكا من خشب جُفْر. تجعل الفلك مساكن، وتطليه من داخل ومن خارج بالقار، وهكذا تصنعه: ثلاث مئة ذراع يكون طول الفلك، وخمسين ذراعا عرضه، وثلاثين ذراعا ارتفاعه، وتصنع كوا للفلك، وتكمله إلى حد ذراع من فوق. وتضع باب الفلك في جانبه. مساكن سفلية ومتوسطة وعلوية تجعله"[1].

وفي نص بابلي مواز، يطلب اتراحاسيس من الإله إيا أن يعرفه كيف يبني الفلك "فتح عندئذ فمه، وباشر كلامه، متوجها إلى إيا إلهه: لكنني لم يسبق لي قط أن بنيت فلكا، ارسم لي مخططه على الأرض، وبعد أن أراه، سوف أعرف كيف أبنيه، رسم إيا على الأرض مخطط الفلك، سوف أنفذ كل ما أمرتني به يا إلهي"[2].

وتستكمل التوراة أحداث الطوفان: "فها أنا آت بطوفان الماء على الأرض لأهلك كل جسد فيه روح حياة من تحت السماء. كل ما في الأرض يموت، ولكن أقيم عهدي معك، فتدخل الفلك أنت وبنوك وامرأتك ونساء بنيك معك، ومن كل حي من كل ذي جسد، اثنين من كل تُدخل إلى الفلك لاستبقائها معك، تكون ذكرا وأنثى... ففعل نوح حسب كل ما أمره به الله. هكذا فعل"[3].

"بعد سبعة أيام... أمطر على الأرض أربعين يوما وأربعين ليلة... وحدث بعد السبعة الأيام أن مياه الطوفان صارت على الأرض... انفجرت كل ينابيع الغمر العظيم، وانفتحت

---

(1) **سفر التكوين** 6: 1-16

(2) الشواف: **ديوان الأساطير**، ج2، ص524

(3) **سفر التكوين** 6: 17-22

طاقات السماء... وكان الطوفان أربعين يوما على الأرض. وتكاثرت المياه ورفعت الفلك، فارتفع عن الأرض. وتكاثرت جدا على الأرض، فكان الفلك يسير على وجه المياه، وتعاظمت المياه كثيرا جدا على الأرض، فتغطت جميع الجبال الشامخة التي تحت كل السماء، خمس عشرة ذراعا في الارتفاع تعاظمت المياه، فتغطت الجبال... كل ما في أنفه نسمة روح حياة من كل ما في اليابسة مات... وتبقى نوح والذين معه في الفلك فقط"(1).

" فهدأت المياه، وانسدت ينابيع الغمر وطاقات السماء، فامتنع المطر من السماء، ورجعت المياه عن الأرض رجوعا متواليا... واستقر الفلك... على جبال أراراط، وحدث من بعد أربعين يوما أن نوحا فتح طاقة الفلك التي كان قد عملها، وأرسل الغراب، فخرج مترددا حتى نشفت المياه عن الأرض، ثم أرسل الحمامة من عنده ليرى هل قلت المياه عن وجه الأرض، فلم تجد الحمامة مقرا لرجلها، فرجعت إليه إلى الفلك لأن مياها كانت على وجه كل الأرض. فمد يده وأخذها وأدخلها عنده إلى الفلك، فلبث أيضا سبعة أيام أخر وعاد فأرسل الحمامة من الفلك، فأتت إليه الحمامة عند المساء، وإذا ورقة زيتون خضراء في فمها. فعلم نوح أن المياه قد قلت عن الأرض... وكلم الله نوحا قائلا: اخرج من الفلك أنت وامرأتك وبنوك ونساء بنيك معك، وكل الحيوانات... وبنى نوح مذبحا للرب"(2).

"وبارك الله نوحا وبنيه... وكلم الله نوحا وبنيه معه قائلا: وها أنا مقيم ميثاقي معكم ومع نسلكم من بعدكم، ومع كل ذوات الأنفس الحية التي معكم... فلا ينقرض كل ذي جسد أيضا بمياه الطوفان، ولا يكون أيضا طوفان ليخرب الأرض، وقال الله: هذه علامة الميثاق الذي أنا واضعه بيني وبينكم، وبين كل ذوات الأنفس الحية التي معكم إلى أجيال الدهر: وضعت قوسي في السحاب فتكون علامة ميثاق بيني وبين الأرض... ميثاقا أبديا بين الله وبين كل نفس حية في كل جسد على الأرض"(3).

---

(1) **سفر التكوين** 7:10-24

(2) **سفر التكوين** 8: 1-22

(3) **سفر التكوين** 9: 1-15

إن أساطير الطوفان اشتهرت في كل مكان، في الهند القديمة، وسواها من بلدان آسيا، وفي أمريكيا، واستراليا، وجزر غينيا الجديدة، وبولينيزيا، وميلانيزيا[1].

وفي هذا الشأن، تتناقل "قبائل البرازيل حكاية طوفان عظيم... وفي أسطورة هندية أن فيضانا غمر العالم، ولم ينج منه سوى رجل وامرأة، كانا على أعلى قمة جبل"[2].

"وفي ميثولوجيا التائيين البورميين كان ليتلونغ، هو الإنسان الذي نجا من الطوفان... (فقد) حذّر الآلهة ليتلونغ من الكارثة المحدقة، وأمروه أن يبني طوافا يأخذ معه عليه الجاموس"[3].

"وحسب الخرافات الأندونيسية أن الأرواح الشريرة هي التي تسببت بالطوفان بمكائدها؛ فبسببها حدث مدّ عالٍ، لم يُعرف له مثيل من قبل، غمر الأرض كلها، ولم ينج منه سوى امرأة واحدة"[4].

حتى إننا نجد بذرة أسطورة الطوفان في فكر المجتمعات الطوطمية، كما في بعض قبائل استراليا، الذين يعتقدون أسطورة تشكل جزءا مهما من طقسهم، تحتوي فكرة الطوفان، فعندما تدخل الشقيقة الكبرى البحيرة، فتلوثها بطمثها، "وقد اغتاظ الثعبان؛ فخرج محدثا طوفانا من الشتاء، أغرق الأرضين جميعا"[5].

وبعد هذا الطوفان المهلك لبني البشر، الذي لم يعد ليتكرر بحسب الميثاق الإلهي بالأمان؛ حيث قامت "عشتار بتعليق عقدها الثمين الملون في باحة السماء؛ ليصبح قوس قزح رمزا لميثاق مع البشر بعدم تكرار الطوفان"[6] وقالت: "أيها الحاضرون، كما أنني لا أنسى عقد

([1]) ألبيديل: **سحر الأساطير**، ص336

([2]) السواح: **مغامرة العقل الأولى**، ص155

([3]) ألبيديل: **سحر الأساطير**، ص337

([4]) السابق، ص337

([5]) شتراوس، كلود ليفي: **الفكر البري**، ط3، ترجمة: نظير جاهل، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 2007م، ص116

([6]) القمني،سيد:**الأسطورة والتراث**، 167

اللازورد الذي يزين عنقي، فإنني لن أنسى هذه الأيام قط، سأذكرها دوما"[1]، وهو ما يتفق إلى حدّ ما مع ما جاء عن الصادق في أن "القوس ظهر في السماء بعد الغرق أمانا منه لمن بقي إلى يوم القيامة، وقال: لا تقولوا قوس قزح، فإن قزح اسم الشيطان، ولكن قولوا قوس الله، وإن هذه المجرة التي في السماء، ويسمونها مجرة الكبش، موضع انفطار السماء للماء؛ لأنه لـم ينـزل قطرات، وإنما نزل دفعا، فلما التأمت السماوات بقي أثره كالجرح المندمل، يبقـى أثـره فـي البدن"[2]، وفي كتاب علل الشرائع للصدوق، يعلل ظهور قوس قزح بوحي الله تعالى لنوح: "إني قد جعلت قوسي أمانا لعبادي وبلادي وموثقا مني، بيني وبين خلقي، يأمنون به إلى يوم القيامـة من الغرق... وكانت القوس فيها سهم ووتر، فنزع الله السهم والوتر من القوس أمانـا لعبـاده وبلاده من الغرق"[3].

وإلى هذا يذهب ابن كثير في كتاب البداية والنهاية، برواية عن ابن عباس رضـي الله عنهما، يصف اسنادها بالصحيح، يقول فيها ابن عباس: "إن القوس أمـان لأهـل الأرض مـن الغرق، والمجرة باب السماء الذي تنشق منه"[4].

طيور الأبابيل

هذه الطيور ترتبط بحادثة أصحاب الفيل، فمن هم أصحاب الفيل؟ ومـا هـي طيـور الأبابيل؟

كان أبرهة عامل النجاشي على اليمن مسيحيا، قد بنى كنيسة هائلة، تعجب النـاظرين، سمتها العرب القليس، وعزم أبرهة على أن يصرف حج العرب عن الكعبة المشرفة إليها، فكره العرب قصده، وعمد بعضهم إلى إلحاق الأذى بالقليس، فقرر أبرهة أن يسيرنّ إلى كعبة مكـة،

([1]) السواح: **مغامرة العقل الأولى**، ص193

([2]) الجزائري، نعمة الله: **النور المبين في قصص الأنبياء والمرسلين**، ط2، مؤسسة الأعلمـي للمطبوعـات، بيـروت، 2002م، ص83

([3]) الصدوق، محمد بن علي: **علل الشرائع**، ط1، دار المرتضى، بيروت، 2006م، ص35-36

([4]) ابن كثير، ابو الفداء اسماعيل: **البداية والنهاية**، ط1، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجـر للطباعـة والتوزيع والإعلان، مصر، 1997م، ج1، ص85

ويخربنّها، ويهدمنّها، واصطحب في حملته هذه بعض الفيلة، فقاتله بعض العرب دونها، ولكن ظفر بهم إلى أن اقترب من الحرم، فأخلت قريش بينه وبينها، بتوجيه من عبد المطلب بن هاشم؛ بدعوى أن لا طاقة لهم به، وأن للبيت رب يحميه، ويمنعه، وعندما قصد أبرهة وجيشه إلى هدم الكعبة، أرسل الله عليهم طيرا من البحر، أمثال الخطاطيف أي السنونو[1]، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها: حجر في منقاره، وحجران في رجليه، أمثال الحمص والعدس، فلا يصيب منهم أحدا إلا هلك[2].

وينقل ابن كثير في وصف هذه الطيور أنها "هي الأقاطيع كالإبل المؤبلة، وعن ابن عباس قال: لها خراطيم كخراطيم الطير، وأكف كأكف الكلب، وعن عكرمة قال: كانت طيرا خضرا، خرجت من البحر، لها رؤوس كرؤوس السباع، وعن عبيد بن عمير قال: هي طيور سود بحرية، في مناقيرها وأظافرها الحجارة... وقال سعيد بن جبير: كانت طيرا خضرا، لها مناقير صفر... وعن ابن عباس ومجاهد وعطاء: كانت الطير الأبابيل مثل التي يقال لها عنقاء مغرب"[3].

وفي رواية عن ابن اسحاق، وعن عكرمة "أنه حدث أن أول ما رؤيت الحصبة والجدري بأرض العرب ذلك العام"[4].

مما سبق يتبين أن طيور الأبابيل جاءت بأمر من الله سبحانه حتى ينقذ بيته، الكعبة المشرفة، وأن هذه الطيور غير واضحة الوصف؛ لذلك تضاربت المرويات في وصفها، بين وصف معروف بالسنونو، ووصف أسطوري غير واقعي حتى سميت بالعنقاء، وأن هذه الطيور كانت السبب في ظهور الجدري والحصبة.

فما علاقة السنونو ببيت الله؟ وما هي العنقاء؟

([1]) الدميري، كمال الدين محمد بن موسى: **حياة الحيوان الكبرى**، ط1، دار البشائر، دمشق، 2005م، ج2، ص223، ص582

([2]) ينظر: ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج4، ص805–807

([3]) السابق، ص808–809

([4]) السابق، ص808

يقول الدميري عن السنونو: "كثير في المسجد الحرام، يعشش في سقفه، وهو الطير الأبابيل الذي عذب الله تعالى به أصحاب الفيل"[1]، وهذا الطير له سابقة أخرى ينتصر فيها لبيت الله بيت المقدس، "فإنه لما خرب بيت المقدس قال: يا رب سلطني على البحر حتى أغرقهم، قال البيهقي: إسناده صحيح"[2]، إلى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

وفي الأساطير لهذا الطير السنونو، حضور خيّر إلى جانب الآلهة والمقربين، وقد ظهرت السنونو المقدسة في معبد أفروديت، بحراسة الكاهنة حيرو[3]؛ حيث جاء في الأسطورة البابلية مع أوتنابشتم في السفينة:

"ثم أمسكت بعد ذلك بسنونو وأطلقتها

طارت السنونو ثم عادت إليّ

لم تجد مكانا لتحط فيه فعادت إليّ"[4].

كذلك له حضور في الأساطير الأوغاريتية؛ حيث توصف هذه الطيور ببنات الهلال، وهي تأتي دانيال عندما وعده إيل أن يرزقه ابنا:

"يحمي شعبك في الأرض يجعل التراب يخرج عطرك

يحرس مزارك ويردّ عنك

إهانة من يهينك ويطرد الذي يقلق نومك

في بيت إيل يأخذ بيدك

الوجه فرح(وجه دانيال) وأشرقت الجبهة

([1]) الدميري: **حياة الحيوان الكبرى**، ص223

([2]) الدميري: **حياة الحيوان الكبرى**، ص224

([3]) ينظر: غيربر: **أساطير الإغريق والرومان**، ترجمة: حسني فريز، دائرة الثقافة والفنون، عمان، 1976م، ص65، ص68

([4]) الشواف: **ديوان الأساطير**، ج2، ص297

فارقه الوصب وضحك...

لأستريحن كي تستريح نفسي

في داخلي إذ يولد لي ابن كما

لأخي وذرية كما لعشيرتي...

عندئذ ذهب دانيال إلى بيته

واتجه نحو هيكله

ثم جاءت بيته القيان بناتُ الهلال السنونو

قدم شرابا لبنات الهلال السنونو"[1].

وتكرر حضورها كذلك لسبعة أيام تالية.

وما زال طائر السنونو يحظى بنفحة قدسية في بعض المعتقدات الشعبية الأوروبية، فيدعى "دجاجة الله، ويؤكد الناس هناك أن قتل أحد طيور السنونو، وهو يقوم بالحضانة ينذر بعاصفة يمكن أن تستمر أربعة أيام"[2]، كما تلقى الحجارة التي تتواجد في أعشاشه أهمية، خاصة إذا جُعلت تمائم في تقوية البصر، وتسديد الرأي[3].

وإذا أمعنا النظر في كلمة أبابيل نلمح في المقطع الأخير كلمة إيل، وهو أبو الآلهة الكنعانية وكبيرهم [4]، وأما المقطع الأول (أباب) فهو مصدر للفعل (أبّ) إذا تجهز وحمل على الأعداء[5]، في طاعة إيل؛ وبذلك يصبح هذا التركيب دالا على (جند إيل أو حراس إيل)، وطيور الأبابيل هي إحدى وسائل المنعة والنصرة التي يستخدمها الإله إيل، وهذا التركيب الأبابيل، في

([1]) فريحة، أنيس: **ملاحم وأساطير من أوغاريت**، ص302-304

([2]) كانافاجيو، بيار: **معجم الخرافات والمعتقدات الشعبية في أوروبا**،ط1، ترجمة: أحمد الطبال، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1993م، ص149

([3]) ينظر: السابق، ص149

([4]) ينظر: الماجدي، خزعل: **الآلهة الكنعانية**، ط1، دار أزمنة، عمان، 1999م، ص48

([5]) ينظر: **المعجم الوسيط**، مادة أبّ

مقطعه الثاني (إيل)، ليس غريبا عن مألوف اللغة، فهو ما زال متداولا في العديد من الكلمات المستعملة، مثل: الخليل إبراهيم، أي خلّ إيل، بمعنى صفي الله، فالإله إيل هو رب الأرباب في اللغات السامية[1]، ويعني الله[2]، و"جميع الشعوب والقبائل السامية ادّعت انتماءها إلى هذا الإله، فظهر في آخر أسمائهم مثل: عموائيل وإسماعيل، أي سمع إيل، ورفائيل ومخائيل وصموئيل"[3]، وهو ما ظهر أيضا في أسماء بعض الأنبياء، مثل: إسرائيل وإسماعيل، وبعض الملائكة، من مثل: "جبرائيل(أو جبريل) وعزرائيل وميكائيل وإسرافيل"[4].

وهذه الطيور استخدمتها الآلهة مرارا كجنود لها، وبأشكال مختلفة، سأذكر على سبيل المثال لا الحصر، من الأساطير السومرية استجابة لأمر الإله في إحداث الطوفان، تقول الأسطورة:

"ومزق أنزو السماء

بمخالبه"[5].

وذلك لأجل أن تنهمر مياه البحر السماوي؛ لإنشاء الطوفان العظيم، وهو نفسه الطائر الأسطوري الذي عُيّن لحراسة قدس الأقداس، وعرف بتمرده على سلطة الإله إنليل حينما قربه منه، فغدر وسرق ألواح القدر، تقول الأسطورة:

"وبعد أن يفحص أنزو

قال (أي إيا): يجب أن يكون في خدمتك بشكل دائم

في حرمك لكي

يغلق باب قدس الأقداس

---

(1) ينظر: عبد الحكيم، شوقي: **موسوعة الفلكلور والأساطير العربية**، ص78

(2) ينظر: العظمة، نذير: **المعراج والرمز الصوفي**، دار الباحث للطباعة والتوزيع، بيروت، 1982م، ص74

(3) عبد الحكيم، شوقي: **موسوعة الفلكلور والأساطير العربية**، ص79

(4) السابق، ص78

(5) الشواف: **ديوان الأساطير**، ج2، ص266

...

قبل الإله عندئذ ما اقترحه عليه إيا

وعيّن حدود حرمه...

واحتفظ بناء على قراره بأنزو قريبا منه

وكلفه بحراسة المدخل

مدخل قدس الأقداس الذي أنهاه مجددا"[1].

إن المشاكلة قريبة عندما يكون حارس قدس الأقداس،هو الطائر الأسطوري أنزو في الأساطير الرافدية، كذلك الذي يدافع عن بيت الله، أقدس بقعة على الأرض هي طير الأبابيل، كذلك هي التي تقترح الدفاع عن خراب هيكل بيت المقدس، كما أن طائر السنونو بنات الهلال هي التي تظهر لدانيال لتقضي على العقم بأمر إيل، بعد توسلاته في بيت ايل، إن هذا الظهور بين الطائر السنونو وإيل يشي بعلاقة بين الطير وحراسة الأمر الإله، او بيت الإله، او الأماكن المقدسة، كملائكة الله وجنده.

وأما في الأساطير المصرية فللطير أهمية واضحة، فها هو أوزيريس في إحدى تحولاته يظهر في صورة الصقر برأس العنقاء[2]، والعنقاء في المعتقدات المصرية، هي طائر "البينو، هذا الطائر كان يعتبر روح رع، زُعم أنه طائر يعمر خمسة أو ستة قرون، وبعد أن يحرق نفسه ينبعث مرة أخرى من رماده"[3]، وظهور هذا التشابه في أسطورة العنقاء بين مصر القديمة والعرب، توحي بوجود تبادل ثقافي، واتصال حميم[4]، ولطائر السنونو في الأسطورة

([1]) الشواف: **ديوان الأساطير**، ج2، ص318-319

([2]) ينظر: إم هرو، برت: **كتاب الموتى الفرعوني**، ص82

([3]) السابق، ص210

([4]) عسكر، قصي: **أساطير العرب قبل الإسلام**، ص32

الأوزيرية دلالة على نذير الفأل الحسن؛ حيث "حمل سنونو استغاثة إيزيس في محنتها إلى مجمع الآلهة، الذين هرعوا إلى نجدتها، والمساعدة في بعث أوزيريس"[1].

وأسطورة طائر العنقاء هي: "الطائر الذي قتل نفسه وسط اللهب، ثم ولد ثانية من رماد جسمه المحترق، والذي كان يظهر على فترات منتظمة، تبلغ كل منها عدة سنوات، 500سنة، تبعا لإحدى الروايات، وألف سنة تبعا لرواية أخرى... وأن عودته في فترات منتظمة تتبئ بأحداث هامة"[2]، فلا غرو إذن أن كان عام ظهور طير الأبابيل، هو عام ميلاد المصطفى العدنان سيد العالمين أجمعين.

وللعنقاء مرادف او تجلٍ آخر في طائر الفينيق، "الذي نجد صداه في الأساطير اليونانية والذي ينسبه الغرب إلى بلاد العرب"[3]، وهو "طير يعيش في الهند... كان يظهر لكاهن بعلبك الأعظم... وإذ ذاك يغطي الكاهن هيكل الأسرار، ويلقي فينيق عليه طيوبه الممزوجة بالعنبر الجذاب، وعند شروق الشمس يخفق فينيق بجناحيه؛ فيلتهب العنبر وتشتعل الطيوب فتحرق فينيق، وفي الغد يرونه دودة متولدة من رماده، وفي اليوم التالي ينبت لهذه الدودة جناحان، وفي اليوم الثالث يعود إلى طبيعته الأولى، ويطير إلى وطنه، ثم يعود بعد خمسين سنة فيفعل كما تقدم... (وقيل): إن فينيق طير يعيش ألف سنة، في خلالها ينبعث لهيب من عشه فيحرقه، وبعد قليل يخرج من البيضة التي تبقى في عشه، ويعود إلى الحياة... وهذه القيامة أعطيت له من الله؛ لأنه كان الطير الوحيد الذي أشار إلى حواء بألا تأكل من الثمرة المحرمة"[4]. وفي هذه الاسطورة تتضح علاقة هذا الطير الأسطوري بالمعبد بقوة من خلال الطيب الذي ينشره، ومجيئه اليه ليستعيد حياته مجددا من النار التي تحرقه.

وأما عنقاء مغرب التي وردت في التفسير، فقد كانت "تبيت في جبل بأرض أصحاب الرس، وسموها العنقاء لطول عنقها، وكانت في ذلك الجبل تنقض على الطير فتأكلها، فجاعت

([1]) إم هرو، برت: **كتاب الموتى الفرعوني**، ص215

([2]) كامل، مجدي: **أشهر الأساطير في التاريخ**، ص169

([3]) عجينة، محمد: **موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالتها**، ج1، ص336

([4]) غبرائيل، ميخائيل: **أساطير الأولين**، مطبعة المرسلين اليسوعيين، بيروت، 1894م، ص132

ذات يوم، وأعوزها الطير، فانقضت على صبي، فذهبت به، فسميت عنقاء مغرب؛ لأنها تغرب بما تأخذه، ثم انقضّت على جارية حين ترعرعت، فأخذتها، فضمتها إلى جناحين لها صغيرين سوى الجناحين الكبيرين... ثم دعي عليها فأبادتها صاعقة"[1].

ويمكن أن نستشف من إشارة بعض المفسرين إلى ظهور الجدري والحصبة ذلك العام؛ باحتمال أن تكون هذه الطيور حملت إلى جيش أبرهة وحشدهم، ميكروبات الجدري والحصبة المعدية[2]؛ فجعلتهم كعصف مأكول، بما تنفطه من حبيبات تشبه الحجارة المجمّرة، وما تصحبه من الحمى الحارقة، وكأنها حجارة السجيل، تهلك بعضهم وتضعف الآخرين.

ناقة صالح

تكشف هذه الأسطورة عن قوم من العرب البائدة، تدعى قوم ثمود، وقد استقروا في شمال الحجاز، في منطقة صخرية، يقال أنها الحجر، "بين المدينة والشام، بين جبال إذا رآها الرائي من بعيد ظنها متصلة، فإذا توسطها رأى كل قطعة منها منفردة"[3]، وقد كفروا نبيهم صالح عليه السلام، بعدما جاءهم مبشرا برسالة الله سبحانه، ولكن ثمود طلبوا آية، فكانت لهم الناقة، ناقة الله؛ "إضافة خلق إلى خالق، تشريفا وتخصيصا"[4]، يقول المفسرون والقصاص: إنها خرجت من إحدى الصخور العظيمة، ولكن قوم ثمود تآمروا على قتلها، وقتلوها، فحاق بهم العذاب.

يقول ابن كثير: "سألوا صالحا أن يأتيهم بآية، واقترحوا عليه بأن تخرج لهم من صخرة صماء، عيّنوها بأنفسهم، وهي صخرة منفردة في ناحية الحجر، فطلبوا منه أن تخرج لهم منها ناقة عشراء تمخض، فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق، لئن أجابهم الله إلى سؤالهم، وأجابهم إلى طلبتهم ليؤمنن به، وليتبعنه، فلما أعطوه على ذلك عهودهم ومواثيقهم، قام صالح عليه السلام

([1]) خليل، خليل أحمد: **مضمون الأسطورة في الفكر العربي**، ص72

([2]) ينظر: الشرقاوي، حسن عبد الله: **موسوعة أشهر الميكروبات**،ط1، مكتبة الإيمان، المنصورة، 2007م، ص105. و بيرم، عبد الحسين: **الأمراض المعدية**، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1987م، ص49

([3]) القزويني، زكريا بن محمد: **آثار البلاد وأخبار العباد**، دار صادر، بيروت، ص90-91

([4]) الدميري، كمال الدين محمد بن موسى: **حياة الحيوان الكبرى**، ج4، ص11

إلى صلاته، ودعا الله عز وجل، فتحركت تلك الصخرة، ثم انصدعت عن ناقة جوفاء وبــراء، يتحرك جنينها بين جنبيها، كما سألوا... وأقامت الناقة وفصيلها بعدما وضعته بين أظهرهم مدة، تشرب من بئرها يوما، وتدعه لهم يوما، وكانوا يشربون لبنها يوم شربها، يحتلبونها؛ فيملأون ما شاءوا من أوعيتهم وأوانيهم... وكانت على ما ذكر خلقا هائلا، ومنظرا رائعا... فلما طال عليهم ذلك، واشتد تكذيبهم لصالح النبي عليه السلام، عزموا على قتلها ليستأثروا بالماء كل يوم، فيقال: إنهم اتفقوا كلهم على قتلها"[1]، ثم ساق روايات في تآمرهم، وأسمائهم، وطريقة قتلهــا، إلــى أن "رغت رغاة واحدة تحذر سقبها، فانطلق سقبها، وهو فصيلها، حتى أتى جبلا منيعا، فصعد أعلى صخرة فيه ورغا.. ودخل الصخرة، فغاب فيها"[2]، ولهذا تقول العرب مثلا في التشاؤم: "رغــا فوقهم سقب السماء"[3]، ولما حان العذاب والنقمة بعد ثلاثة أيام، "جاءتهم صيحة مــن الســماء، ورجفة شديدة من أسفل منهم، ففاضت الأرواح وزهقت النفوس من ساعة واحدة"[4].

لا شك أننا أمام تصور مبالغ فيه بالقدر الذي يخرج عما هو متعارف عليه في مجــرى العادة والمألوف، فليس من المعتاد أن تتولد الناقة من الصخر، فضلا عن مواصفاتها الإضــافية من كونها عشراء من غير فحل، وضخمة ضخامة هائلة، وأنها حلوب بالقدر الذي يكفي القــوم كلهم عن شرب الماء، مع ما يملؤون به أوعيتهم، وكذلك عودة فصيلها إلــى الصــخرة... وإن كنت اقتصرت على ما يقدمه لنا ابن كثير في تفسيره، فهو مجمل بالنسبة لما نجده فــي كتــب أخرى، من تفصيل في صفات هذه الناقة الأسطورية وسقبها، تصل إلى أقصى حدود المخيــال العربي المستساغ بعرفهم المتقبل وقتذاك.

إن هذه الأسطورة تكاد تكون خاصة بالعرب، فلم يوجد لها أثر في غير البلاد العربيــة، على شاكلتها تماما[5]، وأهل التوراة "يزعمون أنه لا ذكر لعاد وهود، وثمود وصالح في التوراة،

([1]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج2، ص339

([2]) السابق، ص340

([3]) الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد: **مجمع الأمثال**، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004م، ج2، ص169

([4]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج2، ص340

([5]) ينظر: الخطيب، محمد: **الدين والأسطورة عند العرب في الجاهلية**، ط1، دار علاء الدين، دمشق، 2004م، ص147، نقل مترجم عن كُنْدِر

وأمرهم عند العرب في الجاهلية والإسلام كشهرة إبراهيم الخليل عليه السلام"[1]، وربما ذلك لما خصّ به العرب من اهتمام بالإبل والنوق، لطبيعة بيئتهم، حتى خاطبهم الله سبحانه بقوله: "أفــلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت"[2]، وهو يستثير فيهم عظمة الخالق عز وجل، من خلال التأمــل والتفكر في هذا الصنع العظيم بين أيديهم، فالإبل "من الحيوانات العجيبة، وإن كان عجبها سقط من أعين الناس لكثرة رؤيتهم إياها، وهو حيوان عظيم الجسم شديد الانقياد، يــنهض بالحمــل الثقيل، ويبرك به، وتأخذ بزمامه فأرة تقوده إلى حيث شاءت، ويتخذ على ظهــره بيــت يقعــد الإنسان فيه مع مأكله ومشربه وملبوسه وظروفها، والوسادة والملحفة والنمرق، كما في بيتــه، ويتخذ للبيت سقف، وهو يمشي بكل هذه... وربما تصبر على الماء عشرة أيام"[3]، ومن شــدة ولع العربي بها، حفلت لغته بمفردات كثيرة، متعلقة بها، "يقال: إن اللغة العربية تحوي حــوالي ستة آلاف مفردة، ترتبط من قريب، أو بعيد بالجمل"[4]، فلا عجب إذن إن كانت محل أســطرة لديهم، مع ما تحتف به من خصائص واهتمام، "إن تقديس الإبل سفينة الصحراء، وعنوان الصبر والجلد، أمر لا شك فيه عند العرب القدامى قبل الإسلام، وحسبنا على ذلك دليلا أن قبيلة طيــئ كانت تعبد جملا أسودا"[5]، وكان لأبي دؤاد الإيادي ناقة يقال لها الزباء، "كانت بنو إياد يتبركون يتبركون بها، فلما أصابتهم السنة تفرقوا ثلاث فرق، فرقة سلكت في البحــر فهلكــت، وفرقــة قصدت اليمن فسلمت، وفرقة قصدت أرض بكر بن وائل، فنزلوا على الحارث بن همام، وكــان السبب في ذلك أنهم أرسلوا الزباء، وقالوا: إنها ناقة ميمونة، فخلوها؛ فحيث توجهت فاتبعوهــا، وكذلك كانوا يفعلون إذا أرادوا نجعة، فخرجت تخوض إلى العرب، حتى بركت بفناء الحــارث بن همام، وكان أكرم الناس جوادا"[6].

([1]) ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرام: **الكامل في التاريخ**، المكتبة التوفيقية، القاهرة، 2004م، ج1، ص75

([2]) سورة الغاشية، آية: 17

([3]) القزويني، زكريا بن محمد: **عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات**،ط1، مؤسسة الأعلمي للمطبوعــات، بيروت،2000م، ص306-307

([4]) مسعود، ميخائيل: **الأساطير والمعتقدات العربية قبل الإسلام**، ص66

([5]) عجينة، محمد: **موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالتها**، ج1، ص285

([6]) الأصفهاني، علي بن الحسين: **كتاب الأغاني**، ج16، ص260

في هذه الرواية، ما يشبه ناقة النبي الكريم، وقد هاجر إلى المدينة المنورة، فأخذت القبائل في المدينة تعترضه، تبتغي نزوله عندها، وتقول كل قبيلة بعد أخرى: "يا رسول الله، أقم عندنا في العدد والعدة والمنعة، فيقول عليه الصلاة والسلام: خلوا سبيلها، فإنها مأمورة، لناقته... حتى إذا أتت دار بني مالك بن النجار، بركت باب مسجده صلى الله عليه وسلم، وهو يومئذ مِرْبد لغلامين يتيمين من بني النجار... فلما بركت، ورسول الله لم ينزل، وثبت؛ فسارت غير بعيد، ورسول الله واضع لها زمامها لا يثْنِها به، ثم التفتت إلى خلفها، فرجعت إلى مبركها أول مرة، فبركت فيه، ثم تحلحلت، وزمّت، و وضعت جِرانها، فنزل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم... فأمر به رسول الله أن يُبْنى مسجدا"[1]، هذا المسجد الذي يحمل معاني المباركة والبركة، يأتي في المكان الذي بركت فيه الناقة القصواء.

وقد كانت العرب في الجاهلية تحرم "الجمل والناقة، سائبة وبحيرة، وعدم انتفاع أصحابها بها، وكذا شأنهم مع الحامي من فحول الإبل، إذا خلف عشر إناث متتاليات ليس بينهن ذكر، وكذلك شأن البلية، وهي ناقة تترك عند قبر الميت؛ حتى تهلك عطشا وجوعا"[2]، لتكون للميت مركبا في العالم الآخر[3]، أو تكون طعاما لروحه التي ترتاح لوجوده، كسلوك لبقايا طقس جنائزي قديم[4].

لقد تبين مما سبق مدى نظرة العربي القدسية للناقة، فهي مأمورة وميمونة وسائبة، ولها قدسية دينية طقسية خاصة، وكأن "رمي كليب ضرع ناقة البسوس حتى اختلط اللبن بالدم، بسبب انتهاكها مقدسا مكانيا هو حمى كليب، كانت فعلته انتهاكا من كليب لمقدس آخر من المقدسات هو حرمة الجوار"[5]، فكانت حرب البسوس التي أهلكت الحرث والنسل، و "امتدت لأربعين عاما، بسبب اغتيال تلك الناقة المقدسة –السائبة– التابو"[6].

([1]) ابن هشام: **السيرة النبوية**، تحقيق: مصطفى السقا وزملائه، المكتبة العلمية، بيروت، ج2، ص494-496

([2]) عجينة، محمد: **موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالتها**، ج1، ص285

([3]) ينظر: علي، جواد: **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، ج6، ص129،ص130

([4]) ينظر: الديك، إحسان: **صدى الأسطورة والآخر في الشعر الجاهلي**، ط1، مجمع القاسمي للغة العربية، باقة الغربية، 2013م، ص138

([5]) عجينة، محمد: **موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالتها**، ج1، ص286

([6]) عبد الحكيم، شوقي: **موسوعة الفلكلور والأساطير العربية**، ص687

فهل قتل كلا الناقتين؛ ناقة صالح وناقة البسوس، هو انتهاك للمقدس الذي سيورث الموت والدمار؟ و "هل كانت هذه الأسطورة في البداية أسطورة ناقة سائبة مقدسة في عهد موغل في القدم، وذكرى كارثة حلت بمنتهك حرمتها، احتفظت بها ذاكرة العرب الجماعية على مر الأجيال، ثم انضافت إليها مواد أخرى، كما هو قانون تطور الأساطير، فانضافت إليها جملة من المعاني الجديدة، تراكبت فوق المعاني القديمة؟"(1) وخير ما يمثل فكرة الناقة السائبة قول الشاعر الثموديّ، حباب ابن عمرو على حدّ قول الرواة، "وكان ممن اعتزلهم من المؤمنين، وبان عن ديارهم:

(البسيط)

كانت ثمود ذوي عزّ ومكرمة	ما إن يُضام لهم في الناس من جارِ
لا يرهبون من الأعداء حولهم	وَقْعَ السيوف ولا نزعا بأوتارِ
فأهلكوا ناقة كانت لربِّهم	قد أنذروها وكانوا غير أبرارِ
نادوا قِدارًا ولحم السقب بينهم	هل للعجول وهل للسقب من ثارِ
لم يرْعَيا صالحا في عقر ناقته	وأخفروا العهد هذيا أي إخفارِ
فصادفوا عنده من ربه حَرَسا	فشَدَّخوا رؤوسهم شدْخًا بأحجارِ"(2)

وإذا عدنا الى صالح وثمود، نجد أن المكتشفات الأثرية، تؤكد وجودهم، "وقد استطاع المستشرقون التعرف على الثموديين، من الكتابات والمؤلفات، فوجدوا اسم ثمود في النصوص الآشورية، وجده في نص من نصوص سرجون الثاني؛ وذلك بمناسبة معركة جرت بين الآشوريين، وهذه الشعوب، انتصر فيها الآشوريون، كما وجدوه في النصوص الكتابية الثمودية، وقد عثر عليها في مواضع متعددة من جزيرة العرب، وفي النصوص الكلاسيكية... كانوا يقيمون على ساحل صخري طويل"(3)، وفي نقوشهم نجد الوثنية جلية واضحة، من خلال أسماء آلهتهم، مثل: "ودّ، ومناة، واللات، وعثتر سمين، ونهى، ورضو...الخ، لكننا نجد لدى قسم من

---

(1) عجينة، محمد: **موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالتها**، ج2، ص124

(2) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين: **مروج الذهب ومعادن الجواهر**،ط1، المكتبة العصرية، بيروت، 2005م، ج2، ص35

(3) علي، جواد: **المفصل في تاريخ العرب**، ج1، ص324-325

الثموديين أدعية موجهة إلى إله، يسمونه: هئيل هأبتر، ونحن نعرف أن إيل هو أبو الآلهة لــدى الساميين القدماء، لكنه يكتسب صفة إضافية عند هؤلاء الثموديين، وهي كونـــه أبتــر أي بــلا أبناء"[1]، وهو ما يتفق مع وصف الله الأحد، الذي لم يلد ولم يولد، خاصة، وقد عثر على أسماء حسنى لهذا الإله، مثل: سميع، وملك، ومالك، وهادي، وهدى، وإلهي...الخ[2].

وإن كانت الاكتشافات لم تأت بقصة لهم مع نبيهم صالح، إلا إنها كشفت لنا عن بعــض أسمائهم التي يتسمونها، مثل: أوس، وسعد، وأسعد، وعياش، وإياس، وقيس بن وائل...الــخ[3]، "بل عرف الثموديون اسم صالح وأصلح، كما تدل على ذلك بعض نقوشهم"[4]، كذلك نرى فيمــا ظهر من آثارهم الكتابية حضورا لرسم النوق [5]، ليحمل دلالة على صـــلتهم الحياتيـــة بالإبــل والنوق.

وآخر ما عثر عليه من نص يحمل اسمهم "كان في القرن الخامس للميلاد؛ حيث ورد أن قوما منهم كانوا فرسانا في جيش الروم"[6].

إن فتنة الناقة التي كانت سببا في هلاك قوم ثمود، نتيجة مساسهم بالمقدس أو الطــوطم، أوحت للكاتب ياروسلاف بالمقارنة بينها وبين حصان طروادة، "فكلتا الأسطورتين تـــتكلم فـــي الأساس عن مدينة أو حاضرة، وكلا الحيوانين؛ الناقة والحصان كانا –كلا على طريقته– هبـــة، وإن كانت هبة حبلى بالتحذيرات، وكان الهدف من كليهما أن ينطوي علـــى وعـــد بـــالخلاص والسلام، وأن يحقق بشرى الوفرة الدائمة، لكن الأول منهما كان يحمل في بطنه فصيل الناقة أو السقب، الذي يجلب القضاء النهائي على ثمود، في حين الثاني كان يحمل في بطنه الإغريـــق،

(1) ستيتكيفيتش، ياروسلاف: **العرب والغصن الذهبي**، ط1، ترجمة: سعيد الغانمي، المركز الثقـــافي العربـــي، بيـــروت، 2005م، ص9

(2) ينظر: علي، جواد: **المفصل في تاريخ العرب**، ج1، ص331

(3) ينظر: السابق، ج1، ص327

(4) ستيتكيفيتش، ياروسلاف: **العرب والغصن الذهبي**، ص10

(5) ينظر: علي، جواد: **المفصل في تاريخ العرب**، ج1، ص327

(6) السابق، ج1، ص326

الذين أحرقوا طروادة وأبادوها، وكان كلاهما ذا حجم مهول على نحو مزيد، وفوق كل شـــيء كان كلاهما محرما دُنّـِـسَ، وطوطما استعمل استعمالا مخادعا"[1].

في بلاد العرب التي تكثر فيها البيئة الصحراوية، كما هو الحال في مناطق ثمود، تصبح الناقة هي الكائن الأكثر أهمية؛ فهي المركب في الصحراء الحارقة، وهـــي المشـــرب، وهـــي المأكل، بينما في بلاد الإغريق والرومان نجد اهتماما موازيا لكائن آخر، هو الحصان، فهو رمز شمسي مقدس، ورمز القوة التحت أرضية، أخرجته الآلهة هدية للبشر، فالماء نبْع قدمه، وكـــان شعارا لدى الإغريق والهند، كذلك كان في آشور علامة للسلطة والنبالة، حتى غـــدا الحصـــان حاضرا بقوة كتجلٍ للرب، وصُوّر في صور الحصان المجنح، في كثير من الحضارات؛ في الفن الفارسي، والإغريقي[2]... واستمر تأثيره في الثقافات التالية[3].

وفي هذه الصفة القدسية للحصان، ألا وهي التجنيح، تلتقي صورة أحصنة سليمان "ذوات الأجنحة"[4]، التي ظلت حاضرة في الإسلام؛ حيث فسر بعضهم قوله تعالى: "إذ عـــرض عليـــه بالعشي الصافنات الجياد"[5]، "قال: كانت عشرين فرسا ذات أجنحة"[6]، وفي رواية صحيحة لأبي لأبي داود "عن عائشة رضي الله عنها قالت قدم رسول الله من غزوة تبـــوك أو خيبـــر، وفـــي سهوتها ستر، فهبت الريح؛ فكشفت ناحية الستر عن بنات لعائشة رضي الله عنها لعـــب، فقـــال صلى الله عليه وسلم: ما هذا الذي أرى وسطهن؟ قالت: جناحان، قال رســـول الله: فـــرس لـــه جناحان؟ قالت: أما سمعت أن سليمان عليه الصلاة والسلام كانت له خيل لها أجنحـــة، قالـــت: فضحك حتى رأيت نواجذه"[7].

([1]) ستيتكيفيتش، ياروسلاف: **العرب والغصن الذهبي**، ص147

([2]) ينظر: أوفيد: **مسخ الكائنات**، ص52،ص110، ص121

([3]) ينظر: سيرنج، فيليب: **الرموز في الفن-الأديان-الحياة**، ط1، ترجمة: عبد الهـــادي عبـــاس، دار دمشـــق، دمشـــق، 1992م، ص57-62

([4]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج3، ص326

([5]) سورة ص، آية: 31

([6]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج4، ص50

([7]) السابق، ج4، ص50

وإن كان للخيل أجنحة؛ لتدل على قدسيتها، فكذلك شأن النوق أيضا، ففي تفسير قوله تعالى: "يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا"[1]، قال أبو معاذ البصري: إن عليا كان ذات يوم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد قرأ الآية السابقة فقال: "ما أظن الوفد إلا الركب يا رسول الله؟ فقال النبي: والذي نفسي بيده، إنهم إذا خرجوا من قبورهم يُستقبلون أو يؤتون بنوق بيض لها أجنحة..."[2].

إن هذه الخصيصة في تجنيح الكائنات، لا تكون إلا مع كائن مقدس، أو فوق عاديّ، فها هي الملائكة تحمل هذه الخصيصة لتدل على قدسيتها، قال تعالى: "الحمد لله فاطر السماوات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع، يزيد في الخلق ما يشاء"[3]، فالملائكة رسل الله، وهم يطيرون بالأجنحة؛ ليصلوا بين السماء والأرض، "فمنهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة، ومنهم من له أكثر من ذلك"[4]، وقد "رأى النبي صلى الله عليه وسلم جبريل في صورته، وله ستمائة جناح، كل جناح منها قد سد الأفق، يسقط من جناحه من التهاويل والدر والياقوت ما الله به عليم"[5].

وفي الأساطير الإغريقية وغيرها، تكثر خصيصة التجنيح للآلهة، وإنصاف الآلهة[6]، ولولا كراهية إطالة الموضوع بما ليس من جنس عنوانه؛ لذكرت الشيء الكثير، وانما أحجمُ استكفاءً بالدلالة على قدسية المجنح من النزر القليل.

وعودا إلى أسطورة الناقة الثمودية، التي بدا لنا، وقد خلع عليها المفسرون والرواة صفات أسطورية، تخرجها عن الناقة العادية المألوفة، فهي وليدة صخرة قد تمخضت عنها،

([1]) سورة مريم، آية: 85

([2]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج3، ص251

([3]) سورة فاطر، آية: 1

([4]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج3، ص855

([5]) السابق، ج4، ص361

([6]) ينظر: أفيد: **مسخ الكائنات**، ص46، ص66، ص108، ص148. و الماجدي، خزعل: **المعتقدات الأمورية**، ص101، ص102. والسواح: **لغز عشتار**، ص115، ص148. و كريستنسن، أرثر: **إيران في عهد الساسانيين**، ترجمة: يحيى الخشاب، دار النهضة العربية، بيروت، ص134

علاوة عن صفاتها الأخرى، وقرائنها الأسطورية، كنت قد ذكرت أن هذه الأسطورة خاصة بالعرب؛ حيث لم يُعثر على نظائر لها تحمل ملامحها العامة، أو تجعلها محل اقتراب، ولو مع شيء من التطور والتحوير، وإن كان هذا صحيحا إلى حدّ بعيد، إلا أن ثمة عناصر من بقايا أسطورية قديمة، تتموضع في بنائها الأسطوري، وتشحذ المخيال العربي، وأهمها نتاج الصخرة أو الحجارة بكائن حي ذي روح، وهو ما سأتناوله تاليا بعدما أضرب صفحا عن الصفات الأسطورية الأخرى، التي أسبغت على الناقة، مثل عظمتها، ولسانها الفصيح، وشربها الماء الكثير جدا، وفرط حليبها، وغير ذلك[1]، مما يكثر تضخيمه في الأساطير، و يتوفر لدى مختلف أساطير الشعوب.

إن قدسية الصخر تكاد تتواجد في مختلف الديانات القديمة، وتتجلى بقران قدسي في الأصنام تارة، وفي حجارة وصخور ذي طبيعة محددة، وشكل معين، تارة أخرى، ولا شك "في أن تاريخ الحجارة المقدسة مليء بما هو طريف وممتع، فحتى يومنا هذا لا يزال بعض الشعوب يحافظون على عبادة الحجارة... ويبجلون الحجارة، ويؤمنون بأنها تمتلك قدرات خارقة، تؤثر على مصير الناس، بل إن الحجارة تسلك سلوكا يشبه سلوك البشر؛ تتصبب عرقا، تنجب ذرية، تتعارك...، وللحجارة أسماء، كما أنها تتزاوج، وقد تنشأ بينها علاقات ودّ أو عداء"[2].

لقد شُحن الفكر الأسطوري بأرواح تتجسد أشكالا طبيعية، سواء كانت حيوانية أو جمادية، فارتبطت الأرواح بكل كائن حي، أو ظاهرة طبيعية، وكان الإنسان القديم "يجسم كل شيء حوله ويجعل له روحا، لا فرق بين خلقه(أي الإنسان نفسه)، وخلق الكون"[3]، كما "اعتقدوا بالقوة السحرية لبعض الحجارة"[4]، ولا عجب إذا وجدنا حديثا –عطفا على ما سبقه بعشرات القرون– مَن يؤلف في عجائب الأحجار الكريمة فوائد كثيرة، فيقول أحدهم: "إن قيمة تلك الحجارة الكريمة، وقطع الكريستالات، لا ترتبط بقيمتها المادية فحسب، وإنما ترتبط كذلك بما لها

(1) ينظر: الحوت،محمود سليم:**في طريق الميثولوجيا عند العرب**، ص176

(2) ألبيديل، م.ف.: **سحر الأساطير دراسة في الأسطورة**، ص202

(3) الديك، إحسان: **صدى الأسطورة والآخر في الشعر الجاهلي**، ص106

(4) ألبيديل، م.ف.: **سحر الأساطير دراسة في الأسطورة**، ص202

من خصائص كيميائية وفيزيائية وهندسية فريدة، جعلتها في وقتنا الحالي إحدى صيحات التداوي من الأمراض"[1].

لقد توصل الإنسان القديم إلى منافع الحجارة بألوانها وخصائصها، واكتسب طاقة روحية بواسطتها[2]، كما ابتنى منها المنازل، وحفر فيها البيوت، كفعل ثمود، قال تعالى: "وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين"[3]، ودوّن عليها بعض فكره، فكانت له من المخلدين، وقد اختارها الله تعالى لتكون نقشا لكلماته في ألواح موسى عليه السلام، قال تعالى: "وكتبنا له في الألواح"[4]، أي "كتب له في الألواح من كل شيء موعظة، وتفصيلا لكل شيء، قيل: كانت الألواح من جوهر"[5]، و "قيل: كانت من زمرد، وقيل: كانت من ياقوت"[6]، فإن كانت الألواح تقدست بكلام الله المنقوش، المنقوش، فلماذا لا تتقدس الكعبة وهي بيت الله؟ ولماذا لا تتقدس الحجارة، ومن جنسها الحجر الأسود المقدس، وقد هبط من جنة الله؟[7]، وإن كان الحرم كله مقدسا، فلماذا لا تتقدس حجارته؟

يفسر أبو المنذر الكلبي كيف دخلت عبادة الأوثان والحجارة لأهل مكة، فيقول: "كان الذي سلخ بهم إلى عبادة الأوثان والحجارة، أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجرا من حجارة الحرم، تعظيما للحرم وصبابة بمكة، فحيثما حلوا وضعوه، وطافوا به، كطوافهم بالكعبة، تيمنا منهم بها، وصبابة بالحرم، وحبا له... ثم سلخ ذلك بهم إلى أن عبدوا ما استحبوا، ونسوا ما كانوا عليه... فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم"[8]، وفي سنة 205 قبل الميلاد "أدخلت روما أول آلهة آسيوية، الإلهة سيبيل... وقد حُمل الحجر

---

(1) الحسيني، أيمن: **عجائب العلاج بالكريستال والأحجار الكريمة**، ط1، دار الطلائع للنشر والتوزيع، القاهرة، 2007م، ص3

(2) ينظر: عقيل، محسن: **موسوعة الأحجار الكريمة المصورة**، ط1، دار المحجة البيضاء، بيروت، 2007م، ص187

(3) سورة الشعراء، آية: 149

(4) سورة الأعراف، آية: 145

(5) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج1، ص366

(6) السابق، ص368

(7) ينظر: السابق، ج1، ص268

(8) الكلبي، أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب: **كتاب الأصنام**، ط4، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 2000م، ص6

الأسود الشهير المرمز للربة، واستقبل رسميا"[1]، ونقل هذا الحجر الأسود المقدس "من مقره في فرجيا، بآسيا الصغرى إلى عاصمة الأمبراطورية الرومانية، وقد كان لحلول الحجر الأسود إلى مقره الجديد تأثيرا مباشرا على محصول تلك السنة، كما تروي المصادر الرومانية، إذ لم تشهد البلاد غلالا وفيرة، فاضت بها الأرض، كما شهدته في تلك السنة، وبالإضافة إلى ذلك فإن تلك السنة جاءت بحدث هام من أهم أحداث التاريخ الروماني، ألا وهو تراجع جيوش هانيبعل الفينيقية عن حصار رومه وعودته نحو قرطاجة"[2].

كما إن مثل "هذه الأحجار المقدسة، أو الأعمدة الصخرية، كانت تعد في العادة معابد مقدسة، عند الكنعانيين والعبرانيين... وقد كانوا يعتقدون في الأصل أن الرب كان يسكن حقا هذه الأحجار، وكان إحساسهم بالرهبة من سكن الرب لهذه الأحجار، هو الذي يخلع عليها قدسيتها... فقد أعلن يعقوب أن الحجر الذي نصبه في بيت إيل، ينبغي أن يكون بيت الرب، وفكرة أن الرب يسكن الحجر، أو أية قوة روحية أخرى تسكنه، لم تكن فكرة غريبة...بل كان يشارك فيها كثير من شعوب العالم"[3]، إن هذا "النصب الحجري، لم يكن ينظر إليه، بوصفه كومة من الحجارة، بل بوصفه شخصا، أو روحا قويا، أو إلها"[4].

ومع هذه المنزلة للحجارة، وما تحمله من روح قدسية، فما الذي يحول بينها وبين أن تتشكل في كائنات مقدسة من ذوات الأرواح؟ خاصة، وهم يرونها في صور التماثيل، وكأنها أشخاص أحياء من شدة اتقان نحتها، أو شدة تعظيمهم لها، حتى خيل إليهم مرارا أن هذه الأصنام والتماثيل تتكلم، وتحل بها الأرواح[5]، بل في بعضها يتحول إلى لحم ودم كما "استحال العجل من الذهب لحما ودما"[6]، وما زلنا حتى اليوم ندين لمعتقد قدرة "الأولياء من قلب بعض

([1]) إلياد، ميرسيا: **تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية**، ج2، ص144

([2]) السواح: **لغز عشتار**، ص236

([3]) غنمي، سيد سلامة: **التوراة والأناجيل بين التناقض والأساطير**، ط1، دار الأحمدي للنشر، القاهرة، 2000م، ص109

([4]) فريزر، جيمس: **الفولكلور في العهد القديم**، ترجمة: نبيل إبراهيم، الهيئة العامة المصرية للكتاب، مصر،1972م، ص356

([5]) ينظر: ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج1، ص831، ص867، ص868

([6]) السابق، ج3، ص290

الأعيان"[1]، فهل سيكون هذا قدرا للولي عصيّا على الله سبحانه أو بعض انبيائه؟ بل "هذا أمر لا ينكره مسلم، ولا يرده مؤمن"[2]، أفلم تهرب صخرة بثياب موسى عليه السلام، فيلاحقها موسى عريانا، حتى تبلغ وسط بني اسرائيل، ويضربها بالعصا، فتظهر الندب بها؟[3]، أفلم يستجب حجر الرخام لعصا موسى؛ فينبجس بالماء الزلال، وإنما هو محمول على حمار أو ثور؟[4]، كل ذلك نجد له نظائر في الأساطير، بل "الأساطير التي تروي ولادة أشخاص من الحجارة كثيرة جدا"[5].

فأسطورة ميترا الذي خلقه أورمازد "ولد من الصخرة، على ضفة النهر، تحت ظل شجر مقدسة، وكان بعض رعاة الجبل شهودا على معجزة دخوله إلى العالم، فقد رأوه يخرج من الصخرة، ورأسه متوج بقبعة ملوكية، متسلحا بسكين صيّاد، وهو يقود شعلة، كانت تضيء الظلمات، قدم الرعاة للطفل الإلهي ثمار محاصيلهم الأولى، وريع مواشيهم، ومع ذلك فالفتى البطل كان عاريا، ومعرضا للريح الباردة، فاختبأ في شجرة تين، أكل من ثمارها، وصنع من أوراقها ثوبا له، وخرج على هذا النحو؛ لكي يواجه كل قوى العالم"[6].

وهذا الكائن الأسطوري المتولد من الصخرة، هو في المعتقدات الهندية "إله آري قديم، كان رب العدالة والوفاق، واعتبر فيما بعد مدافعا عن الحقيقة، رب العدالة الفيدية، حارس الصداقة والمعاهدات، وكان إلها شمسيا يحمي النهار"[7]، وأما في المعتقدات الفارسية "فآلهة البابليين والإغريق قد اعتبرت هي نفسها آلهة الإيرانيين، وهكذا اختلط... ميترا مع شمش"[8]، وهو أهم الأرباب، وفي مرحلة ما قبل الزرادشتية، وعبادة أهورامزدا، قدس كإله النور

([1]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج3، ص638

([2]) السابق، ج3، ص638

([3]) ينظر: السابق،ج3، ص816. **وصحيح البخاري**(4799) في التفسير. **وصحيح مسلم**(339) في الفضائل

([4]) ينظر: السابق، ج1، ص155

([5]) إلياد، ميرسيا: **تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية**، ج1، ص186

([6]) آدوم، جورج: **الديانة الفالية وديانة ميترا**:http://www.maaber.org/issue_march14/mythology1.htm

([7]) شابيرو، ماكس: **معجم الأساطير**،ط1، ترجمة: حنا عبود، دار علاء الدين، دمشق، 1999م،ص171

([8]) كريستنسن، أرثر: **إيران في عهد الساسانيين**، ص23

والضياء، وكان رب الشمس محاربا قويا، النصر معقود له، وانتشرت عبادته في أوروبا، وعبد في زمن الأمبراطورية الرومانية [1].

وفي أسطورة أورفيوس وقيثارته، عندما طارت روحه، حزنت عليـه الطبيعـة كلهـا، و"كانت تبكي أورفيوس، بكت الأشجار والأزهار والوحوش والطيور، حتى الصـخور الصـم بكت"[2]، مع هذه الأسطورة، شأن الكثير من الأساطير، نجد التشخيص لمظاهر الطبيعة، بما فيها فيها الصخور والحجارة، فهي تحزن وتبكي.

وبعد الطوفان، في أسطورة ديوكاليون وبيرا الإغريقية، يتحـول "كـل حجـر يلقيـه ديوكاليون، يأخذ صورة الرجل، كما أن كل حجر كانت تلقيه بيرا، يأخذ صورة المرأة"[3].

وفي أسطورة بيجْماليون، يتحول تمثال العذراء العاجية، بفضل دعواته أن تمنحه الإلهة فينوس زوجة مثلها؛ إلى فتاة حقيقية، فما "كاد بيجْماليون يعود إلى داره، ويخطو نحـو الفتـاة المنحوتة تمثالا، ويميل عليها يقبلها حتى أحس بدفء الحياة يدب فيها، ومدّ يده يتحسس صدرها، فإذا العاج يلين، وإذا بشرتها تلين لِلمس أصابعه... وذهل العاشق، وكان بين فرحة المصـدق، وشك المرتاب، وأخذ يتحسس ما كان تمثالا، والذي طالما ضرع من أجلـه مـرات، وتلمـس نبضات عروقه، ما إن استوثق بيجماليون، فنان بافوس أن التمثال عاد جسما حيا، حتـى لهـج بالشكر لفينوس... وأحست الفتاة بحرارة قبلاته؛ فاحمرت وجنتاها خجلا، واختلست النظر إلـى حبيبها... وبعد أن اكتمل القمر مرات تسع، وضعت عروس بيجماليون طفلا، أسـمته بـافوس، وبهذا الاسم سميت الجزيرة بعد"[4]، وفي هذه الأسطورة، نستذكر دعوات صالح الى الله سبحانه سبحانه أن يخلق من الصخرة ناقة، آية لثمود، كما تضرع بيجماليون لآلهته فينوس أن يستحيل تمثاله الى فتاة من لحم ودم.

([1]) شابيرو، ماكس: **معجم الأساطير**، ص171

([2]) كامل، مجدي: **أشهر الأساطير في التاريخ**، ص101

([3]) أوفيد: **مسخ الكائنات**، ص41

([4]) السابق، ص221-222

وإن كانت الإلهة فينوس استجابت لبيجماليون، فانقلب التمثال إلى فتاة عذراء جميلة، في ذهن الروماني، أفلا يجوز في ذهن العربي أن يستجيب الله سبحانه لنبي الله صـــالح، فتســـتحيل الصخرة ناقة؟ وما ذلك على الله بعزيز.

ومثال هذه الأساطير تتكرر مرارا، ومن ذلك أسطورة تاجيس الذي تخلّق من "كتلة من الأرض، تتحرك من تلقاء نفسها، دون أن يدفعها أحد، إذ كانت يد القدر يحركها كيف يشاء، ثـــم تحولت إلى إنسان، وفغرت فما، برز بين قسمات وجهها، فأخذ يُحدّث بنبوءات المستقبل"[1].

وهذه الأسطورة، تذكرنا بتمخض الصخرة إلى أن ولدت ناقة بقدرة الله فقط، دون تدخل من أحد في تكوينها، وما كان قوم ثمود على الله بمعجزين.

حية موسى

للحية حضور بارز في خيال البشر وأساطيرهم، وقد حظيت في معتقـــداتهم بـــالخلود، وكانت من المعبودات، التي تحل فيها روح الآلهة؛ مما جعل الإنسان يلتفت إليها بشـــيء مـــن التقديس؛ سواء كانت خيّرة أم شريرة، وتجلت هذه القداسة في الحضارات المختلفة؛ في الهنـــد، ومصر، وبابل، وأثينا، وغيرها، وقد تركت أثرها في المعتقدات الدينية، فلا تخلو عقيدة دينية من اعتقاد في الأفاعي والحيات، يخرجها عن طور العادة إلى طور الأسطورة، إما في جانب الخير، وإما في جانب الشر، وكأن هذا الانقسام يحاكي واقع الأفاعي، وانقسامها بين سامة وغير سامة، وإلى يومنا هذا ما زالت الأفعى تشكل شعارات مشهورة، ورموزا دالة.

فأين هذه الحية الأسطورة، حارسة كلمة الله، وآيته في يمين رسول الله ؛ ليدفع بها روح الشر، أين هي من التفسير موضع البحث؟

إنها العصا التي جُعلت للنبي موسى عليه السلام؛ ليواجه بها الفرعون عدو الله، ويتفوق على سحرته الأشرار، من خلال انقلابها بإرادة الله سبحانه إلى حية تسعى، وثعبان مبين، يهتز كأنه جان، يهزم الأعداء، ويهزم روح الشر، وينتصر بها دين الله، وعباده المؤمنين.

([1]) أوفيد: **مسخ الكائنات**، ص326

لن أخوض في أسطورة العصا وسحريتها الدينية، ولا في استخدامها الأسطوري، ورمزيتها في الموروث الميثولوجي؛ وذلك لحاجتها لموضوع مستقل، مكتفيا بانقلابها إلى حية عظيمة، وأفعى هائلة، بمواصفات غير عادية، أي سأخوض في بُعدِها الآخر لا الأول، في صيرورتها لا كينونتها.

فكيف قدم لنا ابن كثير هذه الأفعى العجيبة؟

لقد بدأ من عند العصا، عصا موسى، هذه العصا المميزة، التي ستصير حية عجائبية، لا بدّ لها أن تحمل هي أيضا بعض الغرائب، فقد كانت "تضيء له بالليل، وتحرس له الغنم إذا نام، ويغرسها، فتصير شجرة تظله، وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة"[1]، لكن ابن كثير ينكر إمكانية ذلك، بحجة أنها "لو كانت كذلك لما استنكر موسى عليه السلام صيرورتها ثعبانا، فما كان يفر منها هاربا"[2]، وربما موسى عليه السلام استنكر حالة غريبة، لم يعتدها من قبل، خاصة، أنه بعد صيرورتها أول مرة، لم يعد يفر منها هربا، وقد خبرها، هذا يبدو غاب عن يقظة ابن كثير رحمه الله، في حين انتبه له الآخرون، عندما اسقطوا حالة غير عادية على العصا، لأن الخطاب الإلهي جاء بخصوص عصا معينة، ولم يرد بأنه لو حمل موسى أي عصا، وألقاها، استحالت إلى الحالة الأسطورية المعجزة، ويكمل ابن كثير نقل بعض الأقوال التي تفرد العصا بميّزات، فيقول: "كذا قال بعضهم: إنها كانت لآدم عليه الصلاة والسلام، وقول الآخر: إنها هي الدابة التي تخرج قبل يوم القيامة، وروي عن ابن عباس أنه قال: كان اسمها ما شا"[3].

وقال تعالى لموسى: "وما تلك بيمينك يا موسى، قال: هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي، ولي فيها مآرب أخرى، قال: ألقها يا موسى، فألقاها فإذا هي حية تسعى، قال: خذها ولا تخف، سنعيدها سيرتها الأولى"[4]، هذه العصا التي أمر الله موسى بإلقائها، "صارت في الحال حية عظيمة، ثعبانا طويلا، يتحرك حركة سريعة، فإذا هي تهتز كأنها جان، وهو أسرع

([1]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج3، 262

([2]) السابق، ص262

([3]) السابق، ج3،ص262

([4]) سورة طه، الآيات: 17-21

الحيات حركة، ولكنه صغير، فهذه في غاية الكبر، وفي غاية سرعة الحركة... تمشي وتضطرب... ولم تكن قبل ذلك حية، فمرت بشجرة فأكلتها، ومرت بصخرة فابتلعتها، فجعل موسى يسمع وقع الصخرة في جوفها، فولى مدبرا"[1].

ويقول في وصف هذه الأفعى أيضا نقلا عن بعض الرواة: "أعظم ثعبان نظر إليه الناظرون... يمر بالصخرة، مثل الخلفة من الإبل فيلتقمها، ويطعن بالناب من أنيابه في أصل الشجرة العظيمة؛ فيجتثها، عيناه توقدان نارا، وقد عاد المحجن منها عرفا، وقيل: شعره مثل النيازك، وعاد الشعبتان منها مثل القليب الواسع، فيه أضراس وأنياب لها صريف... ثم قبض، فإذا هي عصاه التي عهدها، وإذا يده في موضعها، الذي كان يضعها، إذا توكأ بين الشعبتين"[2].

وفي تفسير قوله تعالى: "تهتز كأنها جان"[3]، يقول: "حركتها السريعة مع عظم خلقتها وقوائمها، واتساع فمها، واصطكاك أنيابها وأضراسها؛ بحيث لا تمر بصخرة إلا ابتلعتها، تنحدر في فمها تتقعقع، كأنها حادرة في واد"[4]، وعندما ألقى موسى عليه السلام عصاه لدى فرعون، "تحولت حية عظيمة، فاغرة فاها مسرعة إلى فرعون، فلما رآها فرعون قاصدة إليه، اقتحم عن سريره، واستغاث بموسى أن يكفها عنه، ففعل، وقال قتادة: تحولت حية عظيمة مثل المدينة، وقال السدي: فاتحة فاها، واضعة لحيها الأسفل في الأرض، والأعلى على سور القصر، ثم توجهت نحو فرعون؛ لتأخذه، فلما رآها ذعر منها... وقال وهب بن منبه: فحملت على الناس فانهزموا منها، فمات منهم خمسة وعشرون ألفا، قتل بعضهم بعضا، وقام فرعون منهزما حتى دخل البيت"[5].

ومع عظم هذه الآية، لم يقر فرعون وملأه لموسى بالتسليم، بل زعموا أن هذا سحر يفترى، وأن موسى ساحر عليم، فقال تعالى إخبارا عن فرعون أنه قال: "أجئتنا لتخرجنا من

([1]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج3، ص262

([2]) السابق، ج3، ص262-263

([3]) سورة القصص، آية: 31

([4]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج3، ص261

([5]) السابق، ج2، ص351

أرضنا بسحرك يا موسى، فلنأتينك بسحر مثله، فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى"[1]، و "وجاء السحرة فرعون... قالوا: يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين، قال: ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم، وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون، فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون، فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين، وألقي السحرة ساجدين، قالوا آمنا برب العالمين، رب موسى وهارون"[2]، لقد ألقى السحرة "حبالا غلاظا، وخشبا طوالا، فأقبلت يُخيل إليه من سحرهم أنها تسعى"[3]، و"إذا هي حيات كأمثال الجبال، قد ملأت الوادي، يركب بعضها بعضا"[4].

وأما عدد السحرة فاختلفت فيهم الأقاويل، فقال ابن اسحاق: "صف خمسة عشر ألف ساحر، مع كل ساحر حباله وعصيه... وقال السدي: كانوا بضعة وثلاثين ألف رجل، وليس من رجل منهم إلا معه حبل وعصا... وقال القاسم بن أبي بزة: جمع فرعون سبعين ألف ساحر، فألقوا سبعين ألف حبل وسبعين ألف عصا"[5]، وفي هذه الأعداد المهولة من السحرة، وما يلزمهم يلزمهم من عصي وحبال تنقلب إلى أفاع، ما يشير إلى ضخامة أفعى موسى، التي ستبتلع كل هذه العصي، والحبال المسحورة.

وأوحى الله إلى موسى عليه السلام أن ألق عصاك، "فإذا هي ثعبان مبين، فاغر فاه، يبتلع حبالهم وعصيهم، فألقي السحرة عند ذلك سجدا، فما رفعوا رؤوسهم حتى رأوا الجنة والنار، وثواب أهلها"[6].

وهكذا تتحقق آية الله لموسى، وتتمكن الحية العظيمة من صنع الانتصار، وحِراسة صوت الله في موسى النبي عليه السلام، وتغالب صوت الشر، المتمثل في فرعون وملئه.

---

(1) سورة طه، الآيتان: 58، 57

(2) سورة الأعراف، الآيات: 113-122

(3) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج2، ص353

(4) السابق، ج2، ص353

(5) السابق، ج2، ص353

(6) السابق، ج2، ص353

لقد برزت هذه الحية بمقاييس أسطورية غير عادية، في استحالتها من عصا، وفي حجم خلقتها المهول، وكونها ذات قوائم، وعرف، وعينين متوقدتين نارا، وفي سرعتها الجنية، وفي فمها الذي كالبئر الواسع، والذي سيُحطم في ظلماته الأشرار، وفي طعامها من الصخر والأشجار الكبيرة، بالإضافة إلى أنها أداة طيعة لخدمة نبي الله، منحه الله تعالى إياها؛ ليبرهن على صدق أمره الرباني الحق.

وإن كانت قد جمعت من المعقول اسم الثعبان، فهي غادرته مع الوصف، فهل في أساطير الشعوب القديمة ما يشي بتشابه ما، وأهمية خاصة للأفاعي، تنم عن معان أسطورية؟

سأبدأ من العصا، التي تنقلب أفعى، فقد ورد في الأساطير اليونانية القديمة أن ديونيسوس "غزا الجزر، وإذا بالقراصنة الذين استأجرهم ليأخذوه إلى ناكسوس، يريدون بيعه أجيرا في آسيا، لكن المجاديف تحولت إلى حيات، فخاف القراصنة، ورموا بأنفسهم إلى الماء"(1)، وهكذا انتصر ديونيسوس الذي يمثل "رب الإنبات والخصب والخمرة"(2).

وهذه العصا غير العادية، تتوافر في الأساطير بكثرة، فعلاوة عن رمزيتها، فهي في أصلها بعض من الشجر الذي يُعتبر "بالنسبة للرجل الهمجي كائنا حيا... إذ يظن أن فيها نفسا كنفسه"(3)، وكما قلت آنفا، لن أجعلها موضع بحث، وإنما سأذكر ما يمت بصلة مباشرة لما ورد في تفسير ابن كثير، من كونها ذات طبيعة وتاريخ مقدس، فقد كانت مع آدم عليه السلام وستكون آية الدابة في آخر الزمان.

لقد ظهرت العصا في الأساطير الرافدية بنوع من التقديس، ونزلت من السماء:

"الصولجان والتاج والعمامة والعصا

جميعها كانت أمام آنو مودعة في السماء

---

(1) غريمال، بيار: **الميثولوجيا اليونانية**، ط1، ترجمة: هنري زغيب، منشورات عويدات، بيروت، 1982م، ص56

(2) شابيرو، ماكس: **معجم الأساطير**، ص87

(3) فريزر، جميس: **الغصن الذهبي**، ترجمة: أحمد أبو زيد، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، مصر، 1971م،ج1، ص390

لم يكن هناك حاكم لشعب عشتار

عند ذلك نزلت الملكية من السماء"[1].

وفي سومر نجد العصا من نواميس الألوهية المقدسة:

"أعطاني ناموس الألوهية

أعطاني ناموس التاج النبيل الدائم

أعطاني عرش الملوكية

أعطاني الصولجان النبيل

أعطاني العصا

جمعت إنانا النواميس المقدسة"[2].

وعندما يتطلب الأمر تحقيق خلاص، واستخدام قوة لدفع الشر، تظهر العصا مع الآلهة، متحدة مع الأفعى، فلما تجلى الإله المغيث للإيطاليين، ظهر أفعى منتصبا على نفس هيئته، وهو في معبده، "تمسك يده اليسرى بعصاه الخشبية، ويمسح بيمناه لحيته الطويلة، ويقول في صوت رفيق: لا تخش شيئا، فسوف آتي مخلفا طيفي ورائي، وإن كنت سأبدو في غير صورتي، فأنعم النظر إلى هذا الثعبان الذي يلتف على عصاي، وتبين أجزاءه؛ لتتعرف عليه حق المعرفة، فلسوف أبدو في هيئته، غير أن حجمي سيكبر حجمه، وسوف ترى لي قامة عالية، لا تليق إلا بالآلهة، حين تتحول من هيئة إلى أخرى"[3].

وكما كانت العصا مقدسة في السماء، كانت مقدسة في العالم السفلي، فهي شعار ألوهية للإله نرجال، تشبه الثعبان السام، هكذا ظهرت في حلم أمير آشور:

([1]) الشواف، قاسم: **ديوان الأساطير**، ج2، ص490-491

([2]) السواح: **الأسطورة والمعنى**، ص120

([3]) أوفيد، الشاعر: **مسخ الكائنات**، ص328

"العالم السفلي مليء بالرعب أمام ابن الأمير(أي نرجال)، كان ينتشر صـمت مخيـف، قبض عليّ من خصلة شعري، وجعلني قريبا منه، بدأت ركبتاي تصطكان، عندما رأيته، وبريقه الرهيب، رماني أرضا. قبلت رجلي ألوهيته العظيمة، ثم سجدت، وانتصبت واقفا، وهو بعـد أن تأمل بي، هز رأسه، أطلق صرخة قوية، مثل عاصفة عنيفة، صرخ غاضبا ضـدي، وعصـا الحكم، شعار ألوهيته التي تملؤها الرهبة، كانت بيده، مثل ثعبان مسمم"[1]، والعصـا فـي اليـد البشرية إذن تدل على نوع من الارتباط بالآلهة، تحاكي عند الغضب الثعبان المرعب، المتحـد بالعصا، و كان للعصا لدى العرب، في الجاهلية والاسلام، شأن محمود، ومقام ملـوكي سـام، فكانت "العرب تخطب بالمخاصر... وتشير بالعصي والقنا... حتى كانت المخاصر، لا تفـارق أيدي الملوك في مجالسها"[2].

وفي الأساطير الإغريقية نجد ربة الغضب الرهيبة، تظهر، وهي تتمنطق الأفاعي حول ذراعيها، ورأسها، وصدرها، وتهبط إلى مملكة أرواح الموتى التي يحكمها ديس[3].

وهذه العصا غير العادية أو السحرية، تظهر في يد ميركوريوس، وهي تصيب من تمسه بالنعاس[4]، وفي يد الإلهة كيركي، التي لم تكد تلمس أطراف شعر ضـيوفها بعصـاها، حتـى استحالوا إلى خنازير، وكلاب، ووحوش، وأفاع [5].

وأما مواصفات الأفعى، من حيث الضخامة الهائلة، ووجود القوائم، وتوقد العينين نارا، فله ما يشاكله في المعتقدات السابقة للإسلام، ففي الأساطير الإغريقية، الأفعـى بيثـون السـام يفترش المساحات الواسعة [6]، وفي أفستا الفرس، نجد وصفا أسـطوريا لأفعـى "ذات قـرون، مبتلعة الأحصنة، ومبتلعة البشر، والتي كانت تنضح السم الأصفر بسماكة الأصبع"[7]، وكـذلك

([1]) الشواف: **ديوان الاساطير**، ج4، ص179

([2]) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: **البيان والتبيين**، دار إحياء التراث العربي،1968م، ج2، ص12

([3]) ينظر:أوفيد: **مسخ الكائنات**، ص104

([4]) ينظر: السابق، ص242

([5]) ينظر: السابق، ص299،ص302

([6]) ينظر السابق، ص42

([7]) عبد الرحمن، خليل: **أفستا، الكتاب المقدس للديانة الزرادشتية**، ص570

نجد أفعى "ذات الرؤوس الثلاث، والعيون الستة... قوية وضخمة"[1]، لكنها تظهر بقوة الشـــرير أنكرامايينيو، فهي "وليدة الأبالسة، شريرة... مخلوقة لأجل هلاك كل العالم، وكـــل الموجـــودات الصالحة"[2]، وهي في ذلك رمز للشر كما سنأتي على بعض نظائره لاحقا.

وإن كان ابن كثير قد اكتفى بوصف الحية بعظم الخلقة، والقوائم، وتوقد العينـــين، فقـــد بسط غيره الوصف، فقال: "كأعظم ما يكون من الثعابين أسود مدلهم، يدب على أربـــع قـــوائم قصار، غلاظ شداد... نفَسه نار، وله عينان تلتهبان نارا، ومنخره ينفخان سموما، على معرَفتـــه شعر كأمثال الرماح"[3].

لقد كانت الحية قبل أن تساعد إبليس، في فتنة حواء وآدم، لمّا كانا في الجنة، "من أحسن الدواب التي خلقها الله تعالى، لها أربعة قوائم كقوائم البعير"[4]، فعاقبها الله سبحانه بقطع قوائمها، قوائمها، وأمشاها على بطنها"[5].

إن وصف الحية بالقوائم وصف أسطوري قديم، ظهر في الأساطير الرافدية وآثارهم[6]؛ حيث يرمز للإله مردوخ[7]، في صورة أفعى بقوائم[8]، كذلك نرى أفاعي مجنحة بقـــوائم، فـــي الميثولوجيا المصرية[9].

ويظهر تعليل اختفاء القوائم لدى "خرافات العصور الوسطى في أوروبا، التي تؤكـــد أن النساء خلقت من أرجل الأفعى، التي فقدتها لدى تسللها إلى الفردوس"[10]، وهي بهذا تنتح مـــن

---

(1) عبد الرحمن، خليل: **أفستا، الكتاب المقدس للديانة الزرادشتية**، ص554

(2) السابق، ص554

(3) الثعلبي، أبو إسحاق أحمد بن محمد: **قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس**، دار الكتب العلمية، بيروت، 1981م، ص186

(4) السابق، ص30

(5) السابق، ص34

(6) ينظر: القمني،سيد:**الأسطورة والتراث**، ص45، ص51-52

(7) ينظر: الماجدي، خزعل: **إنجيل بابل**، ص26

(8) انظر: شكل رقم (4) في ملحق الصور

(9) انظر: شكل رقم(5) في ملحق الصور

(10) السواح: **لغز عشتار**، ص136-137

تصور سابق، ظهر لدى المسلمين أيضا، كما تبين سابقا في كتاب عرائس المجـالس للثعلبـي، وظهر في تفسير ابن كثير، وكأن حية موسى عليه السلام ذات القوائم، تمثل الثعبان الصالح قبل السقوط، أي المطيع لله، الذي ينتصر لعبد الله في وجه الطغاة الأشرار، كتجلٍ إلهي خيّر.

وأما امتزاج هذا التصور بالعينين المتوقدتين نارا، والنار التي ينفثها بنفَسه، فهو يقترب من التنين، الذي يحضر في معظم أساطير العالم، "ينفث النار من فمه"[1]، ويرمز إلى "الثعبـان البدئي"[2]، ومِن وصفه في أسطورة رافدية، يظهر شكله الأفعواني العظيم، تقول الاسطورة:

"من الذي أوجد هذا التنين

البحر وحده بإمكانه ولادة مثله

عند ذلك رسم إنليل شكله في السماء

كان طوله يبلغ خمسين بيرو

وبير واحد كان سمكه

كان قياس فمه ستتة أذرع

ولسانه إثنا عشر ذراعا

وعلى إثنى عشر ذراعا كان يمتد

محيط أذنيه

وعلى مسافة ستين ذراعا

كان يلتقط الطيور بلسانه"[3].

([1]) معدي، الحسيني: **أساطير الشعوب حول الجن والشياطين**، ص213. وينظر: سيرنج، فيليب: **الرمـوز فـي الفـن- الأديان-الحياة**، ص150

([2]) نعمة، حسن: **ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة**، ص38

([3]) الشواف: **ديوان الأساطير**، ج3، ص232

وفي أساطير أوغاريت "يرمز إلى يم بلوياثان، الحية الملتوية ذات الـرؤوس السـبعة، ويرمز إليه أيضا بالتنين"[1]:

"لوياثان الحية المعوجة

الحية المتلوية العاتية

ذات الرؤوس السبعة"[2].

وأرى في وصف الأفعى، بتعدد الرؤوس في الأساطير، ما هو إلا تعبير عـن تجلياتـه المتعددة، وتمثلاته المتنوعة.

وكما ترمز الحية في بعض معانيها إلى المعرفة والحكمة، كذلك نعثر على دلالة التنـين في الصين؛ حيث "يعتبر من أنبل الكائنات، وهو مثال للحكمة والقوة"[3].

"إن الأرض التي تلد الينابيع، والقادرة على أن تغطـى بالغابـات، وأن تخضوضـر، وتزدهر دوريا، وبخاصة، لكي تغذي الحيوانات والبشر، محوّلة الحبة إلى سنبلة غنية، كانت في نظر القدماء تمتلك علما وأسرارا، وباختراق الثعبان لجوف الأرض، ينتزع أسـرارها، يصـبح عند بعض شعوب الشرق رمز المعرفة... رمز العلم والحكمة"[4]، "وقد أهـداها القـدماء إلـى إسكلابيوس؛ إله الطب عند اليونان، وحديثا اتخذها الأطباء والصيادلة شعارا لمهنتهم"[5].

وظل "منذ الأسرة الحاكمة الأولى، يحمل الفرعون اسم الثعبـان... وغالبـا مـا مُثّـل الفرعون، على كافة البروزات، والتماثيل، والجداريات، على جهة كوبرا، رافعة رأسـها، هـي الحية المقدسة أورايوس، رمز الحكمة والمعرفة"[6]، وبما أن الفرعون هو الحامي من الأعـداء،

([1]) فريحة، أنيس: **ملاحم وأساطير من أوغاريت**، ص50

([2]) السابق، ص158

([3]) معدي، الحسيني: **أساطير الشعوب حول الجن والشياطين**، ص213

([4]) سيرنج، فيليب: **الرموز في الفن-الأديان-الحياة**، ص119

([5]) نعمة، حسن: **ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة**، ص40

([6]) سيرنج، فيليب: **الرموز في الفن-الأديان-الحياة**، ص120

والحارس للأمة، مُثّــل برمز حية الكوبرا، و "في القبور الطيبية المرســومة، يُلاحــظ وجــود حاميات تحت شكل حيات، لها أحيانا مقادم"[1].

وفي الهند "يحمي ملك الأفاعي الكبير دهاراننذرا يحمي باراسافانا، بقبة حقيقية مكونــة من رؤوس الكوبرا"[2].

إن دلالة الأفعى أو الحية في حراسة أمر الله، والانتصار لكلمته، تمثل الجانب الخيّــر، فهي في إحدى تجلياتها، خاصة كلما تقادمت، أي قبل فكرة السقوط، دلّت علــى الخيــر، ففــي البوابة السادسة، يقول أوزيريس–آتي:

"سيدة الضوء العظيمة، إليها يتضرع الرجال بغــزارة، لا يعــرف المــرء طولهــا ولا عرضها... لم يوجد أبدا من يشبهها، منذ البدء، هناك ثعبان يرقد فوقها، لا يدري أحد حجمــه، ولد من حضرة القلب الهامد، هذا هو اسمك، واسم الحارس سمماتي"[3]، وكانت وادجت الإلهــة الحامية والحارسة، رمز مصر السفلى على هيئة ثعبان، وعلى رأسها التاج المزدوج[4].

"كما اعتبرت الحية بمثابة روح الشجرة، وحارسة الينابيع"[5]، تقول الأسطورة:

"تحت ظل شجرة صفصاف حيث ولدت الحية"[6].

وفي هايتي، تقوم "أفعى النهر سمبي، كسيدة للينابيع والمطر"[7]، ولا يخفى مــا يحمــل الماء من دلالة على الحياة، وهو بذلك متوحد مع الحية، ويظهر أوزيريس في أساطير مصــر القديمة، في صورة الأفعى متحدا مع النيل[8].

([1]) سيرنج، فيليب: **الرموز في الفن–الأديان–الحياة**، ص139. وينظر: الماجدي، خزعل: **الدين المصري** ص25

([2]) السابق، ص142

([3]) إم هرو، برت: **كتاب الموتى الفرعوني**، ص140

([4]) ينظر: تشرني، ياروسلاف: **الديانة المصرية القديمة**، **صور الكتاب**، الصورة رقم 5

([5]) السواح: **لغز عشتار**، ص139

([6]) الشواف: **ديوان الأساطير**، ج2، ص492

([7]) كورتل، آرثر: **قاموس أساطير العالم**، ترجمة: سهى الطريحي، دار نبنوى، دمشق، 2010م، ص195

([8]) ينظر: تشرني، ياروسلاف: **الديانة المصرية القديمة**،ص138

وفي الهند عُبد الإله ناغا، باعتباره الأفعى الحارس للأنهــار، والبحيــرات، والبحــار، وحامي المعابد، وقد ولد ناغا من كادرو ابنة داكشا ابن براهما[1]، وبراهما يعتبــر "اللامتغيــر الأبدي، والقاع الكلي للوجود"[2]، وفي مقابل الافعى الخيّر ينتصر الإله فشنو، الإلــه المجــدد والمحافظ، على أفعى الماء كاليا[3]، التي تمثل حالة شريرة.

هذا الحضور المتناقض للأفعى، يمثل حالة الازدواجية المودعة في الوجود، بين الخيــر والشر، وبين الايجابية والسلبية، وبين الحياة والموت، إنها "رمزية ثرية معقدة تجمع بين الشيء ونقضيه"[4]، كما هو شأن الوجود ذاته.

كذلك انتصر هرقل "ابن رئيس الآلهة زيوس"[5]، على الهيدرا، الأفعــى المائيــة، ذات الرؤوس التسع، وقتلها[6]، التي هي "رمز المظاهر النتنة للمستنقعات، وإلهة مكان مخيف"[7].

"إن معركة ضد إله غول أفعواني، أو بحري، تشكل لازمة أسطورية، منتشــرة جــدا، ويمكن أن نعيد إلى الذاكرة، المعركة بين رع وأبو فيس، وبين الإله السومري، نيفورتا وأساج، ومردوك وتيامات، والإله الحثي للعاصفة والأفعى إيلويانكا، زوس وتيفون، والبطــل الإيرانــي ترايتونا والتنين"[8].

الآلهة ممثلة بالأفاعي، تصارع آلهة أخرى شريرة، ممثلة أيضا بالأفاعي، إنه صــراع موسى وفرعون، الإله فرعون الذي يحمل في تاجه الملوكي أفعى حارسة، يأتيه موسى بمعونة الله عز وجل بأفعى معجزة، ومعرفة وحكمة سماوية يتكئ عليها، ويتصدى له فرعون بأفــاعي سحرته الشيطانية، هذا هو المشهد.

---

(1) ينظر: كورتل، آرثر: **قاموس أساطير العالم**، ص94

(2) السواح: **دين الإنسان**، ص255

(3) ينظر: كورتل، آرثر: **قاموس أساطير العالم**، ص85

(4) عجينة، محمد: **موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالتها**، ج1، ص311

(5) كورتل، آرثر: **قاموس أساطير العالم**، ص173

(6) ينظر: شابيرو، ماكس: **معجم الأساطير**، ص125

(7) سيرنج، فيليب: **الرموز في الفن-الأديان-الحياة**، ص137

(8) إلياد، ميرسيا: **تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية**، ج1، ص253

فهل صراع موسى مع فرعون صراع أسطوري بين روح الخير وروح الشر، برمزية الحية لدى كل منهما ؟ وكذلك يضرب الله الحق والباطل، ويضرب الأمثال، فأما السحر فيبطله الله، ويحق الحق بكلماته... ويَذهب الزبد جفاء، ويمكث الخير في الأرض، وينتصر موسى عليه السلام، وتسحق حكمة السماء سحر السحرة الأشرار.

وعندما خسر جلجامش نبتة الخلود، وأخذتها الحية المختفية، كانت تستقر في نبع ماء أيضا، وهي بذلك أحق بها و أجدر:

"فرأى جلجامش بركة ماء بارد

نزل فيها واستحم بمائها

فتشممت أفعى رائحة النبتة

تسللت خارجة من الماء وخطفتها

وفيما هي عائدة تجدد جلدها

وهنا جلس جلجامش وبكى

وفاضت دموعه على خديه"[1].

وكأن الحية بفعلها هذا، تصر أن تكون عدوة لخلود الإنسان، فكما حرمته من جنة الخلد، حرمته من نبتة الخلود، لتحظى هي بها دونه، وعليه أن "يصارع الحية لينال الخلود"[2]، بينما الحية "تـُبعث من جديد مغيرة جلدها، ومجددة نفسها"[3]، ولذلك "فهي مصدر خلق جديد"[4]، وصدق الله إذ يقول: "إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير"[5].

([1]) السواح: جلجامش **ملحمة الرافدين الخالدة**، ص234

([2]) نعمة، حسن: **ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة**، ص29

([3]) كامبل، جوزيف: **قوة الأسطورة**،ط1، ترجمة: حسن صقر وزميله، دار الكلمة للنشر والتوزيع، دمشق، 1999م، ص76

([4]) نعمة، حسن: **ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة**، ص39

([5]) سورة فاطر، الآية:6

إنها الحية "التي جاء اسمها عند العرب مشتقا من الحيـــاة؛ لاعتقـــادهم أنهـــا خالـــدة لا تموت"[1]، هي واهبة الحياة، وواهبة الماء، تظهر في رمز إلهي إيجـــابي، "إنهـــا رمـــز وســـر الحياة"[2]، وقد جعل الله "من الماء كل شيء حي"[3]، وفي أسطورة باموري ماهسي مساعد إلـــه الشمس، الذي جاء بالأفاعي، عند قبائل التوكانو ما يوحّد بين الحية والماء، فبعدما قتـــل رجـــل الطب الأفعى النهرية الكبرى، ذات السبعة الرؤوس، وحرقها، بسبب فعل شرير صدر عنها، فإن "الدخان المتصاعد حمل البقايا، ووقعت على شكل مطر في البحر، وولدت الأفعى من جديد"[4].

إن ارتباط الحية بالألوهية، تجلّى سلاحا تعاقب به الأعداء، كما حدث عندما عاقبـــت "أثينا الطروادي لاوكون؛ لأنه أراد إفساد الخدعة الإغريقية بحصان طروادة؛ وذلك بأن جعلته يُخنق مع ولديه من قبل ثعبانين"[5]، كذلك نجد الحية في العالم السفلي، تنفّذ مشيئة الإلـــه فـــي معاقبة الأشرار، تظهر[6]، وقد أظلت الإله أوزريس، وهي تنفث نارا علـــى البشـــر الأشـــرار والكائنات الملعونة، وهم يسحبون إلى حفر النيران[7].

كما تحمل الحية صفة الغيب والخفاء حينا، والظهور حينا آخر علـــى وجـــه النـــدرة والاختلاس، وهي بذلك تمثل إلى حد ما سلوك الآلهة في الوجود، فوجود الآلهة غيبي، يســـتتر وراء الرموز والموجودات، ولم يكن مثال على "الشر الخبيث، الذي يضمر السوء، ويتوارى عن النظر، أقرب إلى الحس والخيال، من الحية التي تزحف على التراب وتندس في الجحور، كيـــدا وخديعة، وتمكنا من الدس والأذى... ولهذا بقيت صورة الحية مقترنة بقوة الشر حقيقة أو رمزا، إلى أحدث العصور"[8]، واكثر ما تكون الحيات في الخفاء؛ مما جعلها في عداد الجن، و"الحيات

([1]) الديك، إحسان: **صدى الأسطورة والآخر في الشعر الجاهلي**، ص86

([2]) كامبل، جوزيف: **قوة الأسطورة**، ص76

([3]) سورة الأنبياء، الآية: 30

([4]) كورتل، آرثر: **قاموس أساطير العالم**، ص190

([5]) سيرنج، فيليب: **الرموز في الفن-الأديان-الحياة**، ص124

([6]) انظر: شكل رقم (6) في ملحق الصور

([7]) ينظر: الماجدي: **الدين المصرية**، ص217

([8]) العقاد: **إبليس**، ص88

مسخ الجن"[1]، والجن عالم ما فوق الطبيعة، ووراء الحس، فخير ما يمثله إذن الحية، فهي تمثل الحياة، وتسلك باجتنان، كما هو عالم اللامرئي، وهي في هذا تنقسم أيضا الى خيّرة وشـــريرة، كما هو انقسام الجن بين مؤمن وكافر، فقد حدّث رجل أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه، وقد رأى " ثعبانين اقتتلا، ثم قتل أحدهما الآخر، قال: فذهبت إلى المعترك، فوجدت حيــات كثيــرة مقتولة، وإذ ينفح من بعضها ريح المسلم... فبينا أنا أمشي إذ ناداني مناد: يا عبــد الله.. هــذان حيان من الجن، بنو شعبان وبنو قيس، التقوا فكان من القتلى ما رأيت"[2]. إنه مشهد يبرز فيــه الصراع بين الخير والشر، بين حيات الحق كما ظهر في حية موسى، وحيات الباطل كما ظهر في حيات السحرة.

إن الحية التي تحمل معنى الحياة، دلت على حياة الخلود، وكانت علامتها تبديل جلــدها القديم بآخر جديد، وكأني بقول الله سبحانه: " كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها"[3] حتى حتى يستمروا بالحياة الخالدة، ولكن حياة العذاب.

تكاد تتفق الأساطير على أن تبديل الجلد، يعني الحياة المتجددة، لقد استقر هذا المفهــوم في ذهن الإنسان القديم كحقيقة لا مرية فيها، فهذا الشاعر أوفيد يقول في رفع الإله جوبيتر، لابنه الإله هرقل، رفعه إليه في السماء، بعدما أتت عليه نيران، فحرقت من جسده الجزء الأرضي، الذي أخذه عن أمه، وبقي الجزء الخالد في مأمن من الموت والنيران، الذي أخذه عن أبيه، يقول: "إن إله النار فولكانوس، قد ذهب بجميع ما يمكن أن تأكله النار، فلم يعد من اليسير التعرف على هرقل بما تبقى منه؛ لأن شيئا مما يُذكر بأمه لم يبق، ولم يحتفظ إلا بما يحمــل مــن بصــمات جوبيتر، وكما يحدث للثعبان، حين يتجدد شبابه بانسلاخه من جلده، فيتحــرر مــن شــيخوخته، ويتفجر قوة، وتتألق براقة حراشفه الجديدة، كذا حدث للبطل إذ تحرر من غلافه الأرضي الفاني،

---

(1) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج2، ص111

(2) السابق، ج4، ص247

(3) سورة النساء، الآية:56

وعادت الحياة إلى أفضل جزء من ذاته، وبدا أعظم مما كان"[1]، ولم يجد الذهن البشري خيــرا من الحية كي "ترمز إلى استمرارية الأشياء وخلودها"[2].

وفي حياة الحية، ما يوحي بتماثل مع الطبيعة، في حال ديمومة من الإنبات والخصب، والبعث بعد الموات، والقيامة بعد الموت، كما نألفه في فصل الربيع، ثم فصل الخريف، و فـــي يبس الشجر، وسقوط ورقه ثم تبرعمه، واخضراره، وكما نرى الارض وقد اعشوشبت وربت بعد جدب، وانبتت من كل زوج بهيج، ثم صارت هشيما تذروه الرياح، هذه الخصوبة، جعلتهــا تناظر المرأة الأنثى، سواء مع حواء، أم البشر، أو مع عشتار، الأم الكبرى، وتتقــارب حتــى تتحد، وتبدو المرأة حينئذ من نسل الحية [3].

إن السيدة الأفعى كوايتلو، كانت إلهة الأرض لدى شعب الازتك، ووالدة هــويزل، إلــه الصين، "وقد حملت منه أمه بشكل سحري، إذ تروي الأسطورة أنها كانت تكنس الأرض، فــي أحد الأيام، فسقطت عليها كرة من ريش، كأنها خيوط، فأخذت الكرة، ووضعتها في صدرها"[4]، وهكذا حملت بهويزل، ذي الهيئة الأفعوانية، وفي هذه الأسطورة تتــداغم الأرض، والســماء، والمرأة، والأفعى، فمن السماء سقطت كرة الريش على الارض، وحملتهــا المــرأة، فأنجبــت الأفعى.

وفي اسم حواء ما يشي يهذا القرب الشديد مع الحية، "فالمرأة في أصلها كانــت أفعــى، والأفعى كانت امرأة"[5]، فعند السومريين توحدت "الشيطانة ليليت بالحية، وليليت هي ما عرفت عند الساميين بحواء الأولى، والتي عادت بدورها فتوحدت بالحية"[6]، وفي بعض طبيعتها التــي تحاكي القمر، الذي "يظهر ويغيب، يتحول ويتولد دوريا، وله العديد من الحلقــات.. فالثعبــان

([1]) أوفيد: **مسخ الكائنات**، ص201

([2]) نعمة، حسن: **ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة**، ص39

([3]) ينظر: كورتل، آرثر: **قاموس أساطير العالم**، ص250. و ألبيديل، م.ف.:**سحر الأساطير دراســة فــي الأســطورة**، ص91-92

([4]) كورتل، آرثر: **قاموس أساطير العالم**، ص198

([5]) السواح، **لغز عشتار**، ص126

([6]) عبد الحكيم، شوقي: **موسوعة الفلكلور والأساطير العربية**، ص186

ممثل القمر على الأرض، وبصفته تلك يوزع الخصوبة"[1]، وكذلك المرأة "ذات طبيعة قمرية، وإيقاع قمري، فهي مرتبطة بدورة شهرية معادلة لدورة القمر"[2]، وكما تكون دورة القمر 28 يوما، كذلك "دورة الطمث الشهرية"[3] عند المرأة، وكما يخرج من باطن الأرض النباتات، كذلك يخرج من بطن المرأة الأجنة الأحياء، هذا ما جعل "الحية هي روح الطبيعة، التي تطلب من المرأة أن تبقى لصيقة بها"[4].

وكانت المرأة كالحية، تمثل الخير حينا، وتمثل الشر حينا آخر، فالأم "الأصلية الشريرة، تيامات المتحولة إلى أفعى، والموصوفة في ألواح الخلق السبعة (البابلية)، بالغاوية المضللة، التي لا يمكن صلاحها، هي تلك الأفعى التي دفعت المرأة الأولى..(حواء) إلى إغواء الرجل الأول (آدم)"[5]، وهي بذلك تبدو في ثلاثة وجوه لشيء واحد، "الحية والشيطان والمرأة"[6]، وعلى الرغم من أن الإله مردوك تخلص منها، ولكنه خلق بني البشر، ودماء كينغو تجري في عروقهم، " تبعث فيهم الرغبة في الشر، وتزرع في النساء أيضا الرغبة والشبقة الفطرية"[7]، هذه الرغبة، هي التي تخلق، وتخصب، وتستمر بها الحياة، وتنبعث في كل المخلوقات التي انبثت من جسد تيامات الأم؛ في المرأة، في الحيوانات، في الأشجار، في النباتات، في الأرض، في السماء، مستمرة في تجدد، وتخالف، وعطاء متبدِل، يشبه تجديد الحية لجلدها، وتماثل بعث الأرض حياة جديدة من باطنها للبذور، وتوليد المرأة للأزواج؛ بنين وبنات، من رحمها، هذه الرغبة الشهوانية المتعلقة بالمرأة الغاوية، لم يُنظر اليها كعامل إخصاب، وحياة لكائنات خيّرة، بل لكائنات شريرة، حيث خرجت عن الطريق المستقيم، التي يرتضيها إله النور، وتساوقت مع إله الظلمات، ظهر ذلك مع حواء في الجنة، مما ساعد في شيطنة المرأة، كما هي شيطانية الحية في الوجه الآخر، الذي يمثل الشيطان أو الشرير، لقد شكّل "المدلول الشرير المرتبط بالثعبان

([1]) سيرنج، فيليب: **الرموز في الفن-الأديان-الحياة**، ص138

([2]) السواح، **لغز عشتار**، ص75

([3]) سيرنج، فيليب: **الرموز في الفن-الأديان-الحياة**، ص138

([4]) السواح: **لغز عشتار**، ص141

([5]) فريشاور، بول: **الجنس في العالم القديم**،ط1، ترجمة: فائق دحدوح، دار نينوى، سوريا، 1999م، ص29

([6]) عبد الحكيم، شوقي: **موسوعة الفلكلور والأساطير العربية**، ص187

([7]) فريشاور، بول: **الجنس في العالم القديم**، ص29

اتساعا شبه عالمي"[1]، وليس ببعيد عن هذا الشر فعل إيزيس ربة السحر، التي انطلقت "تتبع رع أينما ذهب وسار، حتى إذا ما شهدت بعض اللعاب، يسيل من بين فكيه، على تراب الأرض، أسرعت؛ فأخذت حفنة من التراب، مزجتها باللعاب المقدس، وعجنتها بيديها اللبقتين في شكل حية، تشبه تماما تلك الحية التي تتوج رؤوس الآلهة والفراعنة، وفي غبار الطريق، الذي يمر به رع، خلال رحلته كل يوم، دفنت إيزيس حيتها، بعد أن نفخت فيها الحياة، بتعاويذ سحرية تحيي الجماد، وجاء الصباح، وانطلق رب الشمس يستأنف رحلة النور الخالدة، وبينما هو في طريقه، مر حيث ترقد الحية المسحورة، وفي لحظة كانت قد أنشبت في عقبه أنيابها، وأفرغت من السم نارا"[2]، وصارت إيزيس "تقبض على سر السلطان والقدرة... وصاحبة السيطرة والنفوذ"[3]، لذلك من شر البشر وسخريتهم بالإله رع، بعد فعل إيزيس، غاب رع، واختفى عن الارض، وسكن وسط السماء،[4]، وصار يتواصل مع البشر من وراء حجاب، وفي هذا السياق، جاءت حية موسى، الأم الصالحة، والتجلي الإلهي، والحجة البالغة؛ لتقوّم هذا الشر المستطير في فرعون وقومه، وتنقذ البشر من حية فرعون وسحرته، من الأم الهاوية والغاوية. وترشد المذنبين القابعين تحت سلطة الشر والمكر، إلى الإله الحق الذي في الأعالي، وتساق الأرواح إذا رجح الشر؛ "لتعذب في نيران تارتاروس، وقد وكلت بالأرواح الشريرة، إلى الثلاث أفاع تجرها، وتضربها، بسياط لادغة"[5].

وظلت الحية قمينة بالعالم السفلي، تحرس مغاليق بوابات العالم السفلي، فليس كل بذار يُغرس في باطن الأرض صالح للبعث، كما ليس كل إخصاب للرحم كفيل بالإنجاب الصالح، وهذه الحية في أكثر حالها تختفي في بواطن الأرض، وتسكن العالم السفلي، وقلما تظهر، وهي وإن ظهرت، تجلت في كل حي، وفي كل ما يحمل دلالات الخصب، مثل القمر[6]، وقوس قزح

([1]) سيرنج، فيليب: **الرموز في الفن–الأديان–الحياة**، ص123

([2]) كامل، مجدي: **أشهر الأساطير في التاريخ**،ص18

([3]) السابق، ص22

([4]) ينظر: السابق، 23

([5]) غيربر: **أساطير الإغريق والرومان**، ص103–104

([6]) ينظر: سيرنج، فيليب: **الرموز في الفن–الأديان–الحياة**، ص138

مُمَثلا الثعبان المائي[1]، والمياه، والأشجار، وفي زهر نبات البردي [2]، وسنابل القمح[3]...الخ، تظهر لتخرج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الضلال إلى الهدى، ومن الموت إلى الحياة، وصدق الله إذ يقول: "أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون"[4]، لقد كانت حية موسى آية الله لفرعون وقومه؛ لتنزع عنهم زينتهم الخادعة، وتوقظ فيهم روح الخير، وتسقط أفاعي الشر، وتظهر حجة الله، وبرهانه يغالب الباطل والأباطيل، لقد تلقفت حجته سبحانه خيالات السحرة، فأهلكتها، واستبانت أنواره، فبددت ظلمات الدجل، ومحقت سلطانه، "وكذلك زين لفرعون سوءُ عمله وصُدّ عن السبيل وما كيد فرعون إلا في تباب"[5].

والحية في العالم السفلي أيضا، تمارس مهمتها في تحطيم العصاة والمذنبين والضالين، وتشكل مصدر عذاب لهم بسبب شرهم، "ويل لأهل المعاصي من أهل القبور، تدخل عليهم في قبورهم حيات سود، أو دهم، حية عند رأسه، وحية عند رجليه، يقرضانه حتى يلتقيا في وسطه، فذلك العذاب في البرزخ"[6]، بل يمتد وجود الأفاعي من البرزخ إلى النار، "إن في النار لجبابا، فيها حيات أمثال البخت، وعقارب أمثال البغال الدلم، فإذا قذف بهم في النار، خرجت إليهم من أوطانها، فأخذت بشفاههم وأبشارهم وأشعارهم، فكشطت لحومهم إلى أقدامهم"[7]، وكما مثل التفسير فم حية موسى بالبئر الواسع، كذلك هذه الحيات الجهنمية تسكن البئر؛ لتصبح "البئر التي كانت مصدرا للحياة جهنما أرضية، وبوابة للعالم الأسفل"[8]، ومنهم من يعذب بطريقة أخرى بالحيات، حيث تتخذ بطونهم بيوتا لها، وهؤلاء هم أكلة الربا[9].

([1]) ينظر: كورتل، آرثر: **قاموس أساطير العالم**، ص251

([2]) ينظر: الماجدي، خزعل: **الدين المصري**، ص25

([3]) ينظر: السواح: **لغز عشتار**، ص138

([4]) سورة الأنعام، الآية: 122

([5]) سورة غافر، الآية: 37

([6]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج3، ص427

([7]) السابق، ج3، ص530. وينظر: ج1، ص647. (شجاع أي أفعى في جهنم)

([8]) الديك، إحسان: **صدى الأسطورة**، ص148

([9]) ينظر: ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج2، ص401

هذا التصور ألفيناه في الديانة المصرية القديمة بكثرة، ونجده في المعتقـد الزرادشـتي، عندما شاهد كاهنها فيراز العالم الآخر، والجنة والجحيم، وأخذ يصفها في حديث طويل، "رأيـت روح إنسان كأفعى شجرية، قد دخلت من دبره، وخرجت من فمه، وكانت هناك أفاع كثيرة تلتهم جسده، فسألت النبيل سراوش، والإله آدور: ما الذنب الذي اقترفه الجسد لتدفع روحه هذا الجزاء المخيف؟ فأجاب النبيل سراوش، والإله آدور: هذه روح الآثـم..."[1]، وكـذلك صـورة مـن يمارسون الهرطقة في الجحيم، " هذا روح الآثم الذي مارس الهرطقة في حياته الدنيوية، ولهذا دخلت روحه الجحيم على هيئة أفعى"[2]، وما أكثر حضور الأفاعي والعقـارب، فيمـا شـاهده الكاهن الزرادشتي في الجحيم [3]، والهرطقة تصلح أن تعاقب بالأفاعي، فالهراطقـة مـن مـلأ فرعون، واجههم موسى عليه السلام بالأفعى المرعبة، فكانت لهم إصلاح، وحجة دامغة، سطع بها الحق، وانكسر سحر الأشرار.

لقد خلّصتْ حية موسى الإنسان وقتذاك، من عبادة أفعى الشر وتمثلاتها، ومـا كـانوا تاركين، لولا رأوا برهان ربهم، فقد استخفهم فرعون، وكانوا له عابدين، قال تعالى: "فاسـتخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين"[4]، وهو الذي قال: "يا أيها الملأ ما علمت لكم مـن إلـه غيري"[5].

ومع ذلك، فعبادة الأفاعي باقية، وانتكاسة الإنسان دائمة، ما دامت الحياة بـين خيرهـا وشرها، لأن هذا الصراع، هو صراع منذ الزمن البدئي، في أساطير الخلـق والتكـوين، بـين الخالق، والتنين أو الحية الشيطان، "وهو نموذج أسطوري بارز متعارف عليه، في تراث العالم القديم"[6]، "ففي اليونان كان معبد دلفي مكرسا للأم الأرض جيا، وكانت تحرسه، كمـا تـروي الأساطير المتأخرة، الأفعى العملاقة بيثون، إلى أن جاء الإله أبوللو، فقتل الأفعـى، واغتصـب

(1) عبد الرحمن، خليل: **أفستا**، ص885

(2) السابق، ص888

(3) ينظر: السابق، ص894، ص895، ص898

(4) سورة الزخرف، الآية: 54

(5) سورة القصص، الآية: 38

(6) عبد العزيز، كارم محمود: **أساطير العالم القديم**،ط1، مكتبة النافذة، مصر، 2007م، ص238

المعبد"[1]، لقد شاهد هيرودوت عبادة الأفاعي في مصر فقال: "في ضواحي طيبة، بعض الأفاعي التي يقدسها المصريون، وهي غير مؤذية، وتتسم بصغر حجمها، وبقرنين بارزين في رأسها، وقد جرى المصريون على أن يدفنوا هذه الحيات عند موتها، في معبد زيوس(آمون)، وهو الإله الذي يرعاها"[2]، "وكانت ربة جني المواسم، رينحوت أو رينوتية، تعبد في مصر الفرعونية، تحت شكل حية كوبرا"[3]، كما عبدت الأفاعي في الهند قديما، وما زالت حتى اليوم[4]، وكان كويتزا لكوتل، "الإله المجنح الأفعى في أساطير أمريكيا الوسطى... وكان الخالق المعبود لدى تلك الشعوب"[5]، وفي "الديانة الديونيسية الأورفية، كانت الأفعى تعبد باعتبارها الإله ديونيسيوس ديونيسيوس نفسه... وقد انتقلت عبادة الأفعى من ديانات الخصب إلى ديانات الخلاص السرية"[6].

بعد هذا الحضور للحية في الأساطير القديمة، فلا محيص عن اقتحامها العهد القديم، وهذه العصا التي ستصير حية، تتمتع أيضا بحالة غرائبية، فهي تفرّخ فروخا، وتزهر، وتنضج لوزا:

"وكلم الرب موسى قائلا: كلم بني إسرائيل وخذ منهم عصا عصا، لكل بيت أب من جميع رؤسائهم، حسب بيوت آبائهم، اثنتي عشرة عصا، واسم كل واحد تكتبه على عصاه، واسم هارون تكتبه على عصا لاوي... فكلم موسى بني إسرائيل، فأعطاه جميع رؤسائهم عصا عصا، لكل رئيس حسب بيوت آبائهم، اثنتي عشرة عصا، وعصا هارون بين عصيهم، فوضع موسى العصي أمام الرب في خيمة الشهادة، وفي الغد، دخل موسى إلى خيمة الشهادة، وإذا عصا

([1]) السواح: **لغز عشتار**، ص139

([2]) هيرودوت: **تاريخ هيرودوت**، ترجمة: عبد الإله الملاح، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 2001م، ص166

([3]) سيرنج، فيليب: **الرموز في الفن-الأديان-الحياة**، ص129

([4]) ينظر: السابق، ص122

([5]) كورتل، آرثر: **قاموس أساطير العالم**، ص202

([6]) السواح: **لغز عشتار**، ص140

هارون لبيت لاوي، قد أفرخت. أخرجت فروخا وأزهرت زهرا، وأنضجت لـوزا"[1]، وبهـذه الحالة فوق العادية، دخلت العصا إلى فرعون لتستحيل أفعى:

"فأجاب موسى، و قال: و لكن ها هم لا يصدقونني، و لا يسمعون لقولي، بل يقولون: لم يظهر لك الرب، فقال له الرب: ما هذه في يدك، فقال: عصا، فقـال: اطرحهـا الـى الارض، فطرحها الى الارض، فصارت حية فهرب موسى منها، ثم قال الرب لموسى: مد يدك، و امسك بذنبها، فمد يده، و امسك به، فصارت عصا في يده"[2]، ثم أمره الرب أن يأخذ فـي يـده هـذه العصا، التي تصنع الآيات الباهرات، ويذهب لمقابلة فرعون، وهناك صنع العجائـب، برفقـة هارون:

"فدخل موسى و هرون الى فرعون، وفعلا هكذا، كما أمر الرب، طرح هرون عصـاه أمام فرعون، و أمام عبيده، فصارت ثعبانا، فدعا فرعون أيضا الحكماء و السحرة، ففعل عرافو مصر أيضا بسحرهم كذلك، طرحوا كل واحد عصاه، فصارت العصي ثعابين، و لكـن عصـا هرون ابتلعت عصيهم، فاشتد قلب فرعون، فلم يسمع لهما كما تكلم الرب"[3]، هذه العصا التـي صنعت العجائب، علاوة عن انقلابها أفعى، وتفريخها، وتزهيرها، وانضاجها لـوزا، أخرجـت الضفادع وغطت أرض مصر[4]، وأحالت التراب بعوضا[5]، والماء دمـا[6]، وجلبـت الـريح والجراد[7]، وفتحت البحر[8]، لكن الغريب أنها تتوقف فجأة في صحراء التيه عن صنع الغرائب، الغرائب، فعندما يشتد ببني اسرائيل البلاء، يتجهون لتمثال حية من نحاس، بتوجيه من موسـى عليه السلام، ليصنع آيات الشفاء والحياة، من لدغ حيات العذاب، عندما تذمروا من أمر الله في البرية:

---

(1) **سفر العدد** 17: 1-3، 6-8
(2) **سفر الخروج** 4: 1-4
(3) **سفر الخروج** 7: 10-13
(4) ينظر: **سفر الخروج** 8:5-7
(5) ينظر: **سفر الخروج** 8: 16-17
(6) ينظر: **سفر الخروج** 7: 19-20
(7) ينظر: **سفر الخروج** 10: 12-15
(8) ينظر: **سفر الخروج** 14: 16

"وتكلم الشعب على الله، وعلى موسى، قائلين لماذا اصعدتمانا من مصر، لنموت في البرية؛ لأنه لا خبز، ولا ماء، وقد كرهت أنفسنا الطعام السخيف، فأرسل الرب على الشعب الحيات المحرقة، فلدغت الشعب، فمات قوم كثيرون من إسرائيل، فأتى الشعب إلى موسى، وقالوا: قد أخطأنا إذ تكلمنا على الرب، وعليك، فصلّ إلى الرب؛ ليرفع عنا الحيات،فصلى موسى لأجل الشعب، فقال الرب لموسى: اصنع لك حية محرقة، وضعها على راية، فكل من لدغ، ونظر اليها يحيا، فصنع موسى حية من نحاس، ووضعها على الراية، فكان متى لدغت حية إنسانا، ونظر إلى حية النحاس يحيا"[1].

"وفي الواقع لو أننا قرأنا عن عجائب موسى وهارون، في ملحمة شعبية، لا تستند إلى خلفية دينية؛ لقلنا: ساحران عظيمان، أما هنا فهما من رجال الدين الصالحين؛ لأن القوة التي تنقل الأثر من حركة اليد، أو العصا إلى النتيجة المرجوة، هي قوة منسوبة إلى قدرة إله مشخص، ومسمى يتمتع بصفات، وطبائع وتاريخ، أما وراء عصي حكماء وسحرة فرعون، فهناك القوة الغفلة، التي كانت في بؤرة الدين، وصارت في بؤرة السحر"[2].

وأما الحية لدى العرب الجاهلية فلا تخلو من تجليات أسطورية على غرار غيرهم من البشر، سأكتفي بذكر حضورين لها، في رمزية أسطورية واضحة، لما خلعوا عليها من اعتبارات ودلالات. إحداهما تمثل حضورا خيّرا، والأخرى تمثل حضورا شريرا.

الأولى: حية الخسف أو ثعبان الكعبة المشرفة، الذي بدا بمهمة مقدسة، يحرس بئر بيت الله، ولا يغادره، حتى يظهر النبي الكريم، وتكون مغادرته، بعدما لبث في مهمته خمسمائة سنة ونيّف، بسبب الدعاء عليه من مقام إبراهيم عليه السلام خليل الرحمن، مع وجود المبعوث هدى للعالمين، النبي المصطفى والسراج المنير، فيرسل الله طائر العقاب؛ لحمله الى مكان آخر، في إشارة الى مرحلة جديدة، مقبل عليها المكان الطاهر، ينقل الأزرقي عن هذه الحالة، فيقول: "بعث الله ثعبانا، فأسكنه في الجب في بطن الكعبة، أكثر من خمسمائة سنة، يحرس ما فيه، فلا

---

(1) **سفر العدد** 21: 5-9

(2) السواح: **دين الإنسان**، ص195

يدخله أحد إلا رفع رأسه، وفتح فاه، فلا يراه أحد إلا ذعر منه، وكان ربما يشرف علـــى جُـــدر الكعبة، فأقام كذلك في زمن جُرْهم، وزمن خزاعة، وصدرا من قريش، حتى اجتمعت قريش في الجاهلية، على هدم البيت وعمارته؛ فحال بينهم وبين هدمه، حتى دعت قريش عند المقام عليه، والنبي معهم، وهو يومئذ غلام، لم ينزل عليه الوحي بعد، فجاء عقاب، فاختطفه، ثم طار بـــه نحو أجياد الصغير"[1]، وهذه تمثل الحضور الخيّر، بحكم مهمتها الموكلة بهـــا، مـــن الحراســـة لتقدمات البيت المشرف، وامتثالها لإمر الله، استجابة لدعوة قريش، بحضرة النبي الأمين، بعدما حلّ زمن البعثة الخاتمة، ومضى ما يربو عن خمسمائة سنة، منذ المسيح الى النبـــي المجتبـــى، وهو خلاف ما ذهب اليه تركي الربيعو، عندما جعلها شيطانا، فقال: "إذا قلنا إن الطير هو ملاك مرسل، فإن الكعبة هي بيت الله المطهر، الذي طهره من الشيطان وأعوانه، ليصـــبح بيـــت الله الحرام"[2].

والثانية: كانت مع خالد بن سنان، في نار الحرتين، تظهر نار في هيئة ثعبان، يلاحقهـــا خالد بن سنان العبسي بعصاه، حتى بددها بعدما دخلت بئرا، وقد قيل عنه: "كان نبيا، وكان من معجزاته أن نارا ظهرت بأرض العرب، فافتتنوا بها، وكانوا يتمجسون، فأخـــذ خالـــد عصـــاه، ودخلها حتى توسطها، ففرقها"[3]، هذه النار العظيمة التي كانت للعرب، عرفت بنار "الحرتين، وهي التي أطفأها الله تعالى بخالد بن سنان العبسي... كان يخرج منها عنق فيسبح مسافة ثلاثـــة أو أربعة أميال، لا تمر بشيء إلا أحرقته... فما زال يضربه حتى رجع، وهو يتبعـــه... كأنـــه ثعبان، يتملك حجارة الحرّة، حتى انتهى إلى قليب"[4].

وهكذا انتصر خالد بن سنان مع عصاه على الثعبان، كما انتصر موسى بثعبانه المتحول عن عصاه على ثعبان فرعون، وحطم الخير التمرد الخبيث، وكما انتصـــر ر ع علـــى ســـيبو،

---

(1) الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبد الله: **أخبار مكة وما جاء فيها من الآثـــار**، ط1، مكتبـــة الأســـدي، 2003م، ج1، ص346

(2) الربيعو، تركي علي: **الإسلام وملحمة الخلق والأسطورة**، ص141

(3) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ج1،ص280

(4) النويري، شهاب الدين أحمد: **نهاية الأرب في فنون الأدب**، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004م، ج1، ص105-106

"عدوك الثعبان قد ألقي إلى النيران، الخبيث الشرير سيبو، قد تهاوى بلا توان، منكفئا، ذراعـــاه مربوطتان بالأغلال، وساقاه، ركلهما رع، أبناء التمرد العقيم، لن ينهضوا أبدا ثانية"[1]، "وفـــي بابل، يصرع الإله مردوك، الذي هو نفسه على شكل تنين ذي رأس ثعبـــان مقـــرن، يصـــرع الثعبان، ذلك هو رمز لصراع الخير والشر"[2].

نملة سليمان

اخترت موضوع النملة، من عديد الأساطير، التي احتفت بالملك سليمان؛ لتكون محور الموضوع، دون قرائنها من أساطير مملكة سليمان العجائبية، التي ســآتي علـــى ذكرهـــا، دون تفصيل؛ لأجل ندرة ما يماثلها في الموروث الأسطوري، على وجه التخصيص والحصـــر، وإن كانت شذرات هذه الأسطورة، ومتوازياتها، لا تخلو من أساطير كل الشعوب، من حيث؛ وصف النملة، بطور يخرجها عن مألوفها؛ في الضخامة، والنطق، والإدراك، والوعي، هـــذا الخـــروج يتشظى في الأساطير القديمة، بمقاييس متفاوتة، ولحيوانات مختلفة، وقلما نعثر على أســـطورة مماثلة للنملة، بملامحها العامة، وعناصرها المجتمعة، وأما باقي أساطير المملكة السليمانية، فهي بلا شك، تحتاج لسفر كامل، وبحث مقتصر عليها فحسب.

والآن سنذهب لتفسير ابن كثير، ونرى كيف سيقدم لنا سليمان النبي وعجائبه.

لقد ورث سليمانُ داودَ "في الملك والنبوة"[3]، وأنعم الله عليه بالفضل، في "الملك التـــام، والتمكين العظيم، حتى إنه سُخر له الإنس والجن والطير، وكان يعرف لغة الطيـــر، والحيـــوان أيضا، وهذا شيء لم يعطه أحد من البشر، فيما علمناه، مما أخبر الله به رسوله"[4].

وحتى يستقر هذا الأمر لسليمان عليه السلام وحده، يحترس ابن كثير في تفنيد ادّعاء من يدعي أن الحيوانات كانت تتكلم في زمن الفطحل، أو قبل الطوفان، فيقول: "ومن زعم من الجهلة

([1]) إم هرو: **كتاب الموتى الفرعوني**، ص8

([2]) سيرنج، فيليب: **الرموز في الفن-الأديان-الحياة**، ص123

([3]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج3، ص578

([4]) السابق، ص578

والرعاع، أن الحيوانات تنطق كنطق بني آدم قبل سليمان بن داود، كما يتفوه به كثير من الناس، فهو قول بلا علم، ولو كان الأمر كذلك، لم يكن لتخصيص سليمان بذلك فائدة، إذ كلهم يسمع كلام الطيور والبهائم، ويعرف ما تقول، وليس الأمر كما زعموا، ولا كما قالوا، بل لم تزل البهائم والطيور، وسائر المخلوقات، من وقت خلقت إلى زماننا هذا، على هذا الشكل والمنوال، ولكن الله سبحانه كان قد أفهم سليمان، ما يتخاطب به الطيور في الهواء، وما تنطق به الحيوانات على اختلاف أصنافها"[1].

وإن كان هذا قد خصص لسليمان، لكن سبقه داود والده ببعض منه، كالتمهيد والإرهاص، فقد سخر الله تعالى "الجبال تسبح معه، عند إشراق الشمس، وآخر النهار... كذلك الطير تسبح بتسبيحه، وترجع بترجيعه، وإذا مرّ الطير، وهو سابح في الهواء، فسمعه، وهو يترنم بقراءة الزبور، لا يستطيع الذهاب، بل يقف في الهواء، ويسبح معه، وتجيبه الجبال الشامخات، ترجع معه وتسبح تبعا له"[2].

لقد حشر الله لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير، "حتى إذا مرّ سليمان عليه السلام بمن معه من الجيوش والجنود، على وادي النمل[3]، "قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون"[4].

وأورد ابن كثير اسم هذه النملة، وقبيلتها، ومواصفاتها، فقال: "اسم هذه النملة حرس، وإنها من قبيلة، يقال لهم: بنو الشيصان، وإنها كانت عرجاء، وكانت بقدر الذئب"[5]، و "كانت ذات جناحين كالذباب"[6]، فقامت هذه النملة محذرة النمل، "أن تحطمها الخيول بحوافرها،

([1]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج3، ص578-579

([2]) السابق، ج4، ص44

([3]) السابق، ج3، ص579

([4]) سورة النمل، الآية: 18

([5]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج3، ص579

([6]) السابق، ص579

فأمرتهم بالدخول إلى مساكنهم"[1]، و"كان نمل سليمان أمثال الذئاب"[2]، وكونه قد منّ الله عليـــه، وعلمه منطق الطير والحيوان، ففهم، "وتبسم ضاحكا من ذلك، وهذا أمر عظيم جدا"[3].

وإن كان ابن كثير أنهى المشهد دون سرد الحوار بين النملة وسليمان، الذي يكشف عن ضرورات لازمة لهذا التحذير، فإن غيره قد أكمله، بعد تمهيد زاد فيه عن مسمع سليمان النملة، إلى كل من تكلم، وجعل النملة تلقي الحكمة والمعرفة على سليمان، مع تفوق باد لها عليه:

"وكان لا يتكلم خلق إلا حملته الريح، وألقته في مسامع سليمان... فسمع كلامهـــا مـــن ثلاثة أميال... ولما سمع قولها، نزل عليها، وقال: ائتوني بها، فأتوه بها، فقال لها: لـــم حـــذرت النمل، هل سمعت أني ظالم؟ أما علمتم أني نبي عدل؟ فلم قلت: لا يحطمنكم سليمان وجنـــوده؟ قالت النملة: يا نبي الله أما سمعت قولي: وهم لا يشعرون، ومع أني ما أردت حطـــم النفـــوس، وإنما حطم القلوب، خشيت أن يتمنين ما أعطيت، فيفتنّ، ويشتغلن بالنظر إليك عن التسبيح، فقال لها: عظيني، فقالت له النملة: هل علمت لم سمي أبوك داود؟ قال: لا، قالت: لأنه داوى جراحة قلبه، ثم قالت، وهل تدري لم سميت سليمان؟ قال: لا، قالت: لأنك سليم، ركنت إلى ما أوتيـــت بسلامة صدرك، وحق لك أن تلحق بأبيك داود، ثم قالت: أتدري لم سخر الله تعالى لك الـــريح؟ قال: لا، قالت: ليخبرك أن الدنيا كلها ريح، فتبسم ضاحكا من قولها، متعجبا، وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ"[4].

ومع هذا المشهد الدرامي غير المألوف، ما زال البعض في عصـــرنا الحـــديث يســـتمد المعجزات منه، فيقول: "نقف عند سماع سليمان عليه السلام لكلام النملـــة، أمـــام عـــدد مـــن المعجزات الكبيرة، أولها: معجزة سماع سليمان لكلام النملة، وثانيها: إدراك النملة أن السائرين في وادي النمل هم سليمان وجنوده، وثالثها: ما تضمنه كلام النملة من الحكمة والتعقل والتبصر

([1]) السابق، ص579

([2]) السابق، ص580

([3]) السابق، ص580

([4]) الثعلبي: **عرائس المجالس**، ص297

بعواقب الأمور، ورابعها: معرفة النملة لسليمان، وأنه نبي كريم لا يقصد أحدا بالأذى، حتى ولو كان نملة صغيرة"[1].

وليست هذه الحادثة اليتيمة لسليمان مع النمل، فقد خرج يوما يستسقي، "فإذا هو بنملة مستلقية على ظهرها، رافعة قوائمها إلى السماء، وهي تقول: اللهم إنا خلق من خلقك، ولا غنى بنا عن سقياك، وإلا تسقنا تهلكنا، فقال سليمان: ارجعوا، فقد سقيتم بدعوة غيركم"[2].

ومع معرفة سليمان لمنطق الطير والحيوان، وحتى الشجر[3]، فليس الأمر مقتصرا على نملة، أو نمل، وقد تناقل القصاص والرواة، حكايات كثيرة عن مكالماته مع حيوانات أخرى غير النملة، من مثل: الورَشان، والفاختة، والطاووس، والصُرَد، والطيطوى، والقطا، والعنقاء، والبازي، والضفدع، والعصفور، والدراج، والنسر، والقنبر، والخطاف، والبلبل، والبومة، والهدهد[4] الذي خصّ بالذكر في القرآن، كما ذكرت النملة، وإن كانا على سبيل التمثيل لا الحصر، مع توافر موهبة منطق الطير، الذي يشمل كل الطير، ثم يلحق به كل حيوان، وحتى الشجر، وما النمل من الطير، ولكن عرف منطقها ونطقها.

أما الهدهد، فكان "مهندسا، يدل سليمان عليه السلام على الماء"[5]، واسمه "عنبر"[6]، "وكان سليمان عليه السلام إذا غدا إلى مجلسه الذي كان يجلس فيه، تفقد الطير، وكان فيما يزعمون يأتيه نوب من كل صنف من الطير، كل يوم طائر، فينظر، فرأى من أصناف الطير كلها من حضره إلا الهدهد"[7]، كان "غاب زمانا يسيرا، فقال لسليمان: اطلعت على ما لم تطلع عليه أنت ولا جنودك"[8]، وجاء بخبر ملكة سبأ، بلقيس، الذين يسجدون للشمس من دون الله

([1]) طهماز، عبد الحميد محمود: **المعجزة والإعجاز في سورة النمل**، ط2، دار القلم، دمشق، 2001م، ص59
([2]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج3، ص580
([3]) ينظر: ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج3، ص829
([4]) ينظر: الثعلبي: **عرائس المجالس**، ص294-301
([5]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج3، ص580
([6]) السابق، ص581
([7]) السابق، ص581
([8]) السابق، ص581

سبحانه، والتي "كانت أمها جنية، وكان مؤخر قدميها مثل حافر الدابة"[1]، فقال سليمان للهدهد حين أخبره عن أهل سبأ وملكتهم: "سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين"[2]، فكتب سليمان "كتابا إلى بلقيس وقومها، وأعطاه ذلك الهدهد، فحمله، قيل: في جناحه، كما هي عادة الطير، وقيل: بمنقاره، وجاء إلى بلادهم، فجاء إلى قصر بلقيس، إلى الخلوة التي كانت تختلي فيها بنفسها، فألقاه إليها من كوة هنالك بين يديها، ثم تولى ناحية أدبا ورياسة، فتحيّرت مما رأت وهالها ذلك"[3]، وبهذا يتبين أن الهدهد يتكلم، ويتصرف بعلم، كعلم البشر ومعرفتهم، وربما يتفوق عليهم، شأن النملة أيضا.

ثم يقرر سليمان عليه السلام نقل عرشها، قبل أن تأتيه، ليكون لها آية، لعلها تكون من المؤمنين، ويتطوع لهذا العمل عفريت من الجن، ولكن يحظى بهذا الإنجاز عالم ممن علم الكتاب، فدعا الله سبحانه "أن يأتيه بعرش بلقيس، وكان في اليمن، وسليمان ببيت المقدس، غاب السرير، وغاص في الأرض، ثم نبع من بين يدي سليمان"[4]، وعلى الرغم من قدرة سليمان العجائبية، لكنه لم يفعلها بشأن عرش بلقيس، وتركها لغيره، واكتفى بشكر الله.

وكان الله قد سخر له الريح، فكان" يجلس على سريره، ثم توضع كراسي حوله، فيجلس عليها الإنس، ثم يجلس الجن، ثم الشياطين، ثم تأتي الريح، فترفعهم، ثم تظلهم الطير، ثم يغدون قدر ما يشتهي الراكب أن ينزل شهرا، ورواحها شهرا"[5]، هذه الريح التي كان يأمرها، "فتجتمع كالطود العظيم، كالجبل، ثم يأمر بفراشه، فيوضع على أعلى مكان منها، ثم يدعو بفرس من ذوات الأجنحة، فيرتفع، حتى يصعد على فراشه، ثم يأمر الريح فترتفع به، كل شرف دون السماء... حتى تضعه الريح حيث شاء"[6]، وفي مرة "ركب سليمان عليه السلام ذات يوم البساط، في مائتي ألف من الإنس، ومائتي ألف من الجن، فرفع حتى سمع تسبيح الملائكة في

([1]) السابق، ص582

([2]) سورة النمل، الآية: 27

([3]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج3، ص583

([4]) السابق، ص587

([5]) السابق، ص589

([6]) السابق، ص326

السماء، ثم خفضوه، حتى مست قدمه ماء البحر، فسمعوا صوتا، لو كان في قلب صاحبكم مثقال ذرة من كبر؛ لخسف به أبعد مما رفع"[1].

إن فكرة الطيران بركوب الريح، أو ركوب، السحب، أو ركـــوب طيـــور خرافيـــة، أو ركوب المكنسة السحرية، فكرة أسطورية، ظهرت في مختلف الأســـاطير القديمـــة، لمختلـــف الشعوب تقريبا، وقد تسللت للمخيال الإسلامي مع سليمان عليه السلام، الذي سخرت له الـــريح، فكان له البساط الذي يركبه، هو ومُعاونوه، بأعداد كبيرة، تصل إلى المئات أو الألوف، ثم ترفع الريح البساط، وتذهب به حيث شاء.

ومع ضخامة هذه المنح الربانية العجائبية لسليمان عليه السلام، فقد أخفق في أمنيته مع زوجاته، لنسيانه كلمة "إن شاء الله"، فأنتجت هذه الأمنية عجيبة أخرى، ولكنها عجيبة في الاتجاه العكسي السلبي، فقد "ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "قال سليمان بن داود لأطوفنّ الليلة على سبعين امرأة، تلد كل امرأة منهن غلاما، يقاتل في سبيل الله، فقيل له:ــ وفي رواية، قال له الملك ــ: قل: إن شاء الله، فلم يقل، فطاف بهن، فلم يلد منهن إلا امرأة واحدة، نصف إنسان، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: والذي نفسي بيده لو قال: إن شاء الله، لم يحنث، وكان دركا لحاجته"[2].

ومن فضائل الله على سليمان أنه "سخر له الجن، يعملون بين يديه بإذن ربه، ما يشـــاء من البنايات"[3].

هذا وقد ضربت صفحا عن محطات أخرى عجائبية، في مملكة سليمان، نظرا لالتزامي في نطاق الموضوع المحدد، وفي آخر المشاهد، تدخل العصا خادمة لســـليمان فـــي اســـتمرار سيطرته على الجن والشياطين، لسنة إضافية بعد موته عليه السلام، وقد "عمّى الله موته علـــى الجان المسخرين له في الأعمال الشاقة، ومكث متوكئا على عصاه، وهي منسأته... مدة طويلة،

([1]) السابق، ص712

([2]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج3، ص165

([3]) السابق، ص827

نحوا من سنة، فلما أكلتها دابة الأرض، وهي الأرضة، ضعفت، وسقطت إلى الأرض، وعُلم أنه قد مات، قبل ذلك بمدة طويلة، وتبينت الجن والإنس أيضا، أن الجن لا يعلمون الغيب، كما كانوا يتوهمون"[1].

ولهذه العصا أيضا أصل يخرجها إلى معنى أسطوري دالٍ، إذ إنها من شجرة الخروب، و"كان نبي الله سليمان عليه السلام، إذا صلى رأي شجرة نابتة بين يديه، فيقول لها: ما اسمك؟ فتقول: كذا، فيقول: لأي شيء أنت؟ فإن كانت تغرس غرست، وإن كانت لدواء كتبت، فبينما هو يصلي ذات يوم إذ رأى شجرة بين يديه، فقال لها: ما اسمك؟ قالت: الخروب، قال: لأي شيء أنت؟ قالت: لخراب هذا البيت، فقال سليمان عليه السلام: اللهم عمّ على الجن موتي حتى يعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب، فنحتها عصا، فتوكأ عليها حولا ميتا، والجن تعمل، فأكلتها الأرضة، فتبينت الإنس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب، ما لبثوا في العذاب المهين"[2]، وفي رواية أخرى، "سألها: ما اسمك؟ قالت: أنا الخروبة، قال: لأي شيء نبت؟ قالت: نبت لخراب هذا المسجد، قال سليمان: ما كان الله ليخربه وأنا حي، أنت التي على وجهك هلاكي، وخراب بيت المقدس"[3]، وهو بذلك من المتكلمين مع الشجرة، وهي من الناطقين كما النملة.

وما زالت شجرة الخروب تحمل بعض معاني الخراب، فيما أذكر في سنّ مبكرة، عندما كنت أصطحب الأهل في ذهابهم إلى الأرض؛ لرعاية شجر الزيتون، سرعان ما أفارقهم إلى ناحية من الأرض بحثا عن شجرة خروب كبيرة، وارفة الظلال، لألتقط بعضا من ثمارها اللذيذة، فتحذرني أمي بشدة من الاقتراب منها، بدعوى أن الناس يقولون: إن شجرة الخروب مأوى الجن، ومنزل المضرة، فرهبتها حينذاك، ومع إغراء ثمارها لي كنت أذهب إليها والخوف يملأ قلبي، وكلما اقتربت منها أتلفت حولي وورائي، وأرهفُ سمعي، وحسي السلبي، وإذا سمعت منها صوتا لطائر، أو غيره، انتفضت فزعا، وعندما كبرت، وجدت هذا التصور يكاد يشمل جلّ الناس وقتذاك، وعندما ازدت معرفة، تبينت خوف الناس من شجرة الخروب على أنه

([1]) السابق، ص829

([2]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج3، ص829-830

([3]) السابق، ص830

ممكن ومحتمل، وإن كان بصورة بعيدة عن الخرافة، وبطريقة مختلفة، إذ إنها شجرة تثمر ثمارا حلوة ولذيذة، مما تستهوي الطيور والحيوانات الأخرى، التي تتغذى على ثمارها السكرية في ظلالها الوارفة، وغطائها الذي يخفي ما تحته، وكذلك تأتي الحيوانات المفترسة، لتتغذى على النوع الآكل لثمارها، كما تأتيها بعض الأفاعي التي تترقب طيرا ما... وهكذا تصبح محط اهتمام للوحوش، ومكانا قد يأتي منه الضرر والهلاك؛ مما أنشأ الرعب تجاهها، فلا عجب إذن، إن كانت شجرة الخروب في الرواية المنسوبة لسليمان عليه السلام، دلّت على الخراب والهلاك، وكانت علامة دمار ملكه، وموته؛ ولذلك سميت الخروب أو الخروبة.

وهذا ليس بمستغرب في المعتقدات، فالحيوانات والنباتات قد توحي بإشعارات ما، ورسائل يلتقطها الروحانيون، ومن ذلك صياح الديك للدلالة على الملك، ونهيق الحمار للدلالة على الشيطان[1]، بل من الشجر والحجر من يكلم المؤمن، ويخبره بمن يختبئ خلفه، " حتى إن الشجرة تقول: يا مؤمن هذا كافر، ويقول الحجر: يا مؤمن هذا كافر"[2]، وقد "حنّ الجذع، وجَعل يئن كما يئن الصبي"[3]، عندما جاوزه النبي صلى الله عليه وسلم إلى المنبر، وقد كان يقف عنده في الخطب، قبل أن يتخذ منبرا، وفي هذا السياق تأتي رواية ابن عمر رضي الله عنهما بإسناد صحيح، قال: "كنا مع رسول الله في سفر، فأقبل أعرابي، فلما دنا، قال له رسول الله: تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله؟ قال: ومن يشهد على ما تقول؟ قال: هذه السلمة(شجرة في البادية)، فدعاها رسول الله، وهو بشاطئ الوادي، فأقبلت تخدّ الأرض، حتى قامت بين يديه، فاستشهدها ثلاثا، فشهدت ثلاثا أنه كما قال، ثم رجعت إلى منبتها"[4]، وكان العرب قبل الإسلام يزعمون أن الشجرة إذا فاضت عليها روحانية الكوكب المعبود، صارت توحي للناس وتكلمهم[5]، وفي كلام الشجر نجد أسطورة ميداس، كيف أخفى الحلاق سره مع أبولو في حفرة من الأرض، "وسرعان ما نبتت أكمة من أشجار الغاب، مكان الحفرة... وأخذ

([1]) ينظر: ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج3، ص707

([2]) السابق، ج1، ص867

([3]) السابق، ص499

([4]) باشنفر، سعيد عبد القادر: **دلائل النبوة الآيات البينات**، ط2، دار الخراز، جدة، 1997م، ج2، ص583

([5]) غبرائيل، ميخائيل: **أساطير الأولين**، ص70

يذيع السر الذي خبأه الحلاق... كلما هزته ريح الجنوب الوادعة، مكررا الكلمات نفسها التي أسرها إليه الحلاق"[1]:"ميداس ميداس، له أذنا حمار"[2].

إن نطق النملة وتكليمها للنبي سليمان ليست بدعا في قدرتها هذه، فكما مرّ سابقا تكلمت الأشجار، وهي أشد غرابة لدنو رتبتها بالنسبة لمستويات الأحياء، علاوة عن الحجارة، وسأورد روايات تفيد تكلم الحيوانات العجم، شأنها شأن النملة، فمن الحيوانات من كلمت النبي الكريم، كما جاء "بإسناد مسلم أن النبي دخل حائطا لرجل من الأنصار، فإذا فيه جمل، فلما رأى رسول الله جرجر، وذرفت عيناه، فأتاه النبي، فمسح سراته(أي سنامه) وذفراه، فسكن، فقال: من رب هذا الجمل، لمن هذا الجمل؟ فجاء فتى من الأنصار، فقال: هذا لي يا رسول الله، فقال: أفلا تتقي الله في هذه البهيمة، التي ملكك الله إياها؟ فإنه يشكو إلي أنك تجيعه وتدئبه"[3].

وفي غزوة خيبر أصاب النبي صلى الله عليه وسلم من الغنائم حمارا أسودا، "فكلم النبي الحمار، فكلمه الحمار؟ فقال له: ما اسمك؟ قال: يزيد بن شهاب، أخرج الله من نسل جدي ستين حمارا، كلهم لم يركبهم إلا نبي، ولم يبق من نسل جدي غيري، ولا من الأنبياء غيرك، وقد كنت أتوقعك أن تركبني، قد كنت قبلك لرجل يهودي، وكنت أعثر به عمدا، وكان يجيع بطني، ويضرب ظهري، فقال له النبي: قد سميتك يعفورا، يا يعفور، قال: لبيك، قال: أتشتهي الإناث؟ قال: لا... فلما قبض النبي صلى الله عليه وسلم، جاء إلى بئر كانت لأبي الهيثم بن التيّهان، فتردى، فيها فصارت قبره، جزعا على رسول الله"[4].

وفي حديث وصفه المحدثون بالصحيح، و"بينما راع يرعى بالحيرة، إذ عرض ذئب لشاة من شياهه، فجاء الراعي يسعى، فانتزعها منه، فقال للراعي: ألا تتقي الله! تحول بيني وبين رزق ساقه الله إليّ؟ قال الراعي: العجب لذئب يتكلم! والذئب مقعى على ذنبه، يكلمني بكلام

---

(1) أوفيد: **مسخ الكائنات**، ص240

(2) غيربر: **أساطير الإغريق والرومان**، ترجمة: حسني فريز، دائرة الثقافة والفنون، عمان، 1976م، ص44

(3) النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف: **رياض الصالحين**، تحقيق: عبد الله محمد الدرويش، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1996، ص422

(4) ابن كثير: **البداية والنهاية**، ج9، ص41-42

الإنس، فقال الذئب للراعي: ألا أحدثك بأعجب من هذا؟ هذا رسول الله، بين الحـــرتين يحـــدث الناس بأنباء ما قد سبق، فساق الراعي شاءه إلى المدينة، فزواها في زاوية من زواياها، ثم دخل على رسول الله، فقال له ما قاله الذئب، فخرج رسول الله، فقال للراعي: فأخبر الناس مـــا قالـــه الذئب، فقال رسول الله: صدق الراعي، ألا إن من أشراط الساعة كلام السباع الإنـــس، والـــذي نفسي بيده، لا تقوم الساعة حتى تكلم السباع، ويكلم الرجل نعله، وعذبة سوطه، ويخبره فخـــذه بحدث أهله بعده"[1]، يبدو الذئب يفهم بالتقوى والإيمان، بل ويَعلم مهمة النبي الكـــريم، وعملـــه ومكانه، وهكذا يبدو الحيوان يُعلم الإنسان الحق والصواب، ويظهر بتفوق واضح على الإنسان، كما يظهر أنه يسلك حياته بطاعة الله، في صورة من الخضوع والتسليم، ليس في هذه الروايـــة فحسب، بل في جل الروايات، وتخبرنا الرواية أن تكليم الحيوان الإنس، ســـيكون عـــادة غيـــر مستغرَبة في آخر الزمان، حتى إن النعل، وعذبة السوط، والفخذ، ستتكلم، انها نظرة فنية فـــي تماهي الوجود في جوهر واحد، سيده الإنسان في كماله، هذا الوجود الذي أتى خالقـــه طائعـــا ساجدا؛ ولذلك تظهر الحيوانات والجمادات إذا ما تكلمت، وهي في غايـــة المعرفـــة والتقـــوى والامتثال لأمر خالقها، لا تعصيه طرفة عين، بل تنساق في خدمة المؤمن، ونبي الله، فـــالطير يسبح الله، والسماوات والأرض تسجد طائعة قانتة لأمر الله، ولذلك عندما ترتفع الحجب، ويأتي وقت الدينونة، "تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كـــانوا يعملـــون"[2]، حينئـــذ ســـتمّحي الفروق، وتتلاشى الامتيازات، ويعْبر الإنسان عهد التكريم المفرد، مع انتهاء مرحلـــة الاختبـــار والامتحان، فلا غرو إن خرجت في آخر الزمان، عندما يتوقف وقت العمـــل، ويحـــين وقـــت الفصل، دابة تكلم الناس بما كانوا يعملون، وتختم كل فرد بالإيمان أو الكفر، هذه الدابة تظهر من خلال سورة النمل أيضا، "وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن النـــاس كانوا بآياتنا لا يوقنون"[3]، تخرج متكلمة ناطقة، ومعها عصا موسى، وخـــاتم ســـليمان، وأمـــا مواصفاتها، فأسطورية لأبعد حد متصوَّر ذهنا[4]، إذ لم يمر عليّ في مطالعاتي الميثولوجية، دابة

([1]) باشنفر، سعيد عبد القادر: **دلائل النبوة الآيات البينات**، ج2، ص587

([2]) سورة النور، الآية: 24

([3]) سورة النمل، الآية: 82

([4]) ينظر: ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج3، ص603-604

أسطورية تجمع كل هذه المواصفات على الإطلاق[1]، عندئذ لا ينفع نفس إيمانها، ما لـــم تكـــن كسبت الخير قبلذاك، قال تعالى: "يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا"[2]، وبالتأكيد، من هذه الآيات دابة الأرض[3].

وأورد ابن كثير في نطق الحيوانات، وكلام البهائم، حديث حمارة بلعام معه، ورؤيتهـــا الشيطان، وفيه: "أن بلعام ركب حمارة له، حتى أتى المعلولي، أو قال طريقا مـــن المعلـــولي، وجعل يضربها، ولا تتقدم، وقامت عليه، فقالت: علام تضربني؟ أما ترى هذا الذي بين يـــديك؟ فإذا الشيطان بين يديه"[4]، وفي رواية أخرى، "ركب حمارة له، متوجها إلى الجبل الذي يطلعـــه على عسكر بني إسرائيل، وهو جبل حسبان، فلما سار عليها، غير كثير، ربضت به، فنزل عنها فضربها، حتى إذا أزلقها قامت فركبها، فلم تسر به كثيرا، حتى ربضت به، فضربها حتـــى إذا أزلقها، أذن لها فكلمته حجة عليه، فقالت: ويحك، يا بلعم، أين تذهب، أما ترى الملائكة أمـــامي تردني على وجهي هذا"[5]، هذه القصة مأخوذة من التوراة، وقع فيها الخلط بين الملك والشيطان، بسبب تصور المسلم أن الذي يظهر للحمار، هو الشيطان، وكون غايته نبيلة حسب الرواية، وقع وصفه بالملك، أما التوراة فتذكر الملك، ولا ذكر للشيطان، ونصها كالآتي:

"فقام بلعام صباحا، وشد على أتانه، وانطلق مع رؤساء موآب، فحمي غضب الله؛ لأنـــه منطلق، ووقف ملاك الرب في الطريق ليقاومه، وهو راكب على أتانه، وغلاماه معه، فأبصرت الأتان ملاك الرب، واقفا في الطريق، وسيفه مسلول في يده، فمالت الأتان عن الطريق، ومشت في الحقل، فضرب بلعام الأتان؛ ليردها إلى الطريق، ثم وقف ملاك الرب في خندق للكروم، له

([1]) ينظر: السابق، ص604، سأنقل مواصفاتها فقط، دون مكان خروجها، ومهامها، وأثرها على الإنسان، والطبيعة..." إن الدابة فيها من كل لون، ما بين قرنيها فرسخ للراكب... لها ريش وزغب وحافر، وما لها ذنب، ولها لحية، وإنها لتخـــرج حضر الفرس الجواد ثلاثا، وما خرج ثلثها... رأسها رأس ثور، وعينها عين خنزير، وأذنها أذن فيل، وقرنها قرن أيـــل، وعنقها عنق نعامة، وصدرها صدر أسد، ولونها لون نمر، وخاصرتها خاصرة هرّ، وذنبها ذنب كبش، وقوائمهـــا قـــوائم بعير، بين كل مفصلين اثنا عشر ذراعا"

([2]) سورة الأنعام، الاية:158

([3]) ينظر: ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج2، ص288

([4]) السابق، ص394

([5]) السابق، ص395

حائط من هنا، وحائط من هناك، فلما أبصرت الأتان ملاك الرب، زحمت الحائط، وضغطت رجل بلعام بالحائط، فضربها أيضا، ثم اجتاز ملاك الرب أيضا، ووقف في مكان ضيق حيث ليس سبيل للنكوب يمينا أو شمالا، فلما أبصرت الأتان ملاك الرب، ربضت تحت بلعام، فحمي غضب بلعام، وضرب الأتان بالقضيب، ففتح الرب فم الأتان، فقالت لبلعام: ماذا صنعت بك حتى ضربتني الآن ثلاث دفعات؟ فقال بلعام للأتان: لأنك ازدريت بي، لو كان في يدي سيف لكنت الآن قد قتلتك، فقالت الأتان لبلعام: ألست أنا أتانك التي ركبت عليها منذ وجودك إلى هذا اليوم ؟ هل تعودت أن أفعل بك هكذا ؟ فقال: لا، ثم كشف الرب عن عيني بلعام، فأبصر ملاك الرب واقفا في الطريق، وسيفه مسلول في يده، فخر ساجدا على وجهه، فقال له ملاك الرب: لماذا ضربت أتانك الآن ثلاث دفعات؟ هأنذا قد خرجت للمقاومة، لأن الطريق ورطة أمامي، فأبصرتني الأتان، ومالت من قدامي الآن ثلاث دفعات، ولو لم تمل من قدامي لكنت الآن قد قتلتك، واستبقيتها، فقال بلعام لملاك الرب: أخطأت، إني لم أعلم أنك واقف تلقائي في الطريق"[1].

في هذه القصة تظهر الحمارة وهي تتكلم بلسان فصيح، وبمنطق الإنسان، وذلك لأن الله فتح فمها، أي منحها القدرة على ذلك، وأجاز لها، ولماذا لا تتكلم، ولها فم ولسان، كما هو حال الإنسان؟ ليس ذلك إلا لمنع الله لها، وإغلاق فمها، ليحفظ للإنسان تميّزه، وتفوقه على العالمين، فلما رُفِع المنع حدث الكلام، بهذا التصور يجوز للنملة ان تتكلم وتفتح فمها، هي والطيور، خاصة مع سليمان، وهو الذي علمه الله منطق الطير.

وهذا يونس عليه السلام يسمع تسبيح البحر، وهو في بطن الحوت، "حينما ذهب مغاضبا على قومه، فكان من أمره ما كان، من ركوبه البحر، والتقام الحوت له، وشرود الحوت به في البحار، وظلمات غمرات اليم، وسماعه تسبيح البحر، بما فيه للعلي القدير"[2].

([1]) **سفر العدد** 22: 21-34

([2]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج4، ص595

وما ذكرته من نطق الحيوان، والجماد، يُعدّ غيضا من فيض، مما تستكنه كتب التراث، سواء في حكايات على وجه الحقيقة، أو حكايات على وجه المجاز، كما هو في كتب؛ ألف ليلة وليلة، والحيوان، وكتب التاريخ، وقصص الأنبياء، وكتب الحديث، وأخص بالذكر كتاب كليلة ودمنة، لاتساعه في هذا المجال، على نحو السبق، وتخصصه في هذا المنحى، وقد "اختلف في أمره، فقيل: عملته الهند... وقيل: عملته ملوك الأشكانية، ونحلته الهند، وقيل عملته الفرس، ونحلته الفرس"[1]، ليحمل بذلك النسب، مؤشرا على استساغة تلك الأمم، عمل الخرافات والحكايات على ألسنة الحيوانات، "وهناك من يرى أن حكايات الحيوان هي بداية الأساطير، وأنها أكثر قدما، وبدائية منها... فالإله زيوس كان نسرا، والإله إثينا كانت بومة، وهيرا كانت بقرة، والإله النوردي ثور، كان طائر جنة صغيرا، والإله تير كان ذئبا، مثله في هذا مثل الإله الروماني مارس، وضريبه السليني ديباتر"[2]. ومَن كانت آلهة، كيف يتعذر عليها النطق والكلام؟ بل هي في خصيصةٍ، تبوئها منزلة الفضيلة والنبل والعلم، فلا غرو إذن، إن خرجت عن حؤول النطق أحيانا، بإرادة الآلهة؛ لتتكلم بالمعرفة والوعظ والحكمة، أو شكوى ظلم الإنسان، لتظهر متفوقة على الإنسان.

إن تمثل الآلهة بالحيوانات متوفر في الأساطير الإغريقية، فهذا زفس، يتحول إلى عجل، ويخطف يوربا(أوربا)، وعندما ذعرت، وهي على ظهره متمسكة بقرنه، "كلمها برقة، ليهدئ من روعها... فقال لها: لا تخشي أيتها العذراء، إنني زفس، ومن أجل حبك خضت البحر، على هيئة عجل"[3].

وبنظرة عُجلى على التراث الفني للحضارة المصرية في تصاويرها، نلاحظ مدى تمازج الناسوت باللاهوت بالحيوان، وبالنبات أحيانا، وإن كان أبرز ما يميز الإنسان، هو النطق والكلام والقول، فإن التصاهر في كينونة التشخيص، تصهر المتمايزات في بوتقة الجمع، لتكسب الكينونة

([1]) عبد الحكيم، شوقي: **موسوعة الفلكلور والأساطير العربية**، ص34

([2]) السابق، ص248

([3]) غيربر: **أساطير الإغريق والرومان**، ص22

مواهب الامتياز، وتغدو معها الحيوانات مؤنسة ومشخصة، وغير بعيد عن هذا ما تظهره الآثار الرافدية ولكن بنسبة أقل.

ولتفسير ظاهرة الآلهة المصرية بأجساد الحيوانات، ظهرت أسطورة يونانية، في صراع زوس مع طيفون، الذي كان "أكبر من العمالقة حتى كان رأسه أحيانا يناطح النجوم، وعوض الأصابع في يديه، كانت له مئة رأس تنين، ومن الخصر حتى قدميه كان جسده محاصرا بالأفاعي، وكانت له أجنحة، وعيناه ترسلان ألسنة لهب، وحين رأى الآلهة هذا العملاق، يناطح السماء، هربوا إلى مصر، وتاهوا في الصحراء، متخذين أجسام حيوانات، فصار أبولون خطافا، وهرمس أبا منجل (طائر مائي له قائمتان طويلتان ومنقار)، وآريس سمكة، وديونيسوس كبشا، وهيفايستوس ثورا...الخ، ومن هنا، تفسير عبادة المصريين للآلهة المرموز إليها بالحيوانات"[1]، وربما حاجة الإنسان للحيوان والنبات في حياته، تثبت حالة نقص وعجز، تستقر في اللاوعي، فتكسب هذه الحيوانات نطقا، بلسان فصيح، معبرة عن نفسها بتفوق واضح على الإنسان، أو هي حالة حنين لطوطمية قديمة جدا، أو بقايا لها، فتنطق هذه الحيوانات، كما ينطق الإنسان؛ لأن "نفوس الحيوانات والنباتات والأشياء، تُتصور على أنها مشابهة للنفوس البشرية"[2].

لقد كان الإنسان البدئي يحس بالنقص إزاء حيوانات كثيرة تمتلك ما لا يمتلك، وتقدر على ما لا يقدر، فنظر إلى "خوارق الحيوانات والطيور والزواحف والهوام والنباتات، التي حرم منها الإنسان بعجزه، مثلا عن الطيران، والغوص في الماء، وبالمقارنة مع قوى الحيوانية الوحشية والبهيمية"[3]، فتاق خياله لاستكناه حقائقها، وتلقي الدروس منها، فجعل لها نطقا، يتواصل به معها، ليحقق ما يرجو من تأييد أو تعليم، أو معرفة لأسرار يجهلها عما حوله، حتى جعل قول بعضها مضرب الأمثال، وهذا النوع من الخيال يظهر جليا في الأساطير العربية[4].

([1]) غريمال، بيار: **الميثولوجيا اليونانية**، ص32

([2]) فرويد، سيغموند: **الطوطم والحرام**، ترجمة:جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ص102

([3]) عبد الحكيم، شوقي: **موسوعة الفلكلور والأساطير العربية**، ص248

([4]) ينظر: خان، محمد عبد المعيد: **الأساطير العربية قبل الإسلام**، ص39

لقد أظهرت لنا المرويات أن النبي سليمان في مملكة عظيمة خارقة، فيما "بين عامي 963ق.م ــ 923ق.م"[1]، ورث "ملك أبيه، ومنحه الله من أفضاله، ونعمه، ألوانا تدعو للدهشة والعجب"[2]، وكان عهده "عهد سلام بحق"[3]، وصُور على أنه "من أغنى ملوك زمانه"[4]، "واستخدم بعض هذه الثروة في ملاذه الشخصية، وأخص ما استخدمها فيه، إشباع شهواته في جمع السراري، وإن كان المؤرخون ينتقصون زوجاته السبعمائة، وسراريه الثلاثمائة إلى ستين، وثمانين على التوالي"[5]، "ومن بلاد العرب جاءت إليه ملكة سبأ تخطب ودّه"[6]، علما أن مملكة سبأ كانت تعبد "ألمقه، إله سبأ الخالص"[7]، وتعرف ملكتهم باسم بلقيس، وهو ما يشبه بلتيس التي التي كانت تعبدها العرب، والتي تقابل فينوس الزهرة[8]، ومن أسماء بلقيس، يلمقه، أو بلمقه، ومن شأن ذلك أن يقيم صلة، بينها وبين الإله ألمقه، معبود عرب الجنوب[9]، "ولا يزال الكثير من المؤرخين العرب ينظرون إلى ملكة سبأ نظرة متشككة، لما أحاط بها من منحى أسطوري، ولعدم توفر الوثائق التاريخية من حفريات ونقوش"[10]، "وقد ذهب بعض نقدة التوراة إلى أن هذه القصة هي أسطورة، دوّنها كتبة التوراة، الغرض منها بيان عظمة ثروة سليمان وحكمته وملكه"[11]، من خلال بيان عظمة بلقيس، ومملكتها اليمينة التي أخضعها سليمان، وجاءته الملكة صاغرة، ولو صحت الروية حقيقة، لما كانت سوى " مملكة عربية صغيرة، لم تكن بعيدة عن

---

(1) محاسنة، محمد حسين وآخرون: **تاريخ مدينة القدس**، ط1، دار حنين للنشر والتوزيع، عمان، 2003م، ص71

(2) شلبي، أحمد: **اليهودية**، ط8، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1988م، ص141

(3) ديورانت، ول: **قصة الحضارة**، ج2، ص332

(4) السابق، ص333

(5) ديورانت، ول: **قصة الحضارة**، ج2 ص333

(6) السابق، ص333

(7) علي، جواد: **المفصل في تاريخ العرب**، ج2، ص303

(8) ينظر: القمني،سيد:**الأسطورة والتراث**، ص68

(9) ينظر: عجينة، محمد: **موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالتها**، ج2، ص143

(10) الحضراني، بلقيس إبراهيم: **الملكة بلقيس التاريخ والأسطورة والرمز**، ط1، مطبعة وهدان، القاهرة، 1994م، ص102

(11) علي، جواد: **المفصل في تاريخ العرب**، ج2، ص262

عاصمة ملك سليمان، قد تكون في جبل شمر، أو نجد، أو الحجاز"[1]، علما أنه لم يعثر المنقبون، المنقبون، على أي أثر سياسي في المنطقة، لمملكة سليمان[2].

وباعتبار أن التوراة التي بين أيدي الناس اليوم، لم تكتب في عهدها الأول من زمن موسى، بل "كتبت في وقت لاحق، وكتبت أكثرها في الأسر، في المحيط البابلي السومري، الذي اعتاد أهله، وصف أعمال الآلهة الخارقة للعادة، على نمط الأساطير الخيالية، للتأثير بها على نفوس الجماهير، فقلد كتبة التوراة الأقوامَ الذين عايشوهم من العهد القديم، في وصف عظمة داود وسليمان، على طريقة كتابة الأساطير البابلية والسومرية والكنعانية، في وصف خوارق آلهتهم التي ألفوها، ووقفوا عليها، وكانت هي مستنداتهم، ومصادرهم، في كتابة التوراة، فتأثروا بها كليا، كما نشاهدها في وصف الخوارق، التي نسبت للشخصيات الأخرى، الواردة في التوراة، مثل شمشون، وغيره، من الشخصيات المقدسة"[3].

وفي سياق الأساطير البابلية تندرج أسطورة النملة الخارقة، التي تتخطى مقاييس النملة الطبيعية، مع بقائها من جوهر الحيوان نفسه، هي نملة بالمعقول، في حجم اللامعقول، نملة من العجماوات، باللسان الفصيح في الناطقات، هي ضخمة كالذئب، وتتكلم بوعي وإدراك، يوازي الإنسان، بل تتفوق عليه، لتجمع بين المعقول واللامعقول، وتتحول إلى نملة أسطورية، شأنها في ذلك شأن حيوانات كثيرة من الخارقات بنطقها، وهذا حال الأسطورة العربية أيضا، حيث "تزعم بناء علاقة كلامية بين الحيوان والبشر، فجعلت عدة حيوانات؛ (الحمار، الكلب، الفرس، البعير، البلبل، الضفدع)، تتكلم كالإنسان، وتقويل الحيوانات الشهير عند الفرس، يعني في المنظور الأسطوري ردم شيء من الهوة الأساسية بينها وبين البشر"[4]، كما يعتقد العرب بزمن أسطوري أسطوري يسمونه "زمن الفطحل، كانت فيه الصخور رطبة لينة، وكل شيء يعرف وينطق، زمن لم يكن على الأشجار والنخل من شوك"[5]، هذا الزمان قبل نوح، وقد "كانت الحيوانات تتكلم

([1]) السابق، ص263

([2]) ينظر: سوسة، أحمد: **العرب واليهود في التاريخ**، ط2، العربي للإعلان والطباعة والنشر، دمشق، 1973، ص299

([3]) سوسة، أحمد: **العرب واليهود في التاريخ**، ط2، ص299

([4]) خليل،خليل أحمد: **مضمون الأسطورة في الفكر العربي**، ص112

([5]) عجينة، محمد: **موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالتها**، ج1، ص238

وتفكر، فهي بهذه الصفة عمل صفات آدمية"[1]، وكما كانت الجبال والطير ترجع تسبيحات داود، كذلك كانت الأشجار والوحوش والجبال والطيور، تستمع لغناء أورفيوس، وكانت تتحرك من أماكنها، وتصغي وتهتز[2].

إن القوة التي تمكن سليمان من التعرف إلى منطق الطير، ظلت قوة ممكنة الاكتساب، كانت من اختصاصات السحرة، في العصر الكلاسيكي من تاريخ مصر قبل الإسلام(332ق.م ـ 642م)، حيث "يُعتقد أن الساحر في ذلك العصر، يستطيع أن يفهم منطق الطير والزواحف، وأن يفتح السماء والأرض والعالم السفلي، وأن يستدعي الموتى من عالمهم"[3]، و نجد من كان يحبس الشياطين، كفعل سليمان، من صنف الآلهة، ففي أسطورة يونانية قديمة، " فتّش ديونيسوس عن منفى، وجده في جوار تيتيس الإلهة البحرية، ولكي ينتقم ليسورع منه، أسر موكب حراسته من إناث الشياطين، ولكنهن هربن متحررات بقوة سحرية"[4]، بينما لم تستطع الشياطين التحرر من سلطان سليمان، إلا بعد موته بعام، عندما سقط عن عصاه، التي كانت توجب الخضوع، هذه العصا التي اقترنت بالآلهة؛ لتعني القيادة والرعاية، وقد ظهرت بنفس وظيفتها لدى سليمان، في ختم بابلي قديم، والملك إيشارليم "يعلن خضوعه للإله دجن الذي يحمل في إحدى يديه العصا"[5]، وهو يتكئ عليها.

ومن شدة تعلق العرب بالأنساب فلم يفتهم تنسيب النمل، فقال النسابة البكري: "للنمل جدان، فارز، وعقفان، ففارز جد السود، وعقفان جد الحمر"[6]، وفي هذا ما يوحي أن نظرة العربي للنمل، نظرة الاعتبارات البشرية، كما حددوا مكان وادي النمل الذي مرّ به سليمان،

---

(1) عسكر، قصي: **أساطير العرب قبل الإسلام**، ص150

(2) ينظر: كامل، مجدي: **أشهر الأساطير في التاريخ**، ص100

(3) الماجدي، خزعل: **الدين المصري**، ص39

(4) غريمال، بيار: **الميثولوجيا اليونانية**، ص55

(5) الماجدي، خزعل: **المعتقدات الأمورية**، ص52

(6) القزويني، زكريا بن محمد: **عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات**، ص381

وكلمته النملة، وهو يقع "بين جبرين وعسقلان"[1]، في علامة على انهم يحملون الأمـــر علـــى محمل الجدية الحقيقية، حيث يصبح المكان المحدد جزء من واقعية الحدث الأسطوري.

وإن كان النمل قد تكلم، وهو على صورته، مستعيرا من البشر أميز خاصـــية، وهـــي اللغة، والنطق باللسان الفصيح، فقد جاء في الأساطير الإغريقية، تحول كامل للنمل إلى البشـــر، وتجسد الحلم إلى الحقيقة، على غرار ما تحول المخيال العربي إلى قدرة فـــي الكـــلام للنملـــة العجماء، تحول من جنس واحد مع فارق النسبة، فقد رأى الميرميدون "رتلا طويلا من النمـــل، في أفواهه ذرات، وهو يسير بها في شق من تجاعيد جذع الشجرة"[2]، فتعجب لأعدادها الغفيرة، فدعا الإله: "يا أجل إله، هب لي عدد هذا النمل أناسا، يملأون بلادي الخاوية"[3]، ومع أنه داخل عالم الحلم، "عالم الخيال المنفلت من زمن الواقع، المتجاوز للعقل والمنطق"[4]، إلا إنه ســـرعان ما صار الخيال واقعا وحقيقة، يؤمن بها عقل الإنسان؛ وذلك بفضل استجابة الآلهة له، وها هي أعداد النمل الغفيرة، تتساقط عن الشجرة، "وعلى حين بغتة، بدأت تبرز من الأرض مخلوقـــات صغيرة، أخذت تكبر، حتى انتصبت، وقد اختفت سيقانها الدقيقة، وألوانها الداكنة، فإذا هي على صورة البشر"[5]، وقد نالوا كل امتيازات البشر، شكلا وقدرة، وليس نطقا فحسب، انه تغيّر كلي، كلي، وليس جزئي، وهو بذلك أولى بالإعجاب من نملة نالت تغيـــرا جزئيـــا، وسُـــمّوا باســـم الميرميدون، فهو جدهم، وأصلهم، "غير أنهم ظلوا يحتفظون بطبعهم، فهم لا يزالون يحســـنون الاقتصاد والتدبير، ولا يقعدهم الجهد، ويحرصون على ما يقتنون، ويختزنون ما يجمعـــون"[6]، هذا الطبع المتأصل في النمل، الذي لم يفارقها حتى بعد صيرورتها إلى الجنس البشـــري، ولـــم تنفك عنه مع بشريتها، هو ما أتت عليه التوراة، في سفر الأمثال المنسوب لسليمان عليه السلام، ولم تأت على ذكر النمل المتكلم الناطق، وإن أتت على غيره كإتان بلعام:

([1]) القزويني، زكريا بن محمد: **آثار البلاد وأخبار العباد**، ص279

([2]) أوفيد: **مسخ الكائنات**، ص164

([3]) أوفيد: **مسخ الكائنات**، ص164

([4]) الديك، إحسان: **تمثيلات الخطاب في الأدب الفلسطيني الحديث**، دار الجندي للنشر والتوزيع، نابلس، 2016م، ص17

([5]) السابق، ص164

([6]) أوفيد: **مسخ الكائنات**، ص164

"اذهب إلى النملة، أيها الكسلان، تأمل طرقها، وكن حكيما، التي ليس لها قائد أو عريف أو متسلط، وتعدّ في الصيف طعامها، وتجمع في الحصاد أكلها، إلى متى تنام أيها الكسلان؟"[1].

إن القدرة على العمل لدى النمل، التي تتنافى والكسل، ظهرت في أسطورة كيوبيد وسيكي، فلما عرف كيوبيد بحال سيكي عندما أناطت بها أفروديت عملا مستحيلا، أرسلَ كيوبيد "جماعة كبيرة من النمل لمساعدتها، بحيث انتهى العمل خلال ساعات"[2].

هذا التحول من النمل إلى البشر في الأساطير الإغريقية، نجد تحولا آخر، ولكن باتجاه معاكس له، من البشر إلى النمل في الأساطير الهندية، بحكم سيادة معتقد التناسخ، لكن هذا التحول، يأتي في علامة دالة على مصير المتكبر، في جزاء عادل بانقلابه إلى أضعف المخلوقات، وهي ما ترمز إليه النملة والنمل، وهو ما يشابه حديث النبي الكريم كما أورده ابن كثير في التفسير: "إن المتكبرين يحشرون يوم القيامة أشباه الذر"[3]، أي صغار النمل.

"قال إندارا، وقد زاوله الخيلاء، واتضعت هيئته: أيها الغلام البرهمي، لا أعرف من أنت، ولكنك الحكمة المتجسدة، اكشف لي عن سر العصور هذا، عن النور الذي يبدد الظلمة، فلما رأى الصبي تغيّر هيئة الملك، ورغبته الجادة في التعليم، أخذ يكشف له خفايا الحكمة، لقد رأيت النمل منتظما، في طابور طويل، كل نملة، كانت في عالم مضى إندارا، كل واحدة مثلك، ارتقت إلى رتبة ملك الآلهة، بفضل التقوى، والأعمال الحسنة، ولكنها الآن، وبعد عدد من الولادات والتناسخات، صارت نملة مرة أخرى"[4]، من المُلك الى النملة، ولادة وتناسخ، تحتفظ بذاكرة الماضي، أو هي جزاءً وفاقا، وبذلك؛ فالنملة تحمل بصمة بشرية ذوَتْ عنها، تحت إندارا تالية، وهكذا نقترب جدا من إمكانية أن تنطق النملة، إنْ فتح الله فمها، ورفع قيد الإندارا مؤقتا لسبب ما، ومع تراكمات الأندارات تصبح بلا شك أكثر معرفة وخبرة، من الإنسان بلا إندارا.

([1]) **سفر العدد** 6: 6-9

([2]) غيربر: **أساطير الإغريق والرومان**، ص74

([3]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج4، ص89

([4]) السواح: **دين الإنسان**، ص260

وفي هذا المعنى من الضعف والتواضع للنمل، لا من الإندارات، جاء في الأساطير الأشورية عند دخول أحيقار إلى فرعون مصر:

"دخلت عليه، وحيّيته، ثم قال لي: ما اسمك؟ أجبت: أبيقام، إحدى نملات ملك نينوى، عندما سمع ذلك فرعون، احتدّ، وقال: هل سيدك يزدري بي إلى هذا الحد ليرسل إليّ نملة للإجابة على طلبي!"(1).

وفي حالة مشابهة لما عليه كليلة ودمنة، من استنطاق الحيوانات، وتكليم الطيور، نجد جذور هذا التمثيل الفني لدى السومريين؛ حيث "أبرزت مكتشفات سومر، عددا كبيرا من الأختام، التي نقشت عليها مشاهد لحيوانات في أوضاع بشرية مختلفة، كالتنقل في قوارب تقودها بأنفسها، أو في أوضاع تعبدية، أو أوضاع راقصة... كل ذلك يكمل الحكم والأمثال، التي وضعت في سومر، على لسان الحيوانات"(2)، في مشاهد وحكايات، توحي باعتقاد الإنسان القديم، بتفوق الحيوانات في بعض الجوانب على الإنسان، ومعرفتها بأسرار تخفى عن البشر، ومن ذلك أسطورة السمكة، ذات الرأس البشري، التي كانت تعلمهم " الكتابة، والعلوم، والفنون، وبناء المدن، وبناء المعابد، وأصول المحاكمات، والهندسة، وكيفية زراعة الحبوب، وجني الثمار"(3).

وفي أسطورة ماشماش الساحر السومري، مثال لهذه المخاطبات بين البشر والحيوان:

"الماشماش يتوجه إلى البقرة ويتحدث إليها

كما لو كانت كائنا بشريا

أيتها البقرة سألها، من الذي يأكل زبدتك

من يشرب حليبك؟

نبدابا تأكل زبدتي أجابت

---

(1) الشواف: **ديوان الأساطير**، ج3، ص396-397

(2) الشواف: **ديوان الأساطير**، ج3، ص425

(3) السابق، ص239

نيدابا تشرب حليبي

حليبي وجبنتي

يوضعان كما يجب على موائد قاعات الطعام

الكبرى، قاعات نيدابا"[1].

يتبين مما ذكر آنفا، أن نطق الحيوانات ومكالمتها، لها جذور أسطورية في الحضـــارات المجاورة لمملكة سليمان؛ في مصر، وما بين النهرين، والإغريق، والهند، وإن اختلــف نــوع الحيوان، فذلك لدلالة خاصة مع خصوصية الشعوب، ومع عظمة سليمان المتخيلـــة، واهتمـــام اليهود بإضفاء مزيد من العظمة؛ حتى يملؤوا فراغا نفسيا طويلا لـــديهم، مـــن الهـــوان أمـــام حضارات عظيمة بحق، مجاورة لهم، وتمتلك تراثا من الحوادث الأســطورية، مـــع ضـــخامة الخوارق، التي تجلل ثقافة تلك الشعوب، وتعتز بها، ومع ما تعرض له اليهود من الإذلال فـــي مصر، والسبي في بابل، وتلاشي مملكتهم الوحيدة اليتيمة، بسرعة غير معهودة للدول القويـــة، جاءت الأسطورة المضخمة لمملكة سليمان، والخوارق العجائبية لمَلكهم؛ لإخراج معارضيهم من الأمم مخرج الصغار والاحتقار، وفي هذا السياق جاءت أسطورة النملة، في وصـــف الأغيـــار الذين خضعوا لسلطان سليمان، وتصويرهم باستعارة النملة للضعف الشديد، أمام هيبة ســـليمان وقوته، وإن كانت نملة سليمان له من الناطقين، فالنطق ليس حكرا لهـــا وحـــدها، بـــل وجـــدنا حيوانات أخرى كانت من المتكلمين، ليس لسليمان فحسب، بل لغيره من الآدميين، في عصـــور غابرة لمملكته، بل ولاحقة بعد حينه وزمانه.

وكذلك تُخلق الأسطورة، وحيث "تتحرك فوق الزمان، يتم من خلالها تعـــايش الـــواقعي العادي، الممكن الحدوث، مع الغريب العجيب، غير المألوف، ثـــم اســـتدراج المتلقـــي؛ لتقبـــل

---

(1) السابق، ج4، ص456

العجائبي المتخيل، والولوج به إلى عالم الأسطورة؛ حيث يصبح الواقع بوابة الدخول إلى اللاواقع، والمعقول عتبة مشرعة على اللامعقول"[1].

([1]) الديك، إحسان: **تمثيلات الخطاب في الأدب الفلسطيني الحديث**، ص97-98

الفصل الرابع

أساطير المسخ والتحويل

- مسخ امرأة إلى كوكب الزهرة
- مسخ اليهود قردة وخنازير
- مسخ إساف ونائلة صنمين

الفصل الرابع

أساطير المسخ والتحويل

تصور الإنسان أن الآلهة خلقته على صورتها، فحاز الحسن، وحظي بالفضل دون سائر المخلوقات، وكان بذلك من المكرمين، وبان عن الكائنات، وكان من المتميزين، فساد على غيره، وتشرف بعبادة الآلهة، وكان من المتفوقين، ونال الذكاء والعقل والنطق، واقتدر على الصنع، ولان له الحجر والحديد، وكانت الأنعام له ركوبا، والشجر نارا وفلكا، وسُخّر بين يديه كثير من المخلوقات، وما كان لها قرينا، لولا نفخة من الله، بها تسامى، كل ذلك كان قمينا به أن ينظر لنفسه بنرجسية، فلا يستوي الإنسان والحيوان، ولا الإنسان والحجر، ولا الإنسان وأي مخلوق آخر.

فإذا قصّر في الطاعة، أو كان من المعاندين، وسلك في العصيان، وغاضب الآلهة، استحق العقاب، وربما انتزعت عنه صورته المكرمة، أو خُلع عنه شرف التماثل، فصار إلى المسخ، ونزل عن الرتبة إلى أسفل سافلين، وتحول إلى الأنعام، أو أضل سبيلا، واستحال حمارا أو كلبا ملعونا، أو قردا له صورة الآدمي في روح الحيوان مطرودا، أو خنزيرا من الأرجاس مذموما، أو يكون خلقا آخر؛ حجارة أو حديدا، جزاء وفاقا، فلا يستوي عند الله المطيع والعاصي، ولا التقي والمذنب، ولا المقرب والمجرم، ولكلٍ تجسيد يلائم روحه بين الخبث والطيب، وما سبق به علم الأزل.

مسخ امرأة إلى كوكب الزّهَرة

السماء مكان مقدس طاهر، لا يسكنه إلا الأبرار، كالملائكة الكرام، "فهي محل الطاعة، ولم يقع عليها عصيان"[1]، وقد قال الرسول الكريم: "أطت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع، إلا ملك واضع جبهته، ساجدا لله تعالى"[2]، وقال الضحاك وغيره، في

([1]) علان، محمد: **دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين**، ط1، دار الريان للتراث، القاهرة، 1987م، ج2، ص301

([2]) النووي: **رياض الصالحين**، ص213

تفسير قوله تعالى: "وما منا إلا له مقام معلوم"[1]: "قال كان مسروق يروي عن عائشة رضي الله عنها، أنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما من السماء الدنيا موضع إلا ملك ساجد قائم، فذلك قوله تعالى"[2].

عندما أشرفت الملائكة على أعمال الناس، ورأوا فسادها صاعدا إلى السماء، تعجبوا لما وقع فيه "الناس من بعد آدم عليه السلام، فيما وقعوا فيه من المعاصي، والكفر بالله، قالت الملائكة في السماء: يا رب، هذا العالم الذي خلقتهم لعبادتك، وطاعتك، قد وقعوا فيما وقعوا فيه، وركبوا الكفر، وقتل النفس، وأكل المال الحرام، والزنا، والسرقة، وشرب الخمر، فجعلوا يدعون عليهم، ولا يعذرونهم، فقيل: إنهم في غيب، فلم يعذروهم، فقيل لهم: اختاروا من أفضلكم ملكين، آمرهما وأنهاهما، فاختاروا هاروت وماروت، فأهبطا إلى الأرض، وجعل لهما شهوات بني آدم"[3]، و"أهبطت لهما الزُهَرة في أحسن صورة امرأة، فتعرضت لهما، فراوداها عن نفسها"[4]، و"لما أراد الذي يواقعها، قالت: ما أنا بالذي أفعل حتى تخبراني بأي كلام تصعدا إلى السماء، وبأي كلام تنزلان منها، فأخبراها، فتكلمت فصعدت، فأنساها الله تعالى ما تنزل به، فثبتت مكانها، وجعلها الله كوكبا... فلمّا كان الليل، أرادا أن يصعدا، فلم يطيقا، فعرفا الهلكة، فخيّرا بين عذاب الدنيا، وعذاب الآخرة، فاختارا عذاب الدنيا، فعلقا ببابل"[5]، و"جُعلا في بكرات من حديد، في قليب مملوءة من نار، عاليهما سافلهما"[6]، وفي رواية، بعدما فتنا وزنيا، "طارت الزهرة، فرجعت حيث كانت، فلما أمسيا عرجا فزجرا، فلم يؤذن لهما، ولم تحملهما أجنحتهما"[7]، وذلك بسبب المعصية، لم تفتح لهما أبواب السماء.

وأما معصيتهما، وإنْ كانت في إرادة الزنا، لكنهما انجرّا إلى غيرها، من أجلها، فعندما راوداها، قالت لهما: "لا، حتى تشربا خمري، وتقتلا ابن جاري، وتسجدا لوثني، فقالا: لا نسجد،

([1]) سورة الصافات، الآية: 164

([2]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج4، ص35

([3]) السابق، ج1، ص213

([4]) السابق، ص212

([5]) السابق، ص214

([6]) السابق، ص213

([7]) السابق، ص215

ثم شربا من الخمر، ثم قتلا، ثم سجدا"[1] "للصنم، فمسخ الله الزهرة كوكبـا"[2]، وهـذه المـرأة "اسمها بالعربية الزهرة، وبالنبطية بيدخت، وبالفارسية أناهيد"[3]، وبيدخت هي "بيذخ ابنة إبليس، إبليس، كان لها عرش على الماء، وأن المُريد لها، متى فعل معها ما تريد، سـحرته"[4]، وأمـا أناهيد فيقول الجاحظ: "جعلوا الزهرة امرأة بغيا، مسخت نجما، وكان اسمها أناهيد، وتقول الهند في الكوكب الذي يسمى عُطارد، شبيها بهذا"[5].

إن هذه الحسناء الغاوية، والفاتنة للملائكة الأطهار، استحقت الشتم واللعن والمسخ، يقول علي كرم الله وجهه: "مسخت كوكبا"[6]، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: "مسخت جمرة، وهي وهي هذه الزهرة"[7]، وقال سول الله عليه الصلاة والسلام: "لعن الله الزهرة، فإنها هي التي فتنت فتنت الملكين هاروت وماروت"[8]، وقال ابن عمر رضي الله عنهما لغلامه: انظر، هل طلعـت الحمراء، لا مرحبا بها، ولا أهلا، ولا حياها الله، هي صاحبة الملكين"[9].

وقد ساق ابن كثير روايات كثيرة، فيما أجملته آنفا، ووصف بعض أسانيدها الموقوفـة بالجيدة، لكنه عطف إلى المرفوعة فضعّفها، وقال: "رُوي في قصة هـاروت ومـاروت، عـن جماعة من التابعين، كمجاهد، والسُدّي، والحسن البصري، وقتادة، وأبي العاليـة، والزهـري، والربيع بن أنس، ومقاتل بن حيان، وغيرهم، وقصها خلـق مـن المفسـرين مـن المتقـدمين والمتأخرين، وحاصلها راجع في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل، إذ ليس فيها حديث مرفـوع صحيح متصل الإسناد"[10]، وهو يتفق في ردها مع الإمام فخر الدين الرازي، الذي قال: "واعلم

([1]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج1، ص214

([2]) الثعلبي: **عرائس المجالس**، ص51

([3]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج1، ص214

([4]) عبد الحكيم، شوقي: **موسوعة الفلكلور والأساطير العربية**، ص264

([5]) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: **كتاب الحيوان**، ط2، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مطبعة مصطفى وأولاده، مصر،1967م، ج6، ص198

([6]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج1، ص211

([7]) السابق، ص214

([8]) السابق، ص211

([9]) السابق، ص212

([10]) السابق، ص215

أن هذه الرواية فاسدة مردودة، غير مقبول؛ لأنه ليس في كتاب الله ما يدل على ذلك"[1]، بينما المحدث الحافظ ابن حجر العسقلاني، له رأي مختلف، ينتهي في تعليقه على الحديث الذي جاء فيه: فتمثلت لهما الزهرة امرأة، فيقول: "وله طرق كثيرة، جمعتها في جزء مفرد، يكاد الواقف عليه أن يقطع وقوع هذه القصة؛ لكثرة الطرق الواردة فيها، وقوة مخارج أكثرها"[2]، كما "اعترض الإمام السيوطي على من أنكر القصة، بأن الإمام أحمد، وابن حبان، والبيهقي، وغيرهم، رووها مرفوعة، وموقوفة على عليّ وابن عباس وابن عمر وابن مسعود، رضي الله عنهم، بأسانيد عديدة صحيحة"[3]، وأما العلامة الألوسي، فمال إلى صرف الروايات لمعان مجازية، باعتبار أنها غير معقولة، مستنكرا على "من قال بصحة هذه القصة في نفس الأمر، وحملها على ظاهرها، فقد ركب شططا، وقال غلطا، وفتح بابا من السحر، يُضحك الموتى، ويُبكي الأحياء، وينكس راية الإسلام، ويرفع رؤوس الكفرة الطغام"[4]، وتفسيره لها، يقع بين منكريها بالكلية، والآخذين بظاهرها، ويتمثل في رمزيّتها، وسأنقله بطوله؛ لأهميته في الاقتراب من توجّه المدرسة الأسطورية الرمزية المجازية في فهم الأساطير، يقول: "ولعل ذلك من باب الرموز والإشارات، فيراد في الملكين، العقل النظري، والعقل العملي، اللذان هما من عالم القدس، ومِن المرأة المسماة بالزهرة، النفس الناطقة، ومِن تعرضهما لها، ما يسعدها، ومِن حملها إياهما على المعاصي، تحريضها إياهما، بحكم الطبيعة المزاجية، إلى الميل إلى السفليات المدنسة لجوهريهما، ومِن الصعود إلى السماء بما تعلمت منهما، عروجها إلى الملأ الأعلى، ومخالطتها مع القديسين، بسبب انتصاحها لنصحهما، ومِن بقائهما معذبين، بقاؤهما مشغولين بتدبير الجسد، وحرمانهما عن العروج إلى سماء الحضرة، لأن طائر العقل لا يحوم حماها، ومن الأكابر من قال في حل هذا الرمز: إن الروح والعقل اللذين هما من عالم المجردات، قد نزلا من سماء التجرد، إلى أرض التعلق، فعشقا البدن، الذي هو كالزهرة في غاية الحسن والجمال، لتوقف

([1]) الرازي، فخر الدين محمد: **التفسير الكبير ومفاتح الغيب**، دار الفكر، بيروت، 1993م، ج2، ص238

([2]) ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن علي: **القول المسدد في الذب عن المسند للإمام أحمد**، ط1، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، 1401هـ، ص39

([3]) الألوسي، محمود: **روح المعني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، دار احياء التراث العربي، بيروت، ج1، ص341

([4]) السابق، ج1، ص242

كمالهما عليه، فاكتسبا بتوسطه المعاصي والشرك، وتحصيل اللذات الحسية الدنيّة، ثم صعد إلى السماء، بأن وصل بحسن تدبيرهما إلى الكمال اللائق به، ثم مسخ بأن انقطع التعلق، وتفرقت العناصر، وهما بقيا معذبين بعذاب الحرمان، عن الاتصال بعالم القدس، متألمين بالآلام الروحانية، منكوسي الحال؛ حيث غلب التعلق على التجرد، وانعكس القرب بالبعد، وقيل: المقصود من ذلك، الإشارة إلى أن من كان ملكا إن اتبع الشهوة، هبط من درجة الملائكة، إلى درجة البهيمة، ومن كان امرأة ذات شهوة، إذا كسرت شهوتها، وغلبت عليها، صعدت إلى درج الملك، واتصلت إلى سماء المنازل والمراتب"[1].

شملتْ هذه الأسطورة عدّة عناصر مُتحدة، سأتناولها بالبحث بشكل متكامل متداخل، العنصر الأول: المرأة الغانية الفتانة، والأنثى الجميلة الحسناء، والعنصر الثاني: علاقة هذه المرأة بكوكب الزهرة، والعنصر الثالث: سقوط الملائكة بسبب بنات البشر الحسناوات، والعنصر الرابع: المسخ.

هذه المرأة التي تمثل الأنوثة في كمالها الفتّان، بحيث تمكنت من نفوس الملائكة الأطهار، فأخضعتهم للهوى، وأخرجتهم عن فطرتهم الأولى، حتى أغلقت أمامهم أبواب السماء، وأعجزتهم عن السمو والطيران، وسلبتهم قدرتهم السابقة، وأسجدتهم للوثن، فأنكرتهم ملائكة السماء، لا يمكن أن تكون إلا من معبد عشتار، وتمثلاتها، فهكذا كانت مع أنكيدو السومري، الذي خلقه الله كالأنعام، سليما من الآثام، "يرعى الكلأ مع الغزلان، ويشرب الماء مع الماشية بقلب جذلان"[2]، فتعرضت له الأنثى رائعة الجمال، فكان له مثل الذي كان مع هاروت وماروت، ونسي أين ولد، وماذا كان:

"ها هو ذا أيتها المرأة

عرّي نهديك

أسفري عن مفاتنك

([1]) الألوسي، محمود: **روح المعني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، ج1، ص341

([2]) فريشاور، بول: **الجنس في العالم القديم**، ص82

حتى ينال كفايته منك

لا تحجمي

حركي فيه الرغبة، علميه وظيفة المرأة

متى رآك انجذب إليك

وافتحي ثوبك حتى يرقد عليك

فتتكره طرائد البرية

وسيلتصق صدره بصدرك

وحلت المرأة أزراها

وعرّت صدرها حتى ينال كفايته منها

ولم تحجم وأخذت شهوته

وفتحت ثوبها لكي يرقد عليها

وأثارت نشوته كما تفعل النساء

والتصق صدره بصدرها

فنسي أنكيدو أين ولد"(1).

"ستة أيام وسبع ليال جامع أنكيدو الغانية

وبعد أن أشبع منها شبقه وثمل من اللذة

أدار وجهه نحو قطيعة (أي الذي كان منه ومعه)

ولكن الغزلان عندما رأته هو أنكيدو نفرت منه

وقطيع السهوب تحوّل عنه

---

(1) فريشاور، بول: **الجنس في العالم القديم**، ص82-83

فـــقـَــد أنكيدو قواه وفترت همته

جمدت ركبتاه، بينما قطيعه يبتعد عنه

تضاءلت سرعته ولم يعد عدْوه كما كان عليه"[1].

فما كان من أنكيدو إلا أن يرسل اللعنات على المرأة الغانية:

"شعر بالرغبة لأن يلعن الغانية شمخات (وهي إحدى تجليات عشتار التي تعرضت له)

هيا تعالي أيتها الغانية لكي أقرر لك مصيرك

لكي أقرر لك أنا شخصيا

مصيرا، مصيرا دائما وإلى الأبد

عليك أنا أوجه لعنة فعّالة

فلتتسلط عليك بالسرعة القصوى"[2].

ثم يواصل اللعنات على مظاهر حسنها، معربا عن امتعاضه من فعلها الشـــرير، الـــذي سبب له الأذى، كأنه في ذلك يتفق مع لعن النبي الكريم، والصحابة الميامين لها، هذا اللعن الذي أصاب شمخات عند أنكيدو، وأصاب الزهرة في مرويات التفسير، يتحد معا ليصـــيب عشـــتار، فشمخات إحدى تمثلاتها، والزهرة كوكبها المتجسدة فيه، فعشتار "كانت تتمثل أو تتجسد بكوكب، ثم تنزل بعد ذلك من عليائها إلى الأرض، لتشترك في حياة العالم، لا سيما بحياة البشر، فتشرف على غراماتهم... لا ريب من أن عشتار لم تكن تشبه كوكب الزهرة فحسب، بل كانت متجسدة فيه، ولها شكل إنساني"[3]، لقد "أطلق البابليون اسم عشتار على كوكب الزهرة، ولم يكن يعرف إلا بهذا الاسم، والكنعانيون أطلقوا عليه اسم عستارت، واليونان أفروديت، والرومان فينوس"[4]،

([1]) الشواف: **ديوان الأساطير**، ج4، ص284

([2]) السابق، ج4، ص355

([3]) فيroullo، شال: **أساطير بابل وكنعان**، ص32

([4]) السواح: **لغز عشتار**، ص98

وهي عند الإغريق والرومان "إلهة الحب والجمال... وحامية البساتين والبستانيين والعشاق"[1]، و"سماها الهنود مايا، وبهافاني، والفرس ميترا، والفينيقيون عشتروت، والأشوريون أنـــاتيس... واصطلح العرب على تسميتها بالزهرة، (وعثتر عند عرب الجنوبيين [2])، وفي القبطية بادخت، ولها أسماء أخرى عديدة، تختلف باختلاف الأمم التي عرفتها"[3].

وهي عندهم جميعا رمز للحب والحسن[4]، وأنثى الشهوة واللـــذة والعشـــق والإغـــواء والجنس[5]، وكانت عند العرب كشأن غيرهم، حيث "أضافوا إليها الطرب والسرور واللهـــو... فزعموا أن النظر إليها مما يوجب فرحا وسرورا... وأن من شأنها الشبق والباه والألفة، حتى لو نكح رجل امرأة، والزهرة حسنة الحال، وقع بينهما من المحبة والألفة ما يتعجب منه"[6]، كمـــا قالوا في طبعها أنها "أنثى، وهي سعد... وسلطانها الزواج والفرح، ولها الشهوة...وتأليف القلوب والنساء، والحسن واللهو والضحك"[7].

ولا غرو إذا ظل لفظ عشتار الأكادي، وعشيرة الفينيقي، دائرا على معناه حتى اليـــوم في اللغة العربية، فقد جاء في القرآن الكريم: "وعاشروهن بـــالمعروف"[8]، وقـــد كـــان النبـــي لأزواجه "جميل العشرة، دائم البشر، يداعب أهله، ويتلطف بهم، ويوسعهم نفقتـــه، ويُضـــاحك نساءه... يتودد"[9]، وقوله سبحانه: "وإذا العشار عطلت"[10]،أي خيارها، والحوامل منها[11]، وفي وفي المعجم: عاشره: خالطه وصاحبه، وأعشرت الناقة ونحوها: صارت عشراء، والعشراء من

([1]) غيربر: **أساطير الإغريق والرومان**، ص65

([2]) علي، جواد: **المفصل في تاريخ العرب**، ج6، ص57

([3]) الحوت،محمود سليم:**في طريق الميثولوجيا عند العرب**، ص88

([4]) ينظر: عجينة، محمد: **موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالتها**، ج1، ص212

([5]) ينظر: القمني: **الأسطورة والتراث**، ص58-59

([6]) القزويني: **عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات**، ص26

([7]) البوني، أحمد بن علي: **شمس المعارف الكبرى ولطائف العوارف**، المكتبة الشعبية، بيروت، 1985م، ص33

([8]) سورة النساء، آية:19

([9]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج1، ص697

([10]) سورة التكوير، آية: 4

([11]) ينظر: ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج4، ص694

النوق ونحوها: ما مضى على حملها عشرة أشهر، والعشير الزوجة والزوج[1]، "وما زالت بعض الكلمات المشتقة منها دارجة في لغتنا السامية، مثل: عاشرها أي ضاجعها"[2].

وأصبح من المُسّلم به، أن العرب قبل الإسلام عرفوا عبادة كوكب الزهرة[3]، في شمال الجزيرة العربية، وفي جنوبها، وكان يُدعى عزى، وعزيز، ويعني كوكب الزهرة بالذات، وقد وصل إلى المجتمع الإغريقي الروماني باسم أزيزوس، أي عزيزو[4]، وعثر في النقوش البابلية على كلمة (عزو) مقابل لنجم الزهرة، وقبيلة طيء، دعتها عوزى، فالعزى عند العرب، هي عشتار عند البابليين، وقد انتشرت عبادة عشتار عند العرب، كغيرها من الآلهة البابلية، وذكر كثير من المؤرخين قبل الإسلام، عبادة العرب للزهرة، ومثلتها العرب بامرأة حسناء، وإنها كانت تهدي لها الذبائح [5]، "وكانت أعظم الأصنام عند قريش، وكانوا يزورونها ويهدون لها، ويتقربون عندها بالذبح، وقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرها يوما، فقال: لقد أهديت للعزى شاة عفراء، وأنا على دين قومي"[6]، وربما تطور الأمر من الأضاحي بالحيوان، لإلهة الاتصال الجنسي والعشق والخصب، إلى التضحية بالبنات ووأدهنّ، "قربانا إلى الإله/الآلهة"[7]، خاصة، ولدى بعض العرب زهد شديد بهنّ، لما يستتلين من همّ في العيب والمعاش، ويتجانسون في القربان مع طبيعة معبودتهم، وهم في ذلك يقتربون من سلوك قديم للفينيقيين، كان يقام لهذه الإلهة، وقد جرت عاداتهم "إذا حزبهم أمر جلل يضحون بأطفالهم قربانا"[8]، فقد ضحوا لإلههم مولوخ في قرطاجنة، أثناء حصارها (307ق.م)، بمائتي غلام، من

([1]) **المعجم الوسيط**، مادة: عشر

([2]) نعمة، حسن: **ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة**، ص155

([3]) ينظر: القمني: **الأسطورة والتراث**، ص68

([4]) ينظر: ديسو، رنيه: **العرب في سوريا قبل الإسلام**، ترجمة: عبد الحميد الدواخلي، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1959م،ص124-125

([5]) ينظر: خان، محمد عبد المعيد: **الأساطير العربية قبل الإسلام**، ص138-141. و علي، جواد: **المفصل في تاريخ العرب**،ج6، ص59

([6]) الكلبي، أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب: **كتاب الأصنام**، ص18-19

([7]) السعفي، وحيد: **القربان في الجاهلية والإسلام**، ط1، منشورات تبر الزمان، تونس، 2007م، ص25

([8]) ديورانت: **قصة الحضارة**، ج2، ص318

أبناء أرقى أسرها، حرقوهم على مذبح إلههم أحياء[1]، "ومن المحتمل أن تكون هـذه الهمجيـة الدينية، المتأتية عن الخوف من الآلهة، سببا من الأسباب التي دفعت أفرادا مـن العـرب، فـي بعض القبائل، إلى وأد بناتهم، فقيل بعد أن طال الزمن، وعفى على الأسباب البعيدة للوأد، أنهـم فعلوا ذلك خشية العار والإملاق"[2]، وبهذا يصبح المبرر لهم، أكثر اقناعـا، وقربـا للسـطحية المباشرة، ودفعا للفعل الشائن، علاوة عن حضور قصة إبراهيم، في محاولته ذبح ابنه، استجابة لأمر الله، لا تخفى عليهم، ولأجل أن يرضوا عشتار، فتمنّ عليهم بالخصب الـوفير، ولتـوقظ شهوتهم، ولكي ينعموا، كان عليهم أن يقدموا الأضاحي، من المزروعات والحيوانـات، ومـن أعزها عليهم البنين والبنات، كل ذلك من أجل كسب عطف عشتار، حتى لا تحيق بهم لعناتهـا، كما فعلت مع كثيرين من عشاقها، مثل انكيدو والبستاني ودموزي، ووصـلت التضـحية إلـى ممارسة الخصي للرجال في معابدها، "وكان الكهنة الخصيان يرقصون رقصا عاصفا عجاجـا، ويضربون أنفسهم بالسكاكين، وفي آخر الأمر، كانت الحماسة تغلب الكثيرين من الرجال، الذين لم يأتوا إلى الحفل إلا ليشاهدوه، فيخلعون ثيابهم، ويخصون أنفسهم؛ ليهبوا أنفسهم طول حياتهم لخدمة الإلهة"[3]، بينما النبي إبراهيم عليه السلام، اقتصر في تضحيته على غلفة الذكر، عوضا عنه كله، بعدما منحه الله الخصب، ووعده بالولد، بعد عقم طويل، وما عادة الختان" في مـداها البعيد إلا مترادفات شعيرة التضحية"[4]، وكانت التضحية بتقديم جزء من ذكره، ومـن ذكـور نسله، ميثاقا للرب، وعهدا أبديا، سمي عهد الختان:

"ولما كان أبرام ابن تسع وتسعين سنة ظهر الرب لأبرام، وقال له: أنا الله القدير، سـر أمامي، وكن كاملا، فأجعل عهدي بيني وبينك، وأكثرك كثيرا جدا... فلا يدعى اسمك بعد اليوم أبرام، بل يكون اسمك إبراهيم، لأني أجعلك أبا لجمهور من الأمم، وأثمرك كثيرا جدا، وأجعلك أمما... وأقيم عهدي بيني وبينك، وبين نسلك من بعدك في أجيالهم، عهدا أبديا... هذا هو عهدي، الذي تحفظونه بيني وبينكم، وبين نسلك من بعدك: يختن منكم كل ذكـر، فتختتـون فـي لحـم

([1]) ينظر: ديورانت: **قصة الحضارة**، ج2، ص315

([2]) الحوت، محمود سليم: **في طريق الميثولوجيا عند العرب**، ص153

([3]) ديورانت: **قصة الحضارة**، ج2، ص218

([4]) عبد الحكيم، شوقي: **موسوعة الفلكلور والأساطير العربية**، ص59

غرلتكم، فيكون علامة عهد بيني وبينكم... وأما الذكر الأغلف الذي لا يختن في لحم غرلته، فتقطع تلك النفس من شعبها، إنه نكث عهدي... فأخذ إبراهيم إسماعيل ابنه، وجميع ولدان بيته، وجميع المبتاعين بفضته، كل ذكر من أهل بيت إبراهيم، وختن لحم غرلتهم في ذلك اليوم... وكان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة حين ختن في لحم غرلته"[1]، فهل اضمحلت التضحية من الخصي للعضو الذكوري كاملا إلى قطع الغرلة منه، كتطور من بقايا الممارسات العشتارية؟ كما جاء كبش الفداء بديلا عن التضحية بالأبناء، وظل سائرا في مختلف الأديان، حتى اليوم.

"وفي الفن الإسلامي، حيث لا مجال لتصوير العري، تظهر الرسوم كوكب الزهرة، على هيئة حسناء فاتنة تعزف على العود"[2].

إن "عشتار هي البغي المقدس الأولى؛ لأنها مركز الطاقة الجنسية الشاملة... فلا يهدأ؛ لأن في سكونه همود لعالم الحياة، تقول عشتار البابلية:

أنا العاهرة الحنون

وأنا من يدفع الرجل إلى المرأة، ويدفع المرأة إلى الرجل"[3].

فإذا غابت عشتار عن عالم الأحياء، خمدت الشهوة، وانطفأت الحياة، وذوى العشق، وتلاشى الحب:

"عندما كانت عشتار هكذا

سجينة في العالم السفلي

فإذا بالثور لم يعد ينزو على البقرة

وأي حمار لم يعد يخصب أنثاه

وأي رجل لم يعد يحبّل امرأة على هواه

([1]) **سفر التكوين** 17: 1-24

([2]) السواح: **لغز عشتار**، ص185

([3]) السابق، ص181

كل رجل كان ينام منفردا في غرفته

وكل امرأة تذهب لتبيت في ناحية أخرى"[1].

إن إنانا، البغي المقدسة، إلهة السومريين، التي تقابل عشتار عند البابليين، وهي نجمة الصباح، نجمة الزهرة[2]، عندما نزلت من عليائها السماوي، إلى بستان في ناحية من الأرض، لم يقاوم البستانيّ غوايتها، فاندفع إليها شبقا، وهي في سباتها، وقد كانت على غير صورة الحب، متخذة صورة الحرب، فغاظها فعله، فمسخته نجما، تقول الأسطورة:

"هذه المرأة الفتية، أرادة يوما النزول إلى هذه الدنيا

إنانا المقدسة أرادت النزول إلى الأرض...

إنانا الراكبة على الأسد الأرضي العظيم"[3].

"منهكة وصلت الغانية (أي إنانا=عشتار) إلى البستان

وتمددت لكي ترتاح

وفي الطرف الآخر من البستان كان

شوكاليتودا يراقبها

أمام شقها ربطت إنانا على شكل مئزر...

ثم نامت

ولكن شوكاليتودا حلّ رباط الستر الواقي

وولجها وجامعها

ثم عاد إلى الطرف الآخر من البستان

(1) الشواف: **ديوان الأساطير**، ج4، ص197

(2) ينظر:نعمة، حسن: **ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة**، ص154

(3) الشواف: **ديوان الأساطير**، ج1، ص86

طلع الفجر وأشرقت الشمس

وتفحصت المرأة نفسها عن قرب

وفهمت أنها اغتصبت"[1].

مما أغضبها، ودفعها لارتكاب الشرور والكوارث، بسبب فرجها المهان، وظلت تبحث عن البستاني، المعتدي عليها، حتى وجدته، وحولته نجما [2].

وهكذا عندما يتحول الافتتان بالجمال الأنثوي إلى ذنب، ويصير التلذذ به على غير نظام من الايجاب والقبول غواية واغتصابا، عندئذ يقع العقاب، ويوجب اللعن، ويستحق المسخ:

"لأنه لم يظهر لي أي احترام

ولم يكنس بلحيته التراب تحت قدمي

سوف أرفع يدي عن هذا البلد المستفز

سأعلمه كيف يهابني..

سوف أدوسه بقدمي

لكي تغمره الرقصة المقدسة، رقصة إنانا

سوف أحمل إليه الحرب، وأثير المعارك"[3].

وفي صورة معاكِسة أخرى من الأساطير، كان ينبغي على الإنسان البستاني أن يقتدي بها، أو على أنكيدو الفطري أن يتأسى بها، أو على الملكين أن يحتذيا بها، فلا يقع أيّا منهم فريسة الغواية، ولا يسقطون صرعى الهوى، ولا يُبكّتون بشهوة عشتار الجامحة/الزهرة الحسناء، هي صورة جلجامش، الذي غلّب العقل والحكمة، واعتبر بمن سلفه من الحمقى، فقاوم الشهوة الحارقة، وغضّ عن مفاتن عشتار الأخاذة المسكرة:

([1]) الشواف: **ديوان الأساطير**، ج1، ص91-92

([2]) ينظر: السابق، ص85، ص98-99

([3]) السابق، ج3، ص247

"غسل شعره الطويل، ومسح أسلحته

أسدل شعر رأسه على كتفيه

نضى ثيابه الوسخة وارتدى ثيابا نظيفة

لبس عباءة وأحاطها بحزام

وعندما وضع جلجامش تاجه على رأسه

شخصت عشتار العظيمة إلى جماله:

تعال يا جلجامش وكن عريسي

هبني ثمارك هدية

كن زوجا لي وأنا زوجا لك"[1].

ثم تعرض عليه نعمها، ومواهبها، ومفاتنها، وعطاياها الكثيرة، ولكنه يرد عليها قائلا:

"ما هو نصيبي منك لو تزوجتك

ما أنت إلا موقد تخمد ناره وقت البرد

باب خلفي لا يحمي من ريح أو عاصفة

قصر يسحق الأبطال من حُماته

حفرة يخفي غطاؤها كل غدر

قار يلوث حامله

قربة ماء تبلل حاملها

حجر كلسي هش في سور صخري

حجر كريم في بلاد الأعداء

([1]) السواح: **جلجامش**، ص163

صندل يزل به منتعله

أي حبيب أخلصتِ له أبدا؟

وأي راع أفلح يرضيكِ دوما؟

تعالي أفضح لك حكايات عشاقك"[1].

ثم يستعرض عشاقها الهلكى، ذاكرا فعالها العقابية بهم، فيذكر عشيقها دموزي، وطـائر الشقراق، والأسد، والحصان، والراعي الذي مسخته ذئبا، والبستاني المزارع إيشـولانو الـذي مسخته خلدا، ثم يقول متسائلا:

"فإن أحببتني، ألا يكون نصيبي منك كهؤلاء؟

عندما سمعت عشتار ذلك

تفجر غضبها وعرجت إلى السماء

مضت إلى حضرة أبيها آنو(أي إله السماء، وملكها، وعرشه على قبة السماء[2])...

أبتاه لقد شتمني جلجامش

عدد قبيح فعالي

قبيح فعالي، ولعناتي"[3].

لقد نظر جلجامش إلى الوجه الأسود من عشتار، فأحجم عنها؛ لينال حياة العمل، والبناء، والراحة[4]، بينما كانت إذا تجولت "في الغابة، تفر إليها الضواري من الأوكار، وتطيـر إليهـا أسراب الطيور، وتتململ الأسود والفهود والنمور والدببة عند قدميها، فهي تسير بـين وحـوش

([1]) السواح: **جلجامش**، ص164-165

([2]) ينظر: كامل: **أشهر الأساطير في التاريخ**، ص68

([3]) السواح: **جلجامش**، ص168

([4]) ينظر: السابق، ص172-173

البرية، عزيزة بجمالها الفاتن"[1]، لكن جلجامش سلك طريق الحذر والزهد والتعفف، فسَلِمَ من كيدها؛ لذلك على الإنسان أن يسمو على الحيوان، كي يصل إلى عالم الملائكة الأبرار، من خلال الابتعاد عن عشتار، والابتعاد عن مكر الأنثى، على الرغم مما تشيعه من الحب والبهجة، فلو أن الملائكة اقتربت منها ستسقط من عالمها الطاهر، فلا عجب إذا رأينا جلجامش أنموذجا للطهر في هذا المضمار، و"هكذا كان جلجامش ذو الكمال والعظمة"[2]، بعدما تاب عن أول أمره، الذي انكب فيه على النساء، ولم يترك "فتاة لأمها"[3]، ولكن في معراجه قتل همبابا الشرير، بعدما سمع صوت قلبه الرباني[4]، وكان في عشتار الغانية من الزاهدين.

ربما من هنا، ازدادت النظرة الدينية انتقاصا للمرأة، واقترانا بالشيطان، واكتسبت شرا على شر، فهي خلقت من أعلى ضلع آدم الأعوج، وهي مَن تسلل إبليس لها في الجنة، فأغراها بالمحظور، وصار آدم ضحيتها، وباء بالخسران، وما خلا رجل بامرأة، إلا والشيطان ثالثهما[5]، وصارت هي الحرث، والشيطان هو الحارث، والمولود الحي الذي حوته في أحشائها هو عبد الحارث[6]، وكما حصل بين البستاني وإنانا، وكما فعلت في تزلفها مع أنكيدو، ودعوتها دموزي ليحرث فرجها، حتى صارت الحية لها رمزا، وشهوتها المثيرة سما زعافا، مما دعا النبي الكريم، ليتخوف على أمته من النساء[7]، وارتبط اسم المرأة "بإبليس الشيطان، بصفتها الجنس الضعيف الجانح إلى الانحراف... وصار الحب والجنس، في ثقافتنا الإسلامية، يقترنان بالشيطان، ويرمزان إلى الرذيلة"[8]، وهو ما يمثله قول "بعض الحكماء: النساء شر كلهن، وأشر وأشر ما فيهن عدم الاستغناء عنهن، ومع أنها ناقصة العقل والدين، تحمل الرجل على تعاطي ما

([1]) معدي، الحسيني: **أساطير الحب والجمال**، ط1، كنوز للنشر والتوزيع، القاهرة، 2012م، ص158

([2]) الشواف: **ديوان الأساطير**، ج4، ص275

([3]) السابق، ص278

([4]) ينظر: السابق، ص299، ص333

([5]) ينظر: الترمذي، محمد بن عيسى: **سنن الترمذي**، تخريج: صدقي جميل العطار، دار الفكر، بيروت، 2005م، ص633، رقم الحديث:2172

([6]) ينظر: ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج2، ص408

([7]) ينظر: ابن حجر: **فتح الباري**، ج9، ص171-172، رواه الشيخان

([8]) صبار، خديجة: **المرأة بين الميثولوجيا و الحداثة**، **أفريقيا الشرق**، المغرب، 1999م، ص17

فيه نقص العقل والدين، كشغله عن طلب أمور الدين، وحمله على التهالك على طلب الدنيا، وذلك أشد الفساد"[1]، فهي الفتانة التي تهلك عشاقها، ولذا صار الترفع عن معاسفة النساء شرف الروحانيين، وسلم النورانيين، وديدن المتبتلين، فهي السبب وراء فساد الملائكة الكرام، بحسب الأسطورة، وهو ما يتفق مع جاء في سفر أخنوخ:

"عندما تكاثر البشر، ولد لهم بنات غضة وجميلات، ورآهن الملائكة أبناء السماء فاشتهوهن"[2].

وعندما حلّ العقاب، تحول المذنبون من الملائكة إلى نجوم محبوسة:

"تلك هي نجوم السماء التي انتهكت أمر الرب، وهي محبوسة هنا حتى عشرة آلاف سنة، مدة خطيئتها"[3]، وفي هذا العقاب تدخل عشتار التي تحولت لنجم الزهرة، إذ إنها إلهة باللفظة القديمة، ملاك باللفظة الحديثة، وهي جند من جنود الله سبحانه، أو قوة سماوية علوية، ولذلك كان عقابها في السماء، وأما الملكان فكان عقابهما أرضي في العالم السفلي، كونهما في طبيعة بشرية، فلا ينفكان عنها، مدة حياتهما الدنيوية، لذلك جاء في الأثر أنهما معلقان ببابل، في بئر مملوءة من نار.

لقد عرجت الزهرة، القوة السماوية إلى السماء؛ لتمارس مهامها، كجند من جنود الله، إذ إن السماء مأوى الصالحين، وهي، إنما هبطت من هناك إلى الأرض؛ لغرض الفتنة، فحريّ بها العودة إلى عليائها، ففي أفستا يتوجه متضرع إلى الله، بقوله: "تذهب أجسامنا المخلصة لك نحو السماء، كأفضل عالم للصالحين"[4]، وأجرام السماء في نظر الإنسان القديم، لها تأثير على الأرض، فإن "الأبراج الاثني عشرة، والكواكب السبعة، تخلق العالم وتتحكم به"[5]، فقد أودعها الله أمره، والنجمة إشارة الألوهية، فهي "تشير إلى ما هو فوق، وأعلى... وكانوا يتصورون

---

(1) ابن حجر: **فتح الباري**، ج9، ص172

(2) **مخطوطات قمران**، ج2، ص31

(3) السابق، ج2، ص39

(4) عبد الرحمن، خليل: **أفستا، الكتاب المقدس للديانة الزرادشتية**، ص190

(5) السابق، ص764

النموذج الإلهي أساسا، مثلا أعلى من كل ما هو ههنا، ونوعا سماويا"[1]، وظهرت النجمة في الأساطير كوصف للآلهة، فهذه المرأة المقدسة نيسابا، إحدى الأمثلة على ذلك، تقول الأسطورة:

"المجد لك يا نيسابا

إلى المرأة

إلى النجمة التي في الأبسو

المرأة المقدسة، النجمة المقربة من آن"[2].

وبما أن "في السماء الآلهة، فإن إنانا/عشتار، هي ألمع النجوم، وأكثرها تألقا، يَرمز إليها في عالم السماء، كوكبُ الزهرة"[3]:

"سيدة السيدات، إلهة الإلهات...

انت نور العالم، أنت نور السماء...

أي إلهة الرجال، وإلهة النساء...

حيث أنت تلمعين، يُبعث إلى الحياة الأموات"[4].

ومع هذه النظرة "لقداسة السماء، والظواهر السماوية"[5]، فإن السماء هي "التي تعرف كل شيء"[6]، والملائكة النازلة منها، تعلَم الكلمة التي تصعد بها الى هناك، ويُعلّمون الناس مالا يعلمون، من السحر وغيره، ومنهم تتعلم المرأة الغاوية الاسم الأعظم، فتصعد به، وعندما تنسى الكلمات التي تعلمت للنزول، تكون الزهرة، ومن هناك تبعث روحها الهاوية إلى الأرض

([1]) جان، بوتيرو: **بلاد الرافدين-الكتابة-العقل-الآلهة**، ط1، ترجمة: الأب ألبير أبونا، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1990م،ص256

([2]) الشواف: **ديوان الأساطير**، ج3، ص104-105

([3]) السابق، ج3، ص242

([4]) الشواف: **ديوان الأساطير**، ج3، ص293

([5]) إلياد، ميرسيا: **تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية**، ج1، ص41

([6]) السابق، ص246

لتنبث في الآفاق، عشقا وشهوة، وحبا وشبقا، وتجعل الكهنة "يتتبعون بدقة تحولها، من نجمة صبح، إلى نجمة مساء، فيستخلصون الآيات من بزوغها وأفولها المتعاقبين"[1].

وكما أن السماء مسكن الآلهة النورانية، فإن العالم السفلي مسكن الآلهة الظلامية، "في الأسفل، في الفضاء المتوازي تحت الأرض"[2]، ولذا عندما اكتسبت الزهرة نفحة الألوهية من الملكين سكنت الأعالي، وأما الملكين، فلمعصيتهما سكنا العالم السفلي، كعقاب مؤقت لهما، ظهر ذلك من خلال التعبير بلفظ القليب، أي البئر الذي هو بوابة العالم الأسفل، المعلقان فيه، أو "مدخل العالم السفلي الرهيب، كان في بابل ذاتها، وبالتحديد في فتحة بئر، يقع في مدينة الوركاء نفسها، حسبما جاءنا في ملحمة رافدية"[3]، وهذا يذكرنا بأسطورة عشتار وتموز الراعي، في الهبوط والصعود، والعشق والعقاب.

إن عشتار الغاوية، والمرأة الفاتنة تستحق أن تسكن العالم السفلي، لمغانيها، ولكن لن يدوم بذلك العيش على الأرض، ويتوقف الخصب، وينقطع استمرار الحياة، الأمر الذي جعل لها أن تصعد إلى السماء المقدسة، رغم طبيعتها السفلية، فقد تدخّل إله السماء، وبعث رسله، وطلب من إلهة العالم السفلي إريشكيجال:

"أريد أن أطلب منك طلبا

أريد جسد عشتار

الذي يعود إلى الحياة

وترجع إلى مكانها"[4].

ولكن هذا التحرر، يتطلب مقابلا وبديلا، فكان دموزي هو الفداء والضحية:

"ألقت عليه إنانا نظرة، نظرة قاتلة

([1]) فريزر: **أدونيس**، ص187

([2]) جان، بوتيرو: **بلاد الرافدين**، ص258

([3]) القمني: **الأسطورة والتراث**، ص57

([4]) الماجدي، خزعل: **إنجيل بابل**، ص90

لفظت ضده كلمة: كلمة ساخطة

اطلقت ضده صرخة: صرخة هلاك

إنه هو، خذوه"[1].

ولكن دموزي يطلب عون آتو إله الشمس:

"رفع دموزي يديه نحو السماء والدموع

تنهمر على وجهه"[2].

ولكن توسلاته لن تنقذه من العقاب، إلا إنها جعلته محدودا بوقت:

"وهكذا جعلت إنانا المقدسة

من دموزي بديلا عنها"[3].

ودخل دموزي العالم السفلي مقيدا؛ حيث الشياطين السحرة السبعة، في إشارة إلى بوابات العالم السفلي السبعة، وحراسها من الكائنات السحرية المقتدرة:

"سلمته كبديل عنها إلى عالم- اللاعودة

وهكذا إذن فإن دموزي بقي معاقا

رهين سجن إيريشكيجال

بقي معاقا وأسيرا

...

كانوا إذن سبعة، كان هناك سبعة

سبعة سحرة كانوا في الأرالي(أي العالم السفلي)

([1]) الشواف: **ديوان الأساطير**، ج4، ص77

([2]) السابق، ج4، ص78

([3]) السابق، ج4، ص79

سحرة الأرالي كانوا سبعة، سبعة كانوا

هم الذين يتعلمون من خشب الهولوبو

(أي نوع من الشجر كانت تسكنه الشيطانة ليليت، الوجه الأسود لعشتار)

بلا إخوة ولا شقيقات، ليل نهار

يطلقون صراخا مزعجا

خبراء في سحر السماء، خبراء في سحر الأرض"[1].

وفي هذا المقطع من الأسطورة، ارتباط واضح مع هاروت وماروت، اللذين كانا يعلمان السحر، المستوجب للكفر، ودخول عالم الجحيم، العالم السفلي، وهو يكشف عن عشتار الزهرة، التي اختارت دموزي لشهوتها، ولكن كان مصيره السقوط والجحيم، في تشابه واضح مع المرأة الزهرة، وهاروت وماروت، تقول إنانا/عشتار لدموزي الذي اختارته لشهوتها:

"أما بالنسبة لي أنا، بالنسبة لفرجي أنا

التلة المنتفخة

فرجي أنا الصبية، من سيحرثه لي؟

فرجي أنا، هذه الأرض الرطبة هي أنا

أنا الملكة من الذي سيضع فيّ

ثيرانه للحراثة؟...

إنه الملك دموزي الذي سوف يحرثك

احرث إذن فرجي يا رجل قلبي

ثم تغسل جسدها الجميل ويضجعان معا"[2].

([1]) الشواف: **ديوان الأساطير**، ج4، ص99-100

([2]) السابق، ج1، ص123-124

وإن كانت نجحت مع دموزي فسقط، لكن هذا العرض فشل مع جلجامش، كما مرّ سابقا:

"تعال يا جلجامش وكن حبيبي الذي اخترت

امنحني ثمرتك اتمتع بها، كن زوجي وأكون زوجك..."[1].

لكنه عرف إهانتها لعشاقها، ومصيرهم المأساوي، فحَذِر منها، واحترس من إغواء النساء، فسَلِم، خلافا لما حدث مع الملكين، وهو في هذا يتشابه مع النبي يوسف ومحاولة إغراء امرأة عزيز مصر الجميلة له، فقد بدا للنساء كالملك، قال تعالى حكاية عنهنّ: "ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم"[2]، "لأنهن لم يرين في البشر شبيهه، ولا قريبا منه، فإنه عليه السلام كان قد أعطي شطر الحسن"[3]، وكانت امرأة العزيز، "في غاية الجمال"[4]، ولكنْ "عصمه الله عصمة عظيمة، وحماه، فامتنع منها أشد الامتناع، واختار السجن على ذلك"[5]، وكما كانت عشتار سيدة السماء، وفي غاية الحسن، كانت امرأة عزيز مصر، سيدة الأرض، وفي غاية الجمال، وكما قالت لجلجامش: هيت لك، كذلك فعلت امرأة العزيز مع يوسف، ولكنهما امتنعا، وانتصرا بعدما تعرضا لسخط السيدتين، وكما جلبت سيدة الأرض على يوسف غضب مليكها، زاعمة إهانة شرفها، فسجنه وعذبه، كذلك ذهبت عشتار لأبيها في السماء، وحرضته على جلجامش بدعوى الإهانة لها:

"ففتحت عشتار فمها وقالت

مُحدّثة آنو أباها

أبتاه، اجعل لي ثور السماء أهلك به جلجامش"[6].

وكان من قبل، قال لها:

---

(1) الماجدي، خزعل: **إنجيل بابل**، ص218

(2) سورة يوسف، الآية: 31

(3) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج2، ص702

(4) السابق، ص703

(5) السابق، ص703

(6) السواح: **جلجامش**، ص168

"فتح آنو فمه وقال:

لقد دعوتِ بنفسك جلجامش لتحصلي على ثمره

فقام جلجامش بتعداد قبيح فعالك

قبيح فعالك ولعناتك"[1].

وهكذا هي "ربة الحب والجمال، التي تخادع الجميع، آلهة وبشرا على السواء، ربة الحب الضاحكة، التي تضحك بعذوبة، أو تسخر من كل من توقعه بأحابيلها، الربة التي تسرق حتى ذكاء الحكيم وفطنته"[2]، التي لها سلطان على كل حي يتكاثر، وكل شيء يتزاوج، هو محتاج لها، وشبكتها تظلله، وسطوتها تمتد إليه لا مناص، إنها تسكن السماء، ولكن تضع فعلها على الأرض:

"أيتها الملكة عشتار، بما أنك مُنحت السموات

فلتكن لك أيضا الأرض

أيتها السيدة فلتكن لك الأرض الفسيحة

التي تخلق كل الأشياء

أي عشتار، الأرض الفسيحة المسكونة، مثل ما تقتربين

من أفعى اقتربي منها وضعي فوقها رجلك

انشري شبكتك"[3].

ومن بعد عهد الأساطير السومرية التي أظهرت إنانا/عشتار، كربة للعشق والحب والجمال، ولكنها تغدر بعشاقها، فتعاقبهم، وتظهر وجه الحرب والخصام، أخذ هذا الوجه المظلم بالتضخم، حتى وازى الوجه المزهر:

([1]) السواح: **جلجامش**، ص168

([2]) هاملتون، أديث: **الميثولوجيا**، ط1، ترجمة: حنا عبود، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1990م، ص42

([3]) الشواف: **ديوان الأساطير**، ج3، ص289

"عندما وسط المعارك، ترفعين رأسك بكل كبرياء

كسلاح كاسح...

ملكة المعارك بنت سين العظيمة(وسين أي القمر، وابنة سين أي الزهرة)

المرأة الفتية إنانا"[1].

"سوف أحمل إليه الحرب، وأثير المعارك

سوف أطلق السهام من جعبتي

وسأجعل رشاشات متواصلة من الحجارة

تتعاقب من مقلاعي

وأدفع بسيفي ضده"[2].

وفي العصور التالية للسومريين، ظهر تركيز أكبر على هذا الجانب من القوة والخصام والحرب؛ بحيث أصبحت صفة مقابلة لصفة العشق والحب والجمال، تمــثّــله عشــتار أيضــا، وكوكب الزهرة، هذا "التطور المهم الذي طرأ على عشتار منذ الأكديين هــو صــعود صــفتها المحاربة القاسية"[3]، و"كانت تصور أحيانا في صورة إلهة ملتحية، تجمع بين صفات الــذكران والإناث، وأحيانا في صورة امرأة عارية، تقدم ثــدييها للرضــاعة"[4]؛ وبــذلك غــدا لعشــتار ظهوران؛ ظهور الصباح، وظهور المساء، يجسده كوكب الزهرة، في تبدّيــه مــرتين، فأمــا الظهور الصباحي، فهو ظهور ذكريّ يتجلى في الحرب، والنزعة القتالية المدمرة، والمــذابح[5]، وإن كان هذا التجلي ينخرق أحيانا، ليأتي في موسم الخريف، مُعبِّــرا عنــه بنجمــة الراعــي، ومرتبطا بالشهوة التي تكون في هياج القطعان وتسافدها[6]، بعيدا عن صدى الحرب والقتــال،

([1]) الشواف: **ديوان الأساطير**، ج3، ص246

([2]) السابق، ص247

([3]) الماجدي: **المعتقدات الأمورية**، ص72

([4]) ديورانت: **قصة الحضارة**، ج2، ص215

([5]) ينظر: كامل: **أشهر الأساطير في التاريخ**،ص70. و نعمة: **ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة**، ص155

([6]) ينظر: نعمة، حسن:**ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة**، ص156

وأما الظهور المسائي، فهو ظهور أنثوي، يتجلى في الحب والشهوة، والحياة الجنسية، واللـذة، والخصب[1]، "وحين توصف إلهة الحب والعلاقات الجنسية، فلأن الحب، هو الرمز الأسمى لكل الوظائف، التي لها علاقة بالحمل والإنجاب والتكاثر، إلا أن ما يحتاج إليه الإنسان والحيـوان، أكثر من كل شيء آخر، ضمانا لتناسلهما وانتشارهما وتكاثرهما، هو الحب الحقيقي، والشـهوة التي تؤول إلى الاتحاد الجنسي، وتولد الخصوبة، وقد وضعت هذه العواطف الرقيقة واللذيذة، في عهدة إلهة الحب، ذات الجاذبية والإغواء، والنزعة الشهوانية، هي الإلهة إنانا/عشتار"[2]؛ ولذلك "قدس الإنسان الدافع الجنسي، واعتبره قبسا إلهيا، يربطه بالمستوى النوراني الأسمى، ففي الفعل الجنسي يتجاوز الإنسان شرطه الزماني والمكاني، ليدخل في حال، هو أقرب ما يكون إلى الآن الأبدي، فينطلق من ذاته المعزولة، ليتحد بقوة كونية تسري في الوجـود الحـي"[3]، وتسـتمد صمديتها وديمومتها، من نفخة الله الحي الأبدي.

وفي الأساطير المصرية القديمة تبرز الإلهة إيزيس، "شبيهة بدور إنانا فـي أسـطورة تموز"[4]، وتمثل العناية بالزواج، وملكة السماء، ونجم البحر، وملكة الحـب[5]، وتجسـد "أرض النيل الخصبة، المحتفية بالبذور، وغدت بفضل إخصابها السنوي بلقاح أوزيريس، موزعة للغلال والمحاصيل، وكانت تعلم النساء الأعمال المنزلية، وفن المداعبات الغراميـة، وتبـارك الحبـل والحمل"[6]، حتى بات الاهتمام بالعلاقة الجنسية لدى المصريين شأنا بارزا، يعبرون عنـه مـن خلال أسطورة القضيب الاصطناعي، المتجلي في المسلات[7]، وقد جاء في أحد النصوص التي عثر عليها في جرن القضيب: "فهل لي أيها الغالي، أن أقوم معك بعمل الحب في العالم الآخـر

---

(1) ينظر: كامل: **أشهر الأساطير في التاريخ**،ص70. و نعمة: **ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة**، ص155

(2) الجوراني، وداد جاسم: **الرحلة إلى الفردوس والجحيم في أساطير العراق القديم**،ص109

(3) السواح: **لغز عشتار**، ص177

(4) نعمة، حسن: **ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة**، ص169

(5) ينظر السابق، ص168

(6) فريشاور، بول: **الجنس في العالم القديم**، ص132

(7) السابق، ص132

مرة أخرى"[1]، وكما كانت عشتار في شدة مفاتنها تفتك بعشاقها، كذلك نجد نصا مصريا قديما، يصف روح الجنس الإيزيسية المتجلية في المرأة، بعيدا عن العلاقة الشرعية:

"احذرْ المرأة التي تأتيك من الخارج، المجهولة من أهل مدينتها، فــإن أتــت، لا ترفــع بصرك إليها، وتصرف كأنك لا تعرفها، إنها كالدردور في المياه العميقة، لا يسبر لها غور، ولا يعرف لها قرار، وإن امرأة غاب عنها زوجها، وسألتك: ألستُ جميلة؟ فإن غاب الرقيب نشرت حولها شباكها، وما أشنعها من جريمة، عقابها الموت إذا أصغى إليها الإنسان"[2]، وكما صعدت الزهرة إلى السماء، بعدما تعلمت كلمات المعراج من الملكين، كذلك إيــزيس "اكتشــفت الاســم الرمزي السري، والسحري لرع إله الشمس... إذ كان كل من يتلفظ بهذا الاسم يصبح إلهــا"[3]، وهكذا تألهت إيزيس، وصارت معبودة، كما تلتقي أسطورة إيزيس مع أسطورة الزهرة والملكين، في السحر، مع بعض المفارقات، فان كان السحر من عمل الملكين، الذي انتفعت بــه الزهــرة، فهو هنا من اختصاص إيزيس، حيث إنها أعادت زوجها أوزريس إلى الحياة، عندما جمعت قطع جسده، "ولصقتها، ثم أعادت بسحرها الروح إليه، لفترة قصيرة من الزمن، ثم حطت عليه كمــا يحط الطائر، وحملت منه حملا ربانيا، فتكوّن منه طفلها، حور"[4]، "لقــد اعتقــد المصــريون القدماء، أن القوة التي يمتلكها الكاهن المتمرس بفنون السحر، هي قوة غير محدودة، فعن طريق التفوه بأسماء القوة، وبتعاويذ سحرية معينة، يستطيع شفاء الأمراض، وطرد الأرواح الشــريرة، وتحويل الكائنات الحية، من شكل إلى آخر، وحتى على إعادة الحياة إلــى المــوتى، والــتحكم بالرياح والأعاصير"[5]، وهو ما فعلته إيزيس من قبلُ، مع الإله رع، حيث استخدمت ســحرها، حتى تنال منه سر اسمه الإلهي، وبذلك جعلها كبيرة الآلهة[6]، وهذا يتفق مع الذي مارسته المرأة المرأة الممتلئة أنوثة وجمالا، المعروفة بالزهرة، مع الملكين المقدســين، فســحرتهما بأنوثتهــا

([1]) فريشاور، بول: **الجنس في العالم القديم**، ص133

([2]) السابق، ص140

([3]) كورتل، آرثر: **قاموس أساطير العالم**، ص29

([4]) الماجدي: **الدين المصري**،ص127

([5]) السواح: **الأسطورة والمعنى**، ص131

([6]) ينظر:كامل: **أشهر الأساطير في التاريخ**، ص21-22

وجمالها، وحصلت منهما على بغيتها، فانقلبا من العلوّ إلى السفل، و مسخت هي إلى كوكب الزهرة، المعبود في العالم القديم، ونالت بذلك مرتبة الألوهية.

إن "فكرة المسخ كانت منتشرة في شبه الجزيرة قبل الإسلام... وكثرت رواية القصص التي تتعلق بمسخ الإنسان حيوانا وأحجارا... حتى جُعل الضب والأرنب والكلاب، من أولاد تلك الأمم"[1]، وكما قالوا في الزهرة: إنها امرأة غاوية، مسخت نجما، "جعلوا سهيلا عشارا، مسخ نجما"[2]، وقالوا في تشخيص النجوم: "إن سُهيلا والشعرى، كانا زوجين، فانحدر سهيل، فصار يمانيا، فاتبعته الشعرى العبور، فعبرت المجرة فسمّيت العَبُور، وأقامت الغُميْصاء، فبكت لفقد سهيل، حتى غمصت عيناه، فسميت غميصاء؛ لأنها أخفى من الأخرى"[3]، وفي الحقيقة، ليست فكرة المسخ خاصة بالعرب فقط، بل هي فكرة حاضرة في العالم القديم برمته، يظهر ذلك من خلال ميثولوجيا شعوب ذلك العالم طرّا، وسأنقل بعضا من المعتقدات الأسطورية، لعدد من حالات المسخ، للبرهنة على ذلك، فعندما اقتحم الصياد اكتيون "على أرتميس، وهي تستحم عارية، في مياه البحيرة العالية، عند منبع النهر، فمسخته الإلهة أيّلا، طاردته كلابه فمزقته إربا إربا"[4]، وهذا جلجامش يقول لعشتار:

"أحببت راع القطيع...

ولكنك ضربته فمسخته ذئبا

يلاحقه أبناء جلدته

وتعض كلابه ساقيه

أحببت إيشولاتو بستانيّ نخل أبيك...

([1]) خان، محمد: **الأساطير العربية قبل الإسلام**، 62

([2]) الجاحظ: **كتاب الحيوان**، ج6، ص198

([3]) القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد: **الجامع لأحكام القرآن**، مطبعة دار الكتب، القاهرة، 1965م، ج17، ص119-120

([4]) السواح: **لغز عشتار**، ص29

فضربته فمسخته خلدا"[1].

وفي الأساطير الأوغاريتية، "يحمل زوجُ المرأتين، خبر مولد الصبيين، إلى إيل، ويقول: إنهما رضعا من حليب الإلهة، فيأمر إيل أن يمسخا نجمين، ويُرفع بهما إلى السماء"[2].

وفي الأساطير الإغريقية الرومانية، نجد أسطورة أركاس، ابن الخامسة عشرة من عمره، الذي لا يعرف بمسخ أمه دبّة، فعندما يقف "أمام هذه الدبة التي توقفت محدقة فيه، مطيلة النظر إليه، دون أن تحول عينيها عنه، وحين دفعها تشوقها الشديد إليه، إلى محاولة الاقتراب منه، أسرع برفع يده برمحه المميت؛ ليمزق أحشاءها به، فإذا جوبيتر الجبار، يمسك بيده، ليحول بينه وبين ارتكاب جريمة، مبعدا الابن عن الأم، وما لبثت أن حملتهما معا ريح خلال الفضاء، ليجعل منهما كوكبتين متجاورتين"[3]، عرفتا بالدب الأكبر والدب الأصغر، وهبطت عنهما جونو، وصارا لتوّهما كوكبين "في السماء محاطتين بإجلال... إذ تتألقان في أعلى مكان بالسماء"[4]، ثم تصبح الكوكب الأم التي كانت امرأة، رمزا للجمال والحب، يغري جوبيتر للزواج منها، وجعل ابنها صهرا له، علما أن المرأة هذه، مسخت في أول أمرها، "تكفيرا عن سلوك فاضح"[5]، إذ كانت زانية، وربما صعدت إلى السماء لتمارس مهامها، على جميع الكائنات، ولسان حالها، يصدح مغالبا كل معاند:

"أجعلُ الرجل يتوجه نحو المرأة

ونحو الرجل أوجه المرأة

أجعل الرجل يتزين من أجل المرأة

والمرأة من أجل الرجل أجعلها تتزين"[6].

([1]) السواح: **جلجامش**، ص166-167

([2]) فريحة، أنيس: **ملاحم وأساطير من أوغاريت**، ص89

([3]) أوفيد: **مسخ الكائنات**، ص62

([4]) السابق، ص62

([5]) السابق، ص62

([6]) الشواف: **ديوان الأساطير**، ج3، ص280

إن الاتصال بالمرأة على غير نظام رباني، خطيئة، تستحق اللعن، لأنها فعل الشـيطان، وتجعل فاعلها هدفا للسخط الرباني، قد يصل إلى المسخ، ليكون عقابا وتكفيـرا عـن الـذنب، ويتعلق هذا الاندفاع الجنسي المشروع/الرباني، وغير المشروع/الشيطاني، بروحانيـة كوكـب الزهرة، لدرجة أنهم يسمون الأمراض التي تصيب الجهاز التناسـلي، والمتعلقـة بالاتصـالات الجنسية، بالأمراض الزهرية، نسبة لكوكب الزهرة، وما زال الناس في عصـرنا يعتقـدون "أن الولد من نسل الشيطان، إذا ولد من غير زواج مشروع، وقد صدرت المنشورات مـن رجـال الدولة، ورجال الدين، بعد كشف أمريكا الجنوبية، وشيوع الأمراض الزهرية في العائدين منها، فكان فحواها جميعا أنها عقوبة على خطايا الشيطان"[1].

مسخ اليهود قردة وخنازير

تكاد هذه القصة تحظى بقبول جمهور علماء المسلمين قاطبة، كما سيتبين من قول ابـن كثير، بعدما يسوق تصورات العلماء في مسخ اليهود إلى قردة وخنازير، مسخا حقيقيا، يتحـول فيه الآدمي إلى ذلك الحيوان أو ذاك، أمّا كيف جوّزت عقولهم ذلك، وصح لهم اعتقـاده؟ فـأمر ليس بغريب عن عُرْف ثقافة تلك العصور المترعة حتى التخمة بالمعارف الأسطورية، والخيال الخرافي، والوهم العجائبي، حتى لنجد أنماط التفكير لديهم مشبعة بمنطـق اللامنطـق، ونجـد اللامعقول محشوا في أبنية المعقول، وكيف يكون عصيّا في تلك الأزمان الغابرة، وهي تسحّ في دياجير ظلام الجهل، مع شح المعرفة العلمية حينذاك، بل وتجول، وتصول في الظلمة اللـيلاء، متبجحة بامتلاكها الحقيقة المطلقة والمقدسة، كيف لا يصحّ عندهم المسخ والتحويل؟ ونحن نعيش في زمن الانفجار المعرفي، القائم في مناحٍ كثيرة منه على التحقيـق والتجريـب، والتمحـيص والتفحيص، وفينا من فينا ممن يدين لله رب العالمين، بالخرافات والأساطير، ولا يثنيـه عنهـا علوم العصر، ولا مختبراته، ولا ما تم انجازه من تقدم وتطور قـائم علـى المنطـق والعقـل والقوانين الطبيعية، التي هي فعل الله في الوجود، وهي أوكد من كل فهم لكلامه سبحانه، التي لا تتغيّر، ولا تتبدل، وتلك سنة الله في القديم والحديث، ولن تجد لسنة الله تبديلا، وليس ثمة تناقض بين كلام الله وفعله، إذ لا يأته التناقض وكلٌ من عند الله تعالى، بل إنـي واجـد ممـن يحمـل

---

(1) العقاد: **إبليس**، ص31

الشهادات الأكاديمية العليا، ينبري بكل عزم، مكافحا العقل والعلم في مثل هذه المسائل، ومنطقه "عنزة ولو طارت"، وما زال علماء المسلمين يقتفون آثار السابقين، في تكريس ما يسمّونه عقيدة بصفة القداسة، يحرم المساس بشيء منها أو الخوض فيه كالتابو، لا ببحث ولا شك، ولا تأويل، وإنما هي عقيدة تمخضت بفهم الأولين، أو نجمت في بعضها عن زبالة أفكار خرافية، أو اقتباسات من أساطير السابقين، يُناضلون لأجلها، ضد كل عقل، ويُسممون كل فكر، ويُجهِّلون كل نشء، ويُشوهون كل علم لا يتفق وخزعبلاتهم، ويُكسرون كل قلم يشطب ترّهاتهم، أو ينكر عليهم شطحاتهم، وهم في غيهم يعمهون، ثم يحسبون أنهم على الحق المبين، بل من شدة ما تعانيه عقولهم من جمود وتخلف، وتقديس للماضوية، لا يستطيعون أن يفصلوا بين التراث والنصوص المقدسة، فما حول النص المقدس كالنص نفسه تماما، وفهم العلماء السالفين له، فتح رباني معصوم، غير قابل للشك أو النقد أو الطعن، والخروج عنه خروج من الملة، ومن السهولة بمكان، لمح الخلط الشديد بين الفهم الديني وبين الدين نفسه، لدرجة تشعرك بالاتحاد والاشتراك، وتكشف عن عمق الحوَل الفكري، وعمى الألوان الذي أصابهم، فهم يتخذون ودا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا، ولكن بأسماء أخرى، وباسم الله والدين، وويل ثم ويل لمن تنكب جنونهم، أو تحوّل عن ظلامهم، فإنهم لا يرتوون من دمه، ولا يشبعون من لطمه، ومن شدة ماضويتهم، قد يصير عندهم الهلال مقدسا، وقبة المسجد دينا، والمئذنة آية من آيات الله، فمن يجرؤ أن يقول: هذا فن معماري قابل للتغيير والتطوير، أو من يجرؤ أن يقول: إن التاريخ الإسلامي، ليس الإسلام نفسه، أو إن علماء المسلمين غير الإسلام ذاته؟ خاصة، إذا أقدم على النقد والردّ، والتحليل والتفنيد، أو خرج بفهم جديد، أو أبرز مدخولات الثقافات القديمة في عقيدتهم، وهم في عصرنا لانحطاطه، أشد ماضويّة وتقديسا للتراث، وأشد احتذاء بجهد السالفين، حتى يمنطقوا النكسة المعاصرة لهم، مع وهْم الحضارة العظيمة في السابقين، وبذلك تترتب المقادير، فنكبتنا في تضييعنا لما كان عليه أوائلنا، وإنما عزّنا في أخذ علومهم الرافعة، ومجدنا في حيننا لوصالهم الدائمة، وكرامتنا في عبقنا من رياحينهم المقبورة، وهُدانا في متحنا من هَدْي عقولهم النابغة، ونهضتنا في مذاهبهم التاريخية الرائعة، فهم الخلاص وهم المنقذون، فمن تركهم ترك الدين، يستوي عندهم في ذلك من ترك الجزء والكل، ومَن جلّهم وقدّرهم، لكنه أخذ وردّ من

أقوالهم، فعندهم سيّان، فلا يؤخذ دينهم عضين، ولا يؤمن ببعض اجتهاداتهم ويكفر بأخرى، وهذا في نظرهم شأن المارقين، فيا ليتهم وقفوا كوقفة السلف الصالح، وتأسوا بمنهج الغابرين، في تعدد الفهم والمذاهب، واستمرار الاجتهاد والرأي، و أخذهم وردهم، وتدبرّهم وتنوع استنباطاتهم، وتعدد مذاهبهم وتصوراتهم، وبراءتهم من العصمة والتقديس، واعتقادهم بأن رأيهم يحتمل الصواب والخطأ، واجتهادهم جهد المقلّ، لا خاتمة الاجتهادات، وهم بذلك لا جرم من المشكورين، لقد باتت المطالبة بتحرير النص المقدس من قيد الأفهام التي تغيّبه جريمة، واعادة النظر في التراث الفكري بدعة، واسقاط العصمة عن علماء الدين الأجلاء كفرا، والتحرر عن سلطة المشايخ إلحادا، والانعتاق من سطوة الماضي خيانة، وكأن الإسلام بدأ من هنا، لا من التنزيل، وكأن اللاحقين هم الأولون السابقون، ولهم في نصرة شهوتهم سلاح الرواية والتقليد، وما الرواية إلا صناعة لتنحية الشك عن أقوال ارتؤوها، وما هي في بعضها إلا إبطال التفكير، وتحجير التدبير، وما التقليد إلا حرص الذي ضعف علمه، وخبا إيمانه، وطمس نوره، وإلا فالله كفيل بالحق، وحارس له، وأما الباطل فيذوي ويهوي ويتلاشى بأمر الله، وما ينفع الناس يمكث في الأرض، بسنة الله وتدبيره، لا بتدبير عالم، ولا بحرص حزب، ولا بإرهاب جماعة، ولا بفقه مُفتٍ، ولا بحكم قاض، حتى آض زماننا إلى زمن العصور الوسطى، وتشابهت العقول والقلوب والسلوك، وكأن الضحية غاليلو أمام البابا يقول: من قال إن الأرض تدور فقد كفر، وبذلك نجا من الميتة الشنيعة، المكتوبة على أمثاله، في حكم الكهنة باسم الدين للمهرطقين، وكونه تاب وارعوى عن هرطقته، حظي بحكم مخفف، ونال الحجر والإقامة الجبرية حتى الموت، رحمة بالتائبين، ومع اقراره بما ينكره علمه وعقله، من أجل النجاة من حرّاس الدين، ظلت الأرض تدور، وما كانت السماء قبة تنتصب فوق الأرض المنبسطة، ولا كانت الأرض مركز الكون، فالحق أحق أن يتبع، ولكل مجتهد نصيب، هذا الاجتهاد الذي يأتي من التدبّر المأمور به في التنزيل العزيز، وإعمال العقل المحثوث عليه في القرآن العظيم، وتدقيق الفكر المنصوص عليه في آيات الذكر الحكيم، وامعان النظر المبثوث في الكتاب الكريم، وأده الوائدون، كما وأدوا النص بركام التراث، وسيف الإرهاب، وتكميم الأفواه، وتسميم العقول، والله المستعان على ما يصفون.

قال تعالى: "وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت"[1]، وقال سبحانه: "ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين"[2]، يقول ابن كثير في أهل القرية التي عصت أمر الله من اليهود، "وخالفوا عهده، وميثاقه، فيما أخذه عليهم من تعظيم السبت، والقيام بأمره، إذ كان مشروعا لهم، فتحيلوا على اصطياد الحيتان، في يوم السبت"[3]، و"كانت تأتيهم يوم سبتهم شرعا، بيضاء سمانا، كأنها الماخض، تنتطح ظهورها لبطونها بأفنيتهم"[4]، و"لم يبق في البحر حوت إلا خرج، حتى يخرجن خراطيمهن من الماء، فإذا كان يوم الأحد لزمن سفل البحر، فلم ير منهن شيء، حتى يكون السبت "[5]، "فلما جاء يوم السبت على عادتها في الكثرة، نشبت بتلك الحبائل والحيل، فلم تخلص منها يومها ذلك، فلما كان الليل أخذوها بعد انقضاء السبت، فلما فعلوا ذلك، مسخهم الله إلى صورة القردة، وهي أشبه شيء بالأناسي في الشكل الظاهر، وليست بإنسان حقيقة، فكذلك أعمال هؤلاء وحيلتهم، لما كانت مشابهة للحق في الظاهر، ومخالفة له في الباطن، كان جزاؤهم من جنس عملهم"[6]، وأما أهل القرية، فهم "أهل أيلة"[7]، تقع "على شاطئ البحر بين مصر والمدينة"[8]، وقيل: "بين أيلة والطور، يقال لها: مدين"[9].

وزيادة في تعيين من أصابهم المسخ، فإن "شباب القوم صاروا قردة، وإن الشيخة صاروا خنازير"[10].

وأما الطائفة التي أنكرت عليهم فعلهم، ونجت من اللعنة، كانوا قد قالوا لهم: "يا أعداء الله، لا نبايتكم الليلة في مدينتكم، والله ما نراكم تصبحون حتى يصبحكم الله بخسف، أو قذف أو

---

(1) سورة المائدة، الآية: 60
(2) سورة البقرة، الآية: 65
(3) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج1، ص162
(4) السابق، ج2، ص383
(5) السابق، ج1، ص164
(6) السابق، ج1، ص163
(7) السابق، ج1، ص163
(8) السابق، ج2، ص383
(9) السابق، ج1، ص163
(10) السابق، ج1، ص163

بعض ما عنده من العذاب، فلما أصبحوا ضربوا عليهم الباب، ونادوا، فلم يجـابوا، فوضـعوا سلما، وأعلوا سور المدينة رجلا، فالتفت إليهم، فقال: أي عباد الله، قردة–والله– تعادَى تعـاوي، لها أذناب"[1]، "يثب بعضهم على بعض"[2]، "قال: ففتحوا، فدخلوا عليهم، فعرفت القرود أنسـابها من الإنس، ولا تعرف الإنس أنسابها من القردة، فجعلت القرود يأتيها نسيبها من الإنس، فتشـم ثيابه وتبكي، فيقول: ألم ننهكم عن كذا، فتقول برأسها: أي نعم"[3]، وبعضها "يدنو، يتمسح بمـن كان يعرف قبل ذلك"[4]، و"إنهم ليعرفون الرجل بعينه وإنه لقرد، والمرأة بعينها وإنها لقـردة، والصبي بعينه وإنه لقرد"[5].

أما عن هذه الحيلة التي اصطادوا بها الحيتان، فقد "جعل الرجل يحفر الحفرة، ويجعـل لها نهرا إلى البحر، فإذا كان السبت فتح النهر، فأقبل الموج بالحيتان يضربها، حتى يلقيها فـي الحفرة، فيريد الحوت أن يخرج، فلا يطيق من أجل قلة ماء النهر، فيمكث فيها، فإذا كـان يـوم الأحد جاء فأخذه"[6]، وفي حيلة أخرى، حيث "عمد رجل منهم، فأخذ حوتا سرا يـوم السـبت، فحزمه بخيط، ثم أرسله في الماء، وأوتد له وتدا في الساحل، فأوثقه ثم تركه، حتى إذا كان الغد جاء فأخذه"[7].

ويبدو أن هذا المسخ ليس حالة فريدة، لم تتكرر، بل ثمة حالات أخرى؛ حيث أصـاب المكذبين بمائدة عيسى عليه السلام السماوية، "فلما أمسى المرتابون بها وأخذوا مضاجعهم، فـي أحسن صورة مع نسائهم آمنين، فلما كان في آخر الليل، مسخهم الله خنازير، فأصبحوا يتبعـون الأقذار في الكناسات"[8].

([1]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج2، ص383
([2]) السابق، ج1، ص164
([3]) السابق، ج2، ص383
([4]) السابق، ص384
([5]) السابق، ج1، ص164
([6]) السابق، ج1، ص164
([7]) السابق، ص164
([8]) السابق، ج2، ص178

كذلك هناك حالة أخرى تظهر في بني إسرائيل، لكن في مسخ إلى كلبـــة، لا قـــرد ولا خنزير، قال ابن عباس في قوله تعالى: "واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها"[1]، "هـــو رجل أعطي ثلاث دعوات، يستجاب له فيهن، وكانت له امرأة، له منها ولد، فقالت: اجعل لـــي منها واحدة، قال: فلك واحدة، فما الذي تريدين؟ قالت: ادع الله أن يجعلني أجمل امرأة في بنـــي إسرائيل، فدعا الله فجعلها أجمل امرأة في بني إسرائيل، فلما علمت أن ليس فيهم مثلها، رغبـــت عنه، وأرادت شيئا آخر، فدعا الله أن يجعلها كلبة، فصارت كلبة، فذهبت دعوتان، فجاء بنوها، فقالوا: ليس بنا على هذا قرار، قد صارت أمنا كلبة، يعيرنا الناس بها، فادع الله أن يردها إلـــى الحال التي كانت عليه، فدع الله فعادت كما كانت، وذهبت الدعوات الثلاث"[2].

كما نجد رواية في البخاري وغيره[3]، مسخ اليهود إلى فئران، فعن أبي هريـــرة عـــن النبي عليه الصلاة والسلام، قال: "فقدت أمة من بني إسرائيل، لا يرى ما فعلت، وإني لا أراهـــا إلا الفأر، إذا وضع لها ألبان الإبل لم تشرب، وإذا وضع لها ألبان الشاء شربت"[4].

ومن المسخ ما يبتعد عن اليهود ليطال الجن، من ذلك ما جاء في تفسير ابن كثير، "عن ابن عباس، قال: قال رسول الله: الحيات مسخ الجن، كما مسخت القردة والخنازير"[5]،و "عـــن كردم ابن أبي السائب الأنصاري، قال: خرجت مع أبي من المدينة في حاجة، وذلك أول ما ذكر رسول الله بمكة، فآوانا المبيت إلى راعي عنم، فلما انتصف الليل جاء ذئب فأخذ حملا من الغنم، فوثب الراعي، فقال: يا عامر الوادي جارك، فنادى مناد لا نراه، يقول: يا سرحان، أرسله، فأتى الحمل يشتد حتى دخل في الغنم، لم تصبه كدمة... وروي عن عبيد بن عمير ومجاهـــد وأبـــي العالية والحسن وسعيد بن جبير والنخعي، نحوه، وقد يكون هذا الذئب الذي أخذ الحمل، وهو ولد الشاة، كان جنيا حتى يرهب الإنسي، ويخاف منه، ثم رده عليه لما استجار به، ليضله ويهينـــه

---

(1) سورة الأعراف، الآية:175

(2) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج2، ص393

(3) ينظر: ابن حجر العسقلاني: **فتح الباري**، ج6، ص435

(4) السابق، ج6، ص431-432، رقم الحديث: 3305

(5) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج2، ص111

ويخرجه عن دينه"[1]، وفي الرواية يظهر الذئب جنيا متحولا أكثر منه مسخا، كما هو الحال في الحيات، وابن كثير يرى الحمل نفسه، جنيا متحولا إلى ذئب.

وهناك مسخ من نوع آخر، لكن لم يُحدد أصله، ألا وهو الضب، حيث لم تطب نفس النبي الكريم بأكله معللا ذلك، بقوله: "أتخوف أن يكون مسخا"[2]، ولكن في كتاب علل الشرائع، حدد الصدوق أصله، وأنه من بني إسرائيل، ورأيت من الفائدة في هذا الصدد أن أورد الروايات؛ لأنها تكشف عن طبيعة التفكير لدى العقول في تلك الأزمنة حتى من آل البيت عليهم السلام، خاصة أنها تتحدث عن المسوخ بطريقة جامعة حصرية ومعللة، حيث قال محمد بن الحسن بن علان: "سألت أبا الحسن عليه السلام عن المسوخ، فقال: اثني عشر صنفا، ولها علل، (وفي روايات أخرى، ثلاثة عشر)، فأما الفيل، فإنه مسخ؛ لأنه كان ملكا زناء لوطيا، ومسخ الدب؛ لأنه كان رجلا ديوثا، ومسخت الأرنب؛ لأنها كانت امرأة تخون زوجها، ولا تغتسل من حيض، ولا جنابة، ومسخ الوطواط؛ لأنه كان يسرق تمور الناس، ومسخ سهيل؛ لأنه كان عشارا باليمن، ومسخت الزهرة؛ لأنها كانت امرأة فتن بها هاروت وماروت، وأما القردة والخنازير، فإنهم قوم من بني إسرائيل، اعتدوا في السبت، وأما الجري والضب، ففرقة من بني إسرائيل؛ حيث نزلت المائدة على عيسى، لم يؤمنوا به، فتاهوا، فوقعت فرقة في البحر، وفرقة في البر، وأما العقرب، فإنه كان رجلا نماما، وأما الزنبور، فكان لحاما يسرق في الميزان"[3]، وفي رواية أخرى، مرة يجعل الضب أعرابيا بدويا، يسرق الحاج بمحجنه[4]، ومرة لا يرعّ(أي يسكن) عن قتل من مرّ به من الناس[5]، كما ويضيف صنوفا أخرى للمسوخ، في روايات متعددة، وهم: العنكبوت، والدعموص، والفأر، والبعوض، والقملة، والوزغ، والعنقاء، والقنفد، مع اختلافات طفيفة في العلل بين رواية وأخرى، فأما "العنكبوت، فكانت امرأة سحرت زوجها، وأما الدعموص، فكان

([1]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج4، ص625-626

([2]) السابق، ج2، ص357

([3]) الصدوق، محمد بن علي: **علل الشرائع**، ص475

([4]) السابق، ص475

([5]) السابق، ص476

رجلا نماما، يقطع بين الأحبة"[1]، وأما "الفأر، فكان سبطا من اليهود، غضب الله عليهم، فمسخهم فأرا، وإن البعوض، كان رجلا، يستهزئ بالأنبياء ويشتمهم، ويكلح في وجوههم، ويصفق بيديه، فمسخه الله تعالى بعوضا، وإن القملة هي من الجسد، وإن نبيا من أنبياء بني إسرائيل كان قائما يصلي، إذ أقبل إليه سفيه من سفهاء بني إسرائيل، فجعل يهزأ به، ويكلح في وجهه، فما برح من مكانه حتى مسخه الله سبحانه وتعالى قملة، وإن الوزغ كان سبطا من أسباط بني إسرائيل، يسبون أولاد الأنبياء، ويبغضونهم؛ فمسخهم الله أزاغا، وأما العنقاء، فمن غضب الله تعالى عليه؛ فمسخه، وجعله مثله"[2]، "وأما القنفد، فكان رجلا سيئ الخلق؛ فمسخه الله تعالى قنفدا"[3].

وفيما روي عن مسخ سابق لزمن داود عليه السلام، ما جاء من "أن رجلا كان يخدم موسى عليه السلام، فجعل يقول: حدثني موسى صفي الله، حدثني موسى نجي الله، حدثني موسى كليم الله، حتى أثرى وكثر ماله، ففقده موسى عليه السلام، فجعل يسأل عنه، ولا يحس له خبرا، حتى جاءه رجل ذات يوم، وفي يده خنزير، وفي عنقه حبل أسود، فقال له موسى عليه السلام: أتعرف فلانا؟ قال: نعم، قال: هو هذا الخنزير، فقال موسى: يا رب، أسألك أن ترده إلى حاله، حتى أسأله بم أصابه هذا؟ فأوحى الله عز وجل إليه: لو دعوتني بالذي دعاني به آدم فمن دونه ما أجبتك فيه، ولكن أخبرك لم صنعت هذا به؟ لأنه كان يطلب الدنيا بالدين"[4].

وإن كان فما أوردته من روايات في المسخ، قد حصل في الزمن السابق، فإن ثمة روايات في الصحيحين، تنبّئ بحلول المسخ لاحقا، مما يؤكد بقاء الباب مشرعا، والمسخ قائما، وحكمه على العصاة نافذا، فعن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أما يخشى أحدكم- أو لا يخشى أحدكم- إذا رفع رأسه قبل الإمام، أن يجعل الله رأسه رأس حمار، أو يجعل الله صورته صورة حمار"[5]، وفي رواية مسلم: "ما يأمن الذي يرفع رأسه في صلاته،

([1]) الصدوق، محمد بن علي: **علل الشرائع**، 475

([2]) السابق، ص476

([3]) السابق، ص476

([4]) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد: **إحياء علوم الدين**، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م،ج1، ص63

([5]) العسقلاني، ابن حجر: **فتح الباري**، ج2، ص232

قبل الإمام، أن يحول الله صورته في صورة حمار"[1]، ويقول ابن حجر في شأن هذا المســـخ، مرجحا حقيقته: "واختلف في معنى الوعيد المذكور، فقيل: يحتمل أن يرجع ذلك إلى أمر معنوي، فإن الحمار موصوف بالبلادة، فاستعير هذا المعنى للجاهل بما يجب عليه، من فرض الصـــلاة، ومتابعة الإمام، ويُرجح هذا المجاز أن التحويل لم يقع مع كثرة الفاعلين، ولكن ليس في الحديث ما يدل على أن ذلك يقع ولا بدّ، وإنما يدل على كون فاعله متعرضا لذلك... وقال ابن بزيـــزة: يحتمل أن يراد بالتحويل المسخ، أو تحويل الهيئة الحسية أو المعنوية، أو همـــا معـــا، وحملـــه آخرون على ظاهره، إذ لا مانع من جواز وقوع ذلك"[2].

وأما عن جواز وقوع المسخ في الأمة، فقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم: "ليكون في أمتي أقوام، يستحلون الحِرَ والحرير والخمر والمعازف، ولينزلن أقوام إلى جنب عَلَم، يروح عليهم بساحة لهم، يأتيهم-يعني الفقير- لحاجة، فيقولوا: ارجع إلينا غدا، فيُبيِّـــتهم الله، ويضـــع العلم، ويمسخُ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة"[3]، في تعليق ابن حجر على الحديث، بعـــد إيراد قول ابن العربي في المسخ أنه "يحتمل الحقيقة، كما وقع للأمم السالفة، ويحتمل أن يكـــون كناية عن تبدل أخلاقهم، قلت(أي ابن حجر):الأول أليق بالسياق"[4]، بمعنى أنه يرى المسخ مسخا حقيقيا على شاكلة ما حدث لليهود.

ومن المسخ الموعود، ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم، فيما يرويه الطبراني: "في آخر الزمان، تأتي المرأة حَجَلَـــتَها، فتجد زوجها وقد مسخ قردا؛ لأنه لم يؤمن بالقدر"[5].

إن المسخ الذي حصل لليهود؛ فصاروا قردة وخنازير، بسبب معصيتهم أمر الله، ونتيجة غضب الله عليهم، قد انقطع نسلهم، وهلكوا بعد المسخ، الذي دام عليهم ثلاثة أيام، وليس قـــردة

([1]) النووي: **صحيح مسلم بشرح النووي**، ج4، ص151

([2]) العسقلاني، ابن حجر: **فتح الباري**، ج3، ص233-234

([3]) السابق، ج10، ص63

([4]) السابق، ص63

([5]) الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد: **المعجم الأوسط**، دار الحرمين للطباعة والنشر والتوزيـــع، القـــاهرة، 1995م، ج7، ص158، رقم الحديث:7150

العالم وخنازيره اليوم منهم، "إنما كان الذين اعتدوا في السبت، فجُعلوا قردة فواقا، ثم هلكوا، ما كان للمسخ نسل"[1]، وقد "سُئل رسول الله عن القردة والخنازير: أهي مما مسخ الله؟ فقال: إن الله لم يهلك قوما، أو لم يمسخ قوما، فيجعل لهم نسلا، ولا عقبا، وإن القردة والخنازير، كانت قبل ذلك"[2]، وفي رواية أخرى: "أهي من نسل اليهود؟ فقال: لا، إن الله لم يلعن قوما قط، فيمسخهم، فكان لهم نسل، ولكن هذا خلق كان، فلما غضب الله على اليهود؛ فمسخهم، جعلهم مثلهم"[3].

وأما مدة بقاء المسخ الخاص باليهود، خلافا لما مرّ في حديث المعازف، وغيره، من مسخ واقع في الأمة يستمر إلى يوم القيامة، فإن مسخ اليهود استمر ثلاثة أيام فحسب، "إذ لا يحيون في الأرض إلا ثلاثة أيام... ولم يعش مسخ قط، فوق ثلاثة أيام، ولم يأكل، ولم يشرب، ولم ينسل"[4].

إن حدوث المسخ ليس حصرا على الحياة الدنيا، فقد ورد في الأثر أن أبا إبراهيم عليه السلام، مسخ ضبعا، قبل أن يلقى في جهنم، فعندما طلب إبراهيم عليه السلام من الله سبحانه، يوم القيامة، أن لا يحزنه في أبيه، وقد لقيه في عرصات ذلك اليوم، فقال تبارك وتعالى: "يا إبراهيم، إني حرمتها على الكافرين، فأخذ منه(أي أبوه)، قال: يا إبراهيم، أين أبوك؟ قال: أنت أخذته مني، قال: انظر أسفل منك، فنظر، فإذا ذيخ(أي الذكر من الضباع) يتمرغ في نتنه، فأخذ بقوائمه، فألقي في النار"[5].

وكما أشرت سابقا إلى رأي جمهور العلماء، في حدوث المسخ على الحقيقة، إلا إن منهم من خالف ذلك، كالإمام في التفسير، مجاهد رحمه الله، معتبرا "أن مسخهم إنما كان معنويا لا صوريا"[6]، وقال: "مسخت قلوبهم، ولم يمسخوا قردة، وإنما هو مثلٌ ضربه الله، كمثل الحمار

(1) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج1، ص163
(2) السابق، ج2، ص111
(3) السابق، ج2، ص111
(4) السابق، ج1، ص163
(5) السابق، ج3، ص550
(6) السابق، ج1، ص165

يحمل أسفارا"[1]، وهو ما قاله أيضا في مائدة السماء، قال: "هو مثل ضـــربه الله، ولـــم ينـــزل شيء"[2]، ولكن ابن كثير يردّ قوله، فيقول: "بل الصحيح، أنه معنوي صوري"[3].

هذا التصور في مسخ كائنات بشرية إلى حيوانية، بسبب فعلهم الذنب، وارتكابهم الشر، ومغاضبة الآلهة، له نظائر في الأساطير القديمة، وقد تختلف نوع الكائنات الممسوخة من قـــوم إلى آخر، بحسب رؤية تلك الأقوام للحيوانات المُتحوّل إليها، بين الإجلال والاحتقار.

ساءَلتُ نفسي، لماذا مُسخ اليهود إلى قردة وخنازير، وليس إلى شيء آخـــر؟ فـــدفعني تساؤلي للبحث عن منزلة القرد والخنزير، في البيئة العربية قديما، ومع بداية الإســـلام، فكيـــف يُنظر إليهما من منظور عربي، وكيف يُنظر إليهما لدى الأمم الأخرى؟

لقد خصّ الخنزير في الإسلام بمزيد التحذير، ونعوت القبح، وبالتأكيد لم يكن الإسلام في نظرته إلى الخنزير ناشزا عن عرب الجاهلية، دون النصارى منهم، إذ لم أعثر على اعتـــراض من العرب المشركين على موقف القرآن من الخنزير، مما يبعث بتوافق ضمني، لقد جعل القرآن الكريم لحم الخنزير محرما، ووصم الخنزير بالرجس، فقال عز وجـــل: "لحـــم خنزيـــر فإنـــه رجس"[4]، وسبب رجسيته كما يفسرها البيضاوي، أن "الخنزير أو لحمه، قـــذر لتعـــوده أكـــل النجاسة، أو خبيث مخبث"[5]، حيث إن من مأكله الجرذان والجيف [6]، "ويأكل الحيـــات أكـــلا ذريعا"[7]، ولم يكتفِ الإسلام بتحريم أكله، فعمد الى منع التعاطي به وبيعه، ففي "الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن الله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام"[8]، وفي

([1]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ص163

([2]) السابق، ج2، ص178

([3]) السابق، ج1، ص165

([4]) سورة الأنعام، الآية: 145

([5]) البيضاوي، أبو الخير عبد الله بن عمر: **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، دار إحياء التـــراث العربـــي، بيـــروت، ج2، ص187

([6]) ينظر: **أطلس الحيوانات**،ط1، ترجمة: فادية كنهوش، دار ربيع، سوريا، 2007م، ص92

([7]) الدميري: **حياة الحيوان الكبرى**، ج2، ص251

([8]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج2، ص11

وفي هذا الاقتران ينزل بالخنزير إلى مستوى الخمر مُذهِبة العقل، والميتة فاسدة اللحم، والأصنام حجارة التضليل، ليكتسب الخنزير بذلك صورة القبح والحرمة، وقد "أجمعت الأمة على أن الخنزير بجميع أجزائه محرم"[1]، حتى إنه إذا مرّ من بين يدي المصلي، قطع صلاته، كما جاء عن ابن عباس "قال: أحسبه عن رسول الله، قال: إذا صلى أحدكم إلى غير سُترة، فإنه يقطع صلاته؛ الحمار والخنزير واليهودي والمجوسي والمرأة"[2]، ولا شك في أن نظرة العربي والمسلم، خاصة الى هذه الأصناف، نظرة دونية، وإن كان في روايات أخرى، يخرج الخنزير وغيره، من هذا الحكم، وبصرف النظر عنها، لكن هنا، يحمل الخنزير الحكم السلبي برواية الثقات[3]، أي إنه مستساغ ذمه لدى من روى، ومن نقل... هذه النظرة السلبية للخنزير، جعلت من قتله مشروعا، "والجمهور على جواز قتله مطلقا"[4]، بل ستكون هذه أيضا مهمة موكلة بابن مريم، عند نزوله في الأمة، آخر الزمان، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تقوم الساعة حتى ينزل فيكم ابن مريم حكما مقسطا، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد"[5]، وفي هذا الحديث يظهر مدى مغالطة النصارى في استحلالهم لحم الخنزير، واستعظام ذلك، حتى إنه قرن بالصليب، لاعتقادهم موت عيسى عليه السلام صلبا، مما استدعى عودة ابن مريم؛ ليفند زعمهم، ويدحض افتراءهم عليه، في أمر استحلال الخنزير، وأمر صلبه فِداء لبني البشر.

لقد تعارف العرب على أن الخنزير "حيوان سمج، والعين تكرهه"[6]، فقالوا في المثل: "أقبح من خنزير"[7]، و"يوصف بالشبق"[8]، و "قبح المنظر، وسماجة التمثيل، وقبح الصوت،

([1]) الرازي: **التفسير الكبير ومفاتح الغيب**، ج3، ص23

([2]) السجستاني، أبو داود سليمان بن الأشعث الأزدي: **سنن أبي داود**، دار الرسالة العالمية، دمشق، 2009م ج2، ص33

([3]) ينظر: السابق، في الهامش

([4]) ابن حجر: **فتح الباري**، ج4، ص521

([5]) السابق، ج5، ص152، رقم الحديث:2476

([6]) القزويني: **عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات**، ص320

([7]) الميداني: **مجمع الأمثال**، ج2، ص153

([8]) الدميري: **حياة الحيوان الكبرى**، ج2، ص249

وأكل العَذِرة، مع الخلاف الشديد، واللواط المفرط، والأخلاق السمجة"[1]، "وفيه من الشبه بالإنسان أنه ليس له جلد يسلخ، إلا أن يقطع بما تحته من اللحم"[2]، وهو "يرتبط في عقلية العرب العرب الجاهليين بالشيطان"[3]، ونجدهم يُعبّرون عن رؤيته في الحلم بالدلالة "على الشر والنكد والإفلاس، وعلى المال الحرام"[4]، وبالدلالة على "فاسد الدين، خبيث المكسب، قذر"[5]، كما يدلّ يدلّ أيضا على "عدو ملعون قوي، جزوع عند النوائب، يقول ولا يفي بما يقول"[6].

أما علة تحريم الخنزير فلم يرد فيها نص في الشرع، سوى أنه رجس[7]، و"كل ما حرمه حرمه الله عز وجل، فهو خبيث، والخبائث في هذا المقام، يراد بها، ما فيه فساد لحياة الإنسان في صحته، أو في ماله، أو في أخلاقه، ولم يكن المسلمون في سالف عصرهم، على معرفة بتفاصيل خبث الخنزير، وعلة تحريمه، حتى جاءت الاكتشافات الحديثة، التي اكتشفت في الخنزير عوامل الأمراض، وخفايا الجراثيم الضارة"[8]، فالخنزير، من منظور المسلمين، يحمل بعض مسببات الأمراض، ولكن لدى غير المسلمين رأي مختلف، إذ "إنه ذو فائدة كبيرة في الطب، فيستعمل جلده في عمليات زرع الجلد، للمصابين بحروق خطيرة"[9].

والجاحظ يسوق في علة النص على حرمته دون القرد، أن " العرب لم تكن تأكل القرود، وكان مَن تنصر مِن كبار القبائل، وملوكها، يأكل الخنزير، فأظهر لذلك التحريم... ولأن لحم القرد ينهى عن نفسه، ويكفي الطبائع في الزجر عنه عَنَثه"[10]، ويجيب عن سؤال طرحته سابقا، وهو، لماذا مُسخ اليهود إلى قردة وخنازير، وليس إلى شيء آخر؟، فيجيب: لما في صدور

---

(1) الجاحظ: **كتاب الحيوان**، ج4، ص40-41

(2) الدميري: **حياة الحيوان الكبرى**، ج2، ص251

(3) عسكر، قصي الشيخ: **أساطير العرب قبل الإسلام**، ص61

(4) الدميري: **حياة الحيوان الكبرى**، ج2،، ص262

(5) ابن سيرين، **محمد: تفسير الأحلام**، ط2، دار الفجر للتراث، القاهرة، 2004م، ص224

(6) النابلسي، عبد الغني: **تعطير الأنام في تعبير المنام**،ط5، دار الخير، بيروت، 1991م، 181-182

(7) ينظر: إسلام ويب، مركز الفتوى: **العلة في تحريم أكل لحم الخنزير**، رقم الفتوى: 9791، http://fatwa.islamweb.net/fatwa/index.php?page=showfatwa&Option=FatwaId&Id=9791

(8) السابق، إسلام ويب، مركز الفتوى.

(9) **أطلس الحيوانات**، ص93

(10) الجاحظ: **كتاب الحيون**، ج4، ص41

العامة والخاصة لهما "من القبح والتشويه، ونذالة النفس، ما لم يجعله لشيء غيرهما من الحيوان"(1)، وربما رسوخ الاعتقاد بأنها مسوخ، أي بنفوس بشرية، جعلهم يعزفون عن أكلها، ويمتنعون عن استحلالها، أو ربما بقايا طوطمية بدائية، ظهرت "نتيجة للتحولات الحيوانية الطارئة على النفس البشرية"(2)، وتشابهها مع بعض سلوك هذه الحيوانات، خاصة في نواحي الشر لدى الانسان المتدين، أو لاعتقاد في انتقال صفات الخسة النفسية لدى الحيوان إلى الإنسان، إذا ما تناول لحمه، "ولهذا فإن طقوس الصيد المستمرة في العصر الحجري، وحتى في العصر الزراعي، كانت تحرم كل حيوانات، تتصف بالجبن والخسة"(3).

وأما نظرة العربي إلى القرد، فتتمثل في أنه "حيوان قبيح، مليح، ذكي، سريع الفهم، يتعلم الصنعة"(4)، وتقول العرب في المثل: "أقبح من قرد"(5)، ولشدة شبقه ضربت فيه المثل أيضا، فقالت: أزنى من قرد... وقال بعضهم: إن القرد أزنى الحيوانات"(6)، "وفيه من قبول التأديب والتعليم ما لا يخفى"(7)، وإذا حالف الحظ دنيّ الرتبة قالوا: "نزل حظ على قرد، فظفر بأكرمِ الورِدْ"(8)، "وهذا الحيوان شبيه بالإنسان في غالب حالاته، فإنه يضحك، ويطرب، ويُقعي، ويحكي، ويتناول الشيء بيده، وله أصابع مفصلة إلى أنامل وأظافر، ويقبل التعليم، ويأنس بالناس... وهو كالإنسان... يأخذ نفسه بالزواج والغيرة على الإناث، وهما خصلتان من مفاخر الإنسان"(9)، فلا غرابة إذن، إذا وجدنا البخاري، يروي في صحيحه، "عن عمرو بن ميمون، قال: رأيت في الجاهلية قِرْدة اجتمع عليها قِرَدة، قد زنت، فرجموها، فرجمتها معهم"(10)، وربما في هذا إشارة إلى أن القردة من بقايا مسوخ بني إسرائيل، وما زالوا يطبقون وصايا موسى عليه

---

(1) الجاحظ: **كتاب الحيون**، ج4، ص39

(2) فرويد، سيغموند: **الطوطم والحرام**، ص156

(3) خليل،خليل أحمد: **مضمون الأسطورة في الفكر العربي**، ص19

(4) الدميري: **حياة الحيوان الكبرى**، ج3، ص475

(5) الميداني: **مجمع الأمثال**، ج2، ص153

(6) السابق، ج1، ص413

(7) الدميري: **حياة الحيوان الكبرى**، ج3، 476

(8) المعري، أبو علاء: **رسالة الغفرن**، ط9، تحقيق: عائشة عبد الرحمن، دار المعارف، القاهرة، 1993م، ص454

(9) الدميري: **حياة الحيوان الكبرى**، ج3، ص476

(10) العسقلاني ابن حجر: **فتح الباري**، ج7، ص197، رقم الحديث: 3849

السلام، حيث ورد في التوراة أن حكم الزانية المحصنة الرجم حتى الموت، وهذه القردة كانت محصنة، كما جاء في رواية أخرى[1]، تقول التوراة:

"ولكن إن كان هذا الأمر صحيحا، ولم توجد عُذرة للفتاة، يخرجون الفتاة الى باب بيت أبيها، ويرجمها رجال مدينتها بالحجارة، حتى تموت، لأنها عملت قباحة في إسرائيل بزناها في بيت أبيها، فتنزع الشر من وسطك، اذا وجد رجل مضطجعا مع امرأة زوجة بعل، يقتل الاثنان: الرجل المضطجع، مع المرأة، والمرأة، فتنزع الشر من إسرائيل"[2]، وهو ما ظل قائما إلى عهد عيسى عليه السلام، فقد جاء في إنجيل يوحنا: "وقدم إليه الكتبة والفريسيون امرأة أمسكت في زنا. ولما أقاموها في الوسط، قالوا له: يا معلم، هذه المرأة أمسكت وهي تزني في ذات الفعل، وموسى في الناموس أوصانا أن مثل هذه ترجم، فماذا تقول أنت؟، قالوا هذا ليجربوه، لكي يكون لهم ما يشتكون به عليه، وأما يسوع فانحنى إلى أسفل، وكان يكتب بإصبعه على الأرض، ولما استمروا يسألونه، انتصب، وقال لهم: من كان منكم بلا خطية فليرمها أولا بحجر"[3]، وذات وذات الحكم ظل سائرا في الإسلام، فإذا "كان محصنا، وهو الذي قد وطأ في نكاح صحيح، وهو حر بالغ عاقل فإنه يرجم"[4].

ولعل الرواية السابقة تجد مبررها فيما "ذهب(إليه)، أبو إسحاق الزجاج، وأبو بكر بن العربي، (من) أن الموجود من القردة من نسل الممسوخ"[5]، وقد استنكر ابن عبد البر قصة عمرو ابن ميمون هذه، وقال: "فيها إضافة الزنا إلى غير مكلف، وإقامة الحد على البهائم، وهذا منكر عند أهل العلم، (و)قال: فإن كانت الطريق صحيحة، فلعل هؤلاء كانوا من الجن؛ لأنهم من جملة المكلفين"[6]، وهو بهذا المخرج يتفق مع "ظنّ العرب، أن الجن تتناسخ في أجساد الحيوانات"[7].

([1]) القزويني: **عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات**، ص330

([2]) **سفر التثنية** 22: 20-22

([3]) **إنجيل يوحنا** 8: 3-7

([4]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج3، ص434

([5]) العسقلاني ابن حجر: **فتح الباري**، ج7، ص203

([6]) السابق، ص203

([7]) عسكر، قصي الشيخ: **أساطير العرب قبل الإسلام**، ص247

وإنْ كان علماء الدين يجوّزون مسخ الإنسان إلى قرد بذنَب، وهو تحوّل باتجاه: من أعلى إلى أسفل، فإنهم ينكرون أشد الإنكار أن ينعكس الاتجاه، ويكون قد تطور الإنسان عن القرد، وعندهم لا يصير الاتجاه من أسفل إلى أعلى، كما شاع عن نظرية داروين[1]، الذي يرى أن "الأنواع التابعة لنفس الجنين، وحتى في الرتب الأعلى، لا بدّ أن تكون قد تسللت من أسلاف مشتركة"[2]، وبذلك يُحطم نظرية خلق النوع خلقا مستقلا، كما هو سائد في الأوساط الدينية التقليدية، فتكون "كل الكائنات العضوية، التي عاشت على سطح الأرض، قد تسلسلت من أصل بدائي واحد"[3].

وربما قرْب الشبه بين الإنسان والقرد، دفع كلا الاتجاهين لما صاروا إليه، حتي قيل: "إن الشِمبنزي كاد أن يكون إنسانا"[4]، وهو "أقرب القردة إلى الإنسان جسما ونفسا... وعقلا أيضا"[5]، فهو "يستعمل الأدوات ويصنعها، ويعرّي سوق القصب، ليدخلها في أوكار القُراد، ويلقي الحجارة على أعدائه، ويشرب الماء بوساطة فنجان يصنعه من أوراق الشجر"[6]، وتكوينه وتكوينه الجيني "يختلف عن ذلك الخاص بالإنسان، فقط بنسبة 1.5 بالمئة، وهكذا فإن الرجال والنساء، يختلفون جينيا، تقريبا بنفس القدر، الذي يختلف به الإنسان عن الشامبنزي"[7]، هذا التقارب الشديد في الشبه بين الإنسان والقرد، يجعل المؤمن شديد الشكر لله، على أنه إنسان مكرم، وليس قردا ممسوخا، فقد روي عن جابر رضي الله عنه، قال: "إن النبي صلى الله عليه وسلم، كان إذا رأى القرد، خرّ ساجدا"[8]، وبالتأكيد، هذا السجود ليس للتقديس، وإنما للشكر أنْ كان معافا مما ابتلي به آخرون.

([1]) ينظر: ديمتربيف، يوري: **الإنسان والحيوان عبر التاريخ**،ط1، ترجمة: محمد سليمان عبود، دار النمير، دمشق، 1993م، ص110

([2]) داروين، تشارلز: **أصل الأنواع**، ترجمة: إسماعيل مظهر، مكتبة النهضة، بيروت، ص748-749

([3]) السابق: ص772

([4]) زكي، أحمد: **في سبيل موسوعة علمية**، ط5، دار الشروق، بيروت، 1992م، ص199

([5]) السابق، ص199

([6]) **أطلس الحيوانات**، ترجمة: فادية كنهوش، ص28

([7]) ساندرز، جين: **الذكاء مع الجنس الآخر**، ط1، مكتبة جرير، الرياض، 2011م، ص19

([8]) الدميري: **حياة الحيوان الكبرى**، ج3، ص477

ولِما يتصف به القرد من ألاعيب وحيل، تبهج الناظرين، وما يُلازمه من شبق، زعم بعضهم أنه "من تصبّح بوجه القرد عشرة أيام متوالية، جلب إليه السرور، ولا يكاد يحزن، واتسع رزقه، وأحبته النساء، محبة شديدة، وأعجبن به"[1]، وفي التعبير عندهم، يدلّ على "رجل فقير محروم قد سلبت نعمته... وهو مكار صخاب لعّاب، ويدل أيضا على اليهودي"[2]، كما يدل على "رجل فيه كل عيب.. ورجل يأتي الكبائر... خداع ساحر، ويدل على المرض، والقرد عدو مغلوب"[3]، ولا يخفى ما تحمله تعبيراتهم، من دلالات تنبثق عن تصورهم في القرد الممسوخ.

لكن نظرة الازدراء للقرد عند العرب، تقابلها نظرة إجلالٍ وتقديس، لدى غيرهم، ففي مصر يظهر الإله تحوت في صورة قرد؛ ليثني اللبوة الإلهة حتحور، التي تغب في دماء البشر، فيهدئها بحركاته البهلوانية، مستجيبا في ذلك لأمر الإله رع[4]، ولقد ارتبط قرد البابون بذلك المعبود تحوت، الذي أطلق عليه "المهيب العظيم... وألقاب تحوت العارف، والمتمرس في المعرفة، تعكس جوهره كمطلع على عالم السحر، وقواه الغامضة، فهو سيد السحر، والعظيم في السحر... وهو مخترع الكتابة، وواضع القوانين، والناموس التقليدي، الذي تنطوي عليه الكتب المقدسة"[5]، ولكن يبدو أن ليس نفس هذه النظرة الإيجابية تجاه القرد في دلالته على المعرفة بالعلوم التقليدية والسحر، هي تجاه الخنزير في الأساطير المصرية، فقد ظهر في رسم فرعوني الإله أوزريس " وهو جالس على عرشه، وأمامه الميزان الذي يزن به الكلمات، في مقابر طائر الشر، وأمام الميزان هناك قارب فيه قرد، يسوق بعصاه خنزيرا أمامه، ويقول النص أن أوزريس عندما يبدأ في وزن الكلمات، يطرد الشر، ويصبح قلبه عادلا"[6]، وكأن الخنزير هنا رمز الشر، كما ظهر القرد ليمثل إيزيس ونفتيس[7]، فأما إيزيس فقد فات الكلام عليها في موطن

([1]) القزويني: **عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات**، ص330

([2]) ابن سيرين، محمد: **تفسير الأحلام**، ص224

([3]) النابلسي، عبد الغني: **تعطير الأنام في تعبير المنام**، ص371

([4]) ينظر: الماجدي: **الدين المصري**،ص119

([5]) تشرني، ياروسلاف: **الديانة المصرية القديمة**، ص78

([6]) الماجدي: **الدين المصري**، ص222

([7]) ينظر: إم هرو: **كتاب الموتى الفرعوني**، ص50

موطن سابق، وأما نفتيس فقد "كان لها سلطان سحري"[1]، وهما في حالة بعيدة عن وصفهما بالشر والسلبية، وبالتالي هذا التجلي للقرد يؤشر على نظرة تقديس، "وقد عثر على العديد من التماثيل الصغيرة للقردة، وكذلك رسوم لها على بطاقات عاجية، ترجع جميعها إلى العصور التاريخية، مما يرجح تقديسها منذ وقت مبكر... والقراءة الأصلية لاسم القرد المقدس غير مؤكدة، وإن كان اسمه بعد ذلك هدج-ور، بمعنى الأبيض العظيم، أو أنصع العظماء بياضا"[2]، والقرود الثمانية في الفناء الأمامي، التي ذكرت في قائمة المعبودات في طيبة، "فهي بالتأكيد تقريبا تماثيل حجرية لهذا الحيوان الرمز المقدس للإله تحوت، قائما في فناء بعض المعابد"[3].

مما سبق يتضح أن القرد "رمز التقليد"[4]، ويحمل دلالة المعرفة التقليدية، والقدرات السحرية، ببيانه وأعماله، كذلك يتمتع بطاقة جنسية عالية، تدفعه لأن يكون شبقا وزانيا، وهو ما يقابله في الأساطير المصرية، الإلهة إيزيس في هذا البعد، أي الحب والشبق، وقد ضربت صفحا عن ذكر مهامها؛ لأنني تناولتها فيما سبق بشيء من التفصيل، وكما وصفه العرب؛ يمتلك قدرة عالية على التعليم، وشبقا جنسيا جعله مضرب المثل في الزنا، وهم بذلك يتفقون مع النظرة المصرية القديمة له، كما يتفقون في جعل الخنزير رمزا للشر.

ويظهر القرد في الأساطير الهندية، بشيء من الإيجابية، فقد ظهر سوغريفا ملك القرود، في الأساطير بمظهر الناصح للنجاة من بطش الشياطين[5]، و تقول أسطورة أخرى في هانومان، أنه "رئيس القردة... وحليف راما في معركته مع ملك الشياطين رافانا"[6]، ويظهر بطبيعة مقدسة، وقدرة على التغيّر والتشكل[7].

([1]) شابيرو: **معجم الأساطير**، ص177

([2]) تشرني، ياروسلاف: **الديانة المصرية القديمة**، ص15

([3]) السابق، ص99

([4]) سيرنج، فيليب: **الرموز في الفن-الأديان-الحياة**، ص114

([5]) كورتل: **قاموس أساطير العالم**، ص87

([6]) السابق، ص93

([7]) ينظر: السابق، ص93

وأما في الاعتقادات الزرادشتية نجد الحال معكوسا، فالقرود من نسل الأبالسة، ومن تزاوج الأبالسة مع السحرة ظهر الزنوج، تقول الأفستا: "بيما عندما غادره الفارّ، واتخذ الإبليسة زوجة له بسبب خوفه من الأبالسة، وأعطى أخته إيماك زوجة للإبليس، وظهر من ذلك التزاوج القرد، والدب ذو الذيل، وأنواع بشعة أخرى"[1]، وعندما "منحت امرأة صبية لإبليس، وشاب فتى لساحرة إبليسة، رأوا بعضهم البعض، وجامعوا بعضهم، ومن جماعهم ظهر الزنوج السود"[2]، بينما الخنزير يظهر بتجلي الخير، من مخلوقات إله النور، فيظهر لزرادشت "فرتراكنا مخلوق آهورا، على هيئة خنزير بري رائع، يسعى جاهدا نحو الأمام، له أسنان حادة، شجاع ذي أنياب حادة، صعب المنال عند الغضب، ذو وجه مبرقش، نشط، ماهر، ساخط، هذا الخنزير يَقتل من الضربة الأولى، هكذا ظهر فرتراكنا، أصلي لأجل السعادة"[3]، والمقصود بفرتراكنا هو إله الحرب والنصر[4].

هذه النظرة الخيّرة للخنزير نجدها في الأساطير الهندوأوروبية أيضا، "ففي الهندوسية يعتبر الخنزير البري تناسخا لفيشنو... يتمثل برأس خنزير بري يصعد الأرض من أعماق المحيط حيث كانت الشياطين تحتجزه أسيرا، كما يتمثل أحيانا بشكل خنزير بري يحمل الكرة الأرضية على نابيه، وبين فترة وأخرى، وحسب الخرافة، يلقي بحركة مفاجئة من رأسه، الكرة من ناب على الناب الآخر، وهذا ما يسبب اهتزاز الأرض"[5]، "وقد بقيت العادة في العصور التاريخية، باستعمال ناب خنزير بري أو ظلفه، وأحيانا بشكل نادر، أحد عظامه، وذلك من أجل استبعاد الأرواح الشريرة"[6]، وربما صورة هذا الخنزير اهتزت بعض الشيء، عندما تنكر فيها الإله "زفس، إذ حكم بأن يبقى أدونيس مع برسيفوني(إلهة العالم السفلي) تحت الأرض شطرا من السنة، ومع أفروديتي في العالم العلوي شطرا آخر، وأخيرا قتل خنزير بري الشاب الجميل،

([1]) عبد الرحمن، خليل: **أفستا، الكتاب المقدس للديانة الزرادشتية**، ص820

([2]) السابق، ص820

([3]) السابق، 526

([4]) ينظر: السابق، ص523

([5]) سيرنج، فيليب: **الرموز في الفن-الأديان-الحياة**، ص112

([6]) السابق، ص113

وهو في الصيد، لكي يستطيع أن يودي بغريمه، وما أشد ما بكت أفروديتي حبيبها المقتـــول"[1]، وإن كان هذا الخنزير رمزا من رموز الإلهة عستارت"[2]، إلا إنه رمز للوجه القاسي الأســود، والدموي المهلك، يقابله الوجه الآخر، "عندما ينطح بقرنه الشجرة الحبلى، فتنشق ويخرج منهـا الوليد الإلهي"[3]، وقد اتخذ الخنزير "إشارة خاصة في الديانة الأدونيسية، وكل الطقوس الدينيـة في العالم القديم، كانت توحد بين الحيوان الذي يقتل الإله، وبين الإله نفسه"[4]، وما كان العــرب ليجهلون قتل الخنزير للإله أودينيس، أي بعل أو هبل، وقد قال الله تعالى في القرآن: "أتـدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين"[5]، وما يزالون "يسمون زهوره شقائق النعمان"[6]، والنعمان مـن أسماء أدونيس، وهي التي نبتت من دمه المسفوح بفعل الخنزير الإجرامي، ويبدو بـذلك، ظـل الخنزير، يدول في نظرة الناس إليه، بين الحالتين؛ حالة الشر، وحالة الخير.

إن المسخ يظهر في الأساطير بكثرة، وهو في حضوره يحاكي عالم ألف ليلة وليلة، هذا المسخ قد يظهر بفعل الآلهة نتيجة المعصية او المخالفة كجزاء وعقاب، وقد يظهر فـي شـهوة الساحر للنيل من أعدائه، فمن المسخ الذي يأتي كعقاب من الآلهة، أسطورة بـالاس وأراخنـي، التي تبدأ بتمجيد ربات الفنون أنفسهن، مطالبات بالانتقام العادل، من كل من ينتقص قدر الآلهة، داعيات "ألا نترك أحدا ينال من ألوهيتنا دون أن نوقع به ما يستحقه من عقـاب"[7]، لـم تكـن أرخني عريقة الأصل، وقد لقنتها الإلهة بالاس حرفتها في النسج، حتى طافت شهرتها بأنحـاء ليديا، لدرجة جعلت حوريات الغابات والماء يتابعن نسيجها، وأعمالها البارعة، بإعجاب، لكنهـا كانت تنكر أن الآلهة هي من منحتها هذه الموهبة، والحرفة الفائقة، وتتحدى قائلة: "فلتأت باللاس ولتباريني"[8]، فتنكرت باللاس ابنة جوبيتر، في صورة عجوز، وحذرتها مـن مغبـة تجـاوز

---

(1) فريزر: **أدونيس**، ص22-23

(2) السواح: **لغز عشتار**، ص302

(3) السابق، ص302

(4) عبد الحكيم: **موسوعة الفلكلور والأساطير العربية**، ص45

(5) سورة الصافات، آية: 125

(6) عبد الحكيم: **موسوعة الفلكلور والأساطير العربية**،ص46

(7) أوفيد: **مسخ الكائنات**، ص133

(8) السابق، ص134

طورها، وقرن نفسها بالآلهة، ولكنها رفضت نصحها، متمادية في تطاولها على الآلهة، عندئذ تبدت الإلهة باللاس في صورتها الإلهية، وقبلت التحدي، وبدأتا بالنسيج، لكل منها لوحة معينة، مضمّنة باللاس صورة إضافية من الحيوانات التي مسختها الآلهة، ومضمنة أراخني صورة للآلهة في أعمالهم التي تنتقص منهم، وعلى الرغم من أن نسيجة أراخني لا شيء يعيبها، إلا إن الإلهة تملكها غضب شديد وعارم لتفوق منافستها، "فمزقت النسيجة التي تسجل نزوات الأرباب الآثمة... ونثرت على أراخني عصارة عشب مقدس لهيكاتي، وما كادت عصارة هذا العشب السام، تلمسها حتى تساقط شعرها، وضمر أنفها وأذنها ورأسها، وبقية أطرافها، وبرزت في جنبيها أصابع دقيقة، بدلا من سيقانها، ولم يبق منها إلا بطنها ينساب منها الخيط. وها هي ذي تصل نسيجها كما كانت تفعل من قبل، وإذا هي تصبح عنكبوتا"(1)، وقد تناولت سابقا مسخ عشتار للراعي والبستاني، وغيرهما، في الأساطير الرافدية، فلا حاجة لإعادته، فالآلهة تقرر معاقبة من لا يظهر الاحترام، وهكذا ديدنها:

"لم يعبّر لي عن أي احترام

عندما اقتربت أنا إنانا من هذا البلد

لم يظهر لي أي احترام...

لذلك ولأنه لم يظهر لي أي احترام...

سوف أعلمه كيف يهابني"(2).

فيكون مصيره الهلاك لا محالة، واستنزال اللعنات، حتى:

" يعترف بعظمتي وأن يحتفل بي

بما يناسب قدري"(3).

---

(1) أوفيد: **مسخ الكائنات**، ص136

(2) الشواف: **ديوان الأساطير**، ج3، ص247

(3) السابق، ج3، ص248

وها هو ذا، عيسى بن مريم المبعوث من الله سبحانه، وقد خوّل قدرات خارقة، تحيي الموتى، وتجعل من الطين طيرا، يمارس هذه القدرة في المسخ في طفولته، لمن تسول له نفسه التجرؤ عليه بالكذب، ففي "أحد الأيام، خرج يسوع الرب إلى الشارع، ورأى أطفالا يلعبون سويا، فتعقبهم، إلا أن الأطفال أخفوا أنفسهم عنه في بيت، فلما اقترب يسوع الرب إلى باب البيت، وجد نسوة يقفن هناك، فسألهم: أين ذهب الأطفال؟ فأجابوا: ههنا لا يوجد أحد، فسألهم يسوع الرب: فمن إذاً هؤلاء الذين ترونهم في أتون النار؟ فقالوا: إنهن ماعز، يبلغن من العمر ثلاثة أعوام، فقال الرب يسوع: فلتخرجن أيتها الماعز إلى راعيك، فخرج الأطفال على هيئة ماعز، وابتدأوا يمرحون حوله، وعندما رأت النسوة ذلك، تملكهن الدهشة والفزع، وخررن سريعا ساجدات أمام قدمي يسوع الرب، وأخذوا يتوسلون إليه قائلات:... أيها السيد، إنك تعلم كل شيء، ولا يخفى عليك شيئا، والآن نتوسل إليك، ونطلب رحمتك، بأن تعيد هؤلاء الأطفال إلى حالتهم الأولى"[1].

أما القدرة السحرية في التحويل، فلا تنكر في الأساطير، وسأكتفي عن إيراد مطولات من النصوص الرافدية، وأذكر بعض مواطنها لمن رغب في الرجوع إليها، ومثاله، الساحر ماشماش[2]، فالسحرة "عرفتهم سومر، وعرفتهم مصر الفرعونية بشكل أوسع... والسحر الذي رافق العصر البطولي في سومر، عرفته معارك الآلهة... فمردوك يتحكم في الرياح التي ترافقه في معركته، ويثبت تفوقه بجعل كوكبة تختفي وتعود للظهور، وبسحره يتمكن الطائر أنزو من إعادة سهام نينورتا الموجه إليه إلى موادها الأساسية، ونينورتا في صراعه مع شعب الحجارة، كان يملك سلاحا سحريا اسمه شارور، يخبره بموقع الأعداء، واستعداداتهم، كما أن إنانا، بكلمة منها تحول صاحبة الحانة بيلولو إلى قربة ماء"[3]، وفي نص من توصيات أب لابنه المنحرف، يعود إلى الثلث الأول من الألف الثاني لما قبل الميلاد، والى أبعد من ذلك[4]، نجد الاعتراف بقدرة السحر على التحويل:

([1]) السقا، أحمد حجازي: **انجيل توما**، مكتبة الإيمان بالمنصورة، ص52

([2]) الشواف: **ديوان الأساطير**، ج4، ص458-459

([3]) السابق، ص245

([4]) السابق،ج3، ص312

"ما أنقله إليك يحول المجنون إلى عاقل

ويشل حركة ثعبان كما يفعل السحر"[1].

وهذه عشتار تستجيب لتضرعات النبيل لوكيوس، و"ترفع عنه لعنة السحر، الذي حوله إلى حمار سنوات طويلة"[2]، بينما في أسطورة الساحرة سيرسي، تحوّل من يأتي جزيرتها، من الناس إلى حيوانات، بعصاها السحرية، حيث رأى يوريلوكوس ورفقته، "الساحة التي يقوم فيها قصر سيرسي، ركض إليها الذئاب والأسود، بشكل تحبب وتودد... وجاءت سيرسي، وأشارت إليهم بالدخول، فدخلوا كلهم إلا يوريلوكوس، فإنه لم يدخل؛ خيفة أن يكون هناك فخ، وانتظرهم طويلا، غير أن أحدا منهم لم يعد؛ لأن سيرسي حولتهم إلى خنازير، بعصا سحرية، وشربة سحرية من الكأس:

من ذا الذي لا يعرف سيرسي

ابنة الشمس ذات الكأس المسحورة

من ذاقها فقد شكله المنتصب

وانحنى إلى الأسفل خنزيرا يحجل"[3].

يكثر في الأساطير المسخ كثرة مفرطة، خاصة الأساطير الإغريقية والرومانية، ولكنني سأكتفي بإيراد بعض الحالات من المسخ، المتعلقة بالتحول إلى قردة وخنازير، بينما أكتفي بالأخرى فأذكرها اسما، من مثل: المسخ إلى ذئب، وبقرة، وطائر البجع، والفرس، والخفاش، والأفعى، وطيور مختلفة، وسحلية، وفهد، وطائر العقعق، وضفادع، وهدهد، وأبي قردان، وطائر الحجل، وأسد، وصقر، وطائر الغطاس، وحورية، وطائر النقار، ووحوش، ووعل، وثعبان، ودب، وهرة، هذه المسوخ في الأغلب تأتي نتيجة لغضب الآلهة أو نتيجة عن السحر، فممن مسختهم الآلهة إلى قردة، قوم الكيركوبيس، الذين سكنوا مدينة بيثيكوزا القديمة، "و التي

([1]) االشواف: **ديوان الأساطير**، ج3، ص313

([2]) السواح: **لغز عشتار**، ص101

([3]) غيربر: **أساطير الإغريق والرومان**، ص297

اشتق اسمها من اسم سكانها بيثيخوى، أي القردة، إذ يُروى أن كبير الآلهة في قديم الزمان، قد ضاق ذرعا بألسنة الكيركوبيس، وبرذائل هذا الجنس المخادع، وقضى بإنزال العقاب بهم، فحولهم من أناسي إلى حيوانات دميمة، تختلف شكلا عن البشر، وإن احتفظت ببعض الشبه به، وجعل جوبيتر أطرافهم دقيقة، وأنوفهم فطساء، وخدد أصداغهم بتجاعيد الكهولة، ثم كسا أجسامهم بشعر داكن، وألزمهم هذا المأوى، غير أنه قبل أن يفعل حرمهم القدرة على الكلام، وجردهم من ألسنتهم التي تحلف كذبا، وتحنث باليمين، ولم يترك لهم القدرة على الشكوى إلا بصراخ أجش، وبأصوات ناشزة"[1]، وتكاد هذه القصة، تنطبق تماما على قوم اليهود، الذين مسخوا في قرية أيلة، بعدما أكثروا من مخالفة الله، واتصفوا بالمخادعة، وحنث الأيمان، ونكث العهود، والكذب، وهي الأوصاف اللازمة لليهود، مما أغضب الله عز وجل عليهم، فصمتت ألسنتهم، وتحولت صورهم إلى قردة خاسئين، "وفي بعض أساطير إفريقيا والتيبيت، أن الإنسان يشبه أكثر ما يشبه القردة، غالبا السعلاة أو الشمبانزي، يُروى في إحدى الأساطير أن تساغان عاقب السعالي، التي كانت من قبل بشرا، فمسخها قردة، لأنها قتلت ابنه"[2]، وفي أساطير الاستيك، على الرغم من انعزالهم عن أساطير العالم القديم، المعروفة في آسيا وأفريقيا وأوروبا، إلا إننا نجدهم يعتقدون بهذا التحول، في طور ما من أطوار تخليق العالم، ففي "عصر الشمس الثانية، (الذي) انتهى بإعصار مريع، دمر كل حيّ تقريبا، ولم ينج سوى بعض البشر، الذين ما لبثوا أن تحولوا إلى قردة"[3]، وكأن الذهنية البشرية تتناغم في أطوارها، وتستجيب لتصورات متشابهة، في حالة من الغرائبية بالنسبة لأطوار لاحقة، وذهنيّة العربي ليست عن هذا ببعيدة، وقد "كثرت رواية القصص، التي تتعلق بمسخ الإنسان حيوانا، وأحجارا في شبه جزيرة العرب"[4].

وأما مسخ البشر إلى خنازير، فما لاحظته أنه يتم بفعل إلهة السحر، ولا يظهر كعقاب من الآلهة، بل يأتي الخنزير كتجلٍ للقوة في الآلهة، ولتنفيذ مهمة ما، كما فعل زفس، وكما ظهر

([1]) أوفيد: **مسخ الكائنات**، ص295-296

([2]) ألبيديل: **سحر الأساطير**،ص239-240

([3]) السابق، ص342

([4]) خان، محمد عبد المعيد: **الأساطير العربية قبل الإسلام**، ص62

في هومير[1]، وكما احتوت بعض تكوينات الآلهات المسخات الثلاث، على واقيات خنزيرية[2]، وقد خص النص القرآن المسخ بالقردة دون الخنازير، عندما حل العقاب، فيقول سبحانه: "ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين"[3]، وقوله: "فلما عتوا عن ما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين"[4]، بينما عندما يأتي الإخبار عنهم، يذكر سبحانه الخنازير، وعبدة الطاغوت، مع القردة، يقول تعالى: "قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل"[5]، ويتبين من هذه الآيات، أن العقاب محدد بصيرورتهم قردة، ثم تلحق بهم صفة الخنازير مع اللعنة والغضب والضلال.

في أسطورة مكارويوس وأوديسيوس ورفقتهم، التي ألمحت لها سابقا، حيث "لم تكد الإلهة الرهيبة تلمس أطراف شعورنا بعصاها، حتى أحسستُ بجسدي تنبت فيه شعيرات منتصبة، وغاب نطقي، وحلّ محله خوار أجش، وانكفأت بوجهي على الأرض، وإذا فمي يتحول إلى خطم متهدّل، وإذا عنقي ينتفخ بعضلات غليظة، وإذا يداي اللتان تناولت بهما الكأس، تستحيلان قدمين، أمشي عليهما، ودفعوا بنا أنا ورفاقي سجناء في حظيرة، بعد أن صرنا ضحايا لهذا السحر، وكان أوريلوكوس هو وحده الذي لم يمسخ خنزيرا؛ لأنه رفض الكأس التي قدمت إليه، ولو لم يكن قد رد الكأس، لكان إلى الآن خنزيرا بين القطعان الخشنة الشعر، فكان هو الذي أنهى إلى أوديسيوس الكارثة، التي حلت بنا، فجاء لينقذنا ويثأر لنا من كيركي"[6].

أما ما يتعلق بمسخ اليهود إلى قردة وخنازير، فلم يتطرق العهد القديم لهذه الحادثة، لا من قريب، ولا من بعيد، ولكن جاء في الموسوعة اليهودية ما يشير الى ذلك: "إن بعض

([1]) غيربر: **أساطير الإغريق والرومان**، ص98

([2]) غريمال: **الميتولوجيا اليونانية**، ص29

([3]) سورة البقرة، الآية: 65

([4]) سورة الأعراف، الآية: 166

([5]) سورة المائدة، الآية: 60

([6]) أوفيد: **مسخ الكائنات**، ص299-300

الحاخامات تحولوا إلى صورة ما، يشبه القرود، التي تشبه قوام البشر"[1]، بينما فـي موسـوعة الأديان يجعلون هذا المسخ انتقاما وقع على قوم آخرين، حيث "شارك ستمائة ألف رجل في بناء برج، وقد وصل البرج إلى ارتفاع شاهق، الذي استغرق بناؤه عاما كاملا، فتغيّر جزء كبير من البنائين إلى قردة، وقسم إلى أرواح شريرة، وشياطين، وأشباح الليل، وتناثر البقية فـي أنحـاء العالم"[2]، وهذا النص يتضمن ازدراء واضحا بالبابليين، فهم أصحاب البرج، وهم من تبلبلـت ألسنتهم في العالم بحسب التوراة، فهم المقصودون بهذا المسخ من منظور يهودي، وقـد عـانى اليهود من الأسر البابلي، وتحطمت دولتهم على أيديهم، فعنّ لهم الانتقام بمثل هكذا تصور، كما جاء في الموسوعة اليهودية: "في أيام بناء برج بابل تحولت ثلاث مجموعات إلى قرود، من التي قامت ببناء البرج"[3]، أما في موسوعة ويكيبيديا الإنجليزية، فجاء المسخ نتيجة لعنة حلت بهـم، وهي تروي عن الفلكلور اليهودي أن أجناسا من الذين بنوا برج بابل، أصبحوا قردة كنوع مـن العقاب[4]:

"it has been said that they are the result of a curse-a Jewish folktale claims that one of the races who built the Tower of Babel became non-human apes as punishment"

وهذا يتفق مع ما في التوراة من كراهية لبرج بابل وأهلها:

"هلم نبن لأنفسنا مدينة وبرجا رأسه بالسماء، ونصنع لأنفسنا اسما؛ لئلا نتبدد على وجه كل الأرض، فنزل الرب؛ لينظر المدينة والبرج اللذين كان بنو آدم يبنونهما، وقال الرب: هـوذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم، وهذا ابتداؤهم بالعمل، والآن لا يمتنع عليهم كل ما ينوون أن

([1]) أشـوري، إيزابيـل بنيـامين مامـا: مـن هـم هـؤلاء الـذين مسـخهم الـرب إلـى قـردة وخنـازير، www.kitabat.info/subject.php?id=29299

([2]) السابق

([3]) السابق

([4]) القرد: http://www.newworldencyclopedia.org/entry/Ape

يعملوه، هلم ننزل، ونبلبل هناك لسانهم، حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض، فبددهم الرب من هناك على وجه كل الأرض"[1].

وفي وحي رآه إشعياء ضد بابل:

"تصير بابل بهاء الممالك، وزينة فخر الكلدانيين، كتقليب الله سدوم وعمورة، لا تعمر الى الأبد، ولا تسكن الى دور فدور، ولا يخيم هناك أعرابي، ولا يربض هناك رعاة، بل تربض هناك وحوش القفر، ويملأ البوم بيوتهم، وتسكن هناك بنات النعام، وترقص هناك معز الوحش، وتصيح بنات آوى في قصورهم، والذئاب في هياكل التنعم"[2].

كل هذا السخط الموجب للانتقام، بسبب ما حل باليهود من سبي على يد نبوخذ نصر، ومن هدْم دولتهم[3]، ومن هذا الانتقام والجزاء الإلهي تصوّر اليهود مسخ البابليين إلى قردة، أي بشر في مسلاخ حيوانات، خاصة، وقد حملة نبوءة إشعياء، أن الحيوانات ستسكن بابل.

مسخ إساف ونائلة صنمَيْن

قال تعالى: "إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوّف بهما ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم"[4]، لقد كان الناس بعد الإسلام في بادئ الأمر، يتحرجون من الطواف أو السعي بين الصفا والمروة، ويقولون: "إن طوافنا بين هذين الحجرين

([1]) **سفر التكوين** 11: 4-8

([2]) **سفر إشعياء** 13: 19-22

([3]) ينظر: **سفر أرميا** 51: 34-36، 1-6 " أكلني، أفناني نبوخذراصر ملك بابل، جعلني إناء فارغا، ابتلعني كتنين، وملأ جوفه من نعمي، طوحني، ظلمي ولحمي على بابل، تقول ساكنة صهيون، ودمي على سكان أرض الكلدانيين، تقول اورشليم، لذلك هكذا قال الرب: هأنذا أخاصم خصومتك، وانتقم نقمتك"، و"هكذا قال الرب: هانذا أوقظ على بابل، وعلى الساكنين في وسط القائمين عليّ ريحا مهلكة، وأرسل إلى بابل مذرين، فيذرونها، ويفرّغون أرضها؛ لأنهم يكونون عليها من كل جهة، في يوم الشر... فتسقط القتلى في أرض الكلدانيين، والمطعونون في شوارعها، لأن اسرائيل ويهوذا، ليسا بمقطوعين عن إلهها، عن رب الجنود، وإن تكن أرضهما ملآنة إثما على قدوس إسرائيل، اهربوا من وسط بابل، وانجوا كل واحد بنفسه، لا تهلكوا بذنبها؛ لأن هذا زمان انتقام الرب، هو يؤدي لها جزاءها"

([4]) سورة البقرة، الآية: 158

من أمر الجاهلية"[1]، كما كان الأنصار يتحرجون من فعل ذلك قبل الإسلام أيضا، إذ كانوا "يهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها... وكان من أهلّ لها، يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة"[2]، بينما "كانت قريش خاصة تعظم ذينك الصنمين، وتتقرب إليهما، وتذبح عندهما، وتسعى بينهما، أما القبائل الأخرى، فلم تكن تقدسهما، لهذا لم تكن تتقرب إليهما، ومن هنا، لم يكن الطواف بهما من مناسك حج تلك القبائل"[3]، والمقصود بالحجرين إساف ونائلة، و"كان أساف على الصفا، وكانت نائلة على المروة"[4]، و"بينهما آلهة"[5]، من آلهة الجاهلية.

فمن هما إساف ونائلة؟

يقول ابن كثير فيما ينقله عن ابن اسحاق: "إن أسافا ونائلة كانا بشرين، فزنيا داخل الكعبة؛ فمسخا حجرين، فنصبتهما قريش تجاه الكعبة ليعتبر الناس، فلما طال عهدهما عبدا، ثم حولا إلى الصفا والمروة، فنصبا هنالك، فكان من طاف بالصفا والمروة يستلمهما"[6]، علما أن أصل ذلك السعي والتطويف بينهما، "مأخوذ من طواف هاجر، وترددها بين الصفا والمروة، في طلب الماء لولدها، لمّا نفذ ماؤهما وزادهما، حينما تركهما إبراهيم عليه السلام هنالك"[7]، وإساف "رجل من جرهم، يقال له: إساف بن يعلى، ونائلة بنت زيد من جرهم، وكان يتعشقها في أرض اليمن، فأقبلوا حجاجا، فدخلا الكعبة، فوجدا غفلة من الناس، وخلوة في البيت، ففجر بها في البيت فمسخا، فأصبحوا فوجدوهما مسخين"[8]، "وقيل: بل هما حجرين نحتا، ومُثلا بمن ذكرنا، وسميا بأسمائهما"[9]، خاصة إذا اتخذت الحجارة شكلا مثيرا، واتقانا جذابا، أوهمت

([1]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج1، ص298

([2])السابق، ص297

([3]) علي، جواد: **المفصل في تاريخ العرب**، ج6، ص267

([4]) السابق، ص298

([5]) السابق، ص298

([6]) السابق، ص298

([7]) السابق، ص299

([8]) الكلبي: **كتاب الأصنام**، ص9

([9]) المسعودي: **مروج الذهب ومعادن الجواهر**، ج2، ص39

المشاهد بأن روحا تكمن فيها[1]، أو ظنوا في الأصنام التي يعثرون عليها، أنها أشخاص مسخهم الله[2]، وقيل: "إنهما استوردا من بلاد الشأم، فنصبا في مكة، فتولد من كونهما صنمين لرجل وامرأة، هذه القصص المذكور، ولعله من صنع القبائل الكارهة لقريش، التي لم تكن ترى حرمة للصنمين"[3]، وقال ابن إسحاق: "اتخذوا إسافا ونائلة، على موضع زمزم، ينحرون عندهما، وكان وكان إساف ونائلة رجلا وامرأة من جرهم، هو إساف بن بغى، ونائلة بنت ديك، فوقع إساف على نائلة في الكعبة، فمسخهما الله حجرين"[4]، وربما الذي أوقد شهوتهما مع الحب والعشق، فدفعهما للفجور بالبيت، ما كان يجري من عري أثناء الطواف، فقد "كانت قبائل من العرب من بني عامر وغيرهم، يطوفون بالبيت عراة... فإذا بلغ أحدهم باب المسجد، قال للحمس(أي قريش): من يعير مصونا؟ من يعير معوزا؟ فإن أعاره أحمسي ثوبه، طاف فيه، وإلا ألقى ثيابه بباب المسجد، ثم دخل الطواف، فطاف بالبيت سبعا عاريا، وكانوا يقولون: لا نطوف في الثياب التي قارفنا فيها الذنوب"[5]، "وكانت الحلة تطوف بالبيت، أول ما يطوف الرجل والمرأة، في أول أول حجة يحجها عراة... فكانوا إذا طافت المرأة منهم عريانة، تضع إحدى يديها على قبلها، والأخرى على دبرها، ثم تقول:

اليوم يبدو بعضه أو كلّه وما بدا منه فلا أحله"[6].

وقد ظل في الإسلام، لملابس المُحرم قيدها، الذي يحدّ من الستر الكامل للجسد، خاصة للرجال، فيُمنع المخيط منها، وتكون إزارا ورداء، يشفّان عن الساقين والكتف، وحتى المرأة عند من يوجبون النقاب أو غطاء الوجه، ويندبون إلى لبس القفازين، تراهم يترخصون فيهما عند الحج[7]، وفي هذا شكل مبسط من أشكال التعري المسموح والمشروع، على خلاف المعتاد في

([1]) ينظر: زكي، أحمد كمال: **الأساطير**،ط2، دار العودة، بيروت، 1979م،ص47

([2]) ينظر: عسكر، قصي: **أساطير العرب قبل الإسلام**، ص84

([3]) علي، جواد: **المفصل في تاريخ العرب**، ج6، ص267

([4]) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج1، ص82

([5]) الأزرقي: **أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار**، ص273

([6]) السابق، ص272-273

([7]) ينظر: الألباني، محمد ناصر الدين: **مناسك الحج والعمرة**، ط1، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، 1999م، ص12-13

الحياة العادية، تكون خاصة بهذه المناسك التعبدية، وفي هذا الموسم الشعائري، ولكن العري بات ممنوعا في الإسلام، فقد نهى النبي الكريم قبل حجة الوداع عن التعري بالطواف، "ألا لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عُريان"[1]، وكما كانت تتحلل النساء في معابد عشتار من البغاء المقدس، بحلق شعر الرأس عوضا عن الاستسلام للجنس، وفي هذا تعويض عن سلوك البغاء، وعُدّ "تقديم الشعر عند المرأة مساويا لتقديم عفتها"[2]، حتى إنه ما زال شعيرة لازمة في الحج الإسلامي، على الرجل والمرأة، إما بالحلق وإما بالتقصير[3]، وقال النبي الأمين: "رحم الله المحلقين، مرة أو مرتين، وقال في الرابعة: والمقصرين"[4]، وفي رواية أخرى، قال: "اللهم اغفر للمحلقين، قالوا: وللمقصرين، قالها ثلاثا، قال: وللمقصرين"[5]، علما أن طريقة اللبس هذه والحلق، معروفة سابقا لكهنة مصر في معابدهم والتي تدل على الطهر[6].

مما سبق يتضح أن إسافا كان تمثال رجل، ونائلة كانت تمثال امرأة[7]، ربما زوجة أو عشيقة، يقومان بأداء شعائر التعبد والحج، فغلبتهما شهوة الجنس، فاستجابا لها في بيت الله، مما أغضب الله سبحانه؛ فعاقبهما بالمسخ، وصارا حجرين او تمثالين، علما أن الإسلام يحرم الوطء والمباشرة للنساء مع الإحرام[8]، وينتهي هذا التحريم مع التحلل، الذي ينتهي عند الصفا والمروة لمن ليس معه هدي، فكان صلى الله عليه وسلم، "إذا وصل إلى المروة، رقي عليها، واستقبل البيت، وكبّر الله، ووحده، وفعل كما فعل على الصفا، فلما أكمل سعيه عند المروة، أمر كل من لا هدي معه، أن يحلّ حتما ولا بدّ، قارنا كان أو مفردا، وأمرهم أن يحلوا الحل كله من

([1]) العسقلاني ابن حجر: **فتح الباري**، ج3، ص617، رقم الحديث: 1622

([2]) فريزر: **أدونيس**، ص44

([3]) ينظر: ابن حجر: **فتح الباري**، ج3، ص720

([4]) السابق، ص716، رقم الحديث: 1727

([5]) السابق، ص716، رقم الحديث: 1728

([6]) ينظر: إرمان، أدولف: **ديانة مصر القديمة**، ط1، ترجمة: عبد المنعم أبو بكر وزميله، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1995م، ص277

([7]) ينظر: علي، جواد: **المفصل في تاريخ العرب**، ج6، ص267

([8]) ينظر: الجزيري، عبد الرحمن بن محمد: **كتاب الفقه على المذاهب الأربعة**، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م، ج1، ص582

وطء النساء، والطيب ولبس المخيط"[1]، كما يُحتمل أن يكونا صنمين مُثِّلا برجل وامرأة؛ ليعبّرا عن إلهة أنثى، وإله ذكر، وحالة العشق والشهوة بينهما، هي دافع الخصب والحياة، و المضاجعة هي "التي تعد لازمة لتكاثر الزرع والحيوان... في هيكل الآلهة"[2]، فكما هو ماء زمزم لهاجر وإسماعيل حياة، ونجاة من الهلاك، كذلك ماء الرجل يورث النسل ويدفع بالحياة، وينتصر على عوادي الزمن والموت، فكلاهما يؤدي للخصب، وفي الجماع والمعاشرة ما يشير إلى البغاء المقدس في المعبد، الذي كان شائعا في العصور القديمة، خاصة مع حالة العري للعشتاريات، إذ "كان العرف يقضي على كل عذراء أن تضاجع غريبا في هيكل عشتاروت، فكانت النساء أبكارا وثيبات، يبرهن على حبهن للآلهة، على هذا المنوال"[3]، و"كان صحن الهيكل يزدحم بالنساء اللاتي ينتظرن العمل بهذه العادة، ومنهن من كانت تنتظر هناك أعواما"[4]، أعواما"[4]، وقد أطلق البابليون على مَن تكرس نفسها لهذا البغاء المقدس، "قاديشتو"[5]، وهي المرأة الزانية المقدسة، وإساف ونائلة في هذا يشبهان بعل وعناة، اللذين يصاحبهما في العادة طقوس جنسية تفشت تفشيا عظيما في مختلف المناطق، من بلاد الشام والعراق[6]، أو ما شاكلهما شاكلهما كعشتار ودموزي، وقد أتيت على بعض القول فيهما سابقا، تحت موضوع مسخ امرأة إلى كوكب الزهرة، وقد "كان سكان سومر يتوجهون بالدعاء إلى إنانا بوصفها الإلهة التي تفتح أرحام النساء، إذ كان على جميع النساء، امتثالا بإنانا، واقتداء بها، أن يتهيأن لعرض فروجهن، عن رضا، لانتظار الرجال؛ لإيقاظ غريزتهم، وحثهم على التمتع بأجسادهن الراضية، والمنذورة لهم، وكان على الرجال أن يحتذوا حذو تموز، إله نمو النبات وتكاثر الحيوان، الذي يخضع لإغواء إنانا، وسحرها، ويقدم لها منيه في كل مرة ترجوه فيها"[7]، "وكان القانون عند

([1]) الجوزية، ابن قيم أبو عبد الله محمد الدمشقي: **زاد المعاد في هدي خير العباد**، ط1، مكتبة الإيمان، المنصورة، مصر، 1999م،ج2،ص181

([2]) فريزر: **أدونيس**، ص45-46

([3]) السابق، ص44

([4]) السابق، ص43

([5]) ينظر: السابق، ص70

([6]) ينظر: القمني: **الأسطورة والتراث**، ص124-125

([7]) فريشاور: **الجنس في العالم القديم**، ص65

الأموريين، ينص على أن المرأة التي تنوي الزواج، عليها أن تقضي في الزنا سبعة أيام، عند بوابة الهيكل"[1]، أو يبْدوان أنهما "كانا إلهين للحب، وشعائر تقديس الجنس التي كانت سائدة لدى مجمل كياناتنا العربية بل السامية بعامة"[2]، ولكن مع تقادم العهد عليهما، أصبح وصف فعلهما الجنسي المقدس بالفجور، وصار الصنمين يعبّران عن مسخ وعقاب، في ظل تراجع حالة البغاء المقدس، وانتصار صيانة الزواج المشروع، والاكتفاء بإقامة المناسك، وارتياد بيوت العبادة في حج دائم للرجل والمرأة، يُعفي عن الفجور، ويُحصّل العبادة المتوخى، وقد تجسد هذا الرفض لسلوك الفجور لاحقا، وظهرت نائلة في صورة بشعة منفرة مُهانة، فحين كسرها النبي الكريم "عام الفتح، خرجت منها سوداء شمطاء، تخمش وجهها، وتنادي بالويل والثبور"[3]، وفي هذا التصوير المهين، والتجلي الأسطوري الخارق، تتفق مع العزى، التي ظهرت من شجرة السمرة، حيث "كانت العزى شيطانة، تأتي ثلاث سمرات، ببطن نخلة، فلما افتتح النبي صلى الله عليه وسلم، مكة، بعث خالد بن الوليد، فقال إيت بطن نخلة، فإنك تجد ثلاث سمرات، فاعضد الأولى، فأتاها فعضدها، فلما جاء إليه، قال: هل رأيت شيئا؟ قال: لا، قال: فاعضد الثانية، فأتاها فعضدها، ثم أتى النبي عليه السلام، فقال: هل رأيت شيئا؟ قال: لا، قال: فاعضد الثالثة، فأتاها، فإذا هو بحبشية نافشة شعرها، واضعة يديها على عاتقتها، تصرف بأنيابها، وخلفها دُبيّة السُلمي، وكان سادنها... ثم ضربها ففلق رأسها، فإذا هي حُمَمَة، ثم عضد الشجرة، وقتل دبية السادن، ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم، فأخبره، فقال: تلك العزى، ولا عُزى بعدها للعرب، أمَا إنها لن تعبد بعد اليوم"[4].

وفي الأساطير المصرية، يظهر الجنس بين ذكر وأنثى، كبعث جديد، وحياة جديدة، وايقاظ من الموت، إنه عمل مقدس، كما حصل مع إيزيس التي جمعت أشلاء جثة أوزيريس، "فبدا الميت حيا، واستبدلت القضيب المفقود بقضيب اصطناعي... وشرعت بإحياء القضيب

([1]) فريزر: **أدونيس**، ص44

([2]) عبد الحكيم، شوقي: **موسوعة الفلكلور والأساطير العربية**، ص57

([3]) السُهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله الخثعمي: **الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام**، دار الكتب العلمية، بيروت، ج1، ص173

([4]) الكلبي: **كتاب الأصنام**، ص25-26

المستعار، فأدخلته بفيها، ونفخت فيه من أنفاسها الإلهية، إن هذه الحركة المخصصة لإنعـاش، وإحياء عضو الذكورة الخامل، تدخل في عداد المداعبات الطبيعية، التي تتضمنها ألوان الضـم والعناق، والتقبيل الغرامية، فجعلت منها إيزيس شعيرة مقدسة، إذ استطاعت بفضلها، أن تبعـث في أوزيريس المتوفى القوة مرة أخرى، ومن اتحادهما الجديد، ولد حـورس"[1]، وفـي معبـد حتحور، كنّ "عابدات حتحور(أي إله الحب[2]) يستسلمن لرغباتهن إلى أقصى الحدود، فليس ثمة تعاليم تلزم الفتيات بصون عذريتهن... بل كن يتعلمن فنون الحب، ويمارسنها على هواهن"[3]، وكانت الكاهنات في معبد آمون يؤدين "الفنون التي يدخلن بها السرور إلى قلب الإله، هي نفس المتع التي تمارسها فتيات الحريم أمام مولاهن، فإن هؤلاء السيدات، كن يعتبرن كأنما هنّ حريم الإله"[4]، "إذ أطلق عليهن خطيبات الإله، أو العابدات الإلهيات..(وقد عثر على) منحوتة صغيرة، تمثل عناقا عشقيا للإله آمون– رع، وقد احتضن بقوة الأميرة امينارديس"[5]، بينما في بعـض الأحيان يسود منع لمس المرأة، وحرمتها على الكهنة[6]، فإنْ حدث عهر وزنا في المعابد، عُـدّ معصية وإثما، قد يجلب العقاب الإلهي، "فهذه العلاقات لا تدان بوصفها فسقا، على ألا ترتكـب قطعا، في أحد الهياكل أو المعابد أو أحد الأمكنة المقدسة، أو أمام أحد مذابح الآلهـة، أو علـى مقربة من أحد الحيوانات الإلهية"[7].

وفي الحج كان أول لقاء جمع بين آدم وحواء، بعد الهبوط من الجنة، فلمـا وقـف آدم بعرفات، قادما من الهند، "كانت حواء طلبته، وقصدته من جدة، فالتقيا بعرفات، يـوم عرفـة، فسمي ذلك الموضع عرفات"[8]؛ لأنهما تعارفا فيه[9]، وعرف آدم حواء أي جامعهـا، والتـوراة بشكل خاص تستخدم لفظ عَرَف، بمعنى جامع، ومن هنا تقدس الوقوف بعرفة، حيث يقضي فيه

([1]) فريشارو: **الجنس في العالم القديم**،ص131

([2]) ينظر: إرمان، أدولف: **ديانة مصر القديمة**، ص262

([3]) فريشارو: **الجنس في العالم القديم**، ص138

([4]) إرمان، أدولف: **ديانة مصر القديمة**، ص278

([5]) فريشارو: **الجنس في العالم القديم**، ص152

([6]) ينظر: إرمان، أدولف: **ديانة مصر القديمة**، ص265

([7]) فريشارو: **الجنس في العالم القديم**، ص141

([8]) الثعلبي: **عرائس المجالس**،ص36

([9]) ينظر: ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ج1، ص36

الرجال والنساء ليلتهم هناك، فيما يشبه قديما طقسا جنسيا جماعيا؛ طلبا للغيث والخصب، وهـم يمثلون بفعلهم ما قام به إساف ونائلة[1]، ولكن قبل دخول عهد جديد من العفاف والعفة، وصيانة الروابط الزوجية، واحترام العلاقات الجنسية المشروع، التي غدى الخروج عنها فسقا، يستوجب المسخ واللعنة، وينقض الحج، ويبطل العبادة، ويفسد الشعيرة، ويغلب ظني أن يكون عرفة مـن المعرفة، التي تتولد عن التواصل الجنسي مع المرأة، كما حدث لإنكيدو الوحش غير المُـؤنس، الذي أصبح عارفا بعد اتصاله الجنسي، وممارسة العشق مع المرأة الباغية، أو كاهنة الحب:

"فقال جلجامش

امض أيها الصياد وخذ معك كاهنة حب

وعندما يرد الماء لسقي الحيوان

دعها تنضو ثيابها وتكشف مفاتنها(أي طقس التعري)

فإنه لمقاربها إذا رآها

...

رجل البداءة (أي إنكيدو) الآتي من أعماق البراري

هو ذا يا فتاة البهجة، حرري ثدييك

عري صدرك، يقطف ثمرك

(وفي ترجمة أخرى: افتحي ساقيك، اعرضي فرجك)

اطرحي ثوبك دعيه ينبطح عليك

علمي الرجل الوحش وظيفة المرأة

...

وها هو واقع في حبها

([1]) ينظر: القمني: **الأسطورة والتراث**، ص126

ستة أيام وسبع ليال قضاها إنكيدو مع فتاة البهجة

وبعد أن روى نفسه من مفاتنها

يمم وجهه شطر رفاقه الحيوان...

(أي يريد أن يعود لبدائيته،ولكن الحيوانات أنكرته، وتعثر في التحاقه بها، وصار بحالة مختلفة عما سبق)

ولكنه غدا عارفا واسع الفهم

(هذه المعرفة، حدثت له بسبب العلاقة الجنسية وممارسة الحب مع الفتاة الكاهنة)

ققفل عائدا إلى المرأة جلس عند قدميها

رافعا بصره إليها

كله آذان لما تنطق به

حدثته الكاهنة قائلة:

حكيم أنت يا إنكيدو، شبيه الآلهة أنت"[1].

بحسب هذه الأسطورة فالمعرفة متولدة عن الجماع، وهو قولُ: " ولكنه غدا عارفا واسع الفهم"، وربما ما أطلقته التوراة من لفظ عرف بمعنى جامع، هو من قبيل إطلاق السبب على المسبِّب، فالجماع كان سبب في حصول المعرفة والحكمة، حيث في العادة تتفتح القدرة المعرفية مع بروز غريزة الجنس، أوتتزامن مع ظهور جوع الشهوة للمرأة، هذا التوافق جعل من المعرفة والجماع، صورتين لعهد واحد، أو حالة مرحلة مندغمة في ظهورين، تقول التوراة:

"عرف قايين امرأته فحبلت وولدة حنوك"[2]، و"عرف آدم امرأته أيضا فولدت ابنا ودعت اسمه شيثا"[3].

([1]) السواح: **جلجامش**، ص116-118

([2]) **سفر التكوين** 4: 17

([3]) **سفر التكوين** 4: 25

وهاهي السيدة العذراء بقبلتها تملأ يوحنا معرفة، يروي القديس يوحنا عن انكشاف بصيرته، أنه "قد تم بخارقة من خوارق السيدة العذراء، فينما كان أمام تمثالها يوما، يصلي، وهو ما زال طفلا، فإذا بالحياة تدب في التمثال، وتخاطبه العذراء قائلة: يوحنا، تعال قبّلْ شفتي، ولسوف تحل عليك بعد ذلك المعرفة، فتقدم منها بعد تردد، ثم طبع على شفتيها قبلة، كانت كافية لأن تملأ كيانه حكمة ومعرفة"[1].

ولا يستبعد الإنسان القديم عن ذهنه، فكرة المسخ إلى حجارة، وقد كان يعتقد بقدسيتها، ويبجل ما ينحتون، ومن الناس من يرى "أن الحجارة تسلك سلوكا يشبه سلوك البشر... كما أنها تتزاوج، وقد تنشأ بينها علاقات ود أو عداء"[2]، وهذا المسخ في الغالب يأتي عندما يقترف الإنسان فعلا شائنا، أو يرتكب معصية تغضب الآلهة، من مثل الزنا، وما زالت الديانات السماوية تذكر حكم الزاني والزانية، رجما بالحجارة، وقد كان هذا حكما قديما منذ سومر، فما يمنع إنْ حمي غضب الآلهة أكثر، أن يصير الزاني أو الزانية مسخا من الحجارة، والتي كانت هي حكمه في هذه المعصية رشقا حتى الموت، جاء في أسطورة سومرية، تعود تقريبا لسنة 2355 قبل الميلاد:

"النساء قديما

كانت الواحدة منهن تتزوج رجلين(إشارة إلى فعل الزنا)

النساء في الوقت الحاضر

يُرجمن بالحجارة، إذا فعلن الشيء نفسه"[3].

وكما أن الرجم للعصاة في مقارفة الجنس حكم الآثم من آلهة السماء، ينفذه المؤمنون بالعصاة، كذلك الرجم بالحجارة من السماء، فعل الله بالعصاة المغضوب عليهم، كما حدث

([1]) السواح: **لغز عشتار**، ص251

([2]) ألبيديل: **سحر الأساطير**، ص202

([3]) الماجدي، خزعل: **أديان ومعتقدات ما قبل التاريخ**، ط1، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، 1997م، ص120

بأصحاب الفيل، قال تعالى: "وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سـجيل"[1]، وكما أرسل على قوم لوط، يقول سبحانه: "وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل منضود"[2]، وكما أطلق حجارة من السماء على الكنعانيين بحسب التوراة: "بينما هم هاربون من أمام إسرائيل، وهم في منحدر بيت حورون، رماهم الرب بحجارة عظيمة من السماء إلى عزيقة فماتوا"[3].

إن مسخَ بشرٍ حجارةً وتماثيل، أو حيوانات، كما بسطت ذلك في موضوع مسخ اليهود قردةً وخنازير، بسبب غضب الآلهة عليهم نتيجة معصية، تتواجد في الأساطير، مما يعني أن ذهنية الإنسان القديم قابلة لهكذا تصور واعتقاد، ولا تشعر فيه بأي غضاضة من منطق أو عقل، ومن ذلك مسخ هيبومينيس وأتالانتا إلى أسدين لقيامهما بالمضاجعة في محراب المعبد، وبينما هما يمران "إلى جوار المعبد المتواري في أعماق الغابة، والذي كان إخيون الشهير قد نذر إقامته لأم الإلهة، كان الجهد قد بلغ منهما، بعد أن قطعا مسافة طويلة على الأقدام، فأحسا رغبة في أن يأويا إليه، فيستريحا قليلا، فإذا فينوس(أي عشتار إلهة الحب) تحرك في هيبومينيس الرغبة لمضاجعة زوجته، وإذا هو ينزوي بها في محراب معتم، مسقوف من الأحجار الطبيعية، وحجر الخفاف له قدسيته منذ عهد بعيد، ويجمع كثيرا من تماثيل الآلهة الخشبية، واستسلم هيبومينيس لرغبته، وإذا هو قد دنس المحراب، وإذا التماثيل تزور عنه بوجهها، وكادت أم الآلهة كوبيلي ذات التاج المتعدد الطوابق أن تغرق الآثمين في مياه سيتكس، ولكنها رأته جزاء دون ما يستحقان، ورأت أن تغشى رقبتيهما بشعر أسود، وأن تبدلهما عن أصابعهما مخالب، وأن تحيلهما حيوانين يعتمدان على صدريهما، ومدت لهما ذيلين ينسحبان على وجه الرمال، ورسمت وجهيهما بالعبوس والقطوب، وجعلت حديثهما عواء، وأسكنتهما الغابات التي أصبحت مأواهما الوحيد، إذ أصبحا أسدين يثيران الرعب في قلوب الناس"[4].

وفي أسطورة بيرسيوس، يكثر تحول المحاربين إلى حجارة على صورتهم الأخيرة، وما كان ثيسكيلوس يسخر من بيرسيوس ويتأهب "لقذف رمحه، فإذا هو يجمد في وضعه، ومكانه،

([1]) سورة الفيل، الآيتان: 3،2

([2]) سورة هود: الآية:81

([3]) **سفر يشوع** 10: 11

([4]) أوفيد: **مسخ الكائنات**، ص229–230

إلى الأبد؛ إذ تحول تمثالا من رخام... ولم يكد إيريكس يندفع خطوة للأمام، حتى جمد كتمثال من حجر... وثمة محارب من أنصار بيرسيوس، هو أكونتيوس، كان قد وقع بصره على رأس الجورجونية فجمد... وظنّ أستياجين... ما زال حيا، فضربه بسيفه، فإذا هو يسمع رنين ارتطامه بالحجر، فوقف لساعته متعجبا، وإذا هو الآخر، يتحول تمثالا حجريا، تعلو وجهه قسمات التعجب، ويطول سرد أسماء الجنود الذين هلكوا في هذه المعركة، فلم يبق حيا منهم سوى مائتين، (وكانوا من قبل ألفا مع فينيوس)، تحول مائتان إلى تماثيل حجرية... (وأخير يتوعد بيرسيوس فينيوس)، سوف أجعل منك تمثالا منتصبا في قصر حمي، يبقى على الأبد... عنقه جمد، وجمدت الدموع في عينيه واستحال صخرا، بقيت قسمات الرعب مطبوعة على وجهه كما بقيت يداه تعبران عن خضوعه وذلته..."[1]، وبذلك التحول إلى تماثيل حجرية، في صور مختلفة، "بعضهم وهو يرمي الرمح، وبعضهم وهم شاهرو السيوف، وآخرون وهم يتقون الضربة"[2]، وكانوا "جميعا قد استحقوا العقاب الذي نزل بهم"[3]،

وعندما يقتل أبولو أبناء نيوبي السبعة، تحزن عليهم، وتأسى، ثم تبدأ أرتميس بقتل بناتها، ولم تستطع نيوبي حمايتهن من أرتميس، "وإذ ذاك أحس الآلهة بمنظر الأسى العميق، فحولوا نيوبي إلى حجر، يمثلها واقفة ضارعة الوجه، مستقبلة به السماء، ودموعها تجري، وشفتاها ترتجفان، ووضع التمثال على جبل سيبيلس ملاصقا لجدول ماء رقراق، وقيل أن الدموع ظلت تنهمر على الخدين المرمريين، ذلك بأن نيوبي رغم أنها تحولت إلى حجر، إلا أنها ظلت تحس وتبكي أعزاءها"[4]، وكذلك تحولت أجلاوروس، فعندما حاولت النهوض، "إذا هي تجد أطرافها قد خُدّرت وباتت ثقيلة، فلم تستطع أن تنهض من جلستها، وعبثا جاهدت كي تقف، لكن ركبتيها كانتا خامدتين، وسرت في جسدها برودة شملت أطرف أناملها، وجمد الدم في عروقها فشحب لونها، وتسللت إلى جسدها شيئا فشيئا برودة الموت، فهمدت أنفاسها، ولم تعد تستطيع الكلام، واستحالت تمثالا من الحجر، فقد بياضه الناصع، وغشاه سواد كالح أضفته عليه روحها"[5].

([1]) أوفيد: **مسخ الكائنات**، ص118-120

([2]) غيربر: **أساطير الإغريق والرومان**، ص167

([3]) أوفيد: **مسخ الكائنات**، ص119

([4]) غيربر: **أساطير الإغريق والرومان**، ص58

([5]) أوفيد: **مسخ الكائنات**، ص68

الفصل الخامس

أساطير الرموز

- القرن
- الثور والنسر والأسد
- العدد سبعة

الفصل الخامس

أساطير الرموز

في محاولة الإنسان للتعبير عن المعاني التي تنقدح في نفسه، والمفاهيم التي تجول في خاطره، والأفكار التي تراود ذهنه، يلجأ إلى اللغة، يركب من مفرداتها الدانية لديه، ما يكافئ الذي عنّ له، مكوّنا بواسطتها الدلالات والمعاني، يناولها الآخرين، فيفهمون الفكرة المرادة، والتصور المقصود، ويقارب بها المفاهيم المجردة، ولكن عندما يكون المعنى، من عالم غير عالم المعاني السائرة، يستعصي التحصيل، ويقصر اللفظ عن إدراك الغاية، فيلجأ المرء إلى الإشارة، والرمز، يُكمّل بذلك النقص، أو يعمق المعنى ويوسعه، محمّلا برمزه بعض ماهية المرموز، ومنشئا علائق مع معاني النفوس والعقول، ومشحونا بعواطف الإيحاء والإيمان، تأتي على استيفاء المقصود بأفضل ممكنات اللغات، وتعزز مضامين الخطاب، وتدعم المحتوى الجديد بالإشراقات.

لقد استخدم الإنسان الرموز منذ عهده القديم، وأكثر منها، ويكفي نظرة عجلى على الحضارة المصرية القديمة، أو حضارة ما بين النهرين، حتى يتبين ضخامة الموروث الرمزي، بكثرته الهائلة، قياسا بالاستخدام المباشر للمعاني، وحتى في مجتمعات الإنسان قبل التاريخ، التي لا تعرف الكتابة، لكنها تركت لنا في إرثها رموزا ذوات مضامين، توحي بها طريقة استخدامها، وانتقلت منهم إلى الحضارة القديمة حتى عصرنا الحديث، وظلت تمثل معانيَ، ودلالاتٍ مجردةً عن الحواس، وبقيت هذه الرموز من القوة في حضورها، حتى اقتحمت الأديان المتأخرة، وهجمت على الثقافة الحديثة، من مثل الحمامة في الدلالة على السلام، والأفعى الملتفة على كأس، في دلالتها على الصيدلة والطب، والهلال المنصوب فوق المآذن في دلالته على الإسلام، وغيرها كثير، علما أن الدين السماوي يقدمه بشريّا للناس بلسان قومه، فيستخدم وسائل التواصل المتعارف عليها في مجتمعه حينئذ، من أجل إيصال مبتغى الله سبحانه، ويحقق من البيان كفايته،

قال تعالى: "وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم"[1]، الأمر الذي يشق مدخلا للرموز الأسطورية إلى البيان الديني، ويشرع باب لغة المجتمع لإيصال المعرفة المتوخى.

فهل ظهرت الرموز الأسطورية بمحتوياتها الثقافية القديمة في التفسير؟ وما دلالة القرن، وأين ظهر في التفسير؟ وعلام يوحي الثور والنسر والأسد، ممن يحملون عرش الرحمن؟ وما رمزية العدد سبعة؟ علما أنني صرفت البحث عن رموز أخرى حضرة في التفسير، من مثل البئر والعصا والطائر، واللون الأسود، وغيرها.

القرن

لقد ورد القرن في التفسير في أكثر من موضع، محمّلا بدلالات، وإيحاءات متباينة، ومنها، ذو القرنين، قال تعالى: "ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا"[2]، لن أتناول عرض الآراء المختلفة، المتعلقة بتحديد هوية ذي القرنين، ولا أصله وتاريخه، إنما يهمني في هذا البحث كونه ذا قرنين، فلماذا وصف بذي القرنين أو سمي بذلك؟

يقول ابن كثير ناقلا: "كان ملكا، وإنما سمي ذا القرنين، لأن صفحتي رأسه كانتا من نحاس، قال بعض أهل الكتاب: لأنه ملكَ الروم وفارس، وقال بعضهم: كان في رأسه شبه القرنين، وقال سفيان الثوري...: سُئل علي رضي الله عنه، عن ذي القرنين، فقال: كان عبدا ناصحا لله فناصحه، دعا قومه إلى الله، فضربوه على قرنه فمات، فأحياه الله، فدعا قومه إلى الله، فضربوه على قرنه فمات، فسمي ذا القرنين... ويقال: إنه إنما سمي ذا القرنين؛ لأنه بلغ المشارق والمغارب، من حيث يطلع قرن الشمس ويغرب"[3]، وهو أحد المؤمنَيْن اللذين ملكا الدنيا، مشارقها ومغاربها[4]، وقد شهدتْ أمامه خمسة كباش، لإبراهيم وإسماعيل ببناء الكعبة، استجابة لأمر الله، فطاف ذو القرنين بالبيت[5].

([1]) سورة إبراهيم، الآية:4

([2]) سورة الكهف، الآية: 83

([3]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج1، ص469

([4]) ينظر: السابق، ص469

([5]) ينظر: السابق، ص270. والأزرقي: **أخبار مكة**، ص131

ومن مواضع القرن في التفسير، الملائكة ذوات القرون، قال تعالى: "هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة"[1]، حيث "ينزل ربنا عز وجل في ظلل من الغمام، وحوله الكروبيون، وهم أكثر أهل السماوات السبع، ومن الجن والإنس، وجميع الخلق، لهم قرون كأكعب القنا"[2].

ومنها الصور، الذي هو قرن عظيم، وقد "ثبت في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، سُئل عن الصور، فقال: قرن ينفخ فيه... وأنه قرن عظيم... وجاء في الحديث: كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن، وحنى جبهته، وانتظر أن يؤذن له"[3]، والصور "قرن عظيم، ينفخ فيه ثلاث نفخات: الأولى نفخة الفزع، والثانية نفخة الصعق، والثالثة نفخة القيام لرب العالمين"[4].

ومنها قرن الشيطان متعلق بالشمس، قال رسول الله: "تلك صلاة المنافق، يجلس، يرقب الشمس، حتى إذا كانت بين قرني الشيطان، قام فنقر أربعا، لا يذكر الله فيها إلا قليلا"[5]، وفي حديث نبوي، أشار رسول الله بيده، نحو اليمن، فقال: "الإيمان يمانٍ، هاهنا، ألا إن القسوة، وغِلَظ القلوب في الفدّادين، عند أصول أذناب الإبل، حيث يطلع قرنا الشيطان"[6]، قال الخطابي: "ضرب المثل بقرني الشيطان، فيما لا يحمد من الأمور"[7].

ومنها قرنا كبش الفداء، الذي نزل من الجنة[8]، وقد عُلّقا بالكعبة، بيت الله، حيث ذبحه "إبراهيم فداء إسحاق ابنه، هبط عليه من ثبير كبش أعين أقرن، له ثغاء"[9]، و"في الصحيح أن

([1]) سورة البقرة، الآية: 210

([2]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج3، ص516

([3]) السابق، ص291

([4]) السابق، ص349

([5]) السابق، ج1، ص851

([6]) العسقلاني: **فتح الباري**، ج6، ص431، رقم الحديث: 3302

([7]) السابق، ص434

([8]) ينظر: ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج4، ص25

([9]) السابق، ص25

قرني الكبش كانا معلقين بالكعبة"[1]، ويستدل ابن كثير من تعليق القرنين بالكعبة أن الذبيح هو إسماعيل، بناء على رواية عثمان رضي الله عنه، "قال لي رسول الله: إني كنت رأيت قرني الكبش حين دخلت البيت، فنسيت أن آمرك أن تخمرهما، فخمّرْهما، فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المصلي، قال سفيان: لم يزل قرنا الكبش، معلقين في البيت حتى احترق البيت، فاحترقا، وهذا دليل مستقل على أنه إسماعيل عليه الصلاة والسلام، فإن قريشا توارثوا قرني الكبش، الذي فدى به إبراهيم، خلفا عن سلف، وجيلا بعد جيل، إلى أن بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم"[2].

وكما ظهر القرن في التفسير، بشكل لافت، فإنه يحضر الأساطير بدلالات، وإيحاءات، واقترانات عديدة، ومع محاولات الإنسان المعاصر فهم دلالات هذا الرمز، من خلال سياقاته، واقتراناته، تبقى هذه المحاولات تتمخض عن مفاهيم تقترب من الدلالات القديمة، في نفس الإنسان القديم، وليس بالضرورة أن تتطابق تماما، في أبعادها الشعورية والإيحائية، وأنّى ذلك مع حالة المعاصرة التي تغرب معها ذوات القرون، كما غربت تلك المفردات عن اللغة المستخدمة، وكما غربت معتقداتها الزاخرة قبلئذٍ.

وقد حمّل المعاصرون القرون معاني الخصب والتقديس والقيادة والقوة[3]، كما تشير إلى إلى "المجد والعظمة واتساع السلطة، ما دامت من طبيعة إلهية"[4]، وفي هذا السياق ظلت الشعوب الأفريقية "تكلل ملكها بالقرون خلال حفل التنصيب"[5]، وفي ذلك، ما يدل على ارتباط القرون بالقوة والسلطة، كعهدها القديم.

إن التاج الملوكي المكلل بالقرون، سلوك إنساني قديم، يعود لآلاف السنين قبل الميلاد، وهو امتداد لاستخدام القرون بمعانها وإيحاءاتها، والذي ظهر ما يدل عليه في العصر النيوليتي

([1]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج1، ص267

([2]) السابق، ج4، ص25

([3]) ينظر: ألبيديل: **سحر الأساطير**، ص89. و فريزر: **أدونيس**، ص120

([4]) نعمة: **ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة**، ص28

([5]) السابق، ص28

(8000-5000) ق.م[1]، وربما حاجة الانسان لاستعمال القرون في ذلك العصر للتقطيع والحفر بعد تحويرها[2]، أكسبها شيئا من الأهمية والاهتمام، كما استخدمت كرمـوز مقترنـة بالآلهـة، وبالموتى، ففي العصر الحجري القديم (الباليوليت)، حـوالي: (500000-12000)ق.م، الـذي ظهر فيه إنسان النياندرتال[3]، حيث عثر في كهف لوسيل بفرنسا، على " رسم امـرأة بأبعـاد مضخمة، تحمل قرنا بيدها اليمنى، قد يكون هذا القرن هو النمـوذج الأصـل لقـرن الـوفرة المعروف... ذات الصلة بزيادة خصوبة الأرض، وانجاب الذرية"[4]، كما عثـر علـى قـرون للماعز "زرعت حول هيكل طفل نياندرتالي في أوزبكستان، تـردد أصـداء بعيـدة لطقـوس ومعتقدات، من العصر النيوليتي اللاحق، تدور حول قرون الماعز أو الثور، والتـي اعتبـرت رمزا لقوة ماورائية عظمى، ومقرا لها"[5].

وتظهر هذه القرون في معابد الآلهة، في حقبة ما قبل التاريخ، ففي "فخاريات تل حلف، حافلة بالأشكال التزيينية لقرون الثور الوحشي، أما في شتال حيوك، فلا يكاد يخلو معبـد مـن معابدها الكثيرة من رأس الثور الوحشي"[6]، بقرنين، ويعود للألف السـادس قبـل المـيلاد[7]، وتعتبر "رؤوس الثيران تجليات الإله... وقرن الثور (رمز) الحياة"[8].

لقد ظهر ذو القرنين في أساطير ما بين النهرين، كوصف للآلهة أو أنصـاف الآلهـة، و"منذ العصور القديمة، كانت العلامة المميزة للكائنات الدينية، تاج أو قلنسوة ذات قرون، وفـي سومر، كما في الشرق الأوسط كله، تأكد الرمز الديني للثور... وقد نُقل بدون انقطاع"[9]، وظل

([1]) ينظر: الماجدي: **أديان ومعتقدات ما قبل التاريخ**، ص27

([2]) ينظر: السابق، ص35

([3]) ينظر: السابق، ص26

([4]) ألبيديل: **سحر الأساطير**، ص79

([5]) السواح: **دين الإنسان**، ص129

([6]) السواح: **لغز عشتار**، ص73

([7]) ينظر: السابق، ص73

([8]) إلياد، ميرسيا: **تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية**، ج1، ص65

([9]) السابق، ص80

الثور ذو القرنين، النموذج الإلهي المعروف بالقوة والعظمة، سائرا في الحضـــارات القديمـــة، فوصف الإله نينورتا العظيم بذي قرنين، تقول الأسطورة:

"أيها البطل المتوج بشكل رائع

يا بكر إنليل الذحي منحته ننليل نعما لا تنتهي

أيها السيد الحقيقي

سليل الحبر الأعظم والكاهنة الكبرى

البطل ذو القرنين المبسوطين كقرني هلال

(وهنا يظهر ارتباط القرنين بهلالي القمر)

أنت الذي تضمن حياة مديدة لسيد البلاد

(وهذا يُظهر تشابها، مع ما تضافر من روايات في طول عمر ذي القرنين، المذكور في القرآن)

أنت الذي بسبب قدرتك الفائقة والخارقة

للطبيعة تفتح بوابات السماء

أنت المد العالي الذي يغمر الأرض

(وفي هذا إشارة واضحة إلى سيطرته على مشارق الأرض ومغاربها، وبلوغه مشرق الشمس في السماء، ومغاربها)

نينورتا أيها الإله الرهيب"[1].

إن وصف نينورتا بذي القرنين ليس وصفا حصريا، فقد وصف غيره بذلك، وتكاد أكثر الآلهة تظهر بقرنين أو أكثر، علما أن نينوراتا هو من حارب طائر زو الذي سرق ألواح القدر، وقد أتيت على ذلك في موضع اللوح المحفوظ، كذلك جلجامش، ظهر في الأسطورة الرافديـــة، بوصف ذي القرنين، وجاء في تمجيده:

([1]) الشواف: **ديوان الأساطير**، ج3، ص65

"إنه ملك فذ يفوق مشاهير الملوك

البطل وليد أوروك، إنه ثور يهدد بقرنه

قائد لرفاقه يسير في مقدمتهم

وهو سند لهم عندما يسير في المؤخرة

إنه سد صلب يحمي جنوده

إنه المد الهائج يجرف حتى الجدران الحجرية

...جلجامش الكامل القوة

رضيع البقرة السامية، رضيع نينسون البقرة المقدسة

هكذا كان جلجامش ذو الكمال والعظمة"[1].

وعند تعداد مآثره يأتي ذكر بلوغه مشرق الشمس، وسيطرته على الشرق والغرب، حتى بلغ عين الحياة، مجتازا البحار المظلمة، والغائبة عنها الشمس[2]، في أوصاف تقترب من أوصاف ذي القرنين الواردة في التفاسير، مع شيء من التحوير:

"هو الذي فتح ممرات الجبال

حفر الآبار على حافة الجبال

قام باجتياز البحر الوسيع حتى مكان مشرق الشمس

استكشف مناطق الكون جميعها سعيا وراء الحياة بلا نهاية"[3].

"هو الذي مثل حبل مشدود من الأفق وحتى سمت

السماء يسيطر على جميع البلاد

([1]) الشواف: **ديوان الأساطير**، ج4، ص274–275

([2]) الماجدي: **إنجيل بابل**، ص238

([3]) الشواف: **ديوان الأساطير**، ج4، ص275

الملك الذي يمسك بزمام البلاد كلها

من المشرق إلى المغرب"[1].

وكما احتفظ إبراهيم عليه السلام بقرني كبش الفداء السماوي، يحتفظ جلجامش بقرني ثور السماء:

"ثم دعا جلجامش بعد ذلك الصناع بكاملهم

وكذلك شاغلي المعادن

الذين أعجبوا بضخامة قرني الثور

إذ كان حجمهما يحتاج لترصيعه

ستين بيلتو من اللازورد

وتلبيسهما بالذهب...

قدمهما جلجامش قربانا لطقوس

مسح حامية لوجال باندا"[2].

ونجد في وصف بيت الإله أنكي (أي المعبد)، حضورا لقرني ثور أيضا، مما يوحي بارتباط بين القرن والمعبد، على شاكلة قرني الكعبة:

"أنت البيت الذي يجله دجلة ويجله الفرات

أنت الذي ينشر البهجة في أبسو أنكي

...

حوامل ذروة سقفك تلقت في طرفها

([1]) الشواف: **ديوان الأساطير**، ج4، ص444

([2]) السابق، ص348

ثورا سماويا...

مسلة سقفك ثور بقرنين متطاولين"[1].

وعندما قرر الآنونانكي شكر الإله مردوخ، قالوا:

"سنبني لك هيكلا مقدسا

مكانا به تركن مساء لنستريح

هناك سنشيد لك منصة وعرشا"[2]،

ولم يفتقر هذا الهيكل، أو بيت الإله، إلى وجود القرون، بل كانت رائعة تخطف الأبصار:

"وبعد أن أنهوا برجه المدرج

بنوا في الداخل مسكنا لمردوخ وإنليل وإيا

ثم جلس مردوخ أمامهم في جلال

ومن الأسفل شخصوا بأبصارهم لقرون البرج الرائعة"[3].

وفي رسم بارز يعود للقرن الثالث والعشرين قبل الميلاد، يُمثل هذا الرسم نصب (نرام سين)، نجده "يلبس خوذة يعلوها قرنان هما رمز ملكه"[4]، وفي نصب حمورابي المشهور، الذي يتسلم فيه شريعته من الإله شمش[5]، يظهر وهو "ذو لحية بالغة الطول، يلبس تاجا، فيه خمسة أزواج من القرون"[6]، ويقابله حمورابي في خشوع، وبلحيته الطويلة، والعمامة على رأسه، وربما هذا الإله شمش هو الذي أوحى فكرة قرني الشيطان، وتعلقهما بالشمس، خاصة بعدما

([1]) الشواف: **ديوان الأساطير**، ج3، ص147

([2]) السواح: **مغامرة العقل الأولى**، ص83

([3]) السابق، ص84

([4]) موسكاتي، سبتينو: **الحضارات السامية القديمة**، ترجمة: يعقوب بكر، دار الراقي، بيروت، 1986م، ص110

([5]) ينظر: الماجدي: **إنجيل بابل**، ص267

([6]) موسكاتي: **الحضارات السامية القديمة**، ص110

تحول الناس عن عبادة الشمس، أو بمعنى آخر، ظهور فكرة القرن للشيطان، كانت بعد شـــيطنة الدين السابق الذي يدين بالشمس أو القمر إلها مرموزا له بالقرن، وقد بدا في الخطاب الإسلامي وصف إله الساميين إيل، المقترن بالثور، والمتعلق بالشمس إلها، أو بالقمر معبودا، ظهر بقرني الشيطان[1]، وتظهر الشمس بقوة في الحضارة المصرية كمعبود بين قرنين على رأس الآلهــة، وكما سيأتي فيما بعد.

ومما يعزز فكرة قرني الشيطان إضافة لما سبق، أن آلهة العالم السفلي، والتـــي تشـــبه فكرة الشيطان، صُوّرت بقرنين في الأساطير، ففي تعويذة خاصة بالإله نركال تبيّن هيئته:

"له قرنا ثور...

له قدما أسد"[2].

كذلك ظهرت بعض مخلوقات تيامات التي تصدى لها الإله مردوخ، وقضى على كينغو الشيطان، الذي قاد مخلوقات تيامات، ظهرت بعض خلائقها "بســيقان المــاعز وقرونهــا"[3]، وبحسب رسم كهفيّ، كان الساحر الكبير، أو رب الحيوانات في المعتقدات السلتية "بــرأس أيــل تعلوه قرون كبيرة"[4]، والساحر يحمل دلالة تقترب من الشيطان، وتجليه بصورة القرون يُعبــر عن الوجه الشرير لمعانيها، مقابل وجهها الخيّر الآخر.

وفي خلق مردوخ للعالم وتنظيمه، لا تغيب القرنان كعلامة مميّزة، لإله هام، وهو القمر، الأمر الذي يُحمّله دلالة شيطانية، في حالة نبذ عبادة القمر، وغيره من الأجرام السماوية:

"ثم أخرج القمر فسطع بنوره وأوكله بالليل

وجعله حيلة له وزينة وليعين الأيام

([1]) ينظر: عجينة، محمد: **موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالتها**، ج1، ص224

([2]) الماجدي، خزعل: **بخور الآلهة**، ط1، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، 1998م، ص296

([3]) يحيى، أسامة عدنان: **الآلهة في رؤية الإنسان العراقي القديم**، ط1، أشور بانيبال للكتاب، بغداد، 2015م، ص74

([4]) إلياد: **تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية**، ج2، ص161

أنْ اطلع كل شهر دون انقطاع مزينا بتاج

وفي أول الشهر عندما تشرق على كل البقاع

ستظهر بقرنين يعيّنان ستة أيام"[1].

ويظهر لدى بعض شعوب السودان ارتباط بين الكبش والقمر، وظهور الهلال الموحي بشكل قرني الكبش، فيعتقدون أن أسلافهم قبضوا على الكبش الذي كان يسرق الدخن، "ولكن فجأة حل الظلام بعد ذلك، فنصح عجائز القبيلة بإطلاق سراح الكبش، ولما فعلوا قفز هذا عاليا، وتحول إلى هلال"[2].

إن القرن رمز ألوهيّ، يظهر في تاج الآلهة والملوك على السواء، فقد ظهر الإله أشور، يلبس "قلنسوة طويلة، لها قرنان، وفي يده اليسرى العصا، والحلقة شعارا السلطة، وفي يده اليمنى الهراوة، وهو واقف على حيوانين خرافيين، إحداهما الأفعى الحمراء(حيوان مردوك)، والثاني أسد ذو قرنين"[3]، "وقد اتبع الاسكندر ذات السياسة، فتوجه لأرض الرافدين... ونجح في الوصول إلى اتفاق مع الكهان، حيث ألبسوه على شاطئ الفرات تاج الإمبراطورية ذا القرنين، تاج شرعية الملك والخير والخصب والبركة، ورمز الألوهية، والحكم بحق السماء، وذلك التاج الذي لم تزل اللوحات تصوره فوق رأس الإله (حداد)، أو (أدد)، والبروق والصواعق تنبعث من قرونه"[4].

وبرز الإله إيل، في اللقى الأوغارتية، "رئيس مجمع الآلهة في السامية... وقد مُثّل على مسلة، جالسا على العرش، معظما ملتحيا، مرتديا ثوبا طويلا مع التاج المحاط بقرون"[5]، "كرمز للقوة"[6]، وقد وجد تمثال عملاقي الحجم، لإله شبيه ببعل وهرقل، "على رأسه قرنان غليظان،

([1]) السواح: **مغامرة العقل الأولى**، ص77

([2]) ألبيديل: **سحر الأساطير**، ص158

([3]) موسكاتي، سبتينو: **الحضارات السامية القديمة**، ص264

([4]) القمني: **الأسطورة والتراث**، ص234

([5]) إلياد: **تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية**، ج1، ص190

([6]) كورتل: **قاموس أساطير العالم**، ص23

وله لحية جعداء، ويستقر شعره على كتفيه، في ثلاث ضفائر"[1]، وتظهر القرون في إله ابريز، "في شكل رجل ملتحٍ، يلبس على رأسه قبعة مدببة عالية، تزينها عدة أزواج من القرون"[2]، كما وجد في شمال سوريا تمثالا برأس إنسان، له لحية وقرنان، وهي رمز القوة والخصب"[3].

وأما في الأساطير المصرية، فحضور الشمس أو القمر البدر بين قرنين علـــى رؤوس الآلهة أو الملوك، ظاهرة بارزة في موروثها الحضاري، وتشـــير الرســـومات، مـــن "القـــرون والشمس، إلى طبيعة مرتديها، وتصور مظهرهم المقدس... في خضم رموز القوة الإلهيـــة"[4]، فالإلهة "حتحور، رغم أنها تحمل رأسا بشريا، ذا وجه أنثوي، إلا أن الرأس زود أيضا، بقرنـــي بقرة، بينهما قرص الشمس"[5]، كما صُوّر أوزيريس بهيئته البشرية، "حاملا على رأســـه تـــاج الصعيد الأبيض، مُلحقا به ريشتان على الجانبين، مستقرا على زوجين من قرون الكباش"[6].

ومنذ أن رأى الإنسان في القمر تجسيدا لعشتار، ربط في ذهنه رمزيا، بين قرون البقر، وقرني الهلال، وصور في خياله الأم الكبرى، على هيئة بقرة سماوية، ترسم قرناها هلالا فـــي السماء"[7]، فهذه الإلهة "إيزيس، إن لم تظهر برأس بقرة، ظهرت وعلى رأسها قرنان كبيران[8]، كبيران[8]، غالبا ما يحتويان قرص القمر البدر بين طرفيهما، كذلك الأمر فيما يتعلـــق بعشـــتار البابلية، وعشتار الكنعانية"[9]، وفي اعترافات المتوفى لآلهة العالم السفلي، يأتي على ذكر الإلـــه ذي القرنين[10].

([1]) فريزر: **أدونيس،** ص107

([2]) السابق، ص110

([3]) السابق، ص120

([4]) هورنونج، إريك: **ديانة مصر الفرعونية،** ترجمة: محمود ماهرطه وزميله، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1995م، ص122

([5]) تشرني: **الديانة المصرية القديمة،** ص31

([6]) السابق، ص39-40

([7]) السواح: **لغز عشتار،** ص70

([8]) انظر: شكل رقم(7) في ملحق الصور

([9]) السابق، ص70-71

([10]) ينظر: إم هرو، برت: **كتاب الموتى الفرعوني،** ص127

وأما في المعتقد الزرادشتي، فتصوَّر النجمة تيشتريا في شكل ثور مقرن، وهي تعتبر أهم النجوم في السماء، فهي النجمة الأولى، وذات الأهمية الكبرى[1]، بالنسبة للفرس، يقول زرادشت مستغيثا بمخلوقات آهورامازدا:

"أستغيثُ بتيشتريا، النجمة اللامعة في هيئة ثور ذهبي ذي قرون"[2]، وفي عيد الثور يعتقدون أن ثورا يجرّ عربة القمر، "وهو ثور من ضوء قرناه من ذهب، وقوائمه من فضة، يظهر ساعة ثم يغيب، والموفق لرؤيته، مجاب الدعوة في ساعة نظره إليه"[3].

وفي أساطير الإغريق والرومان، عبدوا ذا القرنين أمون، "على شكل كبش، وعندما وحّد الإغريق بينه وبين زيوس–آمون، صوّره دائما بقرني كبش"[4]، وفي أسطورة بيرسيوس، حيث ينسب لأمون خطف العروس التي وعد بها فينيوس، "خطفها أمون ذو القرنين"[5]، كذلك صور رب النهر بإله ذي قرنين[6]، وقد كان كيبوس قائد جيش الجمهورية، الذي حرث الحقول بزوج من الثيران، من شروق الشمس إلى غروبها، وارتقى عرشا خالدا، وتوج بالغار، رمز السلام، كان بقرنين في رأسه، وقد "جمع الشعب، وأعضاء مجلس الشيوخ الموقر، بعد أن أخفى قرنيه تحت أوراق الغار، رمز السلام، ثم اعتلى ربوة سواها له جنوده البواسل، وأقام الصلاة لآلهة الأجداد، حسب العرف المألوف، ثم خطب في الحشد محذرا، إن بينكم رجلا سوف يصبح عليكم ملكا... لسوف أكشف لكم عنه؛ لتعرفوه، لا بذكر اسمه، بل بذكر العلامة التي تميّزه، فله قرنان يعلوان جبينه... فأخذ الناس يتطلعون إلى رؤوس بعضهم البعض، ليتعرفوا لمن تكون له هذه القرون، فانطلق كيبوس قائلا: هاهوذا من تتطلعون إليه، وعندما نزع إكليل الغار الذي يغطي رأسه... كشف عن صدغيه، وقرنيه المطلين منهما، فعرفه الجميع... ونقشوا على

([1]) ينظر: عبد الرحمن، خليل: **أفستا**، ص785

([2]) السابق، ص376

([3]) كريستنس: **إيران في عهد الساسانيين**، ص165

([4]) أوفيد: **مسخ الكائنات**، ص130

([5]) السابق، ص116

([6]) السابق، ص306

الأعمدة البرونزية القائمة عند مدخل المدينة، قرنين يمثلان قرني البطل، تخليدا لـــذكرى هـــذه المعجزة"[1].

أما في العهد القديم فيرد القرن والقرون بدلالة أسطورية فـــي مـــواطن كثيـــرة، تبلـــغ العشرات، سأنقل بعضا منها، مما يحقق المقصود في شيوع استخدام القـــرن بمعـــان رمزيـــة حينذاك.

إن قرن البوق يُسقط سور المدينة الكنعانية، فيسيطر عليهـــا اليهـــود، وينتصـــرون... ويذكرنا انهداد السور مع صوت القرن، بنفخة الفزع والصعق من صور يوم القيامة، "ويكـــون عند امتداد صوت قرن الهتاف، عند استماعكم صوت البوق... فيسقط سور المدينة في مكانه"[2]، ونجد قرون صدقيا تفني الأراميين، حيث عمل "لنفسه قرون حديد، وقال: هكذا قال الرب: بهذه تنطح الأراميين حتى يفنوا"[3]، ويقول أيْثان في المزمور متضرعا إلى الرب: "برضاك ينتصب قرننا"[4]، وقال الرب: "باسمي ينتصب قرنه"[5]، وأجعله "أعلى من ملوك الأرض"[6]، وكان داود داود عليه السلام بقرن، يقول الرب: "هناك أنبتُ قرنا لداود"[7]، وظهرت لدى بعض الحيوانـــات بمعان رمزية، جاء التيس "إلى الكبش صاحب القرنين... وكسر قرنيه... فتعظم تيس المعز جدا، ولما اعتز، انكسر القرن العظيم، وطلع عوضا عنه أربعة قرون معتبرة، نحو ريـــاح الســـماء الأربع، ومن واحد منها خرج قرن صغير، وعظم جدا نحو الجنوب، ونحـــو الشـــرق، ونحـــو

([1]) أوفيد: **مسخ الكائنات**، ص327–328

([2]) **يشوع** 6: 5

([3]) **أخبار الأيام الثاني** 18: 10

([4]) **مزمور** 89: 17

([5]) **مزمور** 89: 24

([6]) **مزمور** 89: 27

([7]) **مزمور** 132: 17

الأراضي، وتعظم حتى إلى جند السماوات"[1]، فأما الكبش فيمثل ملك فارس، والتيس يمثل ملك اليونان[2].

وهذه القرون، منها ما يكون عنوانا للخير، كما ورد في ذي القرنين، وكبش الفداء، التي علقت في الكعبة، ومنها ما يكون عنوانا للشر، كما وصف الشيطان بقرنين، "وكل قرون الأشرار أعضِب، قرون الصديّق تنتصب"[3]، وفي رمزية الكبش للفرس، والتيس لليونان، ما يجعل من أحدهما خيرا، والآخر شرا.

كذلك تظهر القرون في دور شيطاني ضد أرض يهوذا، "فرفعتُ عيني، ونظرت، وإذا بأربعة قرون، فقلت للملاك الذي كلمني، ما هذه؟ فقال لي: هذه هي القرون التي بددت يهوذا وإسرائيل وأورشليم"[4]، ثم يأتي أربعة صناع، "ليرعبوهم، وليطردوا قرون الأمم، الرافعين قرنا على أرض يهوذا؛ لتبديدها"[5]، ويقيم عوضا عنها، قرن بني إسرائيل، الذي يمثل وجه الخير، كما في المزمور، "ينصب قرنا لشعبه، فخرا لجميع أتقيائه، لبني إسرائيل، الشعب القريب إليه"[6]، وعندما يَسّرَ الله سبحانه الفداء، كان الكبش بقرنين، "فرفع إبراهيم عينيه، ونظر، وإذا كبش وراءه، ممسكا في الغابة بقرنيه"[7].

وفي العهد الجديد، نجد في رؤيا يوحنا اللاهوتي، أبواق الملائكة التي تحدث نوعا من الفزع والصعق، تصدر صوتها من القرون، "ثم بَوّق الملاك السادس، فسمعت صوتا واحدا، من أربعة قرون مذبح الذهب، الذي أمام الله"[8].

([1]) **دانيال** 8: 6-10

([2]) ينظر: **دانيال** 8: 20-21

([3]) **مزمور** 75: 10

([4]) **زكريا** 1: 18-19

([5]) **زكريا** 1: 21

([6]) **مزمور** 148: 14

([7]) **التكوين** 12: 13

([8]) **رؤيا يوحنا اللاهوتي** 9: 13

الثور والنسر والأسد

ينقل ابن كثير رواية عن ابن عباس، يصفها بالإسناد الجيد[1]، في تبيـان نـوع حملـة العرش الإلهي، وأوصافهم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: صدق أمية بن أبي الصلت في شيء من شعره، فقال:

رجل وثور تحت رجل يمينه والنسر للأخرى وليث مرصد"[2].

وهذا "يقتضي أن حملة العرش أربعة، فإذا كان يوم القيامة، كانوا ثمانية كما قال تعالى: "ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية"[3]، وهنا سؤال، وهو أن يقال: ما الجمع بين المفهوم من من هذه الآية ودلالة هذا الحديث؟ وبين الحديث الذي رواه أبو داود"[4]، وفيه: "ثم فوق ذلك (أي فوق السماء السابعة)، ثمانية أوعال، بين أظلافهن وركبهن، مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم على ظهورهن العرش"[5]، فالجمع كما ذكره ابن كثير سابقا، الأربعة قبل يوم القيامة، والثمانية يـوم القيامة.

وهذه الرواية تتفق مع ما جاء في الكتاب المقدس بعهديه، القديم والجديد، ففـي العهـد القديم، جاء وصف حملة العرش، "شبه أربعة حيوانات و هذا منظرها: لها شبه إنسـان. ولكـل واحد أربعة أوجه، و لكل واحد أربعة أجنحة. وأرجلها أرجل قائمة، وأقدام أرجلها كقدم رجـل العجل... و أيدي إنسان تحت أجنحتها... أما شِبْهُ وجوهها فوجه إنسان، و وجه أسـد لليمـين لأربعتها، و وجه ثور من الشمال لأربعتها، و وجه نسر لأربعتها"[6]، ويتكرر هذا التصور فـي العهد الجديد، "في وسط العرش، وحول العرش أربعة حيوانات مملوءة عيونا، من قـدام ومـن وراء. والحيوان الأول شبه أسد، والحيوان الثاني شبه عجل، والحيوان الثالث له وجه مثل وجه

([1]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج4، ص105

([2]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج4، ص105

([3]) سورة الحاقة، الآية: 17

([4]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج4، ص105

([5]) السابق، ص105

([6]) **حزقيال** 1: 5-10

إنسان، والحيوان الرابع شبه نسر طائر. والأربعة الحيوانات، لكل واحد منها ستة أجنحة حولها، ومن داخل مملوءة عيونا"[1].

وأما وظيفة كل من هؤلاء الأربعة من حملة العرش، فهي الشفاعة، فمن "هو على صورة ابن آدم، يشفع لبني آدم في أرزاقهم، ومنهم من هو على صورة الثور، يشفع للبهائم في أرزاقها، ومنهم من هو على صورة النسر، يشفع للطيور في أرزاقها، ومنهم من هو على صورة الأسد يشفع للسباع في أرزاقها"[2].

وأما اختيار هذه الحيوانات دون سواها، فيؤكد ما علق في ذهن الإنسان القديم، بتفاعله مع بيئته، من سؤددها على فصائلها، فالأسد سيد الوحوش، والثور سيد الدواب، والنسر سيد الطيور، يقول وهب بن منبه: "مسخ بخت نصر أسدا، فكان ملك السباع، ثم مسخ نسرا، فكان ملك الطير، ثم مسخ ثورا فكان ملك الدواب"[3].

نجد الأسد يسلك سلوكا يخرجه عن عادته البهيمية، في نظر الإنسان، بما يجعله ذا نفحة سماوية مقدسة، فهو "لا يأكل إلا مَن أتى مُحرّما"[4]، وفي الكتاب المقدس يمتنع عن أكل دانيال عندما قذفه ملك الكلدانيين في جب الأسود، بسبب وشاية الوزراء به، قالوا: "إن دانيال الذي من بني سبي يهوذا، لم يجعل لك أيها الملك اعتبارا، ولا للنهي الذي أمضيته"[5]، "حينئذ أمر الملك فأحضروا دانيال، وطرحوه في جب الأسود، أجاب الملك، وقال لدانيال: إن إلهك الذي تعبده دائما هو ينجيك، وأتى بحجر، ووضع على فم الجب، وختمه"[6]، ولكن في الصباح الباكر ذهب إلى الجب، ونادى دانيال: "هل إلهك الذي تعبده دائما، قدر على أن ينجيك من الأسود، فتكلم دانيال مع الملك: يا أيها الملك عش إلى الأبد، إلهي أرسل ملاكه، وسد أفواه الأسود، فلم

---

(1) **رؤيا يوحنا اللاهوتي** 4: 6-8

(2) القزويني: **عجائب المخلوقات والحيوانات، وغرائب الموجودات**، ص56

(3) الأصفهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله: **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، دار الكتب العلمية، بيروت، ج4، ص64

(4) السابق، ج6، ص95

(5) **دانيال** 6: 13

(6) **دانيال** 6: 16-17

تضرني، لأني وجدت بريئا قدامه، وقدامك أيضا، أيها الملك، لم أفعل ذنبا، حينئذ فرح الملك به، وأمر بأن يصعد دانيال من الجب، فأصعد دانيال من الجب، ولم يوجد فيه ضرر، لأنه آمن بإلهه، فأمر الملك، فأحضروا أولئك الرجال الذين اشتكوا على دانيال، وطرحوهم في جب الأسود، هم وأولادهم ونساءهم، ولم يصلوا إلى أسفل الجب، حتى بطشت بهم الأسود، وسحقت كل عظامهم"[1]، وهذه الحالة غير العادية للأسود تتكرر مع مولى رسول الله سفينة رضي الله عنه، يقول: "ركبت البحر، فانكسرت سفينتي التي كنت فيها، فركبت لوحا من ألواحها، فطرحني اللوح في أجمة فيها الأسد، فأقبل يريدني، فقلت: يا أبا الحارث(من كُنى الأسد[2])، أنا مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فطأطأ رأسه، وأقبل إلي، فدفعني بمنكبه حتى أخرجني من الأجمة، ووضعني على الطريق، وهمهم، فظننت أنه يودعني، فكان ذلك آخر عهدي به"[3]، ويظهر داود في صورة الملك الذي "يروض بيديه العاريتين أسدا[4]، في تعبير عن الشر، وقسوته الشيطانية التي يغالبها داود بحكمته وقوته المنتصرة، في حين نجد جلجامش يخنق أسدا في يديه العاريتين[5]، ليدل على قدرته العظيمة، وشجاعته الفائقة، التي منحته إيّها الآلهة، مما يجعله نموذجا في اللاحقين للشجاعة والبطولة والقوة.

ومع هذه المنقبة للأسد، نجد من الصحابة من لقب بأسد الله، مثل حمزة بن عبد المطلب[6]، "وسمي يسوع المسيح أسد جود"[7]، علاوة عن شيوع أسماء الأسد وكناه[8]في الناس الناس عامة، وفي بعض القبائل، مثل عبد الأسد[9]، مما يوحي بارتباط وثيق بين الأسد

([1]) **دانيال** 6: 20-24

([2]) الدميري: **حياة الحيوان الكبرى**، ج1، ص38

([3]) الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد: **المعجم الكبير**، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ج7، ص94، رقم الحديث: 6432

([4]) سيرنج: **الرموز**، ص98

([5]) السابق، ص88

([6]) ينظر: الدميري: **حياة الحيوان الكبرى**، ج1، ص39

([7]) سيرنج: **الرموز**، ص86

([8]) ينظر:السابق،ص38

([9]) الحوت: **في طريق الميثولوجيا عند العرب**، ص56

والإنسان، كما عبدت قبائل من العرب يغوث[1]، ممثلا بإله الأسد[2]، وتسمى العرب بعبد يغوث[3]، كما عُبد الأسد في إيران القديمة[4].

إن الأسد "يعتبر رمزا للقوة"[5]، ويجسد: "الشجاعة، الشمس، الخلود، الزمن، كما أنه غالبا ما يجسد الحيوية، والسلطة الحامية"[6]،كما يرمز لدور الحارس والواقي والحامي، ويظهر مُمثّلا عند بوابات المعابد والقصور[7].

لقد اقترنت الآلهة أو الملوك بالأسد، فهذا هرقل، يصور في شكل إله، واقف على أسد[8]، وفي شعار مردوخ، تصور "قائمتاه الأماميتان قائمتي أسد، وقائمتاه الخلفيتان قائمتي نسر"[9]، وديونيزوس يتجلى في الأسد والثور، وهو "على علاقة مع كلية الحياة، كما تظهره علاقاته مع الماء والبذور والدم والمني، والإفراطات الحيوية المستترة، بتجلياته الحيوانية؛ ثور، أسد، تيس"[10]، وظهر الأسد شعارا لآلهة عديدة، في بلاد سومر وآشور[11]، وكانت كراسي عرش الفراعة تنتهي قوائمها بمقادم أسد، تصميم شائع[12]، ومُثّلت الإلهة سيبيل، "جالسة على العرش بين أسدين"[13].

كذلك للثور حضور خرافي غير عادي لدى الإنسان القديم، فهو الذي يحمل الأرض، ومن تحته الحوت؛ كيلا تميد، حيث "خلق الله عز وجل ثورا عظيما، له أربعة آلاف عين،

([1]) ينظر: الكلبي: **كتاب الاصنام**، ص10. وعلي، جواد: **المفصل في تاريخ العرب**، ج6، ص260

([2]) ينظر: علي، جواد: **المفصل في تاريخ العرب**، ج6، ص261–262. والحوت: **في طريق الميثولوجيا**، 57–58

([3]) ينظر: علي، جواد: **المفصل في تاريخ العرب**، ج6، ص261

([4]) ينظر: سيرنج: **الرموز**، ص91

([5]) ديمترييف، يوري: **الإنسان والحيوان عبر التاريخ**، ص37

([6]) سيرنج: **الرموز**، ص86

([7]) السابق، ص93

([8]) ينظر: فريزر: **أدونيس**، ص114

([9]) يحيى، أسامة عدنان: **الآلهة في رؤية الإنسان العراقي القديم**، ص70

([10]) إلياد: **تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية**، ج1، ص442

([11]) ينظر: سيرنج: **الرموز**، 87

([12]) ينظر: السابق، ص97

([13]) السابق: ص96

ومثلها آذان، ومثلها أنوف وأفواه وألسنة وقوائم، (وله أربعون ألف قرن، وعلى متنه الأرضون السبع[1])، ما بين كل اثنتين منها مسيرة خمسمئة عام، وأمر الله تعالى هذا الثور، فدخل تحت الصخرة فحملها على ظهره وقرنه، واسم هذا الثور كيوثا"[2]، وهذا يتشابه مع معتقد شعوب الفولغا والقفقاس، في "أن ثورا مهولا يسند الأرض بقرنيه"[3]، وقريبا من ذلك، "كانت الإلهة نوت، تصور في هيئة بقرة، تمثل أرجائها الأعمدة الأربعة التي ترفع السماء"[4]، وكان رع يجلس على ظهرها في زورقه، ولديهم اعتقاد آخر، في أنّ حملة رع ثمانية، حيث "رمزوا إليه بالشمس ذات الأجنحة، وأسفل منها ثمانية، تحمل عرش الإله رع، وهم حملة العرش"[5]، وقال ابن عربي: هذا الثور، "هو الذي رآه السامري، فتخيل أنه إله موسى، فصنع لقومه العجل"[6]، وظهر الثور من السماء بطلب من عشتار، توجهت به إلى أبيها آنو، لتواجه جلجامش الذي لم يخضع لها:

"اخلق لي يا أبي الثور السماوي

لكي أقضي على جلجامش

ولكي أجعل النار تلتهم مقره"[7]،

وبعد أخذ الاحتياطات اللازمة من تكديس الحبوب، وتوفير العشب، خشية المجاعة، نتيجة هكذا صراع، تستمر سبع سنين، يستجيب آنو:

"أبي أعطيني مقود الثور السماوي

لدى سماع آنو تصريحات عشتار هذه

---

(1) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج4، ص583

(2) الدميري: **حياة الحيوان الكبرى**، ج1، ص590

(3) ألبيديل: **سحر الأساطير**، ص113

(4) الماجدي: **الدين المصري**، ص84

(5) هاشم، محمد: **بين الأساطير الصهيونية والشرائع السماوية**، ص83

(6) ابن عربي، أبو عبد الله محمد: **الفتوحات المكية**، دار الفكر، بيروت، 1994م، ج1، ص379

(7) الشواف: **ديوان الأساطير**، ج4، ص342

سلمها مقود الثور

أمسكت عشتار بالمقود

وغادرت آخذه معها الثور"[1].

وبعد صراع الثور ذي القرنين، مع جلجامش وأنكيدو فإنهما تمكنا منه، وقدماه قربانا للآلهة:

"انتزعا قلبه

ووضعاه قربانا أمام شمش

ثم ابتعدا متراجعين وسجدا أمام الإله

...

(وأما قرناه)

قدمهما جلجامش قربانا لطقوس مسح

حامية لوجال باندا"[2].

وقد حظي الثور لدى شعوب كثيرة، بالتأليه والتقديس، وتبدى كتجلٍ للقمر، فكني "عن الإله القمري المقة بثور في اليمن، أي الإله ثور، وكان هذا هو اسمه في كتابات المسند، كما أن من ألقابه ثور، بالإضافة إلى أن الثور كان حيوانه المقدس... كما أن قبائل وعشائر بأسرها تسمت باسم ثور"[3]، مما حدا بالنبي الكريم ليقول: "إن الشمس والقمر، ثوران في النار يوم القيامة"[4]، وذلك لأنهما عبدا من دون الله، فصارا كأنهما ثوران عقيران[5]، و"احترام الثور يحتل

---

(1) السابق، ص344

(2) الشواف: **ديوان الأساطير**، ج4، ص347-348

(3) عبد الحكيم: **موسوعة الفلكلور والأساطير العربية**، ص71

(4) الدميري: **حياة الحيوان الكبرى**، ج1، ص592

(5) ينظر: العسقلاني: **فتح الباري**، ج6، ص369

يحتل مكانا مقدسا عند زرادشت، ومما يؤكد ذلك أن الإله آهورمازدا خلق الثور والإنسان في آن واحد"[1]، لذلك جاء في صلاة هايتي: "تصلي لكم روح الثور"[2]، ومنه كان "انبعاث كافة أنـــواع الحيوانات والنباتات التي تعتمد عليها حياة الإنسان"[3]، "وكان الفرس القدماء يعتقـــدون أن روح العالم مقيمة في ثور بدئي، يسكن السماء"[4]، وفي الاكادية لفظة أب، ترادف ثور[5]، ليحمل بذلك بذلك أعلى معاني الاحترام والتقديس.

وقد عبد الحثيون الثور، وصور الإغريق الإله ديونيسوس في شكل ثور[6]، وفيما بـــين النهرين، "قُدس الثور بصفته، رمزا للخصب والجنس، وكان لديهم معبودا باسم ثور السماء"[7]، و"تخلى أبو الآلهة وحاكمها عن وقار صولجانه، وهو حامل الصاعقة، ذات ألسنة النيران الثلاثة في يده، ومن يهتز الكون كله بإشارة من رأسه، وتخفى في صورة ثـــور، واخـــتلط بـــالثيران، وشاركهم خوارقهم، ورعى معهم فوق الحشائش الغضة"[8]، وبهيئته هذه خطف الفتاة أوروبـــا، "وكان الكهنة المصريون يؤكدون بأن روح الإله المصري الرئيس أوزيريس، قد تجسد في جسم ثور، في حين سكنت روح أخته الإلهة إيزيس جسد بقرة، ولهذا لم يكن مستغربا أن احتل الثور مركز الشهرة، وسط الحيوانات المصرية المقدسة، وكان للثور المقدس أسماء عديدة، فبكل بلـــدة كان تتم فيه عبادة الثور، كان لهذا الثور اسم خاص، غير أن أكثر الأسماء شهرة بالنسبة للثـــور المقدس، كان اسم منيفيس، وبشكل خاص أبيس"[9]، وأثّر الثور على المخيلـــة المصـــرية، فـــي قدرته الانتاجية وقواه الإخصابية[10]، وكان "إيل إله السماء، أبو الآلهة والبشر لـــدى المفهـــوم الكنعاني، وهو خالق الكون، بكل ما فيه، وهو رأس النظام الإلهي، رمزه الثـــور، مثـــل آنـــو

([1]) عبد الرحمن، خليل: **أفستا**، ص60

([2]) السابق، ص60

([3]) السابق، ص241

([4]) السواح: **لغز عشتار**، ص74

([5]) الربيعو: **الإسلام وملحمة الخلق والأسطورة**، ص22

([6]) ينظر: فريزر: **أدونيس**، ص112

([7]) نعمة: **ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة**، ص40

([8]) أوفيد: **مسخ الكائنات**، ص69

([9]) ديمتربيف، يوري: **الإنسان والحيوان عبر التاريخ**، ص31

([10]) ينظر: تشرني: **الديانة المصرية القديمة**، ص21

السومري، وزيوس اليوناني"[1]، "وفي الثقافة الهندية، كان الثور تجسيدا لكل من الإلـــه إنـــدارا، والإله شيفا"[2]، وجعلته "الفيدا ركيزة الأرض الأساسية"[3].

لقد "كان الثور حيوانا مقدسا لدى الإنسان القديم، فهو يمثل لديه، رمز الإخصاب والعطاء والفحولة"[4]، و"رمز القوة والقدرة"[5]، و"رمزا لآلهة الذكورة، آلهة الخصب والفداء المتجدد، مثل مثل دموزي/تموز، وبعل، وآتيس، وأدونيس، وأوزوريس"[6].

ومن حيث أن النسر سيد الطيور طرا، فإن "له قوة على الطيران، حتى قيل: إنه يقطـــع من المشرق إلى المغرب في يوم واحد"[7]، وخص بطول العمر حتى قيل: "إنـــه يعمـــر ألـــف سنة"[8]، وفي ذلك قصة لقمان، الذي "طلب من الله أن يعمر طويلا، فأعطاه عمر سبعة أنسر"[9]، أنسر"[9]، "فجعل يأخذ فرخ النسر الذكر، فيجعله في الجبل الذي هو في أصله، فيعيش منها مـــا عاش، فإذا مات، أخذ آخر، فرباه حتى كان آخرها لبدا، وكان أطولها عمرا، فقيل: طال الأبـــد على لبد"[10]، ولقمان "أطول الناس عمرا بعد الخضر"[11]،وقيل: "عاش خمسمائة ســـنة وســـتين سنة، عاش عمر سبعة أنسر"[12]، وقيل: "ثلاثة آلاف وخمسمائة ســـنة"[13]، وللنســـر دور فـــي قصص الصعود إلى السماء، "رمز القداسة واللاتناهي والرفعة والسمو، ولقد اكتسب النسر مـــن خلال قدرته الفائقة على الطيران، والتحليق الدائم في السماء، والوصول إلى الأمـــاكن البعيـــدة،

---

(1) نعمة: **ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة**، ص93-94

(2) السواح: **لغز عشتار**، ص74

(3) السعفي، وحيد: **العجيب والغريب في كتب تفسير القرآن**، ص66

(4) نعمة: **ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة**، ص40

(5) سيرنج: **الرموز**، ص49

(6) الديك، إحسان: **تمثلات الخطاب في الأدب الفلسطيني الحديث**، ص14

(7) القزويني: **عجائب المخلوقات والحيوانات**، ص357

(8) الدميري: **حياة الحيوان الكبرى**، ص53

(9) علي، جواد: **المفصل في تاريخ العرب**، ج1، ص315

(10) السجستاني، أبو حاتم سهل بن محمد: **كتاب المعمرين من العرب وطرف من أخبارهم وما قالوه في منتهى أعمارهم**، ط1، مطبعة السعادة، مصر، 1905م، ص4

(11) السابق، ص3

(12) السابق، ص3

(13) السابق، ص3

بعضا من سمات هذا العالم، ومظاهر قداسته"[1]، وهذا نمرود خصيم النبي إبراهيم، يتخذ النسر وسيلة للطيران نحو السماء؛ لرؤية رب إبراهيم، حيث "عمد إلى أربعة أفراخ من النسور، فعلفها اللحم والخبز، ورباها حتى شبت واستفحلت، ثم قعد في تابوت، ومعه غلامه، وقد حمل قوسه ونشابه، وجعل لذلك التابوت بابا من أعلاه، وبابا من أسفله، ثم ربط التابوت بأرجل النسور، وعلق اللحم على عصا فوق التابوت، ثم خلى عن النسور، فطارت، وصعدت طمعا في اللحم، حتى أبعدت في الهواء، فقال النمرود لفتاه: افتح الباب الأعلى، وانظر إلى السماء، هل قربنا منها؟ ففتح الباب ونظر، فإذا السماء على هيئتها، ثم قال: افتح الباب الأسفل، فانظر إلى الأرض، كيف تراها؟ ففتح فقال: أرى الأرض مثل اللحية البيضاء، والجبال كالدخان، وطارت النسور، وارتفعت حتى حالت الريح بينها وبين الطيران، فقال لغلامه: افتح البابين، ففتح الأعلى، فإذا السماء كهيئتها، وفتح الأسفل، فإذا الأرض سوداء مظلمة، ونودي أيها الطاغي الباغي، أين تريد؟... فأمر غلامه فرمى بسهم، فعاد إليه السهم متلطخا بالدم، فقال: كفيت شغل إله السماء، واختلفوا في ذلك السهم، من أي شيء تلطخ، فقال عكرمة: من سمكة، في بحر معلق في الهواء بين السماء والأرض، قربت نفسها لله تعالى... ثم أمر النمرود غلامه أن يصوب العصا، وينكس اللحم، ففعل ذلك، فهبطت النسور بالتابوت"[2]، وفكرة الطيران بوساطة النسر فكرة أسطورية قديمة، ظهرت مع صعود إيتانا إلى السماء، "لجلب نبتة الإخصاب، التي تتعهدها هناك عشتار بالرعاية والسقاية"،[3]، ويكتسب النسر بذلك، دلالة على السمو والتعالي:

"عمد إلى مساعدته خلال سبعة أشهر

قام بتغذيته

وفي الشهر الثامن أخرجه من الحفرة

كان النسر قد تلقى غذاءه

---

(1) الديك، إحسان: **أسطورة النسر والبحث عن الخلود في الشعر الجاهلي**، دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، م37، ع2، 2010م، ص 363

(2) الثعلبي: **عرائس المجالس**، ص96

(3) السواح: **الأسطورة والمعنى**، ص 53

وكان صوته كمثل أسد يزأر

...

قال النسر لإيتانا

يا صديقي رائعة هي المناطق السماوية

تعال لكي أحملك نحو سماء آنو

ضع صدرك على صدري

على الطرف السفلي من جناحي ضع يدك

وعلى الجهة العلوية من جناحي ضع ذراعك

وضع إيتانا صدره على صدر النسر

ووضع يده على الطرف السفلي من جناحه

ووضع ذراعه على الجهة العلوية من جناحه

وبقوةٍ سند ثقله عليه

وعندما أصعده إلى فرسخ مضاعف

قال النسر لإيتانا

انظر يا صديقي، قل لي: كيف ترى البلاد؟

...

لم تعد البلاد سوى جبل

وصار البحر كمياه نهر

وعندما أصعده إلى مسافة فرسخين مضاعفين

قال النسر لإيتانا:

انظر يا صديقي، وقل لي: كيف ترى البلاد؟

لم تعد البلاد سوى هضبة

...

بعد أن تم صعودهما إلى سماوات آنو

مرا ببوابة آنو وإنليل وإيا

عند ذلك، النسر وإيتانا سجدا معا

...

هكذا أجاب النسر إيتانا:

أريد حملك إلى علو أكبر في السماء

لا يوجد طير آخر يضاهي النسر"[1].

وتتواصل حالة الصعود ثم يعقبها الهبوط، وهذه الطريقة للصعود الى السماء بوساطة النسور، تتردد في حيلة أحيقار الأشوري عندما ذهب لمقابلة الفرعون في مصر[2].

وفي عادة أكل النسر للحية، معنى اكتساب قوى "تتعلق بالإخصاب، لأن الحية رمز للخصوبة"[3]:

"تصور النسر في قلبه أفكار شريرة

وعندما أضمر الشر في قلبه

قرر التهام صغار حليفه(أي الحية)

فتح النسر فمه قائلا لصغاره:

([1]) الشواف: **ديوان الأساطير**، ج2، ص501-504

([2]) ينظر: السابق، ج3، ص396

([3]) السواح: **الأسطورة والمعنى**، ص56

أنا سآكل فراخ الحية

ولكي أنجو من غضب الحية

سوف أصعد إلى السماوات وأمكث فيها

ولن أنزل إلا لأحط على رؤوس

الأشجار لآكل الثمار"[1].

وكان النسر "من الآلهة المعبودة عند كثير من الساميين، وقد عبد خاصة في جزيرة العرب"[2]، حيث "وجدت أصنام على صورة النسر، منحوتة على الصخور، خاصة في أعالي الحجاز"[3]، "واتخذت حمير نسرا"[4]، وكان بموضع من أرض سبأ، يقال له: بلخع، تعبده حمير، ومن والاها"[5]، قال تعالى: "وقالوا لا تذرنّ آلهتكم ولا تذرنّ ودّا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا"[6]، و"لقد أطلق على أهل سبأ بعامة، أهل النسور، ويبدو أنه كان لهم مذهب ديني شبه مميز، نسبة إلى عبادة النسر أو النسور، وسمي معه أيضا أحد رموز السنة السبئية المتأخرة، ذا النسور"[7]، ودلالته على الزمن تأتي من ارتباطه، أو توحده بالقمر في السماء[8].

والنسر كثرا ما يقترن بتصويرات الآلهة، فقد وجد في تل العبيد نصب، يعود إلى الألف الثالثة قبل الميلاد، يبدو "على شكل لبوة بجناحي وجسد نسر، تثبت مخالبها على ظهري أيليْن"[9]، وكان الإله زفس، يتخذ هيئة النسر[10]، ليدل على علامة الخير والمسرة[11]، وحمل

([1]) الشواف: **ديوان الأساطير**، ج2، ص494

([2]) علي: **المفصل في تاريخ العرب**، ج6، ص264

([3]) السابق، ص264

([4]) الكلبي: **كتاب الأصنام**، ص11

([5]) السابق، ص58

([6]) سورة نوح، الآية:23

([7]) عبد الحكيم: **موسوعة الفلكلور والأساطير العربية**، ص670

([8]) ينظر: السابق، ص670

([9]) الماجدي: **المعتقدات الأمورية**، ص42

([10]) ينظر: غيربر: **أساطير الإغريق والرومان**، ص20

([11]) ينظر: السابق، ص269

صواعق جوبيتر على جناحيه[1]، ولكونه دائما في الأعالي، فله صلة وثيقة "بالماء إكسير الحياة، الحياة، فهو يشارك الإله بعل في علاقته بالرعود والعواصف والأمطار"[2]، كما كانت الآلهة تطير في صورة النسر أيضا[3]، وكان هو "الرمز الحيواني المقدس للإلهة نخبت"[4]، ويعتبر الشامان(أي الانسان الروحاني، صانع الكرامات، كالطيران في الجو)، الذي هو في جوهره آلهة محدودة القدرة، جاء من تناسل النسر مع امرأة، فالشامان الأول "مخلوق من قبل الكائن الأعلى على شكل نسر"[5]، وآهورامازدا يرشد زرادشت ليتعوذ من تعويذات الأعداء اللدودين، بمسحة من ريشة فاراكن أي النسر، وهو بذلك يمنحه الخير والقوة والعظمة[6]، وكان النسر "شعارا للملك عامة"[7]، "وما يزال إلى يومنا هذا في كثير من الدول، وعند معظم الشعوب"[8].

وكما ظهر صراع النسر مع الحية، فان صراعا كامنا بين الأسد والثور لا يخفى، واجتماعهما معها لحمل عرش الله، يدل على استقامة الحياة، ويرمز "للتناوب الذي ينسق نظام العالم"[9]، ويظهر القوى الكونية المتصارعة، في ديمومة الحياة، والمتناقضة في صناعة الوجود.

الوجود.

يتضح مما سبق أن الإنسان القديم، جعل من الثور والنسر والأسد، "موضوعات لإعلاء ديني، من نوع خاص، لا في عالمهم الطبيعي الذي ينتمي إليه، بل من الهيكل الديني، الذي جعل

([1]) ينظر: أوفيد: **مسخ الكائنات**، ص219

([2]) الديك، إحسان: **أسطورة النسر والبحث عن الخلود في الشعر الجاهلي**، دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، م37، ع2، 2010م، ص365

([3]) ينظر: غيربر: **أساطير الإغريق والرومان**، ص280، ص282

([4]) تشرني: **الديانة المصرية القديمة**، ص18

([5]) إلياد: **تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية**، ج3، ص21

([6]) ينظر: عبد الرحمن، **أفستا**، ص530

([7]) عجينة: **موسوعة أساطير العرب**، ج1، ص323

([8]) الديك، إحسان: **أسطورة النسر والبحث عن الخلود في الشعر الجاهلي**، دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، م37، ع2، 2010م، ص360

([9]) سيرنج: **الرموز**، ص51

من صورهم ظهورات لقوة ماورائية، وحولها إلى موطن خيال، تشف عن النفســية الجمعيــة، لثقافة ما زالت تتوسل بصورة الحيوان، لكي تعقد صلة مع عالم اللاهوت"[1].

العدد سبعة

نلاحظ تميّزا خاصا للعدد سبعة في الاستخدام الديني، بشكل مفرد أو مضاعف، ويشــيع دون غيره من الأعداد، ويحضر في القرآن، وفي الأحاديث النبوية، بوفرة لافتة، سأتناول فــي هذا الموضوع العدد سبعة دون مضاعفاته، ولا تطبيقاته[2]، ولا إحصاء وروده، وسأرصد بعضا بعضا من تمثلاته في ثقافتنا الدينية في القرآن والحديث، ثم أزلف إلى الأساطير، فأكشف عــن حضور هذا العدد وقدسيته.

لا شك أن اختيار العدد سبعة دون غيره؛ ليعبّر عن أفعال الله في التخليق، أو في تكرار بعض العبادات والأدعية والممارسات، يدل على حالة خاصة، غير عادية لهذا العدد، حتى طفق البعض يحفه بالأسرار، والغرائب والعجائب، ويكفي أن تضع العدد سبعة، على محرك البحــث الإلكتروني، حتى تنهال عليك اعجازاته الثقافية.

إن السماوات سبع، والأرض كذلك، قال تعالى: "الله الذي خلق ســبع ســماوات ومــن الأرض مثلهن"[3]، فكما أن السماوات سبع، كذلك الأرض سبع، و"ثبت في الصحيحين: من ظلم قيد شبر من الأرض، طوقه من سبع أرضين، وفي صحيح البخاري: خســف بــه إلــى ســبع أرضين"[4]، وفي الحديث: "ما السماوات السبع، وما فيهن، وما بينهن، والأرضون السبع، ومــا فيهن، وما بينهم، في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة"[5]، وما يكون في أرض هو نظير ما يكون في أخرى، وبذلك تتقابل الأشياء في سباعيات، عن ابن عباس قال: "سبع أرضين، في كل

([1]) السواح: **دين الإنسان**، ص173

([2]) كذكر الكلمات التي تكررت سبع مرات، مثل: إيمان/ بني آدم/... أو الجمل، مثل: سخر الشمس والقمر/ مخلصين لــه الــدين/... وغيــر ذلــك مــن التطبيقــات العديــدة. انظــر: مــدخل مختصــر حــول العــدد ســبعة http://www.yabeyrouth.com/pages/index1019m.htm

([3]) سورة الطلاق، الآية:12

([4]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج4، ص559

([5]) السابق، ص560

أرض نبي كنبيكم، وآدم كآدمكم، ونوح كنوح، وإبراهيم كإبراهيم، وعيسى كعيسى"[1]، والـــذي يحمل هذه الأرضين السبع، هو "حوت عظيم على تيار الماء العظـــيم المحـــيط، وهـــو حامـــل للأرضين السبع"[2]، و"الأرضون كل واحدة أوسع من التي دونها حتى ينتهي الســـفول المطلـــق والمحل الأضيق، إلى المركز في وسط الأرض السابعة"[3]، ويقابل الأرضين السبع، "الأفـــلاك السبعة، كل واحد منها أوسع وأعلى من الذي دونه"[4]، و"الكواكب الســـبعة الســـيارة، يكســـف بعضها بعضا، فأدناها القمر في السماء الدنيا، وهو يكسف ما فوقه، وعطـــارد فـــي الثانيـــة، والزهرة في الثالثة، والشمس في الرابعة، والمريخ في الخامسة، والمشتري في السادسة، وزحل في السابعة"[5].

إن الجنة سبع درجات، وكذلك النار سبع دركات، و"إن أدنى أهل الجنة منزلة، من لـــه السبع درجات، وهو على السادسة وفوقه السابعة"[6]، وإن "أبواب جهنم ســـبعة بعضـــها فـــوق بعض"[7]، "أولها جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية"[8]، قال قال تعالى: "لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم"[9].

وقد قال الرسول الأمين في الفاتحة: "الحمد لله رب العالمين، أم القـــرآن، وأم الكتـــاب، والسبع المثاني، والقرآن العظيم"[10]، قال سبحانه: "ولقد آتيناك ســـبعا مـــن المثـــاني والقـــرآن العظيم"[11]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: "أوتي النبي صلى الله عليه وسلم، سبعا من

([1]) السابق، ص560
([2]) السابق، ص582، ص583
([3]) السابق، ص707
([4]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج4، ص707
([5]) السابق، ص620
([6]) السابق، ص195
([7]) السابق، ج2، ص815
([8]) السابق، 815
([9]) سورة الحجر، الآية: 44
([10]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج1، ص22
([11]) سورة الحجر، الآية: 87

المثاني الطوال"[1]، وقال مجاهد في السبع المثاني: "هي السبع الطوال"[2]، أي السور السبع الطوال، في حين، يرى غيره انها الفاتحة بآياتها السبع[3].

وجعل الله سبحانه، الصيام سبعة أيام، بعد الرجوع إلى الأهل[4]، عندما يتعذر تقديم الهدي في الحج، قال تعالى: "فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدي فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم"[5].

وعندما ضرب الله مثلا، في الإنفاق في سبيل الله، جعل المضاعفة في الأجر، تبدأ من العدد سبعة، إلى سبعمائة[6]، فقال تعالى: "مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء"[7].

وفي رؤيا الفرعون التي عبّرها يوسف عليه السلام، كان العدد سبعة مزدوج الحضور، قال تعالى: "أفتينا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات"[8]، فكان التأويل، أن سيأتيكم "الخصب والمطر سبع سنين متواليات، ففسر البقر بالسنين، بالسنين، لأنها تثير الأرض، التي تستغل منها الثمرات والزروع، وهن السنبلات الخضر... ومهما استغللتم في هذه السنين السبع الخصب، فادّخروه... لتنتفعوا في السبع الشداد، وهن السبع السنين المحل، التي تعقب هذه السبع المتواليات، وهن البقرات العجاف، اللاتي تأكل السمان"[9].

---

(1) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج2، ص823
(2) السابق، ص823
(3) السابق، ص823
(4) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج1، ص352
(5) سورة البقرة، الآية: 196
(6) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج1، ص474
(7) سورة البقرة، الآية: 261
(8) سورة يوسف، الآية:46
(9) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج2، ص708

وتحققت معجزة أصحاب الكهف، وكانوا سبعة، يقول سبحانه: "ويقولون سبعة وثـامنهم كلبهم، قل ربي أعلم بعدتهم، ما يعلمهم إلا قليل"[1]، "قال ابن عباس: أنا من القليل الذي اسـتثنى الله عز وجل، كانوا سبعة، وكذا روى ابن جرير عن عطاء الخراساني، عنه أنه كان يقول: أنا ممن استثنى الله عز وجل، ويقول: عدتهم سبعة"[2].

وعندما أراد الله مدادا لكلماته التي لا تنتهي، جعل سبعة أبحر لها مدادا، قال سـبحانه: "ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمـات الله"[3]، يقول ابن كثير: "وإنما ذكرتِ السبعة على وجه المبالغة"[4]، نافيا ما يزعمه الـبعض، مـن أن المقصود "سبعة أبحر موجودة، محيطة بالعالم"[5].

وأما في الأحاديث النبوية، فالعدد سبعة متوافر بكثرة، فالقرآن الكريم يُقرأ علـى سـبع قراءات، وينزل على سبعة أحرف، قال رسول الله عليه الصلاة والسلام: "إن هذا القرآن أنـزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا ما تيسر منه"[6]، ولمن جدّ في ختم القرآن، فينبغي له أن لا يقل عن سبعة أيام، قال النبي المصطفى لعبد الله بن عمرو: " اقرأ القرآن في شهر، قلت: إني أجد قـوة، حتى قال: فاقرأه في سبع ولا تزد على ذلك"[7].

وإذا أراد العابد أن يكون أقرب ما يكون إلى الله، فعليه بالسجود، وهيئة السجود التام أن يعتمد على سبعة أعظم، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "أمرت أن أسجد على سبعة أعظم، على الجبهة–وأشار بيده على أنفه– واليدين والركبتين وأطراف القدمين"[8].

([1]) سورة الكهف، الآية: 22

([2]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج3، ص164

([3])سورة لقمان، الآية: 27

([4]) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج3، ص715

([5]) السابق، ص715

([6]) العسقلاني: **فتح الباري**، ج9، ص27، رقم الحديث: 4992

([7]) السابق، ص116، رقم الحديث:5054

([8]) السابق، ج2، ص378، رقم الحديث: 812

وفي الحج يحضر العدد سبعة في أكثر من منسك، في الطواف بالكعبة، وفي السعي بين الصفا والمروة، وفي رمي الجمرات، فعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: "قدم النبي صلى الله عليه وسلم، فطاف بالبيت سبعا، وصلى خلف المقام ركعتين، فطاف بين الصفا والمروة سبعا"[1]، "ومن لم يجد هديا فليصم ثلاثة أيام في الحج، وسبعة إذا رجع إلى أهله"[2]، ويكون رمي الجمار بسبع حصيات، عن عبد الله رضي الله عنه: "أنه انتهى إلى الجمرة الكبرى، جعل البيت عن يساره، ومنى عن يمينه، ورمى بسبع، وقال: هكذا رمى الذي أنزلت عليه سورة البقرة"[3]، وعن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يكبر مع كل حصاة، قال: "كان يرمي الجمرة الدنيا بسبع حصيات، يكبر على إثر كل حصاة"[4]، وبذلك تكون سبع تكبيرات أيضا.

والمحظوظ بالإكرام يوم الحساب، من كان أحد السبعة الذين سيظلهم الله بظله، ويدخلهم في كنف رحمته، قال رسول الله: سبعة يظلهم الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله"[5].

وإذا أردتَ سلوك الجادة المستقيمة، التي توصلك لرضوان الله والجنة، فعليك الحذر من مقارفة السبع الموبقات، قال الرسول الكريم: "اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: يا رسول الله، وماهنّ؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات"[6].

ومن أراد أن يتقي السم والسحر، فلا يضره، فليأكل سبع تمرات يوميا، يقول سيد العالمين، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم: "من اصطبح بسبع تمرات عجوة، لم يضره ذلك اليوم سم ولا سحر"[7].

([1]) السابق، ج3، ص640، رقم الحديث: 1645

([2]) السابق، ص687، رقم الحديث: 1691

([3]) العسقلاني: **فتح الباري**، ج3، ص740، رقم الحديث: 1748

([4]) السابق، ص743، رقم الحديث: 1751

([5]) السابق، ج2، ص182، رقم الحديث: 660

([6]) السابق، ج12، ص222، رقم الحديث: 6857

([7]) السابق، ج10، ص303، رقم الحديث: 5779

ولكي تصير النجاسة إلى طهارة، عندما يلغ كلب في الإناء، لا بدّ من سبع مرات غسلا، حتى تتحقق الطهارة، يقول في ذلك الحبيب جلّى الذي سواه: "إذا شرب الكلب في إنـــاء أحـــدكم فليغسله سبعا"[1]، وفي روايات أخرى، أولاهن أو إحداهن بالتراب[2]، بينما في رواية النســـائي: "إذا ولغ الكلب في الإناء، فاغسلوه سبع مرات، وعفروه الثامنة بالتراب"[3].

ويظهر التسبيع كسلوك مندوب إليه، في الأدعية النبوية، وبه تحصل الكفاية المرتجاة في الشفاء، وخرم التسبيع قد يثلم البركة، ويُؤخر المعافاة، فعن سيد ولد عدنان، بعد أن تضع يـــدك على موضع الألم من جسدك: "قل سبع مرات: أعوذ بعزة الله وقدرتـــه مـــن شـــر مـــا أجـــد وأحاذر"[4]، ومثل ذلك، قوله عليه الصلاة والسلام: "من عاد مريضا، لم يحضره أجلـــه، فقـــال عنده سبع مرات: أسأل الله العظيم، رب العرش العظيم، أن يشفيك، إلا عافـــاه الله مـــن ذلـــك المرض"[5].

ولكثافة استخدام العدد سبعة في الثقافة الدينية، انتبه علماء الإسلام، فـــي وقـــت مبكـــر لوروده بشكل غير عادي، ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر، وهب بن منبه[6].

وتكاد سحرية العدد سبعة تسيطر على العدد الأكبر من الناس، فثمة "سبع عجائب فـــي الدنيا، وسبعة ألوان في قوس قزح، وسبع علامات موسيقية في سلم الألحان، ويستمر كل طور قمري سبعة أيام، أي ثمانية وعشرين يوم، أي أربعة أضعاف السبعة، والمثير أن العدد 28، هو

([1]) السابق، ج1، ص364، رقم الحديث: 172

([2]) السابق، ص365-366

([3]) السيوطي، جلال الدين: **سنن النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي**، ط1، دار الفكر، بيـــروت، 1930م، ج1، ص54

([4]) النووي: **رياض الصالحين**، ص401، رقم الحديث: 905

([5]) السابق، ص401، رقم الحديث: 906

([6]) ينظر: الثعلبي: **عرائس المجالس**، ص11. يقول وهب: "كادت الأشياء أن تكون سبعا، فالسماوات سبع، والأرضـــون والجبال سبعة، والبحار سبعة، وعمر الدنيا سبعة آلاف، والأيام سبعة، والكواكب سبعة، وهي السيارة، والطواف بالبيـــت سبعة أشواط، والسعي بين الصفا والمروة سبعة، ورمي الجمار سبعة، وأبواب جهنم سبعة، ودركاتهـــا ســـبعة، وامتحـــان يوسف عليه السلام سبع سنين... وايتاؤه ملك مصر سبع سنين، وكرامة المصطفى صلى الله عليه وسلم ســـبع(أي الســـبع المثاني)... والقرآن سبعة أسباع، وتركيب ابن آدم على سبعة أعضاء، وخلقه من سبعة أشياء... ورزق الإنسان وغـــذاؤه من سبعة أشياء...وأمر بالسجود على سبعة أعضاء"

مجموع الأعداد السبعة الأولى المتوالية:1+2+3+4+5+6+7=28"[1]، مما دعا البعض أن يعتبر "العدد سبعة، يتمتع بفضائل خفية، ويمد الكون بالحياة والحركة، ويـؤثر حتـى فـي الكائنـات السماوية"[2].

كما "يُعدّ رقما ذا مدلول مقدس في جميع الديانات القديمة، سواء كانت وثنية أم ديانـات سماوية، حيث يزيد ذكر الرقم الطلل مطاوعة للزمن، فيظل عالقا بالذاكرة، يقول النابغة:

توهمت آيات لها فعرفتها   لستة أعوام وذا العام سابع

وقوله في موضع آخر:

أسايل عن سعدى وقد مر بعدنا   على عرصات الدهر سبع كوامل"[3].

و"غالبا ما تبقى مسألة السبعة، المطبِّقة لفكرة الإكمال"[4]، تحضر كل مجـال، فأطايـب الشعر الجاهلي كذلك، جُمع في سبع معلقات، سميت "المذهبات، وذلك أنها اختيرت مـن سـائر الشعر، فكتبت في القباطي بماء الذهب، وعلقت على الكعبة"[5]، "وكانت العرب تستقسم بالأزلام في كل أمورها، وهي القداح، ولا يكون لها سفر، ولا مقام، ولا نكاح، ولا معرفة حـال، إلا إذا رجعت إلى القداح، وكانت القداح سبعة"[6]، فيكون بذلك الرقم سبعة محـرك حياتهـا، وباعـث نشاطها، وصانع سلوكها، تستسلم لأمره، كأنه الوحي المقدس.

([1]) كانافاجيو: **معجم الخرافات والمعتقدات الشعبية في أوروبا**، ص138

([2]) السابق، ص138

([3]) عسكر: **أساطير العرب قبل الإسلام**، ص114-115

([4]) سيرنج: **الرموز**، ص462

([5]) السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين: **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**،ط3، دار التراث، القاهرة، ج2، ص480

([6]) اليعقوبي، أحمد: **تاريخ اليعقوبي**، ط1، تحقيق: عبد الأمير مهنا، شركة الأعلمي للمطبوعات، بيـروت، 2010م، ج1، ص312

إن عدد سبعة يحمل دلالة قدسية لدى مختلف الشعوب، نجد ذلك في الحضارة الرافدية والمصرية والكنعانية، كما نجده في المعتقدات الدينية الزرادشتية، واليهودية، والمسيحية، والفيدية، وغيرها.

فكما نالت مجتبيات الشعر الجاهلي المحاسن في سبع، وكانت تلقى الاهتمام والنشيد، كذلك كانت أسطورة التكوين البابلية سبعة فصول، لها طقس خاص، تتلى فيه[1]، وكما كانت الأقداح سبعة، تقرر مصائر العربي قبل الإسلام، كذلك نجد أن آلهة تقرير المصائر لدى البابليين سبعة:

"وبعد أن وزع مردوك عليهم جميعا

مراكز السماء والأرض

أخذ الآلهة العظام وعددهم

خمسون، أماكنهم

ونقلوا قراراتهم إلى آلهة تقرير المصائر

وعددهم سبعة"[2].

وإن كانت المعلقات السبع، أطربت الذائقة العربية بعذوبتها، وجودتها، فكُتبت بماء الذهب، وعُلقت على الكعبة، فإن القيثارات السبع، كُرست للترتيل في بيت الآلهة إريدو، المزين بالفضة واللازورد:

"قال إنليل لآلهة الأنوناكي:

أيها الآلهة الواقفون من حولنا

لقد بنى ابني بيتا، الملك إنكي بنى إريدو

([1]) ينظر: السواح: **الأسطورة والمعنى**، ص144

([2]) الشواف: **ديوان الأساطير**، ج2، ص192

وكجبل رفعها فوق الأرض

وفي مكان طيب أقامها

إيريدو المكان الطاهر الذي لا يدخله أحد

قد بُنيت بفضة وزينت بلازورد

وبيته في عهدة القيثارات السبع، قد كرس للترتيل"[1].

وأثناء تخليق آنو للكون، لقح الأرض فنتج عن ذلك، آلهة سبعة، كانت الأبطال السبعة، متفردة في الخصائص، فلا شبيه لها:

"أما الأبطال السبعة الذين لا مثيل لهم

فكبيرة التباين، هي مميزاتهم الإلهية

طبيعتهم مختلفة، إنهم يمتلئون رهبة

يرتعب من يراهم؛ قاتل هو نفَسُهم

يخافهم البشر، فلا يقتربون منهم

فيا إيشوم أوصد الباب أمامهم

لأن آنو ملك الآلهة عندما لقّح الأرض

ولدت له آلهة سبعة، سماهم السبعة

(وصار لكل منهم أمر، وعطاء، وبذلك تكون الأوامر سبعة، والعطايا أو الخصائص سبع)

وعندما مثلوا أمامه لكي يحدد مصيرهم

نادى الأول وأصدر إليه هذا الأمر:

أينما ذهبت لنشر الغضب كن دون منافس

([1]) السواح: **الأسطورة والمعنى**، ص112

وقال للثاني: احرق كالنار والتهب كالشعلة

وأمر الثالث: اتخذ مظهر الأسد، ولتخر قوى من يراك

وقال للرابع: أمام انشهار سلاحك الهائج

لتتهدم الجبال

وللخامس قال: اعصف كما الرياح وراقب الأفق

وأمر السادس: انحدر من أعلى إلى أسفل ولا

تبقِ على أحد

وحمل السابق سم تنين: اقضِ على كل حياة

قال له

وعندما قرر آنو مصير السبعة

منحهم لإيرا بطل الآلهة: سوف يواكبونك، قال له"[1].

وكانت مدة الإمهال، التي قررها الإله أنكي للبشر سبعة أيام، قبل أن يأتيهم الطوفان، ويتحقق الوعد الإلهي بالعقاب، وإهلاك البشر على الأرض:

"فتح أنكي عند ذلك الساعة المائية وملأها

وعيّرها لتشير إلى حلول الطوفان بعد سبعة أيام"[2].

واستمر هذا الطوفان بعواصفه، ورعوده، ورياحه الغاضبة، وبمياهه المتفجرة والمنهمرة، سبعة أيام حسوما:

"طوال سبعة أيام وسبع ليال

([1]) الشواف: **ديوان الأساطير**، ج4، ص505

([2]) السابق، ج2، ص263

استمرت عاصفات الريح ووابل المطر

والطوفان

(حتى صار الناس كأعجاز النخل الخاوية)

ومثل جذوع حطب هاهم

مكدسون على الشاطئ

ومثل جذوع مجروفة هاهم

مكومون على الضفة"[1]،

في مشهد يذكرنا بعقاب الله لعاد، قال تعالى: "وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية"[2].

وعندما قضت الآلهة لأوتنابشتم النجاة من الطوفان، وأراد الشكر، وتقديم القربان، على جبل نصير، كانت أقداحه أو قدوره سبعة:

"وضعت سبعة قدور وسبعا أخر

جمعت تحتها القصب الحلو وخشب الأرز والآس

كي تشم الآلهة الرائحة

شمت الآلهة الرائحة الزكية

فتجمعت على الأضحية كالذباب"[3].

([1]) السابق، ج2، ص268–269

([2]) سورة الحاقة، الآيتان: 6،7

([3]) السواح: **الأسطورة والمعنى**، ص138

ولمّا طلبت عشتار ثور السماء من أبيها آنو، لينتقم من جلجامش، أخبرها بـــأن عليهـــا إعداد العدة، من أجل سنين الجفاف السبع، التي تعقب الاستجابة لطلبها، في حالة تشبه ما حدث في زمن يوسف عليه السلام، ورؤيا الفرعون:

"فتح آنو فمه

مخاطبا عشتار العظيمة

لو حققت لك مطلبك

لعم الجفاف سنينا سبعا

فهل جمعت قمحا يعيل الناس؟

وهل زرعت علفا يكفي الماشية"[1].

ويبكي جلجامش صديقه إنكيدو، الذي شاركه المخاطر، وقتْل الثور السماوي، بعدما حلّت عليه لعنة الإلهة، فموته ملأ قلبه أسى، وأبكاه بكاء مريرا، امتد سبع ليالٍ:

"أمسكنا ثور السماء وقتلناه

صرعنا خمبابا ساكن غابة الأرز

صديقي الذي أحببته جما ومضى معي عبر المهالك

إنكيدو الذي أحببته جما ومضى معي عبر المهالك

أدركه مصير البشر

ستة أيام وسبع ليال بكيت عليه"[2].

وحينما أرادت إنانا/عشتار أن تأخذ كامل استعداداتها الألوهية كانت ســبع صـــلاحيات، تهبها القدرة والسلطة على الرجل، واعادته من الأموات، لبعث الخصب:

([1]) السواح: **جلجامش**، ص169

([2]) السواح: **جلجامش**، ص206

"تسلحت إنانا بالصلاحيات السبع

أخذتها جميعها كاملة من أجل الذهاب

وضعت المعجر على رأسها تاج السهوب

ثبتت على جبينها خصلة الشعر المغرية

قبضت على مكيال اللازورد

زينت رقبتها بعقد اللازورد

ورتبت بشكل أنيق على عنقها الدرر المخروزة

كما شدت على صدرها ستر النهدين(كي تبدو أشد جاذبية وإغراء للفحول):

تعال تعال أيها الرجل

ولفت جسمها بالبالا الرداء الملكي

وجملت عينيها بالكحل: ليأتِ ليأتِ"[1].

ولكن كان عليها أن تجتاز بوابات العالم السفلي، الذي يجرد داخله من هذه الصلاحيات الجميلة، والرائعة، إنه عالم الموت، الذي يمّحي معه كل ملامح الحياة، وهذه البوابات كانت سبعا، بسبعة مزالج، وهي بعدد أبواب الجحيم السبعة ودركاتها:

"وقالت(أي إيريشكيجال سيدة العالم السفلي) لبيتو رئيس البوابين:

اذهب يا بيتو يا رئيس بوابي العالم السفلي

ولا تنس ما سآمرك به

اسحب مزلاج أبواب العالم السفلي السبعة

افتح بوابات قصر الجانزر

([1]) الشواف: **ديوان الأساطير**، ج4، ص58

الواحدة بعد الأخرى

وبعد أن تلج الأبواب

ليؤتى بها إليّ وجسدها خاضع

ومجرد من ألبسته

مذعنا لأوامر سيدته

سحب بيتو رئيس بوابي العالم السفلي

سحب مزلاج أبواب العالم السفلي السبعة"[1].

وفي هذا العالم الذي يخضع فيه المتوفى إلى المحاكمة، على ما عمل في حياته، ويلزمه لذلك القضاة، وكانوا سبعة:

"أخذت عند ذلك إيريشكيجال المقدسة مكانها على عرشها

والآنونا القضاة السبعة

تلفظوا أمامها بقرارهم:

ألقت على إنانا نظرة: نظرة قاتلة

نطقت ضدها بكلمة: بكلمة غضب

أطلقت ضدها ضرخة: صرخة الهلاك

والمرأة حين عوملت كذلك تحولت إلى جثة

وعُلقت الجثة إلى مسمار"[2].

وعندما يأتي كاكا رسول الإله الأب آنو، يدخل مجتازا الأبواب السبعة أيضا:

"جعل عندئذ كاكا الإلهي يجتاز الباب الأول

([1]) السابق، ص64

([2]) الشواف: **ديوان الأساطير**، ج4، ص66

ثم جعله يجتاز الباب الثاني

جعله يجتاز الباب الثالث

جعله يجتاز الباب الرابع

جعله يجتاز الباب الخامس

جعله يجتاز الباب السادس

جعله يجتاز الباب السابع"[1].

وبعد أخذ ورد، وتدخل الإله إنكي، من أجل إطلاق إنانا من عالم الأموات، تبعث سيدة العالم السفلي حاجبها ومعاونها نامتار، ليحضر إنانا/عشتار، وبنضح ماء الحياة عليها، فتحيا من جديد، ثم تطلقها عبر البوابات السبع، مستردة "رموز الألوهية السبعة"[2]، على أن تقدم بديلا عنها:

"إذهب يا نامتار ومر بفتح باب الايجالجينا(قاعة الاجتماعات في العالم السفلي)

انثر على عتبته أصداف التعويذ

وادع الأنونانكي للجلوس على مقاعدهم الذهبية

ثم انضح ماء الحياة على عشتار وآتني بها"[3].

وبعد الاتفاق على المجيء ببديل عنها، تجتاز إنانا/عشتار الأبواب السبعة، خارجة من العالم السفلي ومتقلدة الصلاحيات السبع، أو ألواح الأقدار السبعة[4]:

"عندما جعلها تجتاز الباب الأول

([1]) السابق، ص150-151

([2]) بريوشينكين: **أسرار الفيزياء الفلكية والميثولوجيا القديمة**، ص54

([3]) الشواف: **ديوان الأساطير**، ج4، ص137

([4]) ينظر: **السواح لغز عشتار**، ص65

أعاد إليها رداء الأبهة الذي كان يغطي جسدها

وعندما جعلها تجتاز الباب الثاني

أعاد إليها أساور معصمها وكاحلها

ولدى اجتيازها الباب الثالث

أعاد حزام الأحجار الدقيقة إلى قطنها

ولدى اجتيازها الباب الرابع

أعاد ستر الثديين إلى صدرها

وعندما جعلها تجتاز الباب الخامس

أعاد إليها عقد اللآلئ

وعندما جعلها تجتاز الباب السادس

أعاد إليها قرطي أذنيها

ولدى اجتيازها الباب السابع

أعاد إليها التاج الكبير على رأسها"(1).

ومع افلاتها من العالم السفلي، اصطحبها سبعة شياطين، أو عفاريت(2)؛ ليحضروا البديل عنها، الذي كان دوموزي:

"سبعة شياطين تبعوا الفتى

سبعة شياطين تبعوا دوموزي

دخل الشيطان الأول الحظيرة

---

(1) الشواف: **ديوان الأساطير**، ج4، ص138

(2) ينظر: السواح: **الأسطورة والمعنى**، ص166

قلب الشيطان الثاني الحليب المبارك

واكتسح الشيطان الرابع الحظيرة

وغطاها بالتراب الشيطان الخامس

وخرب الشيطان السادس الحظيرة

وعندما وصل إلى الحظيرة الشيطان السابع

أيقظ الفتى الجميل

أيقظ دوموزي النائم

أيقظ عريس إنانا النائم قائلا له:

أيها الملك ها نحن أتينا لأخذك انهض واتبعني"[1].

والسحرة في العالم السفلي هم سبعة أيضا، ربما يمثلون العفاريت أو الشياطين التي واكبت إنانا، وقبضوا على دوموزي، ويحتمل أن يكونوا هم الآنونا القضاة السبعة:

"كانوا إذن سبعة، كان هناك سبعة

سبعة سحرة كانوا في الأرالي (أي عالم اللاعودة)

سحرة الأرالي كانوا سبعة، سبعة كانوا"[2].

ولدى السحر والعرافة نجد العدد سبعة يلعب دورا في ممارساتهم[3]، كما نجد عرافي إيران، في القرن الثالث قبل الميلاد، "يحققون نبوءاتهم، على قاعدة تقويم تاريخي أخروي، لـ 70000 سنة، كل ألف منها باعتباره محكوما بكوكب، وهذا ما يفشي التأثير البابلي، السلسلة المعروفة جيدا: 7مذنبات، 7معادن، 7ألوان، الخ... خلال الألف الستة، يتصارع الإله وروح الشر، من أجل السيادة، ويبدو الشر منتصرا، فيرسل الإله، إله الشمس ميترا(=أبولون=هيليوس)،

([1]) الشواف: **ديوان الأساطير**، ج4، ص90

([2]) الشواف: **ديوان الأساطير**، ج4، ص100

([3]) ينظر: شتراوس: **الفكر البري**، ص77

الذي يسود الألف السابعة، وفي نهاية هذا الزمان الأخير، تتوقف قوة المذنبات، ويجــدد العـــالم حريق شامل"[1].

وأما الرياح التي أرسلها مردوخ على تيامات، فتمكن منها، وهزمها، كانت سبعا:

"فأطلق الرياح التي خلق

وهي سبع، لكي يربك تيامات"[2].

وفي الأساطير الكنعانية، يظهر الإله الأعظم "إيل، ساكن السماء السابعة"[3]،ويتلفظ "بقسم كبير –لم يزل معناه الحقيقي غامضا علينا– أقسم بالمجالس السبعة المقدسة"[4]، كما "يُرمز إلى يم بلوياثان الحية المتلوية ذات الرؤوس السبعة"[5]:

"لوياثان الحية المعوجة إن أردت أن تقضي على

الحية المتلوية العاتية أو الملعونة

ذات الرؤوس السبعة..."[6].

وفي مصر القديمة، نجد سبعة آلهة، تدعى السبعة أرواح[7]، وعندما يتمنـــى المتـــوفى الخلاص من الخطايا، يقول: "حطموا كل الخطايا التي بداخلي، كما فعلتم للسبعة أرواح، القائمين بين أتباع ربهم سيبا"[8]، وتظهر الحتحورات سبعة، "وهن أشبه بحوريات، يرعين كل أم أثنـــاء حملها، و عند ولادتها، ويحددن للمولود مستقبله"[9]، وفي وصف أوزيريس نفسه يقــول: "لقــد جئت إلى الوجود من الهيولي، خلقت نفسي في هيئة الإله خيبري، أفرخت في هيئـــة النباتـــات،

([1]) إلياد: **تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية**، ج2، 339

([2]) بريوشينكين: **أسرار الفيزياء الفلكية والميثولوجيا القديمة**، ص58

([3]) السواح: **لغز عشتار**، ص350

([4]) فيروللو: **أساطير بابل وكنعان**، ص94

([5]) فريحة: **ملاحم وأساطير من أوغاريت**، ص50

([6]) فريحة: **ملاحم وأساطير من أوغاريت**، ص158

([7]) ينظر: هرو: **كتاب الموتى الفرعوني**، ص47

([8]) السابق، ص48

([9]) الماجدي: **الدين المصري**، ص102

أخفيت نفسي مثلما السلحفاة، لقد تشكلت من بذور جميع الآلهة، أنا الأمس للأربعة أركان، واليوريات السبع اللواتي جئن إلى الوجود في المشرق، الواحد القهار الذي ينير لكل الشعوب، من جسمه المقدس"[1].

وفي أساطير الخلق الهندية، نجد "أن سبع طبقات سماوية تتدلى فوق الأرض... ويقيم في السماوات الآلهة، والكائنات الأخرى ذات الطبيعة الإلهية... أما تحت الأرض، فتمتد عميقا طبقات باتالا، العالم السفلي... دوائر الجحيم الناراكي السبع"[2]، "وفي الأناشيد الفيدية، تجر سبعة سبعة أحصنة عربة الشمس، وما أن ولد بوذا حتى خطا سبع خطوات، حملته إلى حافة العالم، قائلا: إنني أكمل العالم"[3].

وفي الجاينية، نجد مبدأ الإمكانيات الذي يشار إليه تحت اسم "القاعدة ذات السبعة الأقسام، لأنه يتطلب سبعة أشكال من التأكيدات"[4]، وعندهم العالم الأسفل يحتمل سبع أراضٍ، مرصوفة فوق بعضها، ولكل منها لون مختلف"[5].

أما في الأساطير الإغريقية والرومانية، فيدّعي نيليوس "زورا انتسابه إلى النيل ذي المصبات السبعة"[6]، وقطعت الفتاة صيامها بسبع حبات من الرمان، عندما همت بدخول العالم السفلي لإنقاذ ابنتها، "غير أن الأقدار لم تسمح بذلك؛ لأن الفتاة كانت قد قطعت صيامها، عن حسن نية، وهي تتجول خلال حدائق العالم السفلي، الجميلة التنسيق، إذ قطفت رمانة من غصن شجرة دانٍ، وأخذت منه بعد نزع قشرتها، سبع حبات امتصت عصارتها"[7]، وبفعلتها حالت دون دون عودتها إلى الأرض، وفي التعبير عن مدة الحزن والحداد، بسبب الفاجعة يتحدد بسبعة أيام وسبع ليال، "لم تكتف الحورية بالبكاء، وشد شعرها، وضرب صدرها، والتعبير عن ألمها بشتى

([1]) هرو: **كتاب الموتى الفرعوني**، ص93

([2]) ألبيديل: **سحر الأساطير**، ص109

([3]) سيرنج: **الرموز**، ص463

([4]) إلياد: **تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية**، ج2، ص249

([5]) السابق، ص251

([6]) أوفيد: **مسخ الكائنات**، ص118

([7]) السابق، ص126

الوسائل، وإنما انطلقت خارج قصرها، إلى وديان مملكة لاتيوم، وقد مسها الجنون، وشهدت أياما سبعة، ولياليي سبعا، ساعية لا تطعم طعاما، ولا تذوق نوما، تهيم بـــين الجبـــال"[1]، وإذا شـــاء المضحي تقديم التضحية، يحضر العدد سبعة، إذ "تأمر الأنيادة بأن يضحي لأبولون بسبعة ثيران فتية، وسبع نعجات"[2].

أما في المعتقد الزرادشتي، وبحسب الأفستا الكتاب المقدس، فإن سيدة نظـــام الطقـــوس المقدس، "لياسنا، ذات الفصول السبعة البطولية"[3]، وتقسّم الأرض أو العالم عندهم، إلـــى ســـبع مناطق[4]، و"فرافاشي آميشا سبينتا هو سبعة في العدد، ولكن ذو تفكير واحد، كلام واحد، عمـــل واحد"[5]، والمقصود بفرافاشي المعبر عنه بالعدد سبعة، "هو الروح الحارسة، والحضور الفعال لآهورامازدا، لدى كل كائن بشري... هو الصوت الداخلي، الذي ينبه الروح من الإثم، وتحرسها بإبعادها عن الأخطار الروحية"[6]، ولمّا امتلك زرادشت الحكمة المتسربة إليه، واكتســـب عـــالم أفكار الخير، والخيالات الجميلة، من أورمازد إله النور والخير، احتاج لسبعة أيـــام بلياليهـــا[7]، وفي تعبير الرؤيا التي رآها، قال له أورمازدا: "يا زرادشت سبيتاما، تلك الشجرة التي رأيتهـــا، أنا أورمازد خالقها، وفرخ نبات السبع، الذي رأيتها هو المراحل السبع لوجود الكون"[8].

وإذا استعرضنا الكتاب المقدس للمندائية الصابئة، فإن العدد سبعة، بارز الحضور فـــي دلالاته السرية، فعندما تلج أبواب الأنوار، وتحصل على النقاء والطهر، تكون قد صبغت "فـــي سبعة يرادن معظمات، من تحت عرشها جاريات"[9]، وكان بثاهيل، عند التكوين يلبس، "ســـبعة

([1]) السابق، 302

([2]) سيرج: **الرموز**، ص460

([3]) عبد الرحمن: **أفستا**، ص198

([4]) ينظر: السابق، ص220، ص711

([5]) عبد الرحمن: **أفستا**، ص511

([6]) السابق، ص494

([7]) ينظر السابق، ص731

([8]) السابق، ص732

([9]) **كنزاربا اليمين**، ص102

أثواب بسبعة ألوان، خلعها عنه أبوه، ومن بهاء أبيه ونوره ألبسوه"[1]، والأرض أحيطت بعد التكثيف بسبعة أسوار[2]، وينمو الجنين في أمه، "بسبعة أسرار أبيه وأمه"[3]، وعن كينونة الماء وكيانه، جاء: "أما كينونته فمن الأرض، وأما كيانه فمن السبعة"[4]، وفي محطات البلوى لدنانوخت، تعترضه "سبع نساء واقفات، حرات ولسن بحرات، وسبع عذارى لسن بعذارى، حاسرات الجُنوب، حاسرات الصدور، على رؤوسهن أكاليل الزنى والفجور، يسلبن قلوب البشر، ويحيرن العقل والبصر"[5]، وفي سَير هيبل الى تاروان الطاهرة، يكون قد استعدّ بسباعيات، يقول: "هيأت أكوان سبعة، وثبّت فيها ملائكة سبعة، وأجريت فيها أندرونا ماء سبعة"[6].

وأما في الكتاب المقدس، العهد القديم، فاستخدام العدد سبعة، يأتي بكثافة تفوق غيره من الكتب المقدسة، وسأتناول بعضا من مواطن هذا الاستخدام، ففي حادث الطوفان، تكون الكائنات الداخلة إلى السفينة في سباعيات، و ترد مدة الإمهال سبعة أيام، "من جميع البهائم الطاهرة تأخذ معك سبعة سبعة، ذكرا وأنثى... ومن طيور السماء سبعة سبعة... لأني بعد سبعة أيام أيضا أمطر على الأرض"[7]، وبين كل مرة يطلق نوح طيور الاستكشاف من السفينة، سبعة أيام، "لبث أيضا سبعة أيام أخر، وعاد فأرسل الحمامة من الفلك، فأتت إليه الحمامة عند المساء... فلبث أيضا سبعة أيام أخر"[8]، ويعقوب يسجد سبع مرات عندما التقى بأخيه عيسو، "وأما هو فاجتاز قدامهم، وسجد إلى الأرض سبع مرات، حتى اقترب إلى أخيه"[9]، وفي فرائض السبت والأعياد، لا بدّ من مراعاة العدد سبعة، "ست سنين تزرع أرضك، وتجمع غلتها، وأما في السابعة، فتريحها وتتركها... ستة أيام تعمل عملك، وأما اليوم السابع ففيه تستريح... تحفظ عيد

---

(1) السابق، ص111

(2) ينظر: السابق، ص113

(3) السابق، ص155

(4) السابق، ص152

(5) السابق، ص164

(6) السابق، ص267-268

(7) **تكوين** 7: 2-4

(8) **تكوين** 8: 10-12

(9) **تكوين** 33: 3

الفطير، تأكل فطيرا سبعة أيام كما أمرتك"[1]، وفي"الشهر السابع، عيد المظال، سبعة أيام للرب... سبعة أيام تقربون وقودا للرب"[2]، وفي عيد الفصح، بعد الذبح، "سبعة أيام تأكل عليه فطيرا"[3]، ومن مسّ ميّتا يتنجس سبعة أيام، "من مس ميتا... يكون نجسا سبعة أيام"[4]، ويتنجس ويتنجس من مس حائضا، قبل سبعة ايام، "سبعة أيام تكون في طمثها، وكل من مسها يكون نجسا إلى المساء... وإن اضطجع معها رجل فكان طمثها عليه، يكون نجسا سبعة أيام"[5]، وفي مناسك الكهنة، عند تقديم القرابين والكفارة، ولتحقيق القداسة والتطهير من النجاسات[6]، "يأخذ الكاهن الممسوح من دم الثور ويدخل به إلى خيمة الاجتماع، ويغمس الكاهن إصبعه في الدم، وينضح من الدم سبع مرات، أمام الرب لدى حجاب القدس، ويجعل الكاهن من الدم على قرون مذبح البخور العطر، الذي في خيمة الاجتماع أمام الرب"[7]،ومن أجل التطهير من الأمراض الجلدية المعدية، يفعل الكاهن كذلك، ولكن بالزيت عوضا عن الدم[8]، ومن أجل تحقيق التكفير، التكفير، وتحقيق الطهارة، "من لدن باب خيمة الاجتماع لا تخرجون سبعة أيام، إلى يوم كمال أيام ملئكم، لأنه سبعة أيام يملأ أيديكم... قد أمر الرب أن يُفعل للتكفير عنكم، ولدى باب خيمة الاجتماع تقيمون نهارا وليلا، سبعة أيام"[9]، وعدد السرج في المنارة تكون سبعة، "قدام المنارة تضيء السرج السبعة"[10]، وعندما قدم بلعام برَكته، كانت سبعة مذابح، "ابنِ لي ههنا سبعة مذابح وهيئ لي ههنا سبعة ثيران، وسبعة كباش"[11]، وقدم حزقيا الملك "سبعة ثيران، وسبعة كباش، وسبعة خرفان، وسبعة تيوس مِعزى، ذبيحة خطيّة عن المملكة، وعن المقدس، وعن

([1]) **خروج** 23: 10-15

([2]) **لاويين** 23: 34-36، 41-42

([3]) **تثنية** 16: 3

([4]) **عدد** 19: 11

([5]) **لاويين** 15: 19، 24

([6]) ينظر: **لاويين** 16: 19

([7]) **لاويين** 4: 5-7

([8]) ينظر: **لاويين** 14: 16

([9]) **لاويين** 8: 33-35. وانظر: **حزقيال** 43: 25

([10]) **عدد** 8: 2

([11]) **عدد** 23: 1

يهوذا"[1]، والحكمة تتمثل في العدد سبعة، فتكتمل بعيدة عن الحماقة، "الحكمة بنت بيتها، نحتــت أعمدتها السبعة"[2]، وعندما ينصر الرب شعبه، "يكون نور القمر كنور الشمس، ونور الشــمس يكون سبعة أضعاف، كنور سبعة أيام، في يوم، يجبر الرب كسر شعبه، ويشفي رضّ ضربه"[3].

ضربه"[3].

وأما في العهد الجديد، فبعض النساء اللواتي يخدمن يسوع، كــنّ شــفين مــن الأرواح الشريرة، فمريم المجدليّة، "خرج منها سبعة شياطين"[4]، و تحّية يوحنــا يرســلها إلــى ســبعة كنائس[5]، ويبعث لها التحية من السبعة أرواح أمام عرش الرب، "من السبعة الأرواح التي أمام عرشه"[6]، ويظهر يسوع في رؤيا يوحنا، من "سبع منابر من ذهب، وفي وسط السبع المنــابر شبه ابن الإنسان... ومعه في يده اليمنى سبعة كواكب"[7]، وسر السبعة الكواكب التي رآها على على يمينه، والسبع المنابر الذهبية أن "السبعة الكواكب، هي ملائكة السبع الكنــائس، والمنــابر السبع التي رأيتها، هي السبع الكنائس[8]، وفي السماء الجديدة، والأرض الجديدة، يرى الســبعة الملائكة، الذين معهم السبعة الجامات، المملوّة من السبع الضربات"[9].

([1]) **أخبار الأيام الثاني** 29: 21

([2]) **أمثال** 9: 1

([3]) **إشعياء** 30: 26

([4]) **إنجيل لوقا** 8: 2

([5]) ينظر: **رؤيا يوحنا اللاهوتي** 1: 4

([6]) **رؤيا يوحنا اللاهوتي** 1: 4

([7]) **رؤيا يوحنا اللاهوتي** 1: 12-16

([8]) **رؤيا يوحنا اللاهوتي** 1: 20

([9]) **رؤيا يوحنا اللاهوتي** 21: 9

الخاتمة

بعد قراءة تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، قراءة تمحيصية، استبان لي مدى تسلل الأسطورة الى التفسير، من خلال مسوغات الرواية والأثر، أو الفهم المحكوم للمعارف القديمة، ففيه ما يصدر عن الإسرائيليات، أو فهم الرواة غير المنعزلين عن ثقافة عصرهم، وموروثهم القديم، مما أخضع التراث لكثير من التأثيرات المتنوعة لحضارات عديدة، وثقافات متباينة، ظلت تتدفق عليه لمئات السنين، بأساطيرها وخرافاتها، ومناهج معرفتها، وتسكب فيه قضها وقضيضها، مصبوغا بصبغة الإسلام مرّة، ومكسوا بحلة السند والرواية مرات عدّة.

إن هذه الدراسة خلصت إلى بعض النتائج والتوصيات، وأهمها:

- المعرفة الدينية، معرفة قديمة قدم الإنسان نفسه، والله سبحانه لم يترك قوما بلا نذير، وسنة الله جارية في الأولين كما اللاحقين، وهذه المعرفة الدينية قد امتصتها مسطورات الأوائل، فتشابه أول الوحي مع آخره.

- مركب "أساطير الأولين" الوارد في القرآن الحكيم، جاء على ألسنة المناهضين لدعوة الإسلام، ليثلموا صدق النبي الكريم في ادعاء الوحي السماوي، كونه يُحدّثهم عن البعث والحساب، واليوم الآخر، وفي هذا اتفاق ضمني مع بعض ما تقدمه الأساطير، وفيه افتراق ظاهر، من كون هذا الوحي هو تعليم الله، وليس عن اطلاع النبي الأمين، وتعلُّمه لمكتوبات السابقين، في حين ارتضى القرآن تسمية الحق الإلهي السابق بالصحف الأولى، وزبر الأولين، دون مركب أساطير الأولين، مما يوحي بأن الأساطير ليست وحيا خالصا، بل اعتراها مدخولات الأقوام، ودخن الأهواء، وإن احتفظت ببعض أصول الوحي، ملبوسا بحلل التضخيم، وزيف التغيير، فهي حق متلبس بالأباطيل أو تعاورتها الزيادة والنقصان، ومنه على سبيل التمثيل: البعث والحساب، والجنة والنار.

- حَصْرُ علماء الدين مصطلح الأسطورة بالباطل والكذب والخرافة، ناتج عن التباس التقدير، وقد تبين من خلال الدراسة مدى اتفاق الأساطير، مع حقائق دينية ثابتة، وليست الأساطير

هي الأباطيل دائما، وإنما هذا زعم كفار قريش الذين جعلوا الدعوة إلى الإيمـــان بالبعــث واليوم الآخر محض أساطير، وهو في الواقع، الدين الحق.

- تشابه بعض المفسرين في فهم النص المقدس، بالتوافق مع نماذج معرفية قديمة، جرت في الأساطير؛ إما على سبيل الحقيقة، وإما مجرى الرمز والمجاز، وكأن العقل البشري يعمــل تحت الظروف المتشابهة، بردود متقاربة، ومخرجات متماثلة.

- هذه الدراسة تمكننا من استبيان بعض جوانب الثقافات الدخيلة إلى التصورات الإســلامية، وبعض الإسرائيليات، التي اقتحمت مجال المعرفة التفسيرية، بأقنعة مختلفة.

- أحيانا تجنُّب فهْم النص أو الرواية بطريقة حرفية، مــن شــأنه الابتعــاد عــن المشــابهة الأسطورية، والشطحات الخيالية، وضرورة البحث عن معــانٍ خفيــة، ودلالات مشــبعة بالرمزية، وهذا ديدن العمل البلاغي العظيم، وتزداد الحاجة للمعاني المجازية، عندما تتناول اللغة مستويات أخرى غير عادية، أو ما ورائية.

- المفسر للقرآن الكريم، هو ابن بيئته، يعكس الحياة العقلية لتلك المرحلة، ويُعبّر عن ثقافــة عصره، ويكشف عن تلاقح الثقافات، فتتجلى من خلاله روح المعرفة السائدة في مجتمعــه، والذي لن يخلو من الأساطير، ما دام ينبثق عن معرفــة بشــرية، تظــلّ عــاجزة وغيــر معصومة.

- هذه الدراسة تثير الدهشة، عندما تبرز لنا معارف منذ آلاف السنين، كانت خبيئة في باطن الأرض، وقد اكتشفت حديثا، في حين ما زالت سائرة في الروايات بين الأمم، ومتشظية في معارفها، وكامنة في معتقداتها، وحيّة في المجال الديني المقدس، فلم يأكلها الدهر، والطمر، وتقلب الزمان، حتى ظهرت الألواح المسمارية، وقرئت اللغة الهيروغليفية المصرية، وعثر على كثير من اللقى الأثرية الدالة، فتجلت معها معتقدات القدماء وأساطيرهم، وتبين مــدى الاتفاق والتوافق، مع الروايات السائرة، جيلا بعد جيل.

- ضرورة تحرير الفكر الديني، من بعض الأوهام والخرافات والأساطير، التي استكنت في التفسير، وتحكمت أحيانا بالنص المقدس.

- التقدم العلمي في عصرنا يلحق الضرر بالفكر الخرافي، والترهات الأسطورية، الأمر الذي يستدعي تناولات جديدة للتفسير، تنداح عن المعرفة القبْلية في بعض الجوانب، خاصة والقرآن كتاب الله الصالح لكل زمان ومكان، ومن الإسفاف به، حصره في ثقافة قديمة تعتريها التشوهات المعرفية، المفعمة بالأساطير والخرافات.

- هناك حاجة ماسة لدراسات في هذا المجال، تعمل على تنزيه آي الذكر الحكيم عن الفهم الأسطوري، وتطهيره من الخرافات، وتكشف عوار التفسير، في استقدام الأساطير والخرافات لتفسير آياته العظيمة، خاصة أن التفسير بات في ذهن الكثيرين يحظى بالقداسة، وكأنه داخل النص، وليس خارجه.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

الكتاب المقدس.

ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرام: **الكامل في التاريخ**، تحقيق: خيري سعيد، دار التوفيقية للطباعة، القاهرة، 2004م.

إرمان، أدولف: **ديانة مصر القديمة**، ط1، ترجمة: عبد المنعم أبو بكر وزميله، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1995م.

الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبد الله: **أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار**، ط1، مكتبة الأسدي، 2003م.

الأصفهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله: **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، دار الكتب العلمية، بيروت.

الأصفهاني، علي بن الحسين: **كتاب الأغاني**، ط3، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 2008م.

أطلس الحيوانات،ط1، ترجمة: فادية كنهوش، دار ربيع، سوريا، 2007م.

أفلاطون: **جمهورية أفلاطون**، ترجمة: حنا خباز، دار القلم، بيروت، د.ت.

الألباني، محمد ناصر الدين: **مناسك الحج والعمرة**، ط1، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، 1999م.

ألبيديل، م.ف.:**سحر الأساطير دراسة في الأسطورة.التاريخ.الحياة**،ط1، ترجمة: حسان ميخائيل إسحق، دار علاء الدين، دمشق،2005م.

الألوسي، محمود: **روح المعني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، دار احياء التراث العربي، بيروت.

إلياد، مرسيا: **أسطورة العود الأبدي**،ط1، ترجمة: نهاد خياطة، طلاس، دمشق، 1987م.

إلياد، ميرسيا: **تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية**،ط1، ترجمة: عبد الهادي عباس، دار دمشق، دمشق،1987م.

إلياد، مرسيا: **مظاهر الأسطورة**، ط1، ترجمة: نهاد خياطة، دار كنعان للدراسات والنشر، دمشق، 1991م.

إم هرو، برت: **كتاب الموتى الفرعوني**،ط1، ترجمة: فيليب عطية، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1988م.

أمين، أحمد: **ضحى الإسلام**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 2003م.

أمين، أحمد: **فجر الإسلام**، ط10، دار الكتاب العربي، بيروت، 1969م.

أنيس، إبراهيم، وآخرون: **المعجم الوسيط**، د. ت.

أوفيد، الشاعر: **مسخ الكائنات**، ترجمة: ثروت عكاشة،ط3، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،1992م.

باشنفر، سعيد عبد القادر: **دلائل النبوة الآيات البينات**، ط2، دار الخراز، جدة، 1997م.

البوني، أحمد بن علي: **شمس المعارف الكبرى ولطائف العوارف**، المكتبة الشعبية، بيروت، 1985م.

بيرم، عبد الحسين: **الأمراض المعدية**، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1987م.

البيضاوي، أبو الخير عبد الله بن عمر: **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.

الترمذي، محمد بن علي بن الحسن الحكيم: **كتاب ختم الأولياء،** المطبعة الكاثوليكية، بيــروت، 1965م.

الترمذي، محمد بن عيسى: **سنن الترمذي،** تخريج: صدقي جميل العطار، دار الفكر، بيــروت، 2005م.

تشرني، ياروسلاف: **الديانة المصرية القديمة،** ط1، ترجمة: أحمد قدري، دار الشروق، القاهرة، 1996م.

ابن تيمية، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم: **مقدمــة فــي أصــول التفســير،** تحقيــق: عــدنان زرزور،ط3، دار القرآن الكريم، بيروت، 1979م.

الثعلبي، أبو إسحاق أحمد بن محمد: **قصص الأنبياء المسمى عــرائس المجــالس،** دار الكتــب العلمية، بيروت، 1981م.

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: **البيان والتبيين،** دار إحياء التراث العربي،1968م.

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: **كتاب الحيوان،** ط2، تحقيق: عبد السلام محمــد هــارون، مطبعة مصطفى وأولاده، مصر،1967م.

جان، بوتيرو: **بلاد الرافدين-الكتابة-العقل-الآلهة،** ط1، ترجمة: الأب ألبير أبونا، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1990م.

الجزائري، نعمة الله: **النور المبين في قصص الأنبياء والمرســلين،** ط2، مؤسســة الأعلمــي للمطبوعات، بيروت، 2002م.

الجزيري، عبد الرحمن بن محمد: **كتاب الفقه على المذاهب الأربعة،** ط2، دار الكتب العلميــة، بيروت، 2003م.

جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، قسم الدراسات والبحوث: **الأسطورة توثيق حضــاري،** ط1، دار كيون، دمشق، 2009م.

الجوراني، وداد جاسم: **الرحلة إلى الفردوس والجحيم في أساطير العراق القديم**،ط1، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد،1998م.

الجوزية، ابن قيم أبو عبد الله محمد الدمشقي: **زاد المعاد في هدي خير العباد**، ط1، مكتبة الإيمان، المنصورة، 1999م.

الجيلي، عبد الكريم بن إبراهيم: **الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل**، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م.

الحاجي، محمد عمر: **موسوعة التفسير قبل عهد التدوين**، ط1، دار المكتبي، دمشق، 2007م.

الحسيني، أيمن: **عجائب العلاج بالكريستال والأحجار الكريمة**، ط1، دار الطلائع للنشر والتوزيع، القاهرة، 2007م.

الحضراني، بلقيس إبراهيم: **الملكة بلقيس التاريخ والأسطورة والرمز**، ط1، مطبعة وهدان، القاهرة، 1994م.

الحلبي، علاء: **المدن المفقودة بعد الطوفان**، ط1، دار ومؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 2007م.

الحوت، محمود سليم:**في طريق الميثولوجيا عند العرب**،ط1،مطبعة دار الكتب، بيروت، 1955م.

خان، محمد عبد المعيد: **الأساطير العربية قبل الإسلام**،ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2005م.

الخطيب، محمد: **الدين والأسطورة عند العرب في الجاهلية**، ط1، دار علاء الدين، دمشق، 2004م.

ابن خلدون، عبد الرحمن: **مقدمة ابن خلدون**، دار الفكر، د.ت.

خليل، خليل أحمد: **مضمون الأسطورة في الفكر العربي**،الأسوار للطباعة والنشر،عكا،1973م.

داروين، تشارلز: **أصل الأنواع**، ترجمة: إسماعيل مظهر، مكتبة النهضة، بيروت، د.ت.

الداوودي، محمد بن علي: **طبقات المفسرين**، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

الدميري، كمال الدين محمد بن موسى: **حياة الحيوان الكبرى**، ط1، دار البشائر، دمشق، 2005م.

ديسو، رنيه: **العرب في سوريا قبل الإسلام**، ترجمة: عبد الحميد الدواخلي، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1959م.

الديك، إحسان: **تمثيلات الخطاب في الأدب الفلسطيني الحديث**، دار الجندي للنشر والتوزيع، نابلس، 2016م.

الديك، إحسان: **صدى الأسطورة والآخر في الشعر الجاهلي**، ط1، مجمع القاسمي للغة العربية، باقة الغربية، 2013م.

ديمترييف، يوري: **الإنسان والحيوان عبر التاريخ**،ط1، ترجمة: محمد سليمان عبود، دار النمير، دمشق، 1993م.

ديورانت، ول: **قصة الحضارة**، ترجمة: زكي محمود وزميله، مكتبة الأسرة، القاهرة، 2001م.

الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد: **المعجم المختص بالمحدّثين**، تحقيق: محمد الحبيب الهيلة، ط1، مكتبة الصدّيق، المملكة العربية السعودية، 1988م.

الذهبي، محمد حسين: **التفسير والمفسرون**،ط1، دار الكتب الحديثة، القاهرة، 1961م.

الرازي، فخر الدين محمد: **التفسير الكبير ومفاتح الغيب**، دار الفكر، بيروت، 1993م.

الربيعو، تركي علي: **الإسلام وملحمة الخلق والأسطورة**،ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت،1992م.

الزرقاني، محمد عبد العظيم: **مناهل العرفان في علـــوم القـــرآن**، ط1، دار الكتـــاب العربـــي، بيروت، 1995م.

الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله: **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق: محمد ابـــو الفضـــل ابراهيم، دار التراث، القاهرة، د.ت.

الزغبي، فتحي محمد: **تأثير اليهودية بالأديـــان الوثنيـــة**، ط1، دار البشـــير للثقافـــة والعلـــوم الإسلامية، مصر، 1994م.

زكي، أحمد كمال: **الأساطير**،ط2، دار العودة، بيروت، 1979م.

زكي، أحمد: **في سبيل موسوعة علمي**ة، ط5، دار الشروق، بيروت، 1992م.

س.بريوشينكين: **أسرار الفيزياء الفلكية والميثولوجيـــا القديمـــة**، ترجمـــة: حســـان مخائيـــل اسحق،ط1، دار علاء الدين، دمشق، 2006م.

ساندرز، جين: **الذكاء مع الجنس الآخر**، ط1، مكتبة جرير، الرياض، 2011م.

سباهي، عزيز: **أصول الصابئة المندائيين**،ط1، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، 1996م.

ستيتكيفيتش، ياروسلاف: **العرب والغصن الذهبي**، ط1، ترجمة: سعيد الغانمي، المركز الثقـــافي العربي، بيروت، 2005م.

السجستاني، أبو حاتم سهل بن محمد: **كتاب المعمرين من العرب وطرف من أخبارهم وما قالوه في منتهى أعمارهم**، ط1، مطبعة السعادة، القاهرة، 1905م.

السجستاني، أبو داود سليمان بن الأشعث الأزدي: **سنن أبي داود**، دار الرسالة العالمية، دمشق، 2009م.

سخنيني، عصام: **الإسرائيليات مكونات أسطورية في المعرفة التاريخية العربية**،ط1،المؤسســـة العربية للدراسات والنشر،بيروت، 2004م.

السعفي، وحيد: **العجيب والغريب في كتب تفسير القرآن**، ط1، الأوائل، دمشق، 2006م.

السعفي، وحيد: **القربان في الجاهلية والإسلام**، ط1، منشورات تبر الزمان، تونس، 2007م.

السقا، أحمد حجازي: **انجيل توما**، مكتبة الإيمان بالمنصورة، د.ت.

السقا، احمد حجازي: **تاريخ العرب القديم**،ط1، مكتبة النافذة، مصر،2008م.

السُهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله الخثعمي: **الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام**، دار الكتب العلمية، بيروت،د.ت.

السواح، فراس: **الأسطورة والمعنى**،ط2،دار علاء الدين، دمشق، 2001م.

السواح، فراس: **جلجامش ملحمة الرافدين الخالدة**، ط2، دار علاء الدين، دمشق،2002م.

السواح، فراس: **دين الإنسان**، ط4، دار علاء الدين، دمشق، 2002م.

السواح، فراس: **الرحمن والشيطان**، ط3، دار علاء الدين، دمشق، 2004م.

السواح، فراس: **لغز عشتار**، ط8، دار علاء الدين، دمشق، 2002م.

السواح، فراس: **مدخل إلى نصوص الشرق القديم**، ط1، دار علاء الدين، دمشق، 2006م.

السواح، فراس: **مغامرة العقل الأولى**،ط13، دار علاء الدين، دمشق، 2007م.

سوسة، أحمد: **العرب واليهود في التاريخ**، ط2، العربي للإعلام والنشر والطباعة، دمشق، 1973م.

سيرنج، فيليب: **الرموز في الفن-الأديان-الحياة**، ط1، ترجمة: عبد الهادي عباس، دار دمشق، دمشق، 1992م.

ابن سيرين، محمد: **تفسير الأحلام**، ط2، دار الفجر للتراث، القاهرة، 2004م.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن: **سنن النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي،** ط1، دار الفكر، بيروت، 1930م.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن: **طبقات الحفاظ،** ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983م.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن: المزهر في علوم اللغة **وأنواعها**،ط3، دار التراث، القاهرة، د.ت.

شابيرو، ماكس: **معجم الأساطير**،ط1،ترجمة: حنا عبود، دار علاء الدين، دمشق، 1999م.

شاكر،أحمد:**عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير**،ط2، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة،2005.

الشبلي، بدر الدين ابو عبد الله محمد بن عبد الله: **غرائب وعجائب الجن كما يصورها القرآن والسنة،** مكتبة القرآن، القاهرة، 1982م.

شتراوس، كلود ليفي: **الفكر البري،** ط3، ترجمة: نظير جاهل، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 2007م.

الشرقاوي، حسن عبد الله: **موسوعة أشهر الميكروبات**،ط1، مكتبة الإيمان، المنصورة، 2007م.

شلبي، أحمد: **اليهودية،** ط8، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1988م.

أبو شهبة،محمد بن محمد: **الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير**،ط4، مكتبة السنة،القاهرة،1408هـ.

الشواف، قاسم: **ديوان الأساطير سومر وأكاد وآشور**،ط1، دار الساقي، بيروت،1997م.

الصابوني، محمد علي:**مختصر تفسير ابن كثير**، دار الفكر،بيروت، د.ت.

صبار، خديجة: **المرأة بين الميثولوجيا والحداثة**، أفريقيا الشرق، المغرب، 1999م.

صباغ، عماد: **الأحناف**، ط1، دار الحصاد، دمشق، 1998م.

الصدوق، محمد بن علي: **علل الشرائع**، ط1، دار المرتضى، بيروت، 2006م.

الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد: **المعجم الأوسط**، دار الحرمين للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1995م.

الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد: **المعجم الكبير**، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة.

طربيه،جرجي أنطونيوس: **الوَجدية وأثرها في الأندلس**،ط1،دار الكتاب اللبناني،بيروت،1983م.

طقوش، محمد سهيل: **تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام**، ط1، دار النفائس، بيروت، 1997م.

طهماز، عبد الحميد محمود: **المعجزة والإعجاز في سورة النمل**، ط2، دار القلم، دمشق، 2001م.

الطوفي، سليمان بن عبد القوي: **الإكسير في علم التفسير**، تحقيق: عبد القادر حسين، مكتبة الآدب، القاهرة،1977م.

عباس، محمد: **أفلاطون والأسطورة**، دار التنوير، بيروت، 2008م.

عبد الحكيم، شوقي: **موسوعة الفلكلور والأساطير العربية**، مكتبة مدبولي، القاهرة، د.ت.

عبد الرحمن، خليل: **أفستا، الكتاب المقدس للديانة الزرادشتية**،ط2، روافد للثقافة والفنون، دمشق،2008م.

عبد العزيز، كارم محمود: **أساطير العالم القديم**،ط1، مكتبة النافذة، مصر، 2007م.

عجينة، محمد: **موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالتها**، ط1، دار الفارابي، بيروت، 1994م.

ابن عربي، أبو عبد الله محمد: **الفتوحات المكية**، دار الفكر، بيروت، 1994م.

العسقلاني، ابن حجر: **بلوغ المرام من أدلة الأحكام**، دار احياء الكتب العربية، د.ت.

العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر: **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، دار الجيل، بيروت، 1993م.

العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر: **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1989م.

العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر: **القول المسدد في الذب عن المسند للإمام أحمد**، ط1، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، 1401هـ - 1981م.

عسكر، قصي: **أساطير العرب قبل الإسلام**، ط1، دار معد، دمشق، 2007م.

العظمة، نذير: **المعراج والرمز الصوفي**، دار الباحث للطباعة والتوزيع، بيروت، 1982م.

العقاد، عباس محمود: **إبليس**، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت.

عقيل، محسن: **موسوعة الأحجار الكريمة المصورة**، ط1، دار المحجة البيضاء، بيروت، 2007م.

علان، محمد: **دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين**، ط1، دار الريان للتراث، القاهرة، 1987م.

علي، جواد: **المفصل في تاريخ العرب**، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، 1993م.

ابن العماد، شهاب الدين أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري: ش**ذرات الذهب في أخبار من ذهب**، تحقيق: محمود الأرناؤوط، ط1، دار ابن كثير، بيروت، 1992م.

عودة، أحمد حسين: **ثلاثة عظماء من القرآن الكريم**،ط1، جمعية القـــرآن الكـــريم، بيـــروت، 2013م.

غبرائيل، ميخائيل: **أساطير الأولين**، مطبعة المرسلين اليسوعيين، بيروت، 1894م.

غريمال، بيار: **الميثولوجيا اليونانية**، ط1، ترجمة: هنري زغيب، منشورات عويدات، بيروت، 1982م.

الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد: **إحياء علوم الـــدين**، ط1، دار الكتـــب العلميـــة، بيـــروت، 1998م.

غنمي، سيد سلامة: **التوراة والأناجيل بين التناقض والأســـاطير**، ط1، دار الأحمـــدي للنشـــر، القاهرة، 2000م.

غيربر: **أساطير الإغريق والرومان**، ترجمة: حسني فريز، دائـــرة الثقافـــة والفنـــون، عمـــان، 1976م.

فرويد، سيغموند: **الطوطم والحرام**، ترجمة: جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعـــة والنشـــر، بيروت.

فرويد، سيغموند: **قلق في الحضارة**، ط1، ترجمة: جورج طرابيشي، دار الطليعـــة، بيـــروت، 1977م.

فريحة، أنيس: **ملاحم وأساطير من أوغاريت**، دار النهار للنشر، بيروت، 1980م.

فريزر، جيمس: **أدونيس أو تموز**، ترجمة: جبرا إبـــراهيم جبـــرا، ط2، المؤسســـة العربيـــة للدراسات والنشر، بيروت،1979م.

فريزر، جميس: **الغصن الذهبي**، ترجمة: أحمد أبو زيد، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، مصر، 1971م.

فريزر، جيمس: **الفولكلور في العهد القديم**، ترجمة: نبيل إبراهيم، الهيئة العامة المصرية للكتاب، مصر،1972م.

فريشاور، بول: **الجنس في العالم القديم**،ط1، ترجمة: فائق دحدوح، دار نينوى، سوريا، 1999م.

فلوتن، فان: **السيادة العربية والشيعية والإسرائيليات في عهد بني أمية**، ترجمة: حسن إبراهيم حسن،ط1، مطبعة السعادة، مصر،1934م.

فيروللو، شال: **أساطير بابل وكنعان**، ترجمة: ماجد خيربك، مطبعة الكاتب العربي، دمشق، 1990م.

ابن قاضي شهبة، تقي الدين ابو بكر بن أحمد: **تاريخ ابن قاضي شهبة**، تحقيق: عدنان درويش، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، 1994م.

القرضاوي، يوسف: **العقل والعلم في القرآن الكريم**، ط1، مكتبة وهبة، القاهرة، 1996م.

القرطبي، عبد الله بن أحمد: **التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة**، مكتبة أسامة الإسلامية، القاهرة.

القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد: **الجامع لأحكام القرآن**، مطبعة دار الكتب، القاهرة، 1965م.

القزويني، زكريا بن محمد: **آثار البلاد وأخبار العباد**، دار صادر، بيروت، د.ت.

القزويني، زكريا بن محمد: **عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات**،ط1، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت،2000م.

القمني،سيد: **الأسطورة والتراث**،ط2،سينا للنشر، القاهرة،1993م.

كامبل، جوزيف: **الأساطير والأحلام والدين**، دار الكلمة، دمشق، 2001م.

كامبل، جوزيف: **قوة الأسطورة**،ط1، ترجمة: حسن صقر وزميله، دار الكلمة للنشر والتوزيع، دمشق، 1999م.

كامل، مجدي: **أشهر الأساطير في التاريخ**،ط1، دار الكتاب العربي، دمشق، 2003م.

كانا فاجيو، بيار: **معجم الخرافات والمعتقدات الشعبية في أوروبا**،ط1، ترجمة: أحمد الطبال، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1993م.

ابن كثير، ابو الفداء اسماعيل: **البداية والنهاية**، ط1، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والتوزيع والإعلان، مصر، 1997م.

ابن كثير، ابو الفداء إسماعيل: **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق: حامد أحمد الطاهر، ط2، دار الفجر للتراث، القاهرة، 2010م.

ابن كثير، ابو الفداء اسماعيل: **قصص الأنبياء**، ط1، دار الخير، دمشق، 1992م.

كريستنسن، أرثر: **إيران في عهد الساسانيين**، ترجمة: يحيى الخشاب، دار النهضة العربية، بيروت.

الكلبي، أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب: **كتاب الأصنام**،ط4، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 2000م.

كلشكوف: **الحياة الروحية في بابل**، ط1، ترجمة: عدنان عاكف حموي، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، 1995م.

كنزا ربا: الكتاب المقدس عند الصابئة، د.ت.

كورتل، آرثر: **قاموس أساطير العالم**، ترجمة: سهى الطريحي، دار نينوى، دمشق، 2010م.

اللاحم، سليمان بن إبراهيم: **منهج ابن كثير في التفسير**، ط1، دار المسلم للنشر والتوزيع، الرياض، 1999م.

الماجدي، خزعل: **أديان ومعتقدات ما قبل التاريخ**، ط1، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمّـــان، 1997م.

الماجدي، خزعل: **الآلهة الكنعانية**، ط1، دار أزمنة، عمّان، 1999م.

الماجدي، خزعل: **إنجيل بابل**، ط1، الأهلية للنشر والتوزيع، عمّان، 1998م.

الماجدي، خزعل: **بخور الآلهة**، ط1، الأهلية للنشر والتوزيع، عمّان، 1998م.

الماجدي، خزعل: **الدين المصري**، ط1، درار الشروق للنشر والتوزيع،عمان،1999م.

الماجدي، خزعل: **المعتقدات الأمورية**، ط1، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، 2002م.

محاسنة، محمد حسين وآخرون: **تاريخ مدينة القدس**، ط1، دار حنين للنشر والتوزيع، عمـــان، 2003م.

مخطوطات قمران، حققت بإشراف: أندريه دوبون، ترجمة:موسى ديب الخوري، دار الطليعـــة الجديدة، ط1، دمشق، 1998م.

مسعود، ميخائيل: **الأساطير والمعتقدات العربية قبل الإسلام**، ط1، دار العلم للملايين، بيـــروت، 1994م.

المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين: **مروج الذهب ومعادن الجواهر**،ط1، المكتبة العصرية، بيروت، 2005م.

المسعودي، علي بن الحسين: **التنبيه والأشراف**، دار الصاوي للطبع والنشر والتأليف، القاهرة، 1938م.

معدّي، الحسيني: **الأساطير الإغريقية**، كنوز للنشر والتوزيع، القاهرة، د.ت.

معدي، الحسيني: **أساطير الحب والجمال**، ط1، كنوز للنشر والتوزيع، القاهرة، 2012م.

معدّي، الحسيني: **الأساطير السومرية**، ط1، كنوز للنشر والتوزيع، القاهرة، 2012م.

معدي، الحسيني: **أساطير الشعوب حول الجن والشياطين**، ط1، كنوز للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013م.

المعري، أبو علاء: **رسالة الغفران**، ط9، تحقيق: عائشة عبد الرحمن، دار المعارف، القـــاهرة، 1993م.

المكي، أبو طالب محمد بن علي: **قوت القلوب في معاملة المحبوب**،دار الفكر للطباعة والنشـــر والتوزيع.

موسكاتي، سبتينو: **الحضارات السامية القديمـــة**، ترجمة: يعقوب بكر، دار الراقـــي، بيـــروت، 1986م.

الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد: **مجمع الأمثال**، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004م.

النابلسي، عبد الغني: **تعطير الأنام في تعبير المنام**،ط5، دار الخير، بيروت، 1991م.

ابن النديم: **الفهرست**، دار المعرفة،بيروت.

نعمة، حسن: **ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة**، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1994م.

نعناعة، رمزي: **الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير**، ط1، دار القلم، دمشق، 1970م.

النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف: **رياض الصـــالحين**، تحقيق: عبد الله محمد الـــدرويش، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1996م.

النووي، محيي الدين يحيى بن شرف: **صحيح مسلم بشرح النـــووي**،ط1، الدار الثقافية العربية، بيروت، 1930م.

النويري، شهاب الدين أحمد: **نهاية الأرب في فنون الأدب**، ط1، دار الكتب العلميـــة، بيـــروت، 2004م.

هاشم، محمد يونس: **بين الأساطير الصهيونية والشرائع السماوية**،ط1، دار الكتاب العربي، 2010م.

هاملتون، أديث: **الميثولوجيا**، ط1، ترجمة: حنا عبود، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1990م.

ابن هشام: **السيرة النبوية**، تحقيق: مصطفى السقا وزملائه، المكتبة العلمية، بيروت.

هورنونج، إريك: **ديانة مصر الفرعونية**، ترجمة: محمود ماهرطه وزميله، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1995م.

هووك، صموئيل هنري: **منعطف المخيلة البشرية**، ترجمة:صبحي حديدي، دار الحوار للنشر والتوزيع، سورية، 1983م.

هيرودوت: **تاريخ هيرودوت**، ترجمة: عبد الإله الملاح، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 2001م.

الوردي، علي: **الأحلام بين العلم والعقيدة**، ط2، دار كوفان، لندن، 1994م.

يارشاطر، احسان: **الأساطير الإيرانية القديمة**، ترجمة: محمد صادق نشأت،ط1، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة،1965م.

يحيى، أسامة عدنان: **الآلهة في رؤية الإنسان العراقي القديم**، ط1، أشور بانيبال للكتاب، بغداد، 2015م.

اليعقوبي، أحمد: **تاريخ اليعقوبي**، ط1، تحقيق: عبد الأمير مهنا، شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 2010م.

الدوريات:

الديك، إحسان: ***أسطورة النسر والبحث عن الخلود في الشعر الجاهلي***، **دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية**، م37، ع2، 2010م

المواقع الإلكترونية:

آدوم، جـــــــــــورج: الديانـــــــــــة الفاليـــــــــــة وديانـــــــــــة ميتـــــــــــرا : http://www.maaber.org/issue_march14/mythology1.htm

إسلام ويب، مركز الفتوى: العلة في تحـــريم أكـــل لحـــم الخنزيـــر، رقـــم الفتـــوى: 9791، http://fatwa.islamweb.net/fatwa/index.php?page=showfatwa&Option=FatwaId&Id=9791

أشوري، إيزابيل بنيامين ماما: من هم هؤلاء الذين مســـخهم الـــرب إلـــى قـــردة وخنـــازير، www.kitabat.info/subject.php?id=29299

أوفيد– ويكيبيديا، الموسوعة الحرة، /http://ar.wikipedia.org/wiki

الحلبـــــــــــي، عـــــــــلاء: العـــــــــالم قبـــــــــل الطوفـــــــــان،ج1،ص205، www.alkutubcafe.net/onlineread.html

كلمـــــة دار النشـــــر: كتـــــاب الميثولوجيـــــا المندائيـــــة: خزعـــــل الماجـــــدي، http://almothaqaf.com\index.php\books\17931.html

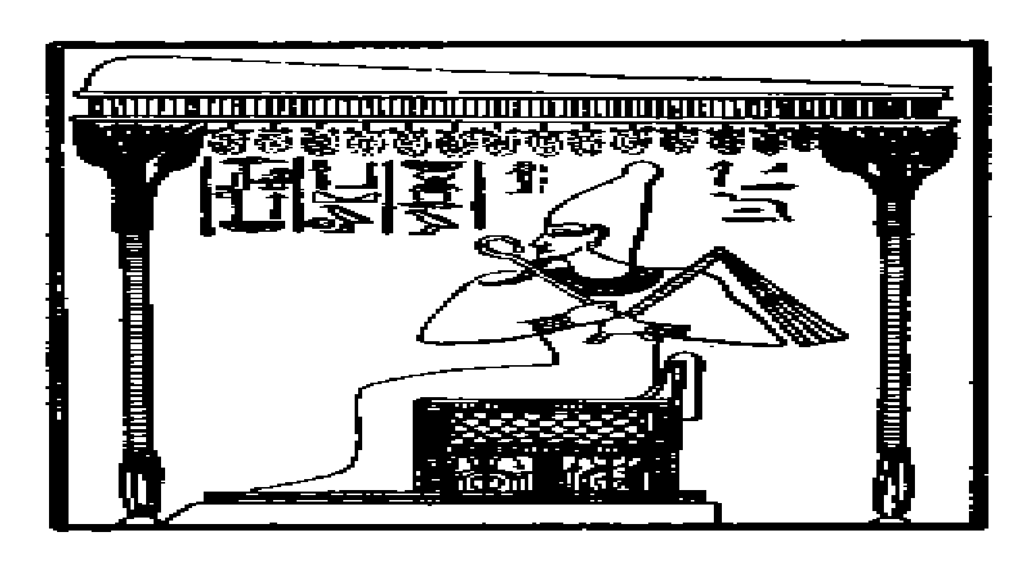
مـــــــــــدخل مختصـــــــــــر حـــــــــــول العـــــــــــدد ســـــــــــبعة، http://www.yabeyrouth.com/pages/index1019m.htm

ناظم،سلوى: الترجمة السبيعينية للعهد القديم بين الواقـــع و الاســـطورة، http:\\ kotob.no-ip.org

ويكيبيديا: القرد، http://www.newworldencyclopedia.org/entry/Ape

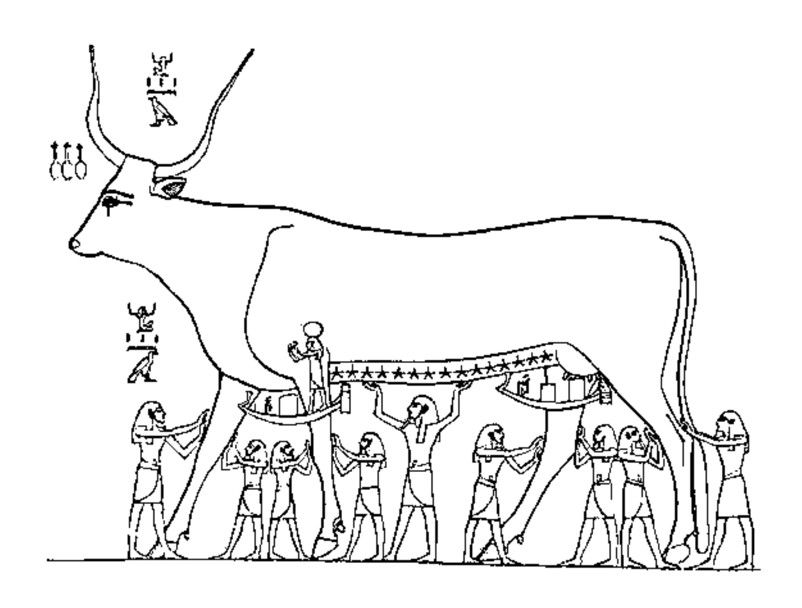
ملحق الصور

شكل (1)



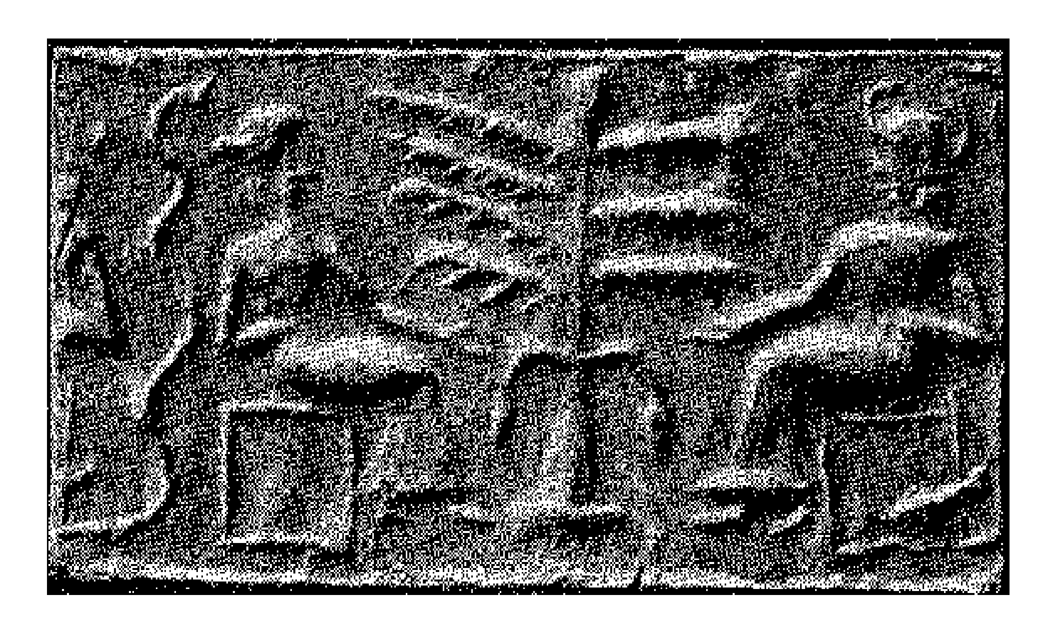
إم هرو، برت: كتاب الموتى الفرعوني، صورة رقم (4) من الصور الأصلية للبردية

شكل (2)



الماجدي، خزعل: الدين المصري، ص121

شكل (3)



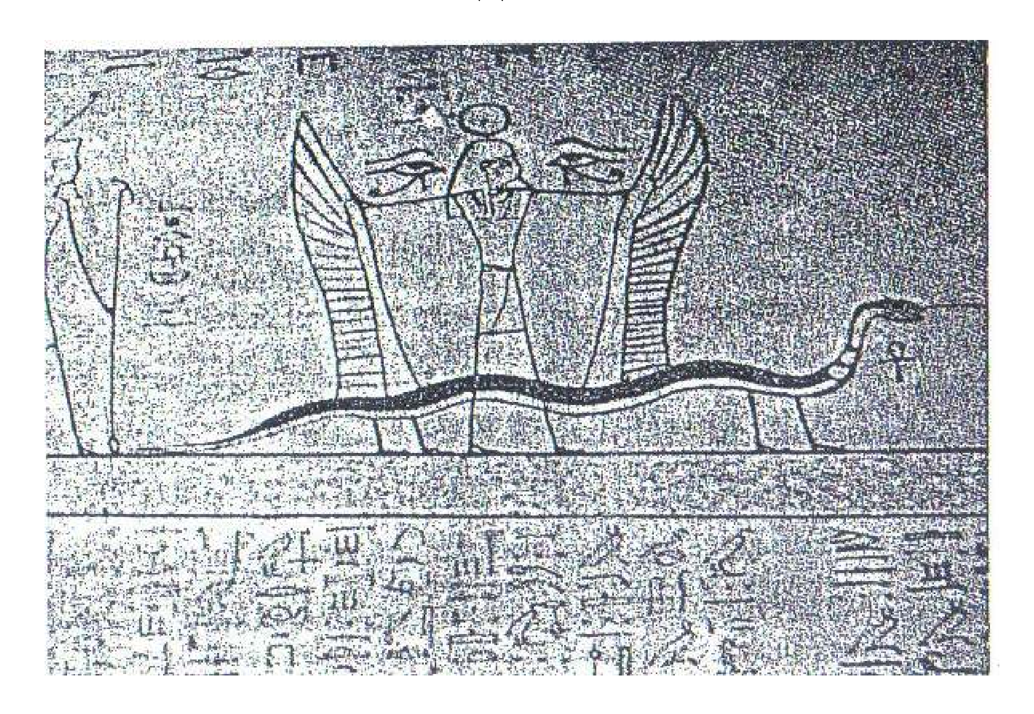
القمني،سيد:الأسطورة والتراث، ص160

شكل (4)



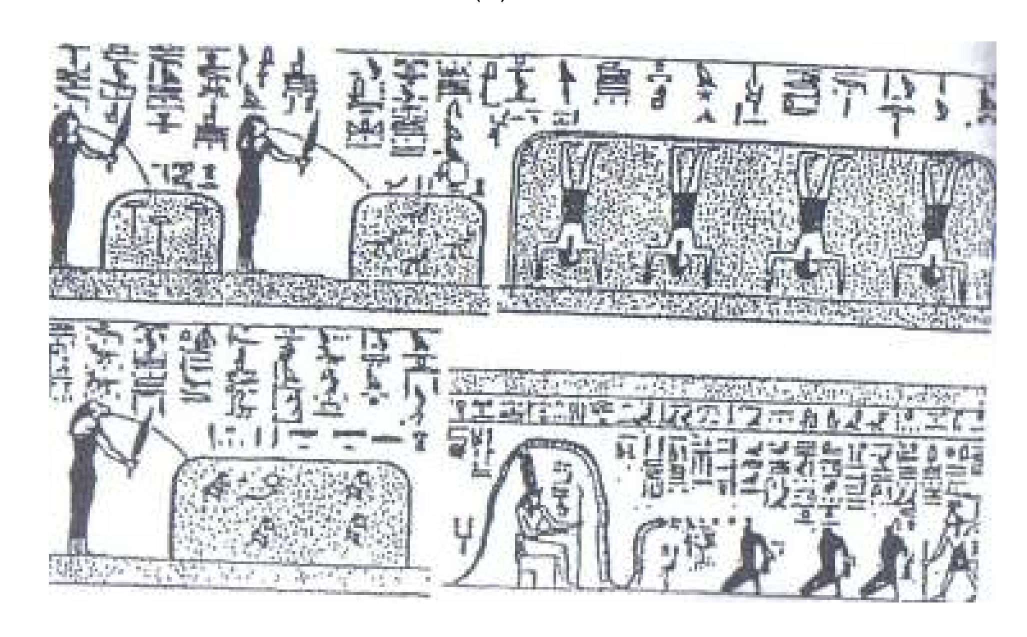
الماجدي، خزعل: إنجيل بابل، ص26

شكل (5)



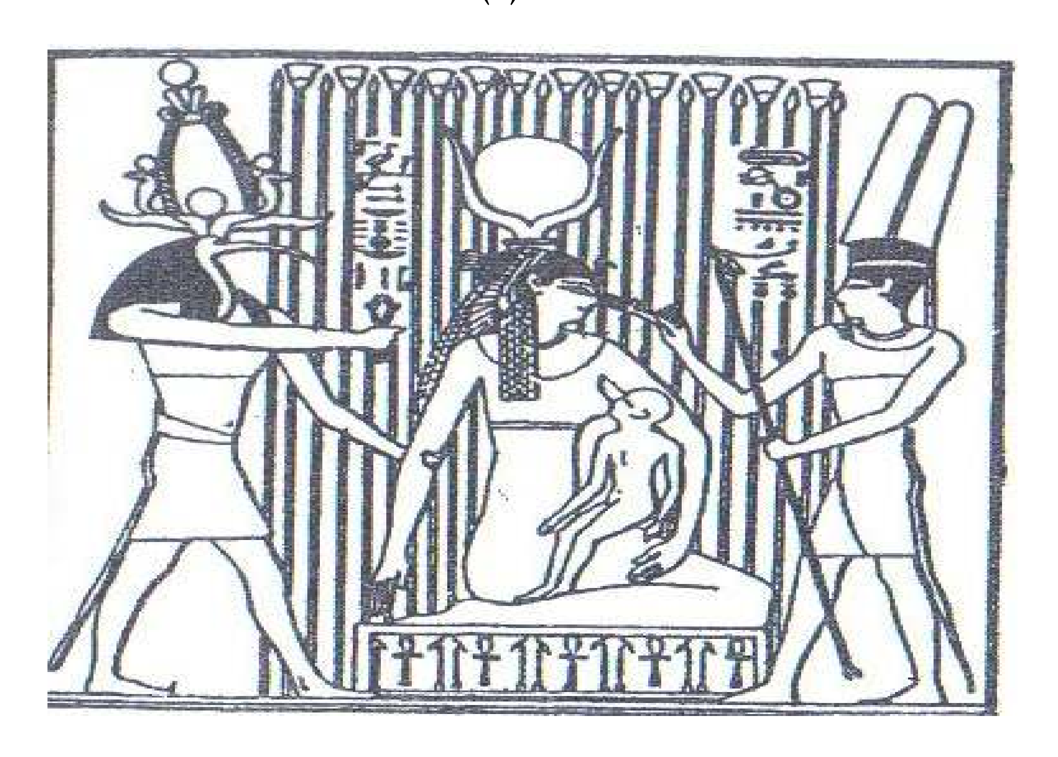
سيرنج، فيليب: الرموز في الفن-الأديان-الحياة، 140

شكل (6)



الماجدي: الدين المصرية، ص217

شكل (7)



السواح، فراس: لغز عشتار، ص71

AN-Najah National University
Faculty of Graduate Studies

The Mythic Legacy in Ibn Katheer's Quranic Exegesis

By
Moayyad Ahmad Saeed khalaf

Supervised by
Prof. Ihsan Al-Deek

This Thesis is Submitted in Partial Fulfillment of the Requirements for the Degree of Master of Arabic Language and Literature, Faculty of Graduate Studies, An-Najah National University, Nablus, Palestine.

2015

The Mythic Legacy in Ibn Katheer's Quranic Exegesis

By

Moayyad Ahmad Saeed khalaf

Supervised by

Prof. Ihsan Al-Deek

Abstract

This study talks about the mythical legacy in Ibn Katheer's Quranic exegesis. The importance of this study is in its power to reveal many mythical aspects that assist in the exegetics of the holy Quran. Also, it shows a great deal of harmony with many legends and myths for the peoples of the ancient world.

This study is arranged in an introduction, five chapters and a conclusion:

In the first chapter, I talk about the exegetics according to its resources, the Israelis that have invaded it and added legends and myths. Besides, I introduce the high position of Ibn katheer's exegetics to many researchers. In addition, I present Ibn katheer's style in the exegetics of the holy Quran and his attitude towards the Israelis. And I introduce a short brief about Ibn katheer's life and the current conditions of his age. Also, I observe many of the ancestors' legends in the holy Quran without rebuttal or slander.

In the second chapter, I present the legends of creation and configuration showing the legends of the universe that started from the darkness and blindness and the first water, then the creation of the earth and heavens and their separation from each other. Next, I talk about the

greatness of the throne and the chair and their relation with Goddesses. In addition, I talk about the heavenly sea surrounding the sky and the earth. I talk about Mount Qaf that surrounds the earth and raises the dome of the sky away from it. I present the whale Noon that carries the earth above the sea stream and the Ocean. Besides, I introduce the preserved slab which comprehends all the destinies and fates till the doomsday. Here I talk about the legends of man creation; Adam and Eve. I present Abel the shepherd and Cain the farmer and their conflict in getting married to the beautiful girl. I present Al khader who drinks from the fountain of life, so he has ever lasting fertility and greenery. I talk about the creation of devil that prevents man from goodness.

I devote the third chapter to the legends of violating of supernaturals. I present the legend of the great flood guided by the goddesses for extermination of human race due to their disobedience. Also, here I talk about Nooh escape due to his obedience. I introduce Birds Alobabil that were supernaturally oriented by God to defend the sacred place by throwing the invaders with special kind of stones. Also, I present Salih's camel that has supernatural specifications from God to support his messenger. That Camel was a cause to the destruction of Thamod's people because they slaughtered it. Also, I present Mose's snake which was supernatural and played a major role to prove goodness and disprove the wrong. Besides, I introduce the kingdom of Suliman focusing on the talking ants with him. Here, I present the talking birds and animals in exegetics and legends.

In chapter four, I introduce the legends of mutant and transformation. This includes the mutant of a woman into Venus, here I mean the woman Ishtar the goddess of love, sex and fertility. Showing her ability in seducing the lovers and her ability in betraying them. Here, I present the Jews metamorphosis to monkeys and pigs due to their disobedience to goddesses. Also, I present other similar samples of this metamorphosis in other legends. In addition, I introduce the mutant of Esaf and na'ela due to their sin of adultery in the holy k'aba during the period of pilgrimage before Islam. Also, I refer to some of pilgrimage ceremonies and their legendary reflections.

In chapter five, I talk about the legends of some symbols, such as the throne, ox, vulture, lion, number seven and reflections related to the ancient legends, so I concentrate on their manifestations in the exegetics revealing their meanings.

In the conclusion, I present the most important results and recommendations of this study.